دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

الرؤية الإلهية للأعياد الكنسية

– ١ –

أعياد الظهور الإلهي

البشارة – الميلاد – الختان – الهروب إلى مصر –
الغطاس – عُرس قانا الجليل

الأب متى المسكين

هذا الكتاب

- أعياد الإبيفانيا (أي الظهور الإلهي) التي تعيّد لها الكنيسة معاً هي: الميلاد، وزيارة المجوس، والختان، والعماد، وعُرس قانا الجليل.
- وهذا الكتاب يتصل بأعياد الظهور الإلهي، وفي مقالاته يعيش القارئ في تلك الوحدة السرية الكائنة بين هذه الأعياد جميعاً، إنها عيد واحد دائم. فمع بقائها أعياداً متعددة ذات تواريخ متعددة، إلاّ أنها ليست منفصلة بأي حال وكأن كل عيد منها هدف في حد ذاته... إنها تدور كلها حول استعلان وحدة بنوّة المسيح الأزلية لله، وبنوّته للإنسان، ابن الله وابن الإنسان معاً...

الثمن ١٠ جنيهات (١٥)

كتاب: أعياد الظهور الإلهي
المؤلف: الأب متى المسكين
الطبعة الأولى: ١٩٧٥
الطبعة الثانية: ١٩٨٠ (مزيدة)
الطبعة الثالثة: ١٩٩٢ (مزيدة)
مطبعة دير القديس أنبا مقار — وادي النطرون
ص. ب ٢٧٨٠ القاهرة
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٧٩٠١ / ٩٢
رقم الإيداع الدولي: ٧ — ٠٣٧ — ٢٤٠ — ٩٧٧

المحتويات

مقدمة

الأعياد في الكنيسة الأولى المبكرة كانت عيداً واحداً متصلاً ، هو عيد الحياة الجديدة ، عيد الخلاص .

و يوم هذا العيد هو الزمن كله ، هو الدهر الجديد بتجسد المسيح في ملء الزمن وبموته وقيامته في اليوم الثالث ـــ الذي هو اليوم الثامن (بعد انتهاء أسبوع الزمن) ـــ الذي صار ممتداً إلى الحياة الأبدية كلها .

فنحن نعيش الآن العيد الدائم ، الدهر الجديد ، الدهر الآتي كامناً في بطن هذا الدهر ومتمخضاً به فيه ، محتفلاً به ـــ كحقيقة حاضرة مفرحة ـــ في الأفخارستيا .

وهكذا فعيد المسيحية في أصله هو عيد الكنيسة . والكنيسة هي احتفال قائم دائم بعيد الملكوت الذي بزغ نوره يوم قيامة المسيح ولن تغرب شمسه أبداً ، هي بشير شاهد لملكوت الله وسط هذا العالم الحاضر ، وجسم حي يعيش الأبدية بالتحويل المستمر لهذا الزمن إلى زمن الأبدية السعيد . فليس يوم مقدس دون يوم ولا شهر دون شهر ، فالزمن بساعاته وأيامه وأسابيعه وشهوره وسنينه حولته الكنيسة وتحوله في الأفخارستيا إلى الدهر الآتي متحققاً بالرجاء .

ولكن إن كان قد صارت أعياد متعددة ذات تواريخ محددة على مدار أيام السنة الكنسية الواحدة (بضرورات سرائرية وعقائدية وتاريخية مختلفة) ، فصار محوران للتعييد لأحداث تدبير الخلاص على شريط الزمن : محور الميلاد (أعياد الظهور الإلهي : الميلاد والختان والغطاس والهروب وعرس قانا الجليل) ، محور الفصح بأعياده حتى يوم الخمسين ، إلا أن في وعي الكنيسة الباطن أن العيد لم يَزَلْ واحداً ، وما هذه الأعياد إلا تركيز ليتورجي في أيام محددة تستعيد فيه الكنيسة بالسر حضور الحدث بنعمته الخلاصية الخاصة من خلال حضور الرب الممجد بنفسه وسط شعبه في سر

الأفخارستيا . فنحن لا نحتفل بالعيد — ولا يمكن أن نحتفل به — إلا بسر الأفخارستيا وفيه .

وهكذا يظل التعييد في الكنيسة دائماً تعييداً بالزمن كله للزمن كله ، وتظل الكنيسة تشهد للدهر الآتي بتحويلها السري الدائب للزمن إلى زمن الخلاص ، و يظل الزمن الجديد مستعلناً في الكنيسة كحركة دائبة نحو ملء ملكوت المسيح ونحو اكتمال سيادته ونصرته في التاريخ والكون .

وهذا الكتاب يتصل بأعياد الظهور الإلهي ، وفي مقالاته يعيش القارىء في تلك الوحدة السرية الكائنة بين هذه الأعياد جميعها ، أنها عيد واحد دائم ، فمع بقائها أعياداً متعددة ذات تواريخ متعددة ، إلا أنها ليست منفصلة بأي حال وكأن كل عيد منها هدف في حد ذاته ، إنها كلها وقفات ليتورجية تعبر فيها الكنيسة عن فرحها السماوي (الذي ليس من هذا العالم) بكل حدث من أحداث حياة عريسها السماوي الحبيب ، لتنال لنفسها وللعالم من خلالها تجديداً لنعمته الخاصة التي هي جانب من جوانب نعمة الحياة الجديدة والخلاص .

ياليت الرب الذي قال أن يشرق نور من ظلمة ، يشرق في قلوبنا لنرى بهاء نور مجد هذه الحياة . آمين .

صوم الميلاد

صوم الميلاد

الصوم في الكنيسة الأرثوذكسية محور كل عبادة فردية أو جماعية ، أما بالنسبة للفرد فالآباء قالوا : « إذا أردت أن تنجح في أية فضيلة روحانية فابدأ جهادك بالصوم ... » ؛ لأن الصوم هو أول وأقوى عمل لتحويل الطاقة الجسدية إلى طاقة روحانية ، لذلك أصبح الوسيلة الفعالة والناجحة لتزكية كل سيرة روحانية . فبقدر ما يعتاد الإنسان الصوم ، بقدر ما تستقر نفسه في علاقتها مع الله وتنكشف أمامه أسرار الحياة ...

ولكن يوجد فرق كبير بين صوم نمارسه مؤقتاً من أجل ظروف خاصة نجتازها و بين صوم نمارسه بدون أسباب ، حباً في الصوم ذاته كوسيلة لسمو الروح وتقرُّبها من الله . فممارسة الصوم لأسباب خاصة لها نتائج طيبة ، ولكن لا ترفع درجة الروح إلى مستوى ثابت في علاقتها مع الله ، أما الصوم حباً في الله فإنه يصير كجناحين يرفعان النفس لتحلق دائماً في جو الله .

أما الصوم بالنسبة للكنيسة كجماعة فهو محاولة ناجحة لجعل الصوم بدون أسباب شخصية ، فالكنيسة تحدد أصواماً عامة لمناسبات عامة يصوم فيها كل الشعب تحت نظام موحد ، حيث يحس كل إنسان أنه يقدم صومه مع صوم الجماعة ليحتفظ بكيانه متحداً معها كثمن ، أو بالحري كعربون لعضويته في الكنيسة الحية العاملة والمنتصرة بآن واحد . أي أن الصوم الجماعي يوحد الأفراد كجسم واحد و يقربهم إلى الله كعروس مزينة لعريسها .

فإذا كان الصوم الفردي الذي يكون بدون أسباب شخصية يستطيع أن يرفع مستوى النفس و يقربها من الله لتستقر في سلامها وفرحها معه ، فالصوم الجماعي الذي تحدده الكنيسة لكل الشعب يستطيع أن يرفع الكنيسة كلها إلى مستوى روحي عالٍ و يقربها من الله و يدخلها في سلام دائم معه ، هذا إذا أقبل الشعب كله على الصوم بهذه النية و بدون تململ ...

والكنيسة في تحديدها لمواسم الصوم ومدته اعتمدت على أمرين أساسيين :
الأول : المناسبة التي أوحت إلينا الصوم في حد ذاتها ،
والثاني : حاجة الكنيسة دائماً و باستمرار إلى الصوم في حد ذاته .

وهذان الأمران هما في حقيقتها دافعان عظيمان ومهمان جداً للصوم يحويان جوهر العبادة كله .

أما المناسبة التي أوحت بالصوم للكنيسة ، فهي دائماً نابعة من سر الخلاص الذي أكمله لنا المسيح ، وهي إما ميلاده أو موته وقيامته ، أو حلول الروح القدس و بدء كرازة الرسل باسمه في العالم كله ، أو تقييم الدور الذي أكملته العذراء القديسة مريم في قبولها سر الخلاص الإلهي الذي كان مخفياً فيها ، والشهادة له حتى يوم الخمسين إلى أن حل الروح القدس واضطلع هو بالشهادة من بعدها إلى نهاية الزمن .

والعلاقة التي تربط كلا من هذه المناسبات بالصوم وتحتمه ، هي علاقة روحية سرية غاية في الأهمية ، إذ يستحيل أن ندخل مثلاً في سر الميلاد الذي هو استعلان الله في الجسد الإنساني ، إذا لم نسمو بأفكارنا وحواسنا الجسدية إلى مستوى إلهي . وقد قلنا سابقاً إن الصوم هو الوسيلة العظمى لتحويل الطاقة الجسدية فكرياً وعاطفياً إلى طاقة روحانية ، إذاً فلا مناص من الصوم إن كنا نريد أن نستعلن روحياً سر الخلاص القائم والمعلن في تجسد ابن الله أي في ميلاد المسيح ...

فالكنيسة حددت صوم الميلاد لتهيىء لكل فرد المستوى الروحي الذي يستطيع من خلاله قبول سر الخلاص القائم والمعلن في التجسد الإلهي ، أي في ميلاد المسيح ، لأنه يستحيل على الإنسان الطبيعي المنغمس في الأكل والشرب والملاهي أن يقبل هذا السر الفائق للطبيعة وغير المعقول حتى لدى الحكماء جداً . لذلك إذا لم يرتفع الإنسان إلى ما فوق الطبيعة بكل كيانه الجسدي والنفسي (بالصوم) حتى يتهيأ العقل للتفكير، مجرد التفكير في إمكانية التجسد وضرورته ، فلن يستطيع أن يدرك هذا السر : « ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة ، ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما

يُحكم فيه روحياً . وأما الروحي فيحكم في كل شيء وهو لا يُحكم فيه من أحد » (١ كو٢ : ١٤—١٥) .

فإذا استطاعت الكنيسة أن ترتفع إلى هذا المستوى الروحي كجسد متجلي بالصوم ومتطهر ، فإنها تواجه الميلاد كعيد حقيقي فيصير لها فرحاً وبهجة ، لأنها لا تكون في مواجهة السر الإلهي وحسب بل تدخل فيه كجسد بلغ إلى مستوى سر التجسد ، أو بحسب التعبير اللاهوتي : « تصير الكنيسة جسداً سرياً » ، أي يحل فيها المسيح تماماً كما حل في الجسد الذي أخذه من العذراء !! الكنيسة هنا لا تعيِّد للميلاد الزمني كحادثة تاريخية فحسب بل تعيِّد للميلاد الحادث في صميمها ، تعيِّد للحلول الإلهي الذي يتجسدها !

وهنا كل فرد في الكنيسة يحس باحساس الكنيسة و ينغمر في لجة عطاياها ، إن هو انتفع بالصوم لنفسه . إذن فالصوم يمهد الفرد لقبول ما للكنيسة ، والكنيسة بصوم كل أفرادها تأخذ ما يمكن أن تعطيه لكل فرد . الصوم هنا سر توحيد ، وسر الأخذ والعطاء يوحد الإمكانيات الفردية لحساب الكنيسة ، و يفرق العطايا الممنوحة للكنيسة لحساب الأفراد .

الكنيسة غنية ، دائماً تفيض بعطاياها بكل سخاء ، في كل وقت ، بسبب استحقاقها المستمر . والكنيسة مستحقة لكافة عطايا المسيح بسبب كونها مختارة وجديرة بالاختيار معاً ، فالمسيح اختار الكنيسة من وسط العالم وفداها بدمه ليعلن فيها غنى لطفه وعمق محبته وصدق مواعيده وأسراره . والكنيسة بدورها أبرزت للعالم بواسطة قديسيها وأتقيائها شهوداً أثبتوا جدارة الكنيسة باختيار المسيح لها ، بسيرتهم وحياتهم ونسكهم وصومهم ومحبتهم التي فاقت حدود الموت ! . وحتى الآن وإلى الأبد لا تزال الكنيسة تأخذ من غنى لطف المسيح وعمق محبته وأسراره ، وكذلك من ميراث قديسيها ومجدهم المذخور في كنزها بآن واحد وتفرق على أولادها .
فإذا فحصنا ما يجري كل يوم في جرن المعمودية وتأملنا كيف تهب الكنيسة من كنز حياتها سر الحياة الجديدة بالمسيح ، أي سر الميلاد لكل من يريد أن يعتمد ، نجد

أنها في نفس الوقت تحتم على الكاهن المعمِّد والإبن الجديد المعمَّد أن يصوما معاً قبل إجراء سر العماد حتى يتم سر الميلاد الجديد ! ... الصوم هنا شرط أساسي للكنيسة والفرد : الكنيسة يمثلها الكاهن والشماس ، والفرد الجديد إما يصوم بنفسه أو إن كان طفلاً يصوم أبواه وإشبينه ، وذلك لبلوغ مستوى السر في فاعليته وعطائه وأخذه . الصوم هنا ملازم لسر الخلاص بصورة حتمية لأنه لا يعلنه فحسب كرؤ يا فكرية بل هو محسوب مدخلاً أساسياً إليه : « المولود من الجسد جسد هو ، والمولود من الروح هو روح » (يو٣ : ٦) . هنا يلزم لمن ير يد أن يولد روحياً أن يرتفع على سلم الصوم ليهيىء الإرادة للإنتقال من حياة حسب الجسد إلى حياة حسب الروح .

ما يتم للفرد في جرن المعمودية داخل الكنيسة هو صياغة عملية مبنية أساساً على ما تم وما يتم للكنيسة باستمرار حينما تصوم لميلاد المسيح وتعيِّد له . فالكنيسة باعتبارها جسد المسيح السري وُلدت بميلاد المسيح ، وهي لا تزال قائمة حية بروحه تشهد لهذا الميلاد وتمارسه بسلطان حينما تعمِّد أولاد الجسد فتحوِّلهم إلى أولاد الروح .

والكنيسة حينما تصوم للميلاد كل سنة فهي تشهد لحياة المسيح التي فيها ، وفي نفس الوقت تجدد قوة لتعطي من هذه الحياة لكل من ير يد أن يعتمد ليأخذ ميلاداً جديداً من ميلادها ، من حياتها ، من المسيح المولود فيها !!

(نوفمبر ١٩٦٩)



المسيح في العهدين

تنشغل الكنيسة على مدى صوم الميلاد بالربط بين العهد القديم والعهد الجديد والتأكيد على النبوات التي تشير إلى تجسد الكلمة .

التاريخ خاضع في مضمونه الكلي لله :

التاريخ الإنساني كما يوضحه العهد القديم إبتداءً من الأصحاح الأول في سفر التكوين هو حركة خلقة ونمو تبدأ من الله لتستقر في الإنسان ، و يظل الله يدبِّرها ويهيمن عليها بدقة بالغة حسب قصدٍ ومشيئةٍ معيَّنة ، بحيث تبدو حركة التاريخ سواء عبر حياة الإنسان الفرد أو عبر حياة جيل أو شعب خاضعة خضوعاً كاملاً متقناً لمشيئة الله وعلمه السابق . فالله هو « ملك الدهور » (١تى ١ : ١٧) ، وكل شيء إنما يجري « بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق » (أع ٢ : ٢٣) ، والله يتحكم في حركة الزمان بالنسبة للإنسان تحكُّماً غاية في الإحكام يبلغ إلى الحتمية « حتَّم بالأوقات المعيَّنة وحدود مساكنهم » (أع١٧ : ٢٦) .

الإنسان إذا اتجه نحو الله يسمو فوق التاريخ ويخضعه :

وحركة الزمان بالرغم من أنها تبدو مجردة في حد ذاتها و بالتالي تظهر كأنها حرة ومنفصلة عن الإنسان ، فالشمس تشرق وتغرب ، شاء الإنسان ذلك أو لم يشأ ، والسنة تعبر بصيفها وشتائها رغماً عن إرادته ، حتى أن الزمان يبدو شامخاً على الإنسان وكأنه صاحب السلطان ؛ ولكن في الحقيقة فإن حركة الزمان بكل عظمتها وجبروتها أخضعها الله للإنسان ليصنع منها تاريخه الروحي الحي الممتد عبر الدهور الذي يسمو في النهاية فوق حركة الزمان نفسها ، ليلتحم بالله في حياة أبدية لا وجود فيها لشمس أو قمر أو صيف أو شتاء (راجع رؤ يا ٢١ : ٢٣) ، وقد أوضح المسيح هذه النهاية بقوله : « السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول » (مت ٢٤ : ٣٥) .

فالزمان في تحركه في الواقع المادي ميت وزائل ، بسمائه وأرضه ، **أما في الواقع الإنساني فهو تاريخ حي دائم** ، تاريخ خلاص ، تاريخ كلمة الله التي لا تعود فارغة قط . هو حركة تبدأ من الله وتنتهي إلى الله ومعها الإنسان المفدي « قبلما صورتك في البطن عرفتك ، وقبلما خرجت من الرحم قدَّستك » (إر ١ : ٥) .

والإنسان إذا تحرَّك وفق مشيئة الله هذه ، أي وفق معرفة الله وتقديسه ، فإنه يرتفع فوق حركة الزمان ويخضعها بالفعل لمشيئة الله محوِّلاً الساعات والأيام والسنين إلى تاريخ خلاص ، إلى زمن إلهي ، إلى حياة أبدية في ملكوت الله : « هوذا الآن وقت مقبول ، هوذا الآن يوم خلاص » (٢ كو ٦ : ٢) ، « بالغداة (في الفجر) أقف أمامك وتراني » (مز ٥ : ٣)...

الإنسان إذا لم يُخضع الزمان ، سقط تحته :

أما الإنسان الذي يتحدى مشيئة الله ويتجاهل معرفته وقداسته ، فإنه يسقط تحت حركة الزمان ويصير جزءاً ميتاً من الزمان الميت . وإذ يَخضع مُجْبراً لمجال التحرك الزماني يصبح بالتالي خادماً لمشيئة الله تحت الإضطرار المطلق دون أن يدري أو يريد ، ودون أن يسعد بهذه المشيئة ، ومثله في ذلك مثل زمهرير الشتاء أو قيظ الصيف ، مهم ومرذول في آن واحد ، يخدم نموات الخليقة وهو غير محبوب لها ، يعطيها تنشيطاً وصلابة وتجدداً وهو ميت في ذاته !!

تدخُّل الله في تاريخ الإنسان أدخل فيه عنصر الحياة :

العهد القديم كله هو تاريخ حي يتحدث بمنتهى الوضوح والجلاء ، فيقص لنا **قصة تنازل الله المستمر واتصاله بالإنسان لرفعه فوق حركة الزمان الميت** ، وذلك بتدخل كلمته صانعاً من تعاقب السنين والأجيال تاريخاً مقدساً حياً ، هو تاريخ الله مع الإنسان ، وتاريخ الإنسان مع الله .

أي أن التوراة كلها هي في آنٍ واحد تاريخ عمل كلمة الله في الإنسان وتاريخ

عمل الإنسان ، وفق كلمة الله أو ضدها . ومن الاثنين استُعلن الله بغاية الوضوح وبكل صفاته ، فكأنما حركة الزمن آلت في العهد القديم إلى استعلان الله بكل صفاته للإنسان وفي الإنسان ، من خلال الخضوع لمشيئة الله أو رفضها ، حيث يصبح رفض الإنسان لمشيئة الله ، عاملاً جديداً لإظهار قدرة الله لإخضاع البشر .

الإنسان أي إنسان جزء من كل سفر :

فحينما نقرأ الأسفار ، نجدها بحسب مظهرها ، تاريخاً زمنياً بحتاً ؛ إنما إذا تعمَّقنا في دوافعها وغايتها ونسبنا أنفسنا إلى ما فيها ، اكتشفنا أنها تهدف إلى استعلان الله الحي في ذاته وفي أنفسنا !! فنرى أنفسنا على حقيقتها ، ثم نبدأ لنرى الله في حقيقته بالنسبة إلينا .

وهنا نواجه السؤال : وما قيمة استعلان الله للإنسان ؟ هنا في الواقع كل سر التوراة والإنجيل !! وخلاصة القيمة الإنسانية والتاريخ كله في مضمونه النهائي ! « **هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك** أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته » (يو ١٧ : ٣) .

لقد أُعطيَ للإنسان أن يقترب إلى الله بواسطة المعرفة ، وذلك في صميم الزمن :

فالله حق وحياة ونور أبدي ، ومعرفة الحق هي هي الاشتراك فيه ، ومعرفة الحياة حياة ، ومعرفة النور استنارة حتمية ...

الإنسان بفقدانه لمعرفة الله يكون قد فقد الحق في ذاته وفقد الحياة الأبدية ، وفقد النور ، ولم يعد يحس إلا بحركة الزمان تطمو فوقه وتتجبر عليه ، إلى أن يسقط تحتها ميتاً .

معرفة الله التي هيَّأ كل سبلها للإنسان هي إنقاذ للإنسان من السقوط تحت سلطان الزمان وحتمياته الوهمية التي تنتهي بالموت ، **ومعرفة الله هي استعلانه المستمر في ذهن الإنسان وقلبه كمعرفة اتصال وحب ، ووجود دائم مفرح متحد بمصدر الوجود ، كضمان للحياة والخلود** ، وذلك ينشيء حتماً ارتقاءً فوق حركة الزمان والحوادث والموت ، ويحس الإنسان أنه أكبر من الزمن وأعلى من الحوادث وأصدق وأبقى

من الموت !! لأنه يحس بالله !!

الكلمة المعقولة والكلمة المتجسدة :

ولكن لكي يتم استعلان الله للإنسان إستعلاناً أقرب إلى الكمال ، اقتضى ذلك أن تدخل كافة الأجيال في اختبار معرفة الله عبر كل العصور حتى يتعرف الإنسان في النهاية على الله كحق كلي فائق على إدراك الفرد وحياة أبدية أوسع من الزمان وحياة الإنسان ، وقد استلزم ذلك أن يمر الإنسان في عهدين مع الله متمايزين تمام التمايز :

الأول والمسمى بالعهد القديم ، ويمثل **مرحلة الإستعلان غير المباشر بالكلمة المعقولة ،**

والثاني والمسمى بالعهد الجديد ، **ويمثل الإستعلان المباشر بالكلمة المتجسدة .**

والفرق بين العهد القديم والعهد الجديد يلخصه القديس بولس الرسول في رسالته إلى العبرانيين بقوله : « **الله بعدما كلم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة ، كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في إبنه** » (عب ١ : ١)

و يتضح من هذا أن العهد القديم كان **استعلان الله فيه استعلاناً غير مباشر ، أي بواسطة كلمة الله الموحاة للأنبياء عبر الزمان (قديماً) ، وعبر الحوادث (بأنواع وطرق كثيرة)** . أما العهد الجديد فهو استعلان الله **استعلاناً ذاتياً مباشراً (في إبنه)** خارجاً عن التاريخ (كلمنا نحن) ، حيث يصبح غير قابل للتقادم وللإنحصار بعد ، تحت التاريخ (في هذه الأيام **الأخيرة**) حيث صار الكلمة جسداً .

أي أن استعلان الله في العهدين تمَّ على مستويين متمايزين متكاملين تماماً :

الأول مستوى **موضوعي تاريخي ، قوامه الكلمة المعقولة الموحى بها** من خلال حركة الزمان والحوادث المتغيرة وتعاقب الأجيال .

والثاني مستوى **واقعي ذاتي ، قوامه كلمة الله المتجسد غير الزمني الأبدي** ، فهو استعلان مباشر ، فائق للزمن من خلال التجسد ، أي ظهور الله في الجسد بلا أدنى تغيير .

التوازي الجوهري العجيب بين العهدين

فيما يختص باستعلان الله فينا وفي ذاته

ولكن الأسلوب التاريخي الذي استخدمه الله في استعلان ذاته في العهد القديم كان يعتمد على ثلاثة مستويات :

المستوى الأول : هو إعطاء مواعيد زمانية محددة للشعب كأمة ، بالنسبة لوجودها وعلاقتها بالأمم الأخرى . كان الله يتممها في وقتها المحدد ، على أيدي قضاة وولاة وملوك ، كان الله يحركهم و يدبر عملهم ، لكي من خلال الحركة والتدبير المتقن يدركوه هو.

المستوى الثاني : هو إعطاء وصايا وتشريعات ومراسيم دينية وطقسية مع ما يلازمها من تقديس خدام ومسح كهنة لتعليم وتقريب الشعب نحو الله ، لكي بواسطة التطهيرات يشعرون به هو.

المستوى الثالث : هو إعطاء نبوات وتوجيهات روحية تختص بمستقبل الشعب من جهة علاقته الدائمة بالله و برسالته تجاه شعوب الأرض ، وذلك على أيدي أنبياء يتكلمون بروح الله ، لكي بالتوبة والتقرُّب إلى الله يعرفوه هو.

ولكن المدهش حقاً هو أن كل مستوى من هذه المستويات الثلاث يظهر في كافة الأسفار بعد الدراسة العميقة والتأمل أنه خطة كاملة واضحة ذات أسلوب منطقي وذات هدف واحد .

فالقضاة والولاة والملوك الذين تعاقبوا في اسرائيل على مدى ألفي عام ، مع تباينهم الأخلاقي والديني وإخفاق الكثير منهم ، نجد أنه كان يجمعهم سلطان إلهي واحد ، وكأنهم فعلاً معيَّنون من الله لتتميم قصد واحد لله سواء في النجاح أو الفشل .

وكذلك اللاويون والكهنة ، مع تباين مراتبهم وأعمالهم وصفاتهم وإخفاق الكثير منهم وفشلهم ، فإنه يجمعهم واجبٌ واحد على مدى كل الزمان كانوا يؤدونه عن الشعب ، و يتقبله الله ، سواء أدوه بأمانة ورضى أو بخيانة وتمرد .

وكذلك أقوال الأنبياء ، وكافة النبوات التي صدرت عن مسئولين وغير مسئولين على مدى العهد القديم كله ، يشهد الكتاب أنها كانت من سياق الروح القدس ، وقد تمت في حينها ، دون أي اعتبار لنجاسة أو قداسة قائلها ، أو أي اعتبار لقبول الشعب لها أو رفضها .

ولكن الأكثر عجباً من هذا ، وهو أن هذه المستويات الثلاث المتركزة في **الملك ، والكاهن ، والنبي** ، التي كانت عماد الأسلوب التاريخي التعليمي الذي استخدمه الله لاستعلان ذاته لشعب إسرائيل على طول المدى ، نجدها مرة أخرى هي بذاتها مترابطة معاً في وحدة فائقة في غايتها ، وإنما متحركة مع الزمن ...

فالمملكة في إسرائيل ، أي طريقة الحكم وأسلوب حياة الملك كان يتوقف عليها ضمان العبادة ، والخدمة الهيكلية ، واستمرار الكهنوت ، وخدمة الله اليومية ، وقيام الكهنة وتأديتهم لوظائفهم كاملة ، مرتبطاً بما ينطقه فم النبي من جهة سلامة وصحة الغاية التي كان يتحرك نحوها إسرائيل كشعب .

هنا تبدو الوحدة الإسرائيلية في شكلها أنها تنظيمية ـــ أي نظام ملوكية ونظام كهنوت ونظام نبوة ، ولكنها في جوهرها عضوية حية ، فالملك والكاهن والنبي ليسوا ممثلين لثلاثة أنظمة ، بل هم في الواقع ثلاثة أعضاء في جسم حيّ يحركه الله و يدبره نحو قصد معين وغاية هامة جداً بالنسبة للعالم كله ، وهو استعلان الله نفسه .

فالمشورة الإلهية ـــ من وراء قيام هذا الجسم الحي (أي شعب يقوده ملك ممسوح من الله ، ويخدمه كاهن معيَّن من الله ، و يلهمه نبي مُساق من الروح القدس) ، **تتركز في رغبة الله لاستعلان ذاته للعالم من خلال هذا الجسم الحيّ المتحرك على طول الزمن وعلى مدى الأجيال** ، فالله كان يُستعلن في الملك من خلال ملوكيته كمدبِّر أعظم ومخلِّص للشعب ، كما كان يُستعلن في الكاهن من خلال خدمته الكهنوتية كمصالح وشافي للشعب ، كما كان يُستعلن في النبي من خلال كلامه ورؤاه كمعزٍّ ومعلم للشعب !!

ولكن لا يزال أمامنا سر مدهش ومكمِّل لهذا أيضاً ، هو أن شعب إسرائيل لم يكن الله يعتبره جسماً منفصلاً عنه ، بل كان يعتبره بمثابة إبنه البكر ، بصفته أول شعب أحبه الله من بين شعوب الأرض ، وبمثابة عبده المحبوب ، بصفته أول شعب عَبَدَ الله حسب ناموس عبادة مقرَّر ، ولكن ليس في شخص ملوكه أو كهنته أو أنبيائه أو شعبه المتمرد بحد ذاتهم ، بل في شخص المسيا ، الذي سيحقق مفهوم الملوكية في معنى الحكم بالحق الإلهي ، وسيحقق الكهنوت في معناه الفدائي الخلاصي ، وسيحقق النبوة في معنى استعلان الله علانية وليس بالرمز ، والذي سيمثلهم كأبناء بالحق أمام الله بصفته الإلهية كابن لله ، وهو في نفس الوقت يبقى حسب الجسد عبد الله كإسرائيلي حقاً كونه « من نسل إبراهيم » ، « إبن داود » حسب الجسد .

وهكذا احتُسب المسيا منذ البدء :

+ **أنه هو الملك الأبدي** ، الذي على صورته قام داود وكافة الملوك الممسوحين من قِبل الله ، والذي إليه ستنتهي الملوكية فتستقر رئاسة مملكة إسرائيل على كتفيه إلى الأبد ، بمستوى الحق الإلهي وليس على مستوى التاريخ ، فلا يكون لكرسيه انقضاء !!

« لأنه يولد لنا ولد ونُعطى إبناً وتكون الرئاسة على كتفه و يُدعى إسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام ، **لنمو رئاسته وللسلام لا نهاية** على كرسي داود ... » (أش ٩ : ٦، ٧)

+ **وأنه هو الكاهن** ، الذي على صورته قام كل كاهن ليخدم أمام الله كوسيط للشعب الذي ينتهي إليه الكهنوت ، فتستقر الوساطة في شخصه كوسيط وحيد للفداء وغفران الخطايا والصلح الأبدي بين الله والناس .

ويكون هو النبي الذي باسمه تنبأ كل نبي وأشار بالروح إلى مجيئه في ملء الزمان ، والذي ستنتهي إليه كل نبوة وكل معرفة وكل علم في هذا الزمان ، حيث يبقى المسيح استعلاناً حياً كاملاً لله ولكل إنسان فلا يحتاج بعد إلى من يتنبأ له « و يبصر كل بشر خلاص الله » (لو ٣ : ٦) .

ولقد أشار العهد الجديد إلى الصلة السرية الكاملة بين إسرائيل كشعب و بين المسيا ــ أي المسيح ــ بحيث أمكن أن يُنسب كل ما لإسرائيل للمسيا بكل إحكام ودقة في قوله عن الرب يسوع المسيح عند عودته من مصر بعد اختفائه هناك مع أمه و يوسف « من مصر دعوت **إبني** » (مت ٢ : ١٥) ، وهو نفس القول الذي قيل لشعب إسرائيل عند خروجه من مصر (راجع سفر الخروج ٤ : ٢٢) ، وكأنما شعب إسرائيل كان يتحرك رمزياً في نطاق أوضاع المسيح الآتي وحياته وصفاته .

بل وتمتد الصفات المتبادلة بين شعب إسرائيل و بين المسيا ، حتى تتداخل في كل شيء للدرجة التي استطاعت فيها النبوات أن تخاطب المسيا في شخص يعقوب المدعو « إسرائيل » ، **فالنبوة تخاطب المسيا بقولها « عبدي يعقوب » و« عبدي إسرائيل »** (اش ٤١ : ٨) ، بحيث يمكن تفسيرها وتطبيقها على المسيا وعلى شعب إسرائيل معاً بدون أي نشاز . وهذا **هو السر العجيب الذي يكمن وراء تسمية وتلقيب المسيح بالإبن والعبد معاً ، وبالملك ، والكاهن ، والنبي ،** كونه إسرائيلياً حقاً ، أو بالحري إسرائيل الحقيقي ، وهو هو إبن الله حقاً[1] .

من هذا يتبين لنا التداخل الحيوي الشديد بين شخصية المسيا وشخصية شعب إسرائيل ، حتى أن كل كلمة صدرت من الله وكل رسالة وكل حركة بالنسبة لملوكه أو كهنته أو أنبيائه ، تمت لشعب إسرائيل ، كانت تعتمد في أعماقها على شخصية المسيا وتتجه في تكميلها نحوه كغاية نهائية بصفته الملك الأبدي والكاهن الوحيد والنبي الناطق بفم نفسه الذي عليه يتوقف وجود إسرائيل وحياته .

إذن فتاريخ شعب إسرائيل بكل حوادث **ملوكه** وكل طقوس **كهنوته** ، وكل أقوال **نبواته هو هو تاريخ المسيا نفسه واستعلانه** ، إنما رمزياً في صورة شعب اختير بكل عناية ومحبة ليمثل الله وسط شعوب الأرض ، و يعلن شخصه ورحمته لبقية الأمم ...

(١) « الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله . لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس » (في ٢ : ٦ ، ٧) .

وحتى مآسي إسرائيل وسبيه وتأديباته المتواصلة على مدى التاريخ لا يمكن إسقاطها من دائرة الأعمال الإيجابية التي استطاع الله بواسطتها أن يمتد بإسرائيل بخطوات ثابتة و يتقدم قليلاً قليلاً ليقترب أكثر فأكثر نحو بقية شعوب الأرض وممالكها ، تمهيداً للإلتحام الذي التحمت به إسرائيل مرغمة مع كافة أمم الأرض في شخص الرب يسوع « المسيا » ، الذي لما أكمل الإلتحام بين الأمم وإسرائيل وصالح الإثنين في نفسه بالصليب ، انتهت رسالة إسرائيل التاريخية !! أو بالحري انتهت رسالة مسيا التاريخ لتبدأ رسالة مسيح الأمم مسيح الحياة الأبدية !!

وهكذا فإن الوحدة الصميمية العضوية التي تجمع بين شخصية إسرائيل وشخصية المسيح تشرح لنا كيف أن جميع الحوادث التاريخية مع جميع التشريعات والطقوس مع جميع التعاليم والنبوات التي سجّلتها أسفار العهد القديم ، بالرغم من كونها تخص بالفعل شعب إسرائيل وهي إسرائيلية حقاً ، إلا أنه لا يمكن تفسيرها أو فهمها أو معرفة غايتها النهائية إلا في شخص المسيح الذي هو غاية إسرائيل وبدايته معاً !

فالمسيح ــ كما قال القديس بولس الرسول ــ هو غاية الناموس الذي أعطاه موسى ، وهو بالتالي غاية الملوكية التي أسسها داود ، وغاية النبوات التي نطقها الأنبياء ، بل هو غاية إسرائيل نفسه ، و بالتالي غاية الإنسان ، لأن « فيه يقوم الكل » !! (كو ١ : ١٧) .

إذن فالعهد القديم يمهّد للمسيح و يصوّره زمنياً وعلى مسرح التاريخ على مستوى الرمز ، فحوادث التاريخ ظلت في أعماقها على مستوى النبوة تشير بإحكام إلى المسيح حتى انتهت عنده . كما ظلت كل أنواع طقوس العبادة والكهنوت تقرّب الروح الإنسانية إلى سر المسيح الحمل الحقيقي ، حتى اصطدمت بدمه المتدفق على الصليب عياناً بياناً . كذلك ظلت النبوات تكشف الأغطية المادية المستعارة التي غلّفت حقيقة ملكوت المسيا الآتي ، ملكوت النعمة والحق والروح والحياة ، حتى أُظهرت تماماً ورأيناها ولمسناها بأيدينا من جهة كلمة الحياة ، يسوع المسيح الذي هو « روح النبوة » (رؤ ١٩ : ١٠) .

أي أن المسيح كان ولا يزال مركز التوراة كلها بل ومركز تاريخ الإنسان الخلاصي كله . ولعل من أروع التعبيرات الشاملة التي تنتقل بصورة المسيا من وضعه الإسرائيلي المحدود كمركز خلاص وملوكية ومجد لإسرائيل ، إلى وضعه الإنساني الكامل الذي يشمل الخليقة البشرية ، كمركز خلاص ومجد وملوكية فوق العالم كله ، ما شاهده دانيال في رؤياه ، إذ رأى المسيا كابن الإنسان :

« كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحاب السماء مثل إبن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرَّبوه قدامه . فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة ، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض » (دا٧: ١٣، ١٤) .

هذه الحقيقة كانت من أبرز تعاليم الربيين والملهمين من معلمي اليهود في فترة ما قبل الميلاد ، فكانوا يصرُّون أنه لا توجد أي نبوة خارج المسيح « **لقد تنبأ الأنبياء جميعاً فيما يختص بأيام المسيا فقط** » ، « **بل لقد خُلق العالم كله من أجل المسيا** » . وقد كانت هذه الحقيقة نفسها هي أساس العهد الجديد كله . والمسيح نفسه يؤكد هذا وينبه عليه كحقيقة جديرة بكل انتباه . « **ثم ابتدأ (المسيح) من موسى ومن جميع الأنبياء يفسِّر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب** » (لو٢٤: ٢٧) ، وعلى أساس هذا انطبع الإيمان بالمسيح في ذهن الكنيسة الأولى « الكل به وله قد خُلق ، الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل » (كو١: ١٦) .

ولقد انتبه العلماء والربيون من اليهود لهذه الحقيقة وانشغلوا في حصر جميع الحوادث والنبوات التي تشير إلى المسيا ، كما جاءت في الأسفار، سواء التي تخص شخص المسيا نفسه أو التي تخص عمله أو أيامه ، فاستطاعوا أن يحصلوا على ٤٥٨ إشارة ماسيانية منها ٧٥ جاءت في الأسفار الخمسة و ٢٤٣ في أسفار الأنبياء ، ١٣٨ في تواريخ الآباء ، وذلك حسب سجلات السنهدريم .

ولكن للأسف الشديد قد انتحى العلماء والربيون المتأخرون قبل أيام المسيح مباشرة إلى تفسيرات عقيمة لهذه النصوص المزدوجة الخاصة بالمسيا ، وانتحوا

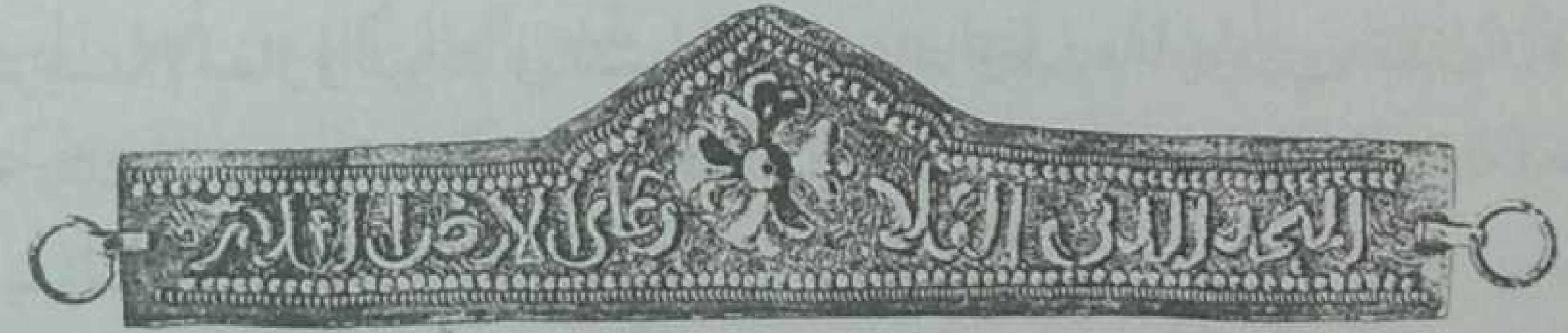
بتفسيراتهم إلى تخريجات خيالية وسفاسف أغرقت الحقيقة وطمست معالم الشخصية الواقعية التي جاء بها المسيا ؛ وهكذا تشوهت الإشارات والنبوات الخاصة بالمسيا في أذهان القادة فأتلفت حكمهم على الحقيقة وأعمت بصائرهم عن رؤية النور عندما أشرق ، هذا بالإضافة إلى اضمحلال الحساسية الروحانية لدى الرؤساء بسبب انصبابهم وراء شكليات الناموس . فكانت خلاصة الدين عند الكهنة والفريسيين والناموسيين والكتبة هي مجرد الإتقان في حفظ الناموس وترديد آياته ، والتشدد في التطهيرات والأعمال الطقسية ، وتلاوة الصلوات القصيرة ، والغيرة الوطنية الدامية لإسترداد أمجادهم وملوكيتهم وسيادتهم القديمة . بحيث أن كل نشاط أو عمل أو غيرة إذا خرج عن هذا الخط ، لا يمكن أن يُحسب أنه ماسياني قط . حتى المسيا نفسه لم يكن مجيئه في نظرهم سوى أداة لإتقان العبادة القديمة ووسيلة للحصول على آمالهم .

وهكذا خرجت العبادة اليهودية عن المفهوم الحقيقي للمسيا حسب القصد الإلهي ، وخرجت الأسفار والنبوات في تفسيرها عن معناها وقصدها الجوهري ، فبدل أن تتركز هذه وتلك في شخصية المسيا الآتي كمخلِّص العالم ، بواسطة إسرائيل ، انحرفت فجعلت المسيا وسيلة لإسترجاع مجد شعب إسرائيل كسيد للعالم .

ومن هنا نشأ الصدام بين الرؤساء والمسيح منذ أول لحظة ظهوره بالرغم من كل تعاليمه السامية وأعماله ومعجزاته الفائقة . فبقدر ما نأى المسيح في حديثه وتعاليمه عن الإلتزام بسفاسف الناموس والتطهيرات ونفايات العبادة ، وعن أمجاد اسرائيل الدنيوية وسيادتها ؛ بقدر ما ازدادت الهوة بينه وبين الكهنة والعلماء والمفسرين والغيورين من الشعب المتعصبين لطقوسهم وجنسهم ووطنهم ، وتراءى لهم أن المسيح لا يحمل الصفات الواجبة للمسيا بحسب ما رسموها له في أنفسهم لتناسب ميولهم وأهدافهم المنحرفة .

ولكن تلوث المفهومات الإيمانية عن المسيا لدى فئات الكهنة والكتبة والفريسيين والناموسيين ، لم يكن عاماً وشاملاً ، إذ بقيت بقية من شعب اسرائيل ومن رؤسائه وأتقيائه ، ظلت متمسكة بروح العبادة النقية وبمواعيد الله الصادقة ، تترقب بإيمان حار

وتلهف شديد لشخص المسيا ، كما أحسوه وكما تبيَّنوه بتأكيد وتحقيق من أقوال الأنبياء والمعلمين الأوائل الملهمين . وقد قدم لنا العهد الجديد في استهلال أناجيله عيِّنة من هؤلاء الأتقياء ، مثل سمعان الشيخ وحنة النبية وزكريا الكاهن وأليصابات والقديسة مريم العذراء . □



شهر الخلاص
كيهك

في هذا الشهر تسبِّح الكنيسة على مدى الليل كله ، بصلوات لا تنقطع بفرح وتهليل وشكر ، لميلاد مخلص العالم . في أربعة أسابيع متوالية تكون الكنيسة قد أكملت التمجيد والشكر اللائق لله عن كل الحوادث الباهرة التي سبقت الميلاد .

في الأسبوع الأول : تكمل الكنيسة التسبيح والشكر من أجل **بشارة الملاك لزكريا** بميلاد يوحنا المعمدان النبي ، الذي تقدم المسيح بروح إيليا ، ليعدَّ الشعب **لطريق الخلاص بالتوبة :**

[اسم فخر هو اسمك يا نسيب عمانوئيل ، أنت العظيم في القديسين يا يوحنا ، ارتفعت أكثر من البطاركة وتكرمت أكثر من الأنبياء ، ولم يقم من بين مولودي النساء من هو أعظم منك] (لحن يُقال في أعياد القديس يوحنا المعمدان) .

وفي الأسبوع الثاني : تكمل الكنيسة التسبيح والشكر من أجل **بشارة الملاك جبرائيل للعذراء** القديسة مريم بميلاد **مخلص العالم يسوع ، الذي تفسيره الله يخلص .**

[أنت عظيم حقاً أيها المبشر الحسن في الطقوس الملائكية وكل رتب السمائيين ...
بشرت العذراء قائلاً : السلام لكِ يا ممتلئة نعمة ، الرب معك ستلدين مخلص العالم كله] (توزيع كيهك) .

وفي الأسبوع الثالث : تكمل الكنيسة التسبيح والشكر من أجل قبول العذراء القديسة مريم **من الله رأساً حقيقة الحبل الإلهي ، وأن القدوس المولود منها يدعى ابن الله :**

[فلما سمعت أليصابات سلام مريم تحرك الجنين (يوحنا) في بطنها ، وامتلأت

أليصابات من الروح القدس، وصرخت بصوت عظيم وقالت: مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك (يسوع)، **فمن أين لي هذا أن تأتي أم ربي إليَّ**، فهوذا حين صار صوت سلامك في أذني تحرك الجنين بابتهاج في بطني، فطوبى للتي آمنت **أن يتم ما قيل لها من قبل الرب**] (الإنجيل: لو١: ٤١—٤٥).

وفي الأسبوع الرابع: تكمل الكنيسة التسبيح والشكر اللائق من أجل ميلاد يوحنا المعمدان وانفتاح فم زكريا أبيه، بكلمات الوحي الإلهي من جهة تتميم كل مواعيد الله بمجيء الرب **وتكميل الخلاص بمغفرة الخطايا:**

[ثم أشاروا إلى أبيه: ماذا تريد أن يُسمى؟ فطلب لوحاً وكتب قائلاً: اسمه يوحنا، فتعجب الجميع، وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم وبارك الله... وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ قائلاً: ... وأنت أيها الصبي (يوحنا) نبي العلي تدعى **لأنك تتقدم أمام وجه الرب** (يسوع) لتعد طرقه، لتعطي شعبه «معرفة» **الخلاص بمغفرة خطاياهم**] (الإنجيل: لو١: ٦٢—٧٧).

ومن بعد الأحد الرابع من شهر كيهك تتزين الكنيسة لاستقبال ميلاد المسيح بفرح فائق، فرح يزكيه الصوم ويزكيه السهر وتزكيه الألحان المبهجة.

وشهر كيهك يتميز بألحانه الفرايحي، فهو الموسم الوحيد الذي يلتحم فيه الصوم باللحن الفرايحي، حيث يبدو الصوم هنا على أجمل صورة من صوره كمصدر فرح روحاني.

* * *

كوني ناظرة علينا في المواضع العالية التي أنت كائنة فيها أيتها العذراء القديسة مريم. اشفعي في بلادنا، واطلبي معونة لرؤسائنا وقت الضيق واسألي السلام للأرض كلها حتى يشرق فجر جديد على العالم فيطلب الناس الخلاص ويلتمسون وجه الله.

النبوات الخاصة بالمسيح «المسيا» في العهد القديم (١)

«مبنيين على أساس الرسل والأنبياء، ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية» (أف٢: ٢٠).

من أهم عناصر الإيمان أن نعرف أن اسم المسيح كفادي البشرية مكوَّن من كلمتين: «المسيح يسوع»، كلٌّ منها تمثل عهداً: «**المسيح** = العهد القديم، و**يسوع** = العهد الجديد». لذلك يستحيل فهم المسيح يسوع دون الخوض بدقة متناهية، ودراسة عميقة، وتأمل بالروح والصلاة في العهد القديم، أي البحث عن المسيا ومعرفة حدود شخصيته اللانهائية.

فالعهد القديم يتحدث ويتخصص في وظيفة المسيا، ومن هو (وكان رد المسيح على هذا في العهد الجديد Ego Eimi أنا هو)، ورسالته، وظروف دعوته واختياره.

والعهد الجديد يبرز يسوع أنه هو المسيح «**بتطبيق**» كامل ودقيق لكل ما جاء عنه.

لذلك يصعب جداً، ويكاد يكون مستحيلاً، أن نتحقق من النبوات التي جاءت عن المسيا أنه هو يسوع، إلاَّ إذا كنا قد آمنا بأعماله وأقواله «**كالتطبيق**»، وهذا هو ما تعذر على علماء إسرائيل من كتبة وفريسيين وناموسيين وكهنة وربيين أن يتعرفوا على المسيَّا في شخص يسوع، لأنهم لم يكونوا يؤمنون به لا بأعماله ولا بأقواله، لذلك فاتت عليهم عملية الخلاص بأكملها.

أما نحن فسيتعذر جداً، ويكاد يكون مستحيلاً علينا، أن نتعرف على يسوع تماماً

(١) عظة الميلاد عام ١٩٨٥، ألقيت بدير القديس أنبا مقار.

كما هو رب وإله، بمجده وعظمته وبنوّته للآب، إلا إذا ألممنا إلماماً كاملاً وعميقاً بانفتاح ذهن بمن هو المسيا، وما هي النبوات التي قيلت عنه، حيث النبوات لا تقتصر على ما قاله الأنبياء بل على كل الناموس (موسى) والأنبياء والمزامير، كحال تلميذي عمواس وبقية التلاميذ الذين لم يتعرفوا على المسيح أنه هو حقاً المسيا إلا بعد أن فتح ذهنهم ليفهموا المكتوب عنه: «فقال لهما أيها الغبيان والبطيئا القلوب في الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء. أما كان ينبغي أنَّ المسيح يتألَّم بهذا ويدخل إلى مجده. ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء يُفسِّر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب» (لو٢٤: ٢٥—٢٧)، بل وتاريخ إسرائيل وتحرُّكه بملوكه وحروبه، وأيام هنائه وأيام بؤسه وشقائه.

لأن المسيح باختصار هو إسرائيل الجديد، بل آدم الثاني وآبن إبراهيم، وقبل إبراهيم كان كائناً، وهو الذي خرج من مصر: «من مصر دعوتُ آبني (إسرائيل — المسيح)» (هو١١: ١، مت٢: ١٥)، بل صُلب في مصر: «مصر حيث صُلب ربنا» (رؤ١١: ٨ — أي خروف الفصح كرمز)، وهو الذي سار في البرية خطوة خطوة على خطوات شعب إسرائيل، فكان هو عمود النار للقيادة في الظلمة، وعمود السحاب للقيادة في وهج الشمس، وكان هو الصخرة التي سقتهم وتابعتهم، وكان هو المنّ النازل من السماء، وكان هو موسى «نبيًّا... مثلي» (تث١٨: ١٥، أع٣: ٢٢)، وكان هو خيمة الاجتماع، والذبيحة بكل أنواعها، والكاهن الذي يقدّم، والمنارة ذات السبع شُعب، والحجاب الذي يفصل الله عن الشعب، والغطاء = كپوراه (كفارة) الذي يُرش عليه الدم مرة واحدة في السنة **للمغفرة** الشاملة، وهو نفسه الدم المرشوش، والخروف المأكول، والثور الكفارة. وباختصار كان هو العهد القديم كله!! في إبراهيم وبذرته، وفي إسحق المذبوح القائم، ويعقوب إسرائيل، ويهوذا، وداود ومُلكه الأبدي، لأن العهد القديم كان يتحرك كله كوحدة واحدة تاريخية، حتى تحقق بأجمعه بكل حرف فيه، بل وحتى «اليوتا» أي حرف الياء في «يسوع»: السماء والأرض يمكن أن يزولا ولكن ناموس العهد القديم بكل حروفه المتحقق في المسيح لا يمكن أن يزول!

المسيا — أي المسيح — من حيث ناسوته في العهد القديم:

قانونية البحث في ذلك: «باحثين أيُّ وقت أو ما (حال) الوقت الذي كان يدلُّ عليه روح المسيح الذي فيهم، **إذ سبق فشهد بالآلام التي للمسيح والأمجاد التي بعدها**، الذين أُعلن لهم أنهم **ليس لأنفسهم بل لنا** كانوا يخدمون بهذه الأمور التي أُخبرتم بها أنتم الآن بواسطة الذين بشروكم في الروح القدس المرسل من السماء التي تشتهي الملائكة أن تطّلع عليها» (١بط١: ١١و١٢).

أيضاً: «**وعندنا الكلمة النبوية وهي أثبت التي تفعلون حسناً إن انتبهتم إليها كما إلى سراج منير** في موضع مظلم إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم، عالمين هذا أولاً أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص. لأنه لم تأتِ نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس» (٢بط١: ١٩—٢١).

العائلة التي سيجيء منها، المكان الذي سيولد فيه، الزمن أي السنة التي سيولد فيها

١ — العائلة:

المسيَّا هو إنسان من نسل البشرية:

— «وأضع عداوة بينكِ (الحية) وبين المرأة وبين نسلكِ ونسلها. هو يسحق رأسكِ [أي رأس الحية القديمة، وهي إبليس والشيطان (انظر رؤ٢٠: ٢)؛ لأن كل من يقبل الشيطان متكلماً فيه أو بواسطته يكون في عرف المسيح هو الشيطان نفسه] وأنتِ تسحقين عقبه (جسده)» (تك٣: ١٥).

هذه النبوة قيلت بفم الله حوالي سنة ٥٥٠١ قبل الميلاد عند الأقباط.
و٥٥٠٨ قبل الميلاد عند الروم.
و٤٠٠٤ قبل الميلاد بحسب النسخة العبرية.

واختار الله من كل البشرية عائلة سام (سنة **٢٣٠٠** ق.م.):

— «فقال: ملعونٌ كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته. وقال: مباركٌ إلهُ سام وليكن كنعان عبداً لهم» (تك٩: ٢٥و٢٦).

ومن كل عائلة سام اختار الله ليكون من بذرة **إبراهيم** (قول الله نفسه سنة **١٩٠٠** ق.م.):

— «وقال الرب لأبرآم: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك، فأجعلكَ أمة عظيمة وأباركك وأُعظِّم آسمك، وتكونَ بركة، وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه. **وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض**» (تك١٢: ١—٣).

ومن كل عائلة إبراهيم اختار **يعقوب إسرائيل** (نبوة سنة **١٨٥٠** ق.م.):

— «تغرَّبْ في هذه الأرض. فأكون معك وأباركك. لأني لك **ولنسلك** أعطي جميع هذه البلاد، **وأفي بالقَسَم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك**. وأكثِّر نسلك كنجوم السماء وأعطي نسلك جميع هذه البلاد، **وتتبارك في نسلك جميع أمم الأرض**» (تك٢٦: ٣و٤).

ومن كل عائلة إسرائيل اختار سبط **يهوذا** (نبوة سنة **١٨٠٠** ق.م.):

— «يهوذا جَرْوُ أسد. من فريسة صعِدتَ يا آبني. جثا وربض كأسد وكلبوة. مَنْ ينهضه. لا يزول قضيب من يهوذا ومشترعٌ من بين رجليه، حتى يأتي شيلون، وله يكون خضوع شعوب» (تك٤٩: ٩و١٠).

— «لأن يهوذا اعتزَّ على إخوته ومنه الرئيس...» (١أي٥: ٢)

— «فإنه واضح أن ربنا قد طلع من سبط يهوذا الذي لم يتكلم عنه موسى شيئاً من جهة الكهنوت.» (عب٧: ١٤)

— «فقال لي واحد من الشيوخ: لا تبكِ. هوذا قد غلب الأسد الذي من سبط يهوذا أصلُ داود ليفتح السفر و يفكَّ ختومه السبعة» (رؤ٥: ٥)

نبوة **موسى** (سنة **١٥٠٠** ق.م.):

— «يقيم لك الرب إلهك نبيّاً من وسطك من إخوتك مثلي. له تسمعون» (تث١٨: ١٥).

— «فإن موسى قال للآباء إن نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم. له تسمعون في كلّ ما يكلمكم به» (أع٣: ٢٢).

نبوة **بلعام** (سنة **١٥٠٠** ق.م. معاصر لموسى):

— «أراه ولكن ليس الآن. أُبصره ولكن ليس قريباً. يبرز كوكبٌ من يعقوب ويقوم قضيب من إسرائيل، فيحطِّم طرفي موآب ويهلك كلَّ بني الوغى» (عدد٢٤: ١٧).

ثم تتوقف النبوات ٤٥٠ سنة حتى يأتي **ناثان النبي أيام داود** — فتعود النبوات سنة ١٠٥٠ ق.م.:

ومن كل عائلة يهوذا يختار **داود**:

— «وفي تلك الليلة كان كلام الله إلى ناثان قائلاً: آذهب وقُل لداود عبدي هكذا قال الرب: أنت لا تبني لي بيتاً للسكنى. لأني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت إسرائيل إلى هذا اليوم، بل سرتُ من خيمة إلى خيمة ومن مسكن إلى مسكن. في كل ما سرت مع جميع إسرائيل هل تكلمت بكلمة مع أحد قضاة إسرائيل الذين أمرتهم أن يرعوا شعبي إسرائيل قائلاً: لماذا لم تبنوا لي بيتاً من أرز. والآن فهكذا تقول لعبدي داود. هكذا قال ربُّ الجنود: أنا أخذتُكَ من المربض من وراء الغنم لتكون رئيساً على شعبي إسرائيل. وكنت معك حيثما توجهتَ وقرضتُ جميع أعدائك من أمامك وعملتُ لك آسماً كاسم العظماء الذين في الأرض. وعيَّنتُ مكاناً لشعبي إسرائيل وغرسته فسكن في مكانه، ولا يضطرب بعد ولا يعود بنو الإثم يبْلونه كما في الأوَّل. ومنذ الأيام التي فيها أقمتُ قضاة على شعبي إسرائيل، وأذللتُ جميع أعدائك، وأخبرك أن الرب يبني لك بيتاً، و يكون متى كملت أيامك لتذهب مع آبائك أني أقيم بعدك نسلك الذي يكون من بنيك وأثبِّت مملكته. **وهو يبني لي بيتاً وأنا أثبِّت كرسيه**

إلى الأبد. أنا أكون له أباً وهو يكون لي آبناً، ولا أنزع رحمتي عنه كما نزعتها عن الذي كان قبلك. **وأُقيمه في بيتي وملكوتي إلى الأبد. و يكون كرسيه ثابتاً إلى الأبد**» (١أي ١٧: ٣—١٤).

مملكة المسيا وملكوته الأبدي = آبن يسى:

— «ويخرج قضيب من جذع يسَّى، و ينبت غصن من أصوله» (إش ١١: ١).

وتأتي جميع النبوات بعد ذلك باعتبار أن المسيا هو آبن داود: [آسم «داود» يجيء في الكتاب كله ١٠٠٠ مرة، وآسم «يسوع» يجيء في الكتاب كله ١٠٠٠ مرة].

من جميع عائلة داود تتركز نبوات المسيَّا على آثنين:

سليمان: منه جاء يوسف خطيب مريم: الأب الإسمي ليسوع المسيح (مت ١: ٦و١٦).

ناثان: منه جاءت العذراء مريم الأم الحقيقية ليسوع (لو٣: ٣١).

وهكذا سار الشعاع المسلَّط على شخص المسيَّا عَبْر الأنسال منذ البدء، منذ آدم وحواء، حتى استقر على يسوع من مريم العذراء.

٢ — المكان الذي سيولد فيه:

وصلنا عند سنة ١٠٥٠ ق.م. وكان موضوع العائلة أو البيت الذي سيأتى منه المسيا قد تحدد.

أما المكان الذي سيولد فيه، فجاء بعد ذلك بـ ٣٠٠ سنة!!!

أول من تنبأ عن المكان هو**ميخا النبي** سنة **٧٢٥** ق.م.:

— «أما أنتِ يا بيت لحم أفراتة وأنتِ صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا، **فمنكِ يخرج لي الذي يكون متسلطاً على إسرائيل، ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل**» (مي ٥: ٢).

— «فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية، إلى مدينة داود التي تُدعى بيت لحم، لكونه من بيت داود وعشيرته» (لو٢: ٤).

— «قول الرب الذي صار إلى ميخا المورشتي في أيام يوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا الذي رآه على السامرة وأورشليم» (مي ١: ١).

— «إنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلِّص هو المسيح الرب» (لو٢: ١١).

«**بيت لحم**» أي «بيت الخبز». «**أفراتة**» أي «المثمرة». هي مدينة داود، البيت الذي جاء منه المسيا. هي القرية الصغيرة المتواضعة التي اختارها الرب ليولد فيها المسيح.

٣ — الزمان:

بعد ميخا بنحو ٢٠٠ سنة، جاء **دانيال** النبي سنة **٥٣٦** ق.م. **وأُعطي** في رؤياه عدد السنين من بداية بناء أورشليم (وهم تحت السبي) إلى المسيح ٦٩ أسبوعاً من السنين:

النبوة:

— «فتأمل الكلام وافهم الرؤيا. سبعون أسبوعاً قُضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الإثم، وليؤتَى بالبر الأبدي ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدُّوس القدوسين.

فاعلم وافهم، أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم و بنائها إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع وآثنان وستون أسبوعاً، يعود ويُبنى سوق وخليج في ضيق الأزمنة. و بعد آثنين وستين أسبوعاً يُقطع المسيح وليس له، وشعبُ رئيس آتٍ يخرب المدينة والقدس، وانتهاؤه بِغَمارةٍ، وإلى النهاية حربٌ وخربٌ قُضي بها. ويثبِّت عهداً مع كثيرين في أسبوع واحد، وفي وسط الأسبوع يُبطِّل الذبيحة والتقدمة، وعلى جناح الأرجاس مخرِّب حتى يتم ويُصبَّ المقضيُّ على المخرِّب» (دا٩: ٢٣—٢٧).

التفسير: بحسب أئمة المفسرين من يهود متنصِّرين وعلماء ألمان، وتكميل وتوضيح بقلم الكاتب:

لا يخطىء القارىء ويخلط بين بناء الهيكل و بناء أورشليم موضوع النبوة.

فبناء الهيكل تم بأمر «كورش» الملك (سنة ٥٣٦ ق.م.) [٢أي٣٦: ٢٣، عزرا ١: ١ـ٤؛ ٥: ١٣ـ١٥؛ ٦: ٣ـ٥]. وهذه المهمة المقدسة قام بها «زَرُبَّابل»، ورئيس الكهنة «يشوع»، وكلٌّ من النبيين «حَجَّي» و«زكريا»؛ وذلك في سنة ٥١٦ ق.م. [عزرا ٥: ١و٢؛ ٦: ١٤و١٥].

أما بناء مدينة أورشليم فقد تم بعد ذلك بعدة عشرات من السنين على يد الكاهن «عَزْرا»، والمحافظ (الترشاثا) «نحميا»، والنبي «ملاخي»؛ وذلك بصدور أمر الملك الفارسي أرتحشَشْتا في السنة السابعة لبدء مُلكه، وقد اعتلى المُلْك من سنة ٤٦٥ حتى سنة ٤٢٤ ق.م. وقد تم ذلك بالتحديد في سنة ٤٥٧ ق.م. (اقرأ عزرا ٧: ٢٥و٢٧).

والآن بحسب نبوة دانيال، يكون عدد السنين من ابتداء صدور الأمر ببناء أورشليم حتى مسح قدوس القدوسين (أي المسيح الرب بلا نزاع) وهي سبعة أسابيعَ سنين، وآثنان وستون أسبوعَ سنين، أي ٦٩×٧= ٤٨٣ سنة.

فلو أضفنا عدد هذه السنين على سنة بدء تاريخ صدور هذا الأمر ببناء أورشليم (أي سنة ٤٥٧ق.م.): ٤٥٧ق.م.+ ٤٨٣ سنة= ما بعد الميلاد **٢٦ـ٢٧ سنة**، وهذه هي السنة التي بدأ المسيح يكرز فيها بعد المعمودية وحلول الروح القدس عليه، بحسب القديس لوقا ٣: ١و٢. حيث كان عمر المسيح آنذاك حوالي «٣٠ سنة» (لو٣: ٢٣).

وبما أن هيرودس الملك كان يعيش حين وُلد المسيح (مت ٢)، وأنه مات سنة ٧٤٩ من تاريخ إنشاء روما، والتي إذا حُسبت بالتاريخ الميلادي تكون سنة ٤ق.م.، فإنه يتأكد بكل دقة أن المسيح وُلد ما بين سنة ٥ـ٤ ق.م. (بالتقويم الحالي).

وهكذا، فإنه لو أضفنا هذا الفارق (٥ـ٤ سنوات) على سنة التحقق من بدء كرازته (وهي سنة مسح قدوس القدوسين) سنة ٢٦ـ٢٧ بعد الميلاد، يكون عمر المسيح آنئذ ٣٠ سنة، تماماً كما ورد في رواية القديس لوقا البشير.

ومن ناحية أخرى، فإنه لضبط صحة هذا التاريخ بمنتهى الدقة، نجد رواية القديس لوقا البشير من جهة تحديد ولاية طيباريوس قيصر هكذا: «وفي السنة الخامسة عشر **من سَلْطنة طيباريوس قيصر**، إذ كان بيلاطس البنطي والياً على اليهودية وهيرودس رئيس رُبْع على الجليل... في أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا، كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية... ولما اعتمد جميع الشعب، اعتمد يسوع أيضاً. وإذ كان يصلي، انفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس (مسح قدوس القدُّوسين)» (لو٣: ١ـ٢٢).

إن طيباريوس قيصر اعتلى العرش فعلاً سنة ١٢ ميلادية، وبالتحديد قبل يوم ١٦ يناير بقليل. فلو أضفنا على هذه السنة ١٥ سنة أخرى، بحسب تحقيق القديس لوقا الذي ورد عاليه «السنة الخامسة عشر من سلطنة طيباريوس قيصر»، تكون سنة عماد المسيح (أي مسح قدوس القدوسين) هي سنة ٢٦ـ٢٧ ميلادية. وهكذا تتحقق نبوة دانيال بصورة مذهلة للعقل وبتحديد يكاد يبلغ حدود الشهر وليس حدود السنة **!!**

توضيح لمفردات النبوة:

أـ في الآية ٩: ٢٥: «فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم **وبنائها** إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع، وآثنان وستون أسبوعاً...»، هنا السبعة أسابيع هي ٤٩ سنة (٧أسابيع سنين × ٧سنين= ٤٩سنة)، وهي التي تم فيها بناء المدينة والهيكل. (ومعلوم أن الهيكل استغرق بناؤه **٤٦ سنة!!** أنظر يو٢: ٢٠).

ب ـ ثم تعود النبوة وتقول: «وبعد آثنين وستين أسبوعاً يُقطعُ المسيح». ويلاحَظ من نص النبوة أنه **في تمام (أي عند اكتمالها تماماً)** الاثنين والستين أسبوعاً بعد السبعة الأسابيع من بناء المدينة، يتم «مسحُ قدوس القدوسين» (حوالي ٢٦ـ٢٧ ميلادية). ولكن حينما تأتي النبوة إلى ذكر الصليب، ومعلوم أن ذلك تم بعد ثلاث سنوات ونصف من بدء كرازته، تكتفي النبوة من جهة التحديد (الذي جعلت قياسه الزمني أسبوع سنين) بأن تقول «**وبعد** آثنين وستين أسبوعاً يُقطعُ المسيح الرئيس» **(أي بعد اكتمالها)**.

ج ــ في ختام النبوة وبعد التركيز على مسح قدوس القدوسين ثم قطع المسيح الرئيس، تكمل النبوة بقية السبعين أسبوعاً، إذ يعود و يكمل النصيب المقضي به على خراب أورشليم والهيكل، ويحصره في فترة زمنية خاصة به ويحدده بأسبوع واحد سنين (وهو الأسبوع المتبقي من السبعين أسبوعاً، و بعد الإنتهاء من السبعة أسابيع والإثنين والستين أسبوعاً)، أي سبع سنوات يتم في وسطها إبطال الذبيحة والتقدمة، وعلى جناح... الأرجاس مخرِّبٌ... هذا الأسبوع (أي أسبوع خراب أورشليم والهيكل) يبتدىء ــ بحسب التاريخ المتحقق سنة **٦٦ م**، وينتهي سنة **٧٢ م**، وفيه حدثت تلك الحرب الرومانية المشهورة في التاريخ ضد الشعب اليهودي، والتي انتهت بتخريب أورشليم والهيكل على يد «تيطس».

أما في منتصف هذا الأسبوع السنين، أي سنة ٧٠ ميلادية المشهورة جداً في التاريخ، فقد تم تدمير المذبح وقدس الأقداس وتنجيس الهيكل. كما عُلِّق على جناحه شارة النسر التي اعتبرها الرب يسوع نفسه أنها شارة رجسة الخراب: «فمتى نظرتم رجسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي قائمة **في المكان المقدس، ليفهمْ القارىء**، فحينئذ ليهربْ الذين في اليهودية إلى الجبال» (مت٢٤: ١٥و١٦).

ويلاحظ أن كلمة المسيح **«في المكان المقدس»**، مضافة من المسيح بوضوح، وهي غير واردة في نبوة دانيال. أما كلمة «ليفهم القارىء»، فهي إشارة خفية يشحذ بها ذهن السامع والقارىء لينتبه إلى أنها إشارة إلى شارة «النسر الروماني».

ويبدو أن القديس متى هو الذي أوضح مكان وضع هذه الشارة، إذ يرد في إنجيل مرقس (وهو المصدر الذي يتبعه القديس متى) ما يلي:

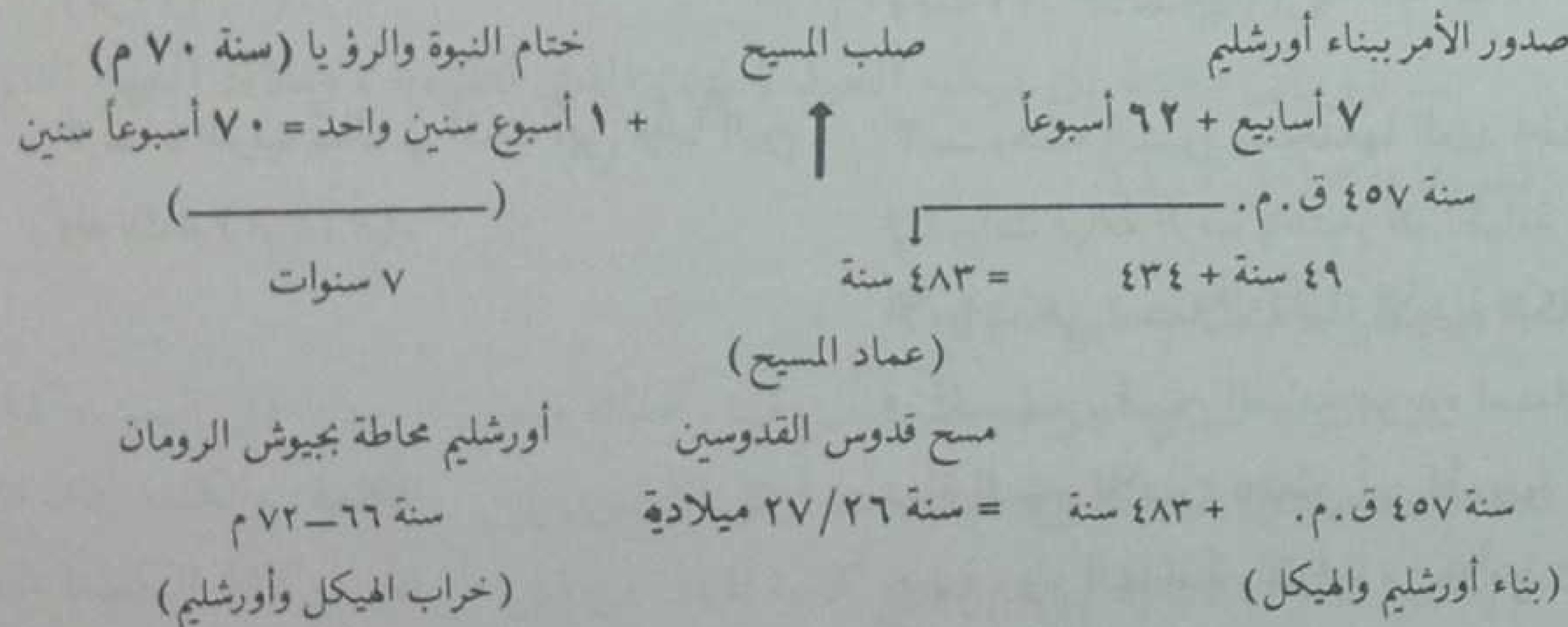
ــ «ومتى نظرتم رجسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي قائمة **حيث لا ينبغي**» (مر١٣: ١٤).

(هنا أصل الإشارة الدقيقة جداً التي وردت على لسان المسيح، فإن كلمة «حيث لا ينبغي» لا تفيد إلاّ الهيكل المقدس (جناح الهيكل) فهو المكان الوحيد الذي لا ينبغي أن توضع عليه رجسة الخراب هذه).

والمفيد هنا هو أن المسيح سبق ونبَّه الشعب إلى أنه بوضع هذه الشارة يتحتم أن يهرب سكان اليهودية ــ فهذه مهلة طويلة ــ إذ أن الخراب والقتل سيبدآن بعد ذلك بحوالي ٣ سنوات ونصف، لأن هذه الشارة وُضعت في وسط الأسبوع (أي في وسط السبع السنوات) بحسب النبوة: «وفي وسط الأسبوع يُبَطِّلُ الذبيحة والتقدمة وعلى جناح... (الهيكل) الأرجاس مخرِّب...».

وفي موضع آخر، أعطى المسيح إشارة أكثر شمولاً ليفهمها كل فرد في الشعب: «ومتى رأيتم **أورشليم** محاطة بجيوش فحينئذ اعلموا أنه قد اقترب خرابها. حينئذ ليهرب الذين في اليهودية (عاصمتها أورشليم مركز الحرب) إلى الجبال، والذين في وسطها (أي وسط أورشليم) فليفرُّوا خارجاً، والذين في الكور فلا يدخلوها، لأن هذه أيام انتقام ليتم كل ما هو مكتوب...» (لو٢١: ٢٠ــ٢٢)

نبوة دانيال



النبوات الخاصة بألوهة المسيا في العهد القديم

□□□

ألوهة المسيح معلنة في العهد القديم، ولكن كما من خلال حجاب، وكأنها ألغاز:

١ ـ نبوة ناثان النبي (معاصر لداود سنة ١٠٥٠ ق.م.):

ـ «ويكون متى كملت أيامك لتذهب مع آبائك إني أقيم بعدك نسلك الذي يكون من بنيك، وأثبّت مملكته وهو يبني لي بيتاً وأنا أُثبِّت كرسيه إلى الأبد. **أنا أكون له أباً وهو يكون لي آبناً**. ولا أنزع رحمتي عنه كما نزعتها عن الذي كان قبلك. وأقيمه في بيتي وملكوتي إلى الأبد ويكون كرسيه ثابتاً إلى الأبد» (١ أي١٧: ١١ــ١٤).

٢ ـ وعلى هذا الأساس يقول داود في المزمور مخاطباً آبنه هذا:

ـ «قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك» (مز١١٠: ١).

٢ ـ «قال لهم: فكيف يدعوه داود بالروح رباً قائلاً: قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك. فإن كان داود يدعوه رباً فكيف يكون آبنه» (مت٢٢: ٤٣ــ٤٥)؟

٣ ـ «الرب قال لي أنت آبني وأنا اليوم ولدتك» (مز٢: ٧).

٣ ـ وهذه النبوة يستخدمها العهد الجديد لإثبات قيامة الرب باعتبار أن القيامة من الأموات هي استعلان الحياة الأبدية الكائنة في المسيح. فيوم القيامة هو بدء استعلان بنوّة المسيح للآب: «تعيَّن آبن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات» (رو١: ٤).

ـ «إن الله قد أكمل هذا لنا نحن أولادهم إذ أقام يسوع، كما هو مكتوب أيضاً في المزمور الثاني: أنت آبني أنا اليومَ ولدتُك» (أع١٣: ٣٣).

٤ ـ إشعياء النبي (سنة ٧٢٠ ق.م.):

ـ «ويُدعى آسمه عجيباً مشيراً **إلهاً قديراً** أباً أبدياً رئيس السلام» (إش٩: ٦).

ـ «ويخرج قضيب من جذع يسى، **وينبت غصن من أصوله، ويحل عليه روح الرب**» (إش١١: ١و٢).

ـ «في ذلك اليوم يكون **غصن الرب** بهاءً ومجداً، وثمر الأرض فخراً وزينة للناجين من إسرائيل» (إش٤: ٢).

ـ «نبت قدامه كفرخ وكعِرْقٍ من **أرض يابسة**...» (إش٥٣: ٢)

٥ ـ ميخا النبي (سنة ٧٢٠ ق.م.):

ـ «...ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل» (مي٥: ٢).

٦ ـ إرميا النبي (سنة ٥٨٦ ق.م.):

ـ «...أُقيم لداود **غُصنَ برٍّ**... **وهذا هو آسمه الذي يدعونه به ,,الرب برُّنا,,**» (إر٢٣: ٥و٦).

٧ ـ ملاخي النبي (سنة ٤٣٠ ق.م.):

ـ «ويأتي بغتة إلى هيكله **السيد (يهوه) الذي تطلبونه، وملاك العهد** الذي تُسرُّون به» (مل٣: ١).

٨ ـ سفر الأمثال (سليمان):

ـ «الرب قناني أول طريقه، من قبل أعماله منذ القدم، منذ الأزل مُسحتُ منذ البدء، منذ أوائل الأرض. إذ لم يكن غَمْرٌ أُبدئتُ إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه. من قبل أن تقررت الجبال، قبل التلال أُبدئتُ.

إذ لم يكن قد صنع الأرض بعدُ ولا البراري ولا أول أعفار المسكونة. **لما ثبَّت السموات كنت هناك أنا**. لما رسم دائرة على وجه الغمر، لما أثبت السحب من فوق لما تشدَّدتْ ينابيع الغمر. لما وضع للبحر حدّه فلا تتعدى المياه

ـ «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله.

كلُّ شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يو١: ١ــ٣).

تخُمه، ولما رسم أسس الأرض. **كنت عنده صانعاً**، وكنت كل يوم لذَّتهُ فَرِحَة دائماً قدامه. فرحةً في مسكونة أرضه **ولذَّاتي مع بني آدم**» (أم٨: ٢٢—٣١).

أعمال المسيّا يقابلها أعمال المسيح المطابقة:

كل الأنبياء وصفوا المسيا بأوصاف تجمع بين الإنسانية والله في شخصه.

وهكذا وصفوا أيضاً أعماله، وهي تقع بين الاتضاع الشديد والارتفاع الشديد جداً. هذه الموازنة وصفها المسيح نفسه لتلاميذه هكذا: «أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده» (لو٢٤: ٢٦)، «ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء يفسر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب» (لو٢٤: ٢٧).

وهو ما حصره القديس بطرس الرسول بوضوح: «الخلاص الذي فتَّش وبحث عنه أنبياء الذين تنبأوا عن النعمة التي لأجلكم، باحثين أيُّ وقت أو ما (حال) الوقت الذي كان يدل عليه روح المسيح (المسيا) الذي فيهم، **إذ سبق فشهد (بواسطتهم) بالآلام التي للمسيح والأمجاد التي بعدها**، الذين أعلن لهم أنهم ليس لأنفسهم (كانوا يتنبأون) بل لنا كانوا يخدمون بهذه الأمور التي أُخبرتم بها أنتم الآن» (١بط ١: ١٠—١٢).

١ — مجيء المسيّا في اتضاع شديد:

بإيجابية عالية جداً، وصف الأنبياء المجيء الأول للمسيح ولكن كخلفية متضعة حزينة قاتمة جداً وراء مجد ملكوته الأبدي (الذي أعلن عنه في مجيئه الأول)، الذي سيستعلن جهاراً في مجيئه الثاني.

أ — ولادته في قرية صغرى:

— «أما أنتِ يا بيت لحم أفراتة **وأنت صغيرة** أن تكوني بين ألوف يهوذا. فمنكِ **يخرج لي الذي يكون متسلطاً على إسرائيل، ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل**» (مي٥: ٢).

— «... وُلد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك...» (مت٢: ١).

ب — ظهوره العلني في جليل الأمم (منطقة جنوب لبنان التي تطالب بها إسرائيل الآن) الشعب الجالس في ظلمة المعرفة:

— «ولكن لا يكون ظلام للتي عليها ضيق. كما أهان الزمان الأول أرضَ زبولون وأرض نفتالي، يكرِمُ الأخير طريق البحر عبر الأردن جليل الأمم. الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً. الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور» (إش٩: ١و٢).

— «لأنه يولد لنا ولدٌ، ونُعطى ابناً وتكون الرياسة على كتفه، ويُدعى اسمه عجيباً مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام» (إش٩: ٦).

— «ولما سمع يسوع أن يوحنا أُسلم، انصرف إلى الجليل. وترك الناصرة وأتى فسكن في كفرناحوم التي عند البحر في تخوم زبولون ونفتاليم. لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل: أرض زبولون وأرض نفتاليم، طريق البحر عَبْرُ الأردن **جليل الأمم. الشعب الجالس في ظلمة أبصر نوراً عظيماً. والجالسون في كورة الموت وظلاله** أشرق عليهم نور» (مت٤: ١٢—١٦).

ج — لطفه المتواضع ورقَّته:

— «لا يصيح ولا يرفع ولا يُسمع في الشارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفىء. إلى الأمان يُخرِجُ الحق» (إش٤٢: ٢و٣).

— «هوذا فتاي الذي اخترته، حبيبي الذي سُرَّت به نفسي. أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق. لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحدٌ في الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخِّنة لا يطفىء حتى يخرج الحق إلى النصرة، وعلى اسمه يكون رجاء الأمم» (مت١٢: ١٨—٢١).

د ــ غيرته المتّقدة:

ــ «لأن غيرة بيتك أكلتني...» (مز٦٩: ٩).

ــ «ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون و يشترون في الهيكل وقلّبَ موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام» (مت٢١: ١٢).

ــ «فتذكر تلاميذه أنه مكتوب: غيرة بيتك أكلتني» (يو٢: ١٧).

هـ ــ معجزاته وأشفيته لكل الطبقات:

ــ «لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها، ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً» (إش٥٣: ٤).

ــ «... فأحضروا إليه جميع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة والمجانين والمصروعين والمفلوجين فشفاهم» (مت٤: ٢٤).

و ــ دخوله إلى أورشليم راكباً جحشاً:

ــ «ابتهجي جداً يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم. هوذا ملكك يأتي إليكِ، هو عادل ومنصور، وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان» (زك٩: ٩).

ــ «فكان هذا كله لكي يتم ما قيل بالنبي القائل: قولوا لابنة صهيون هوذا ملككِ يأتيكِ وديعاً راكباً على أتان وجحش ابن أتان» (مت٢١: ٤و٥).

ز ــ غضب الأعداء عليه:

ــ «لماذا ارتجت الأمم وتفكّر الشعوب في الباطل، قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه قائلين: لنقطع قيودهما ولنطرحْ عنا رُبُطهما» (مز٢: ١ــ٣).

ــ «... القائل بفم داود فتاك: لماذا ارتجت الأمم وتفكّر الشعوب بالباطل. قامت ملوك الأرض واجتمع الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه. لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذي مسحته هيرودسُ و بيلاطسُ البنطيّ مع أمم وشعوب إسرائيل، ليفعلوا كلّ ما سبقتْ فعيَّنتْ يدُك ومشورتك أن يكون» (أع٤: ٢٥ــ٢٨).

ح ــ هجران أصدقائه:

ــ «استيقظ يا سيف على راعيَّ وعلى رجل رفقتي، يقول رب الجنود. إضربْ الراعي فتتشتّت الغنم...» (زك١٣: ٧).

ــ «حينئذ قال لهم يسوع: كلكم تشكُّون فيَّ في هذه الليلة لأنه مكتوب أني أضرب الراعي فتتبدد خراف الرعية» (مت٢٦: ٣١).

ط ــ خيانته وتسليمه بثلاثين من الفضة:

ــ «فقلت لهم إنْ حسُنَ في أعينكم فأعطوني أجرتي، وإلا فامتنعوا. فوزنوا أجرتي ثلاثين من الفضة» (زك١١: ١٢).

ــ «وقال: ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أسلّمه إليكم. فجعلوا له ثلاثين من الفضة» (مت٢٦: ١٥).

ي ــ ثقب يديه ورجليه على الصليب:

ــ «... ثقبوا يديَّ ورجليَّ...» (مز٢٢: ١٦).

ــ «فقال له (لتوما) التلاميذ الآخرون: قد رأينا الرب. فقال لهم: إنْ لم أبصر في يديه أثر المسامير وأضع إصبعي في أثر المسامير وأضع يدي في جنبه لا أؤمن...
ثم قال (المسيح) لتوما: هاتِ إصبعك إلى هنا وأبصرْ يديَّ وهاتِ يدك وضعْها في جنبي، ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً» (يو٢٠: ٢٥و٢٧).

ك ــ لا يُكسر عظم من عظامه:

ــ «في بيت واحد يُؤكل... وعظماً لا تكسروا منه» (خر١٢: ٤٦).

ــ «يحفظ جميع عظامه. واحدٌ منها لا ينكسر» (مز٣٤: ٢٠).

ــ «ثم إذ كان استعداد، فلكي لا تبقى الأجساد على الصليب في السبت لأن يوم ذلك السبت كان عظيماً، سأل اليهود بيلاطس أن تُكسر سيقانهم و يُرفعوا. فأتى العسكر وكسروا ساقي الأول والآخر المصلوب معه. وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات... والذي عاين شهد وشهادته حق وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم. لأن هذا كان ليتم الكتاب القائل: عظمٌ لا يُكسَرُ منه، وأيضاً يقول كتابٌ آخر سينظرون إلى الذي طعنوه» (يو١٩: ٣١ــ٣٧).

ل ــ إلقاء قرعة على لباسه:

ــ «يقسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون» (مز٢٢: ١٨).

ــ «ولما صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين عليها. لكي يتم ما قيل بالنبي: اقتسموا ثيابي بينهم وعلى لباسي ألقوا قرعة» (مت٢٧: ٣٥).

م ــ إعطاؤه خلاً ليشربه:

ــ «... وفي عطشي يسقونني خلاً» (مز٦٩: ٢١).

ــ «... أعطوه خلاً ممزوجاً بمرارة ليشرب» (مت٢٧: ٣٤).

ن ــ صراخه في ألمه وحزنه:

ــ «إلهي إلهي لماذا تركتني. بعيداً عن خلاصي عن كلام زفيري» (مز٢٢: ١).

ــ «ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي إيلي لَمَا شبقتني أي إلهي إلهي لماذا تركتني» (مت٢٧: ٤٦).

س ــ صرخته بالنصرة الأخيرة:

ــ «يأتون ويخبرون ببرّه. شعباً سيولد بأنه قد فعل» (مز٢٢: ٣١).

ــ «فلما أخذ يسوع الخلّ قال: قد أكمل. ونكّس رأسه وأسلم الروح» (يو١٩: ٣٠).

ع ــ طعنه بالحربة:

ــ «وأفيض على بيت داود وعلى سكان أورشليم روح النعمة والتضرعات فينظرون إليَّ الذي طعنوه وينوحون عليه كنائح على وحيد له، و يكونون في مرارة عليه، كمن هو في مرارة على بكره» (زك١٢: ١٠).

ــ «ولكن واحداً من العسكر طعن جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء...، لأن هذا كان ليتم الكتاب القائل... سينظرون إلى الذي طعنوه» (يو١٩: ٣٤و٣٦و٣٧).

ف ــ قيامته في اليوم الثالث:

ــ «لأنك لن تترك نفسي في الهاوية ولن تدع تقيَّك يرى فساداً» (مز١٦: ١٠).

ــ «يُحيينا بعد يومين. في اليوم الثالث يقيمنا فنحيا أمامه» (هو٦: ٢).

ــ «لأن داود يقول فيه: كنت أرى الرب أمامي في كل حين أنه عن يميني لكي لا أتزعزع. لذلك سُرَّ قلبي وتهلَّل لساني حتى جسدي أيضاً سيسكن على رجاء. لأنك لن تترك نفسي في الهاوية ولا تدعْ قدوسك يرى فساداً. عرَّفتني سُبُل الحياة وستملأني سروراً مع وجهك. أيها الرجال الإخوة يسوغ أن يُقال لكم جهاراً عن رئيس الآباء داود إنه مات ودُفن وقبره عندنا حتى هذا اليوم. فإذ كان نبياً وعلم أن الله حلف له بقَسَمٍ إنه من ثمرة صُلْبه يقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه، سبق فرأى وتكلم عن قيامة المسيح أنه لم تُترك نفسه في الهاوية ولا رأى جسده فساداً» (أع٢: ٢٥ــ٣١).

ص ــ صعوده إلى السماء:

ــ «قال الرب لربي: اجلسْ عن يميني حتى أضع أعداءَك موطئاً لقدميك» (مز١١٠: ١).

ــ «لأن داود لم يصعدْ إلى السموات. وهو نفسه يقول قال الربُّ لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءَك موطئاً لقدميك» (أع٢: ٣٤و٣٥).

وفي كل هذه الأعمال كان هو العبد المتألم المنتصر «عبد الرب»، كممثل لكل بشر عوضاً عن الخطاة، مكمّلاً الفداء لهم.

وبعد هذا تأتي نبوة إشعياء لتعبِّر عن كل ما سبق من آلام ونصرة بصورة مذهلة للعقل، كأعظم وأدقّ نبوة عن الخلاص والفداء اللذين أكملها المسيح بآلامه وانتصاره معاً في صورة واحدة متسعة متدرجة (إش٥٢و٥٣) = كل حوادث الصلب بالأناجيل.

ثم يلخصها مرة أخرى بصورة مجملة مذهلة للعقل:

ـ «روح السيد الرب عليّ، لأن الرب مسحني لأُبشّر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعُتق وللمأسورين بالإطلاق. لأنادي بسنة مقبولة للرب وبيوم انتقام لإلهنا، لأعزّي كل النائحين» (إش ٦١: ١و٢).

ـ «وأما فصل الكتاب الذي كان يقرأه فكان هذا: مثل شاة سِيق إلى الذبح ومثل خروف صامت أمام الذي يجزُّه هكذا لم يفتح فاه. في تواضعه انتزَع قضاؤه وجيله مَنْ يخبر به لأن حياته تُنتزع من الأرض. فأجاب الخصيُّ فيلبس وقال: أطلب إليك عن من يقول النبي هذا؟ عن نفسه أم عن واحد آخر. ففتح فيلبس فاه وابتدأ من هذا الكتاب، فبشّره بيسوع» (أع٨: ٣٢ـ٣٥).

وهكذا يتلخص عمل المسيا الذي أكمله الرب يسوع المسيح في بؤرة واحدة: هي **الخطية والخلاص، جمعها معاً**: الخطية حملها بالجسد وأدانها بالصليب، والخلاص أكمله بلاهوته بقيامته.

٢ ـ مجيء المسيح في المجد:

كل أسلوب الرؤيا النبوية حسب الأنبياء، جمعت بين الاثنين: مجيئهُ في الاتضاع، ومجيئه في المجد في صورة واحدة. وهذا هو السبب الذي أربك اليهود، رؤساء كهنة وكتبة وفريسيين:

ـ «روح السيد الربّ عليّ، لأن الرب مسحني لأُبشّر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق. لأنادي بسنة مقبولة للرب وبيوم انتقام لإلهنا، لأعزّي كل النائحين» (إش ٦١: ١و٢).

ـ «روح الرب عليَّ لأنه مسحني لأُبشّر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأُنادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبَصَر، وأرسل المنسحقين في الحرية، وأكرز بسنة الرب المقبولة. ثم طوى السفر وسلّمه إلى الخادم وجلس. وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه. فابتدأ يقول لهم: إنه اليوم قد تمّ هذا المكتوب في مسامعكم» (لو٤: ١٨ـ٢١).

أ ـ المسيَّا سيتوَّج بإكليل من ذهب وفضة معاً كتاج مزدوج:

ـ «ثم خُذْ فضة وذهباً واعملْ تيجاناً، وضعها على رأس يهوشع بن يهوصادق الكاهن العظيم. وكلّمه قائلاً: هكذا قال رب الجنود قائلاً: هوذا الرجل الغصن اسمه ومن مكانه ينبت ويبني هيكل الرب. فهو يبني هيكل الرب وهو يحمل الجلال ويجلس ويتسلط على كرسيه ويكون كاهناً على كرسيه، وتكون مشورة السلام بينهما كليهما» (زك٦: ١١ـ١٣).

وهذه إشارة عجيبة على جلوسه كابن الإنسان وكابن الله معاً، عن يمين العظمة في الأعالي، يملك إلى الأبد. والفضة نقية لأن بشريته كانت بلا خطية، بلا لوم، بلا غش. أما الذهب فهو رمز المجد الإلهي، كما وصفه يوحنا في سفر الرؤيا الأصحاح الأول.

والذهب والفضة كتاج مزدوج للمسيا يشيران بوضوح إلى الكهنوت والملوكية معاً في العهد القديم، ويمثلها ملكي صادق الذي سيجيء المسيا على رتبته:

ـ «قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك. يرسل الرب قضيب عزّك من صهيون. تسلّطْ في وسط أعدائك. شعبك منتدب في يوم قوتك في زينة مقدسة. من رحم الفجر لك طلُّ حداثتك. أقسم الرب ولن يندم، أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق» (مز١١٠: ١ـ٤).

ب ـ المسيَّا يحكم في ملكوته بالبر وبسبعة أضعاف من ملء الروح:

ـ «ويحلُّ عليه روح الرب روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب. ولذّته تكون في مخافة الرب، فلا يقضي بحسب نظر عينيه، ولا يحكم بحسب سمع أذنيه؛ بل يقضي بالعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض، ويضرب الأرض بقضيب فمه، ويميت المنافق بنفخة شفتيه» (إش ١١: ٢ـ٤).

ـ «ورأيت فإذا في وسط العرش والحيوانات الأربعة وفي وسط الشيوخ، خروف قائم كأنه مذبوح له سبعة قرون وسبعة أعين هي سبعة أرواح الله المرسلة إلى كل الأرض» (رؤ٥: ٦).

أما الأعمال المجيدة التي ستتم عند مجيئه فهي:

ج ـ عودة إسرائيل وتحوّلها إليه واتحادها:

ـ «بعد ذلك يعود بنو إسرائيل ويطلبون الرب إلههم وداود ملكهم، ويفزعون إلى الرب وإلى جوده في آخر الأيام» (هو٣: ٥).

ـ «وأنزع أسماء البعليم من فمها، فلا تُذكر أيضاً بأسمائها. وأقطع عهداً في ذلك اليوم مع حيوان البرية وطيور السماء ودبابات الأرض؛ وأكسر القوس والسيف والحرب من الأرض وأجعلهم يضطجعون آمنين. وأخطبك لنفسي إلى الأبد. وأخطبك لنفسي بالعدل والحق والإحسان والمراحم» (هو٢: ١٧ـ١٩).

ـ «لا يسوؤون ولا يفسدون في كل جبل قدسي، لأن الأرض تمتلىء من معرفة الرب، كما تغطي المياه البحر» (إش ١١: ٩).

ـ «بقية إسرائيل لا يفعلون إثماً ولا يتكلمون بالكذب، ولا يوجد في أفواههم لسان غش لأنهم يرعون ويربضون ولا مخيف» (صف ٣: ١٣).

ـ «وكان إليَّ كلام الرب قائلاً: وأنت يا ابن آدم خذ لنفسك عصاً واحدة واكتب عليها ليهوذا ولبني إسرائيل رفقائه. وخذ عصاً أخرى واكتب عليها ليوسف عصا أفرايم وكل بيت إسرائيل رفقائه. واقرنها الواحدة بالأخرى كعصاً واحدة فتصيرا واحدة في يدك. فإذا كلّمك أبناء شعبك قائلين: أما تخبرنا ما لك وهذا؟ فقُلْ لهم: هكذا قال السيد الرب: هانذا آخذ عصا يوسف التي في يد أفرايم وأسباط إسرائيل رفقاءَه وأضمّ إليها عصا يهوذا وأجعلهم عصاً واحدة فيصيرون واحدة في يدي. وتكون العصوان اللتان كتبتَ عليهما في يدك أمام أعينهم.

وقُلْ لهم: هكذا قال السيد الرب: هانذا آخذ بني إسرائيل من بين الأمم التي ذهبوا إليها وأجمعهم من كل ناحية وآتي بهم إلى أرضهم. وأُصيِّرهم أمة واحدة في الأرض على جبال إسرائيل، وملك واحدٌ يكون ملكاً عليهم كلهم، ولا يكونون بعد أُمّتين، ولا ينقسمون بعد إلى مملكتين» (حز٣٧: ١٥ـ٢٢).

د ـ تجديد الأمم:

ـ «لأني حينئذ أُحوّل الشعوب إلى شفة نقية ليدعوا كلهم باسم الرب ليعبدوه بكتفٍ واحدة» (صف ٣: ٩).

هـ ـ السلام بين البشر:

ـ «فيقضي بين شعوب كثيرين، يُنصف لأمم قوية بعيدة، فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل. لا ترفع أُمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب في ما بعد. بل يجلسون كلٌّ واحد تحت كرمته وتحت تينته، ولا يكون من يُرعب، لأن فم رب الجنود تكلّم» (مي ٤: ٣و٤).

و ـ بركة الطبيعة:

ـ «فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي، والعجل والشبل والمسمَّن معاً، وصبي صغير يسوقها. والبقرة والدُّبة ترعيان، تربض أولادهما معاً. والأسد كالبقر يأكل تبناً. ويلعب الرضيع على سَرَبِ الصِلِّ (الثعبان) ويمدُّ الفطيم يده على جُحر الأفعوان» (إش ١١: ٦ـ٨).

ـ «ويكون في ذلك اليوم أني أستجيب، يقول الرب، أستجيب السموات وهي تستجيب الأرض. والأرض تستجيب القمحَ والمسطارَ والزيتَ وهي تستجيب يزرعيل» (هو٢: ٢١و٢٢).

ز ـ ازدياد نور الشمس والقمر:

ـ «ويكون نور القمر كنور الشمس ونور الشمس يكون سبعة أضعاف كنور سبعة أيام، في يوم يجبر الرب كَسْرَ شعبه ويشفي رضَّ ضربه» (إش ٣٠: ٢٦).

وهكذا ليس شيء في العهد الجديد لم يسبق ويذكره العهد القديم مسبقاً. والعجيب حقاً أن آخر ما جاء من النبوات في العهد القديم في ملاخي النبي ٣: ١ يأتي هو هو كأول إعلان وبشرى بميلاد العهد الجديد:

— «**هأنذا أرسل ملاكي فيهيىء الطريق أمامي** ويأتي بغتةً إلى هيكله السيِّدُ الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تُسرُّون به. هوذا يأتي، قال رب الجنود» (مل ٣ : ١).

— «هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف؛ فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم» (مل ٤ : ٥و٦).

— «كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن آسمه زكريا من فرقة أبيًا وامرأته من بنات هرون وآسمها أليصابات. وكانا كلاهما بارَّين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم. ولم يكن لهما ولدٌ إذ كانت أليصابات عاقراً وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما.

فبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله حسب عادة الكهنوت أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر. وكان كل جمهور الشعب يصلُّون خارجاً وقت البخور. فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور. فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك: لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سُمعت وامرأتك أليصابات ستلد لك آبناً وتسميه يوحنا. ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته. لأنه يكون عظيماً أمام الرب، وخمراً ومُسْكِراً لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس. ويردُّ كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم. **ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليردَّ قلوب الآباء إلى الأبناء والعصاةَ إلى فكر الأبرار لكي يهيىء للرب شعباً مستعداً**» (لو ١ : ٥ـ١٧).

ما بين العهدين: من ملاخي النبي حتى ظهور يوحنا المعمدان ٤٠٠ سنة.

بعد حوالي ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) سنة والنبوات تسير من جيل إلى جيل ومن نبي إلى نبي، ولكن فجأة توقفت جميع النبوات من جهة الأنبياء والأسفار القانونية للعهد القديم، وتوقف صوت الله، ولكن لم يتوقف عمل الله لإعداد العالم لقبول المسيَّا: «ولكن لما جاء ملءُ (كمل) الزمان، أرسل الله آبنه مولوداً من امرأة» (غل ٤ : ٤).

كان المحور الذي تدور حوله تدبيرات الله من جهة تجهيز العالم لميلاد المسيح هو توحيد العالم كله تحت لغة واحدة، وإعداده مدنياً شرقاً وغرباً تحت مدنية واحدة وتحت حكم مركزي واحد وسوق تجارية واحدة، لتكون أداة اتصال وانتشار البشارة المفرحة، وسلاماً وأماناً لجميع العالم بطرقه الممتدة من اسكتلندة غرباً إلى آخر حدود فارس، بحيث يوجد في كل سوقِ مدينةٍ حجرٌ مرتفع يحمل رقم المسافة بين هذه المدينة وروما «الخالدة» مركز العالم، ووسائل مواصلات سريعة ومستديمة. هذا كله وضع أساسه الإسكندر الأكبر، الوحيد بين عظماء ملوك العالم الذي حمل آسم «**الأكبر**»، فقد كان عظيماً في إنجازاته من جهة تدبيرات الله وتوطيد السلام في العالم، لذلك نجد آسم «اسكندر» أو «ألكسندر» في كل لغة وكل شعب من لغات وشعوب العالم.

ابتداً عام ٣٣٦ إلى عام ٣٢٣ قبل الميلاد بقيام الإسكندر الأكبر وإخضاعه كلَّ شعوب العالم غرباً حتى اسكتلندة وشرقاً إلى آخر حدود فارس (سنة ٣٣٤ـ٣٣١ق.م.)، وأكمل هذا العمل كل ملوك روما بعد ذلك. ولكن الثقافة واللغة الإغريقية ـ أي اليونانية ـ كانت هي الثقافة العامة لكل العالم.

وعلى طول هذه السنين لم يكُفَّ الشعب اليهودي عن ترقُّب مجيء المسيَّا: «والآن أنا واقفٌ أُحاكَم على رجاء الوعد الذي صار من الله لآبائنا الذي أسباطنا الاثنا عشر يرجون نواله، عابدين بالجهد ليلاً ونهاراً. فمن أجل هذا الرجاء أنا أُحاكَم» (أع ٢٦ : ٦و٧).

— «**وفي السنة الخامسة عشرة لسلطنة طيباريوس قيصر** (الذي عُيِّن سنة ١٢ ميلادية ـ إنما قبل ١٦ ينايرـ أي في نهاية السنة ١١ ميلادية + ١٥ = سنة ٢٦ ب.م.)، إذ كان بيلاطس البنطي والياً على اليهودية (٢٦ـ٣٦ب.م.)، وهيرودس رئيسَ ربع على الجليل، وفيلبس أخوه رئيسَ ربع على إيطورية وكورة تراخونيتس، وليسانيوس رئيسَ ربع على الأبليَّة، في أيام رئيس الكهنة حنَّان وقيافا، كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية. فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا؛ كما هو مكتوب في سفر أقوال إشعياء النبي القائل صوتُ

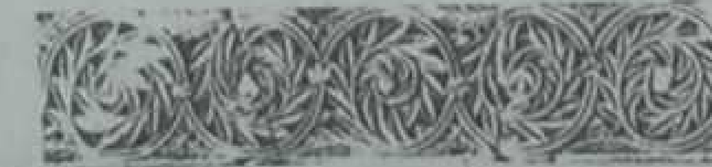
صارخ في البرية أعِدُّوا طريق الرب اصنعوا سُبُلَه مستقيمة. كل وادٍ يمتلىء وكل جبلٍ وأكمةٍ ينخفض وتصير المعوجاتُ مستقيمةً والشعابُ طرقاً سهلة، ويبصر كلُّ بشرٍ خلاصَ الله» (لو٣: ١-٦) - عام ٢٦/٢٧ ميلادية.

- «أجابهم يوحنا قائلاً: أنا أُعمد بماءٍ ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه. هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق أن أحُلَّ سيور حذائه. هذا كان في بيت عَبْرَة في عبر الأردن حيث كان يوحنا يعمد.

وفي الغد نظر يوحنا يسوع مُقبلاً إليه فقال: هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم. هذا هو الذي قلت عنه يأتي بعدي رجلٌ صار قدامي لأنه كان قبلي. وأنا لم أكن أعرفه. لكن ليُظهَر لإسرائيل لذلك جئت أُعمِّد بالماء. وشهد يوحنا قائلاً: إني رأيتُ الروح نازلاً مثل حمامةٍ من السماء فاستقرَّ عليه. وأنا لم أكن أعرفه. لكن الذي أرسلني لأُعمِّد ذاك قال لي: الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي يُعمِّد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهِدتُ **أن هذا هو ابن الله**» (يو١: ٢٦-٣٤).

وهكذا اتصلت النبوات أخيراً **لاستعلان المسيَّا في شخص المسيح يسوع ظاهراً بالجسد!**

(يناير ١٩٨٥)



رؤى ومناظر مبهجة،
وشهادات من وراء التاريخ؛
في يوم عيد ميلاد المسيح.

من التوراة إلى المسيح
ومن سيناء إلى السماء(١)

«وكان في تلك الكورة (القرية) رعاة متبدين (في البادية أي البرية أو الصحراء) يحرسون حراسات الليل على رعيتهم (خرافهم)، وإذا ملاك الرب وقف بهم، ومجد الرب أضاء حولهم. فخافوا خوفاً عظيماً، فقال لهم الملاك: لا تخافوا، **فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب**، أنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود (بيت لحم) **مخلِّص هو المسيح الرب**. وهذه لكم العلامة تجدون طفلاً مقمطاً مُضجعاً في مذود؛ **وظهر بغتة مع الملاك، جمهور من الجند السماوي** مسبحين الله، وقائلين: **المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة**» (لوقا ٢: ٨-١٤).

هذا المشهد المثير يعلن عن أول التحام مفرح بين السماء والأرض مرئي ومسموع، يعلن عن صلة كبيرة وعظيمة حدثت فجأة بين «**الله في الأعالي**» و«**الناس على الأرض**».

لقد سبق أن عاينت البشرية منظراً مثل هذا في سيناء مصر، وقت خروج شعب إسرائيل من العبودية، ولكنه كان منظراً مرعباً:

[ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل، ودعا الله موسى إلى رأس الجبل. فصعد موسى. فقال الرب لموسى: انحدر حذِّر الشعب لئلا «**يقتحموا إلى الرب لينظروا، فيسقط منهم كثيرون**»... وكان جميع الشعب يرَوْن

---

(١) كلمة ألقيت ليلة عيد الميلاد المجيد عام ١٩٨١ بكنيسة القديس أنبا مقار بديره ببرية شيهيت.

الرعود والبروق وصوت البوق، والجبل يدخن. ولما رأى الشعب **ارتعدوا ووقفوا من بعيد**، وقالوا لموسى: تكلم أنت معنا فنسمع «**ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت**». فقال موسى للشعب: لا تخافوا، **لأن الله إنما جاء لكي يمتحنكم**، ولكي تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا].

(سفر الخروج ١٩: ٢٠و٢١؛ ٢٠: ١٨-٢٠)

شتان بين ما حدث في سيناء وما حدث في بيت لحم، فخلف الرعود والبروق واشتعال الجبل بالدخان وتحذير الله من الاقتراب إليه، كان الناموس وكانت شريعة موسى؛ أما في نور مجد الرب الذي أضاء سماء بيت لحم، وعلى مسمع من كل شهود العيان، و بصوت بشارة الملائكة وتسبيح جمهور السمائيين، فقد وُلد المسيح.

في جو الناموس كان الاقتراب من الله، أو حتى الكلام معه، فيه خطر الموت! وفي ميلاد المسيح شهدت الملائكة عياناً بهتاف عظيم كيف تم الالتحام بين مجد الله في الأعالي و بين سرور الناس والسلام على الأرض. والعلامة: ذلك المقمط المُضجَع في مذود!!

«والكلمة صار جسداً، وحل بيننا، ورأينا مجده مجداً كما لوحيدٍ من الآب... الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة» (يو١: ١٤؛ ١يو١: ١).

في سيناء نزل الله على الجبل، ليعطي الإنسان التوراة، فكانت الرعود والبروق والدخان وصوت البوق، والإنسان واقف من بعيد مذعوراً. والله لم يكن سعيداً أبداً بهذا الجفاء المزلزل، ولكن هي عناصر الأرض والسماء والبشر، فزعت لأن الهوة التي تفصل بين طبيعة الله وطبيعة العالم والإنسان الذي فيه هي هوة يحكمها تنافر سحيق وعميق لا يرقى إليه الفكر ولا يقوى أن يسبر غوره أحد، إلا الخاطىء وحده، ربما يمكنه أن يحس بهذه الجفوة و يستشعر هذه الزلزلة. لذلك جاءت طبيعة الناموس في صورة إعلان أحكام قضائية و بنود تفصل بين متنازعين.

ولكن لما تنازل «**الكلمة**» الأزلي ودخل في «رحم» العالم — من خلال عذراء طاهرة قديسة — هدأت مملكة التراب والترابيين، وكأنما كل ذرة في الوجود قد مسَّها التجسد واجتذبها، فتجلَّت في حضرته واستراحت وانعطفت إليه. وعوض النفور والرعود والبروق، ترنمت جنود السماء واستضاءت عناصرها من فوق، بسِرِّ المصالحة العظمى الذي طرحته الملائكة في شكل أنشودة الخلاص والسلام والمسرة. واستقبلت الأرض أصداء النشيد، وأخذت تردده بلا توقف، تعبيراً عن حقيقة الحضرة الإلهية التي بدأت بالتجسد، ولن تنتهي، كصلاة «**صلح**» ألَّفتها الملائكة ولقَّنتها «**للرعاة**»، وستظل ترددها البشرية إلى منتهى الدهور، إلى أن يكمل هذا «الصلح» الذي بدأ عمله بالتجسد والصليب.

لقد جاء الناموس ليؤسس بالفعل عهد الحدود الفاصلة بين قداسة الله وعجز الإنسان، فتأسست به أحكام الموت وتعمقت الفرقة، وأثبتت اللعنة على كل متعدٍّ: «لأن **جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة**، لأنه مكتوب ملعون كل من لا يثبت في جميع ما هو مكتوب في كتاب الناموس ليعمَلَ به» (غل٣: ١٠).

وهكذا بمقدار ما كان التشريع في الناموس يظهر ويعلن عن طبيعة الله القدوسة، كان يعلن بالتبعية عجز الإنسان وقصوره. وهكذا كان كل تدقيق في الناموس ينتهي إلى تعميق الهوة بين الله والإنسان.

أما المسيح فجاء ليرفع هذا الحاجز المتوسط الذي أنشأه البعد والتنافر الهائل بين الطبيعتين: طبيعة الله وطبيعة الإنسان؛ ويزيل لعنة الناموس باستعداد دفع الثمن الفادح: أي قبول اللعنة في نفسه، ليجمع في نفسه و يصالح بين قداسة الله وعجز الإنسان، السماء والتراب معاً، فتأسست فيه الخليقة الجديدة المبرَّرة والمنفتحة على الله، والثمن بعد التجسد كان الدم على الصليب.

أما نشيد الملائكة يوم ميلاد المسيح، فيشكل خلاصة الإنجيل أو كل البشارة المفرحة، لأنه يحمل معنى هذا التقابل والمصالحة بين الله والإنسان، والاتحاد الذي تم

بين المجد الإلهي والعجز البشري ، فأنشأ بالتالي وبالضرورة السرور للناس والسلام على الأرض .

والمقارنة بين المنظرين : منظر جبل سيناء المدخّن ومنظر السماء المنيرة : في الأول صوت الله المرعب وفي الثاني تهليل الملائكة بالمجد ، هي في الحقيقة مقارنة بين **استعلانين لله : الله في الناموس** (التوراة) ، **والله في المسيح** (الإنجيل) !!

أما استعلان الله في الناموس (التوراة) فقد عرفناه ليس في الزوبعة والبروق والرعود والدخان وحسب ، التي تكشف عن ماهية جبروت الله وعظمته وسلطانه بأقصى ما يمكن أن تعبر عنه الطبيعة والمادة ، بل وعرفناه أيضاً في كلمات الناموس حيث استُعلنت نقمة وقضاء الله على من يخالف أو يتعدى حدود وصاياه . **فالله يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء إلى الجيل الرابع من مبغضيه ، ولا يبرىء تبرئياً من نطق باسمه باطلاً !! حيث يتجلى هنا الله في الحرف كشريعة للتأديب .**

أما استعلان الله في المسيح ، فعرفناه ليس فحسب في منظر الملائكة وجمهور جند السماء المسبِّحين بأخبار الخلاص المفرحة ، التي تكشف عن طبيعة مسرة الله العظمى لافتقاد الإنسان بواسطة ذلك المولود لخلاص البشرية ، بل وفي المولود ذاته — التجسد — الذي يكشف عن صورة لتنازل الله المذهل ، حتى إلى ما هو خلف صفوف البشرية كلها بأقصى ما يمكن أن تتحمله الطبيعة : طفلاً مقمطاً **مضجعاً في مذود !!**

هكذا نزل إلى القاع ، لكي إذا ارتفع يضمن أن يحمل على منكبيه كل المذلين والمنبوذين والذين هم خارج السياجات ، إلى أعلى السموات .

وكأنما استعلان الله في سيناء ضرورة حتمية لموازنة استعلان تنازله في بيت لحم . فمنتهى جبروت الله لا بد وأن يكمله منتهى اتضاعه !! وهذا شأن **« القادر على كل شيء »**. فكلِّيُّ العظمة هو كلِّيُّ الاتضاع ، حتماً وبالضرورة ، لتكميل حدود المطلقات . لذلك فسِرُّ المجد لله في الأعالي لابد أن يكمل سِرَّ سلامه على الأرض ومسرته في بني آدم .

ولا عجب إذاً بعد ذلك ، أن استطاعت توبة الخاطىء على الأرض أن تفرّح وجه السماء كلها ، كما يقول الإنجيل !

ولا عجب بالتالي أن تكون **علامة أزمنة الخلاص** ، حسب قول الملائكة : « طفلاً مقمطاً مضجعاً في مذود » ، وأن تبدأ سنة الرب المقبولة حسب قول المسيح : « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (مت ٣ : ٢) ، أو تكون العلامة كما أعطيت ليوحنا المعمدان : رؤية « المساكين يُبشَّرون » (مت ١١ : ٥) .

وأما بشارة الملائكة بالسلام والمسرة ، وتلاقي الله بالإنسان في الطفل المقمَّط والنزول إلى أرض شقائه حتى إلى المذود ، فهذا كله بلغ القمة على صليب المسيح يوم أن صالح الله العالم لنفسه بالمسيح ، وبدم صليبه رفع العداوة بين السمائيين والأرضيين ، وجمع القريبين والبعيدين ، وانفتحت السموات ، وصعد المسيح مفتتحاً طريقاً حياً بجسده إلى الأقداس العليا ، وانتهت غُربة الإنسان على الأرض ودخل ابن آدم إلى السماء لتكون موطنه الدائم !! :

[اِتْبعوا السلام مع الجميع والقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب ... لأنكم لم تأتوا إلى جبل ملموس مضطرم بالنار (جبل سيناء) ، وإلى ضباب وظلام وزوبعة وهتاف بوق وصوت كلمات استعفى الذين سمعوه من أن تُزاد لهم كلمة . **لأنهم لم يحتملوا ما أُمِرَ به** ، وإن مسَّت الجبلَ **بهيمةٌ** تُرجم أو تُرمى بسهم (لاحظ ميلاده في المذود في بيت لحم ؟؟) . وكان المنظر هكذا مخيفاً حتى قال موسى : أنا مرتعب ومرتعد .

بل قد أتيتم إلى جبل صهيون (مكان هيكل الله في السماء : « الرب قد اختار صهيون واشتهاها مسكناً له » — مز ١٣٢ : ١٣) ، وإلى مدينة الله الحي : أورشليم السماوية (« مسكن الله مع الناس » — رؤ ٢١ : ٣) ، وإلى ربوات هم محفل ملائكة (خدام الخلاص) ، وكنيسة أبكار (باكورات القائمين من الأموات) ، مكتوبين في السموات ، وإلى الله ديان الجميع ، وإلى أرواح أبرار مكمَّلين (في المجد — الكنيسة الممجَّدة) ، وإلى وسيط العهد الجديد يسوع

(الطريق والباب المفتوح) ، وإلى دمِ رشٍّ (دم يسوع) يتكلم (متشفعاً) أفضل من هابيل]

(عب ١٢ : ١٤ و١٨ــ٢٤) .

يلاحظ القارىء أن القديس بولس يتكلم هنا عن حاضرنا الذي نعيشه الآن بالروح . فأورشليم **السمائية** هي مدينتنا ــ أمنا الحرة ــ التي نحوم حولها كل يوم ونجوس في شوارعها بالليل والنهار ، وصهيون هي جبل الله **في الأعالي** الذي نتسلقه بأرواحنا في الصلاة ونتلق منه العون كل لحظة ، والكنيسة الممجدة بأرواح قديسيها هم شفعاؤنا ورفاق جهادنا ومؤازرونا ، والملائكة هم الأرواح المرسَلة لخدمة العتيدين أن يرثوا الخلاص منا .

إذاً ، فبولس الرسول يعمل مقارنة واضحة بين سيناء بضجيج عناصرها وصوت الله المرعب ينطق بتحذيرات الشريعة ، و بين السماء مباشرة التي نعيشها منذ الآن مع أرواح أبرار وملائكة والمسيح نفسه كشفيع . وهكذا ينبه ذهننا أن بميلاد المسيح توقفت رحلة سيناء والاستيطان المؤقت في أورشليم الأرضية المستعبدة والمدوسة ، ومتاهة صهيون الاسم الذي لا يزال إلى الآن يرمز إلى التشرد والغربة ، وأنه منذ الصليب وسيرتنا ومسيرتنا تكتب في السموات !!

مقابلة بين الناموس والمسيح :

ولكن المسيح لم يأتِ ليلغي الناموس ، وإنما جاء ليكمله ، حسب قوله . يشهد بذلك موسى وإيليا اللذان ظهرا معه على جبل التجلي : « لا تظنوا أني جئت لأنقض ,, **الناموس** ،، أو ,, **الأنبياء** ،، ما جئت لأنقض بل لأكمل » (مت ٥ : ١٧) .

وهنا يلزمنا جداً أن نفهم معنى كلمة « **الناموس** » التي هي في الأصل العبري كلمة « **توراة** » ؛ والترجمة السبعينية حينما ترجمتها بـ « **الناموس** » أعطت الوجه القانوني فقط لكلمة « **التوراة** » ، فتوقفت دون المعنى العميق لكلمة « التوراة » التي تفيد (سواء الكلمة نفسها أو الأسفار) : [**كل ما استعلنه الله من طبيعته وصفاته**

ومشيئته ، وكل ما يريد أن يكون عليه الإنسان و يعمله] .

هنا يتضح كلام المسيح أنه ما جاء لينقض الناموس ، لماذا ؟ **لأن الناموس عمله بالأساس هو استعلان الله** وتوجيه الإنسان إلى خلاصه ، والمسيح جاء خصيصاً لهذا الغرض . كذلك يتضح معنى « بل لأكمل » ؛ **فتكميل المسيح لعمل الناموس يتركز في كمال استعلان طبيعة الله وصفاته ومشيئته ، وتعريف الإنسان بما يجب أن يكون عليه ويعمله من أجل خلاص نفسه .**

ولكن إن كان المسيح قد أكمل بالفعل استعلان طبيعة الله وإرادته من نحو خلاص الإنسان بتجسده وموته وقيامته ، يكون بالتالي قد استنفد كل عمل الناموس دون أن ينقضه ، فأفرغه من مضمونه وغايته ، و بالتالي أنهى على لزومه .

وهكذا تظل الصلة بين المسيح والناموس سرية وعميقة للغاية ، فكل خصائص وصفات الناموس أي « **التوراة** » التي كانت معروفة في العهد القديم ، أخذها « **المسيح** » في نفسه ، ولكن بصورتها المطلقة الفعّالة ، لكي يكمل كل ما عجز الناموس الحرفي عن تكميله .

وسنأخذ ثلاث متقابلات بين الناموس والتوراة وهم : « **النور** » ، و« **الحكمة** » ، و« **البر** » لكي نوضح مدى تسلسل الرسالة من الناموس إلى المسيح ومدى تكميلها :

أولاً : النور...

النور كصفة للتوراة وطبيعة للمسيح :

نلاحظ أن التوراة كان يرادفها النور ، ولكن نلاحظ بشدة أن المسيح كان هو النور بذاته !

فإذا كانت التوراة (الناموس والوصايا والفرائض) تعتبر نوراً للسائرين نحو الله في العالم « سراج لرجلي كلامك (التوراة) ونور لسبيلي » (مزمور ١١٩ : ١٠٥) ، فالمسيح جاء بشخصه ليكون هو « **نور العالم** » (يو٨ : ١٢ ؛ ٩ : ٥) . ولكن يظل الفارق كبيراً . فنور الوصية مكتسب ، والإنسان يحتاج إلى جهد صعب للسير بمقتضاه ؛ أما المسيح فهو

نور حي غير مكتسب ، **نور حقيقي** Φῶς ἀληθινόν ، ينير بذاته ، لا يحتاج الإنسان إلى جهد للدخول فيه : « فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس » ، « **ما دمت في العالم فأنا نور العالم** » ، « فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام » ، « أنا هو نور العالم ، من يتبعني فلا يمشي في الظلمة . » (يو١ : ٤ ، ٩ : ٥ ، ١٢ : ٣٥ ، ٨ : ١٢)

حينما نزلت التوراة اشتعل الجبل في سيناء بالنار. ولكن لما دخل المسيح « **الكلمة** » العالم بالتجسد اشتعل قلب الإنسان : « جئت لألقي ناراً على الأرض ولا أريد إلا اضطرامها » (لو١٢ : ٤٩) . النار الأولى انتهت إلى دخان ؛ فالوصية انتهت إلى سريان حكم الموت على الجميع ، أما نار المسيح (الروح القدس) فأعاشت الكنيسة في كل العالم في المسيح نور العالم ولا تزال تشتعل وتنير وتحيي !!

وإن كانت كلمات التوراة (الوصايا العشر المحفورة على لوحي الحجر) التي استلمها موسى من الله من فوق الجبل ، جعلت وجه موسى يلمع بالنور (كناية عن أن التوراة تحمل نور حضرة الله) ، مما اضطر موسى أن يلبس برقعاً على وجهه تعبيراً عن عجز الشعب عن إدراك حقيقة الله من خلال كلماته و وصاياه ، وهذه كانت الكارثة التي لازمت إسرائيل حتى اليوم : « أغلظت أذهانهم لأنه حتى اليوم ذلك البرقع نفسه عند قراءة العهد العتيق باقٍ غير منكشف الذي يبطل في المسيح » (٢ كو٣ : ١٤) .

من جهة هذا الأمر نجد أيضاً أن على الجبل جلس المسيح ، وأعطى تلاميذه وصاياه الجديدة التي أنارت ليس وجه التلاميذ بل أنارت ضمير الإنسان وهيأت قلب الإنسان لحلول الله ، أي حضرة دائمة لله في قلب الإنسان بالإنجيل .

ثم على جبل عالٍ تجلَّى المسيح أيضاً ، وموسى (الناموس) عن يمينه وإيليا (الأنبياء) عن يساره ، أي « مشهوداً له من الناموس والأنبياء » (رو٣ : ٢١) ، وفي الحال صار جسمه كله مضيئاً حتى ملابسه ، كناية عن أنه هو بذاته حضرة إلهية : « و (نحن) رأينا مجده » ، « وكنا معاينين عظمته على الجبل المقدس » (يو١ : ١٤ ، ٢ بط١ : ١٦) . فالمسيح هنا هو **مُعطي التوراة الجديدة = كلمة الله الحية المنيرة** ، لذلك يستطرد بولس الرسول قائلاً : « فإن كانت **خدمة الموت** (الناموس الذي يحكم

بالموت) المنقوشة بأحرف في حجارة (لوحي العهد) قد حصلت في مجد ، حتى لم يقدر بنو إسرائيل أن ينظروا إلى وجه موسى لسبب مجد وجهه الزائل ، فكيف لا تكون بالأولى **خدمة الروح** (الإنجيل) في مجد » (٢ كو٣ : ٧و٨) .

« لأنه إن كان الزائل (وجه موسى) في مجد ، فبالأولى كثيراً يكون الدائم (وجه المسيح) في مجد ... ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف (بدون برقع — بدون ناموس) كما في مرآة نتغير إلى تلك الصورة عينها (صورة مجد وجه المسيح في الإنجيل) ، من مجد إلى مجد كما من الرب الروح (بالإنجيل) ... لأن الله الذي قال (في سفر التكوين) أن يشرق نور من ظلمة (على وجه الغمر كانت ظلمة — قبل الخلق) هو الذي **أشرق في قلوبنا** (وليس لمعان وجه) ، **لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح** » (٢ كو٣ : ١١و١٨ ؛ ٤ : ٦) .

أي أنه إذا كان نور « التوراة » أضاء الظاهر والزائل من وجه إنسان مثل موسى ، بنور يمكن إخفاؤه ببرقع ، فنور المسيح أضاء القلوب لمعرفة مجد الله بما لا يمكن أن يُخفى ببرقع ، أي بوصايا وفرائض الناموس .

« ولكن إن كان إنجيلنا مكتوماً ، فإنما هو مكتوم في الهالكين الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين ، **لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح الذي هو صورة الله** » (٢ كو٤ : ٣و٤) .

« فإذ لنا رجاء مثل هذا ، نستعمل مجاهرة كثيرة وليس كما كان موسى يضع برقعاً على وجهه ، لكي لا ينظر بنو إسرائيل إلى نهاية الزائل ، بل أغلظت أذهانهم . لأنه حتى اليوم ، ذلك البرقع نفسه عند قراءة العهد العتيق باقٍ غير منكشف (سر المسيح المخفي) الذي يبطل في المسيح (استعلان الله الكامل بدون ناموس)» (٢ كو٣ : ١٢—١٤) .

والنبوة كمصباح منير ينير فقط إلى مجيء المسيح :

يوحنا المعمدان جاء حاملاً شهادة التوراة للمسيح ، لذلك اعتبره المسيح مجرد مصباح ينير الطريق أمامه لمقدار ساعة من الزمن : « **كان هو السراج الموقَدَ** (بيد

آخر) المنير، وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة . **وأما أنا** ، فلي شهادة **أعظم** من يوحنا » (يو٥ : ٣٥و٣٦) ، لأن الشمس لا تحتاج إلى مصباح يشهد لها أو يعلنها ، وظهور الشمس ينهي على عمل المصباح ، والذي يشهد للمسيح هو عمله !!

القديس بطرس الرسول يوضح هذه المقارنة أكثر، معتبراً أن **كل التوراة ، بأنبيائها ، كانت مجرد مصباح** منير يسير الشعب على هداه ، حتى انبثق نور النهار — أي المسيح : « ونحن سمعنا هذا الصوت مُقبلاً من السماء ، إذ كنا معه (شهوداً) في الجبل المقدس (لحظة التجلي) ، وعندنا الكلمة النبوية وهي أثبت (من جهة الشهادة كتوراة) ، التي تفعلون حسناً إن انتبهتم إليها كما إلى سراج منير في موضع مظلم ، **إلى أن ينفجر نور النهار ويطلع كوكب الصبح (المسيح) في قلوبكم** » (٢بط١ : ١٨و١٩) . « أنا يسوع ، أصل وذرية داود **كوكب الصبح المنير** » (رؤ٢٢ : ١٦) .

ثانياً : الحكمة ...

الحكمة إن كانت صفة في التوراة ، فهي طبيعة في المسيح :

« انظرْ (يا إسرائيل) قد علمتكم فرائضَ وأحكاماً (التوراة) كما أمرني الرب ... **فاحفظوا ، واعملوا ، لأن ذلك حكمتكم وفطنتكم** » (تث٤ : ٥و٦) . الحكمة هنا تلتزم **بتكميل** الفرائض والوصايا **(التوراة)** الأمر الذي عجز عنه الإنسان .

أما المسيح فهو **الحكمة المهداه للبشرية مجاناً** — كما يقول القديس بولس الرسول :

« المسيح يسوع الذي صار لنا **حكمة من الله** و براً وقداسة وفداءً » (١كو١ : ٣٠).

« المسيح المذخر فيه كل كنوز الحكمة والعلم » ، « وأنتم مملوؤون فيه » (كو٢ : ٣و١٠).

« ولكننا نكرز بالمسيح مصلوباً ... **فبالمسيح** قوة الله **وحكمة الله** » (١كو١ : ٢٣و٢٤).

المسيح هنا جوهر الحكمة الموهوب للإنسان مجاناً ، لأنه هو بذاته تكميل الناموس .

كذلك إن كانت الحكمة ، حسب نص الآية في العهد القديم وحسب تعاليم كل الربيين ، أنها هي التوراة ، وكانت أداة استعلان للخالق ، في الخليقة : « أنا الحكمة ... الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم ، منذ الأزل مُسحت منذ البدء منذ أوائل الأرض ، إذ لم يكن غمر أُبدئت ، إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه ، من قبل أن تقررت الجبال ، قبل التلال أُبدئت ، إذ لم يكن قد صنع الأرض بعد ولا البراري ولا أول أعفار المسكونة . لما ثبت السموات كنت هناك أنا ، لما رسم ... **كنت عنده صانعاً** ، وكنت كل يوم لذَّته ، فَرِحةً دائماً قدامه ، فرحة في مسكونة أرضه ولذَّاتي مع بني آدم » (أم٨ : ١٢و٢٢—٣١) . الحكمة هنا مرتبطة بالعالم والطبيعة المخلوقة كأداة استعلان الخالق في الخليقة و بالتالي كانت موضوع مسرة الخالق والمخلوق : « مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته » (رو١ : ٢٠).

ولكن عندما استعلن المسيح ابن الله « الكلمة » ، أدركنا أن كل هذه الحدود الممتدة للحكمة (التوراة) التي استعلنت في العالم والطبيعة **باعتبار أنها كانت أداة في الخلق** لتكشف عن الخالق ، يجمعها المسيح في نفسه بصورة كلية ، وفي وضعها المطلق الشخصي غير المحدود كخالق : « في البدء كان الكلمة . والكلمة كان عند الله . **وكان الكلمة الله ... كل شيء به كان** ، و بغيره لم يكن شيء مما كان . **فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس والنور يضيء في الظلمة ، والظلمة لم تدركه ... والكلمة صار جسداً** » (يو١ : ١—٤و١٤).

ويعود القديس بولس الرسول ليعلن بالروح كيف أن المسيح كان يجمع في نفسه كخالق كل **أعمال الحكمة والخلق معاً** ، فهو الفاعل بالحكمة : « **فإنه فيه خُلق الكل** ، ما في السموات وما على الأرض ، ما يُرى وما لا يُرى ، سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين . **الكل به وله قد خُلق** . الذي هو قبل كل شيء ، **وفيه يقوم الكل ... لأنه فيه سُرَّ أن يحلَّ كل الملء** » (كو١ : ١٦—١٩).

المسيح هنا في وضعه قبل التجسد ، ليس مجرد حكمة (توراة) موجودة قبل الخلق

لتعلن عن الخالق ، بل المسيح هو الخالق الذي يعلن عن ذاته بالحكمة : « الكل به وله قد خُلق » . وفوق هذا وذاك « كان الكلمة الله » . أي أن جوهر وطبيعة الكلمة هو جوهر الله .

لذلك فإن التوراة ، **إذا نظرنا إليها كتاريخ خالص** ، فإنها تكون ملكاً لصانعيه ، لقد كانت حوادث وقصص ونبوات العهد القديم بكل ما فيها ولها من حكمة ملكاً لإسرائيل بلا منازع حيث كان الناموس فيها استعلاناً **جزئياً** للنور والحكمة والبر . ولكن بمجيء المسيح ، المعتبر أنه غاية التوراة وكمالها وتكميلها معاً ، **فهو الحق الخالص** ἀλήθεια والنور « **الكلي** » والبر « **الأبدي** » ، تحول هذا التاريخ عينه بكل نبواته وحوادثه وقصصه وحكمته من وضعه الشعبي كامتياز خاص واستعلان جزئي مشروط ، إلى وضعه الإنساني العام كهبة . لأن **الحق الخالص** هو مِلك لكل إنسان . لقد تحول التاريخ القديم من سيرة شعب معزول إلى حقائق أبدية تخص البشرية . فحينما تكلم المسيح معلناً أن موسى والأنبياء كلها تشهد له ، بل كلها تدور حول استعلان ما هيته كان هذا إشارة إلهية إلى انتهاء العهد الأول ، وكان كلامه ليس نبوة بعد ، وليس حكمة توراة ، ولا امتداداً لها كأنه نبي ، ولكن كان كلامه « روح وحياة » ، و« دينونة » بآن واحد .

وصارت حياة المسيح وأعماله ، كما ظهرت في صميم التاريخ توازن التوراة بكل ثقلها وبكل زخمها الروحي ، لأنها أصبحت وهي بدون الناموس ، ولكن مشهوداً لها من الناموس والأنبياء — أصبحت الاستعلان الواضح والكامل لقوة الله وحكمته ونوره وبرّه وقدرته الفائقة ، وبالأخص من جهة خلاص الإنسان وتجديد روح البشرية . فالمسيح هو بذاته العهد الجديد والتوراة الحقيقية الجديدة الكاملة .

كذلك فإن مسيح التاريخ لا يبدأ من سنة ٤ ق.م. في بيت لحم ، بل يضرب جذوره في « إسرائيل » الذي ناداه الله يوماً باللقب الخاص بالمسيح نفسه : « ابني البكر » (خر٤ : ٢٢) ، الذي ولده في مصر : « أنا اليوم ولدتك » (مز٢ : ٧) .

والكلمة هنا وإن كانت لإسرائيل في مصر إلا أن بيت لحم كانت منظورة من وراء التاريخ ، وإن كان إسرائيل هو الذي دعاه الله من مصر : « من مصر دعوت ابني » (هو١١ : ١) ، ليبدأ رحلة التاريخ إلى فلسطين . إلا أن الدعوة كانت كسهم من نور تخترق حجب الزمان لتستقر على المسيح المحمول على كتف أمه والهارب إلى مصر من وجه هيرودس ، ليبدأ رحلة الخلود إلى السماء .

هنا أيضاً يظهر بوضوح أن المسيح هو إسرائيل الحقيقي أو إسرائيل الجديد الذي له الحكمة ومن أجله الحكمة وفيه تكمل الحكمة لتكون ملكاً للعالم كله : « **نور إعلان للأمم** ومجداً لشعبك إسرائيل » (لو٢ : ٣٢).

الحكمة والبدء « راشيت » :

وإن كان الفكر اللاهوتي العبري بلغ أقصاه في تكريم **التوراة (الناموس)** عندما قالوا إن الله بالتوراة (الناموس) خلق كل شيء عندما فسروا الآية : « **في البدء** خلق الله السموات والأرض » (تك١ : ١) ؛ على أن كلمة « **في البدء** » = (بى راشيت) تعود على التوراة . فالتوراة هي « **البدء** » . وإن حرف « **في** » ، هي بالعبرية : « بى » ، وتعني به أو فيه أو له ، أي أنه بواسطة التوراة خلق الله السموات والأرض ، لأنه لا يوجد في الفكر اليهودي **بدء = (راشيت)** إلا « **الناموس** » ، الذي هو **الحكمة** أيضاً ، معتمدين على آية سفر الأمثال : « أنا الحكمة ... الرب قناني أول (راشيت) طريقه » (أم٨ : ١٢و٢٢) .

وهنا إذ نعود إلى ما استعلنه الوحي عن المسيح « الكلمة » باعتباره حكمة الله كخالق (قبل التجسد) ، نجد أن الكتاب يغطي كل ما يمكن أن يُفهم من الآية : « **في البدء** (بى راشيت) خلق الله » ، باعتبار أنه هو المسيح « الكلمة » وهو البدء الحقيقي لكل شيء : « أنا الألف والياء البداية والنهاية » (رؤ١ : ٨) :

١ — فلو كان حرف « **بى** » راشيت يفيد « **في** » البدء ، فإن بولس الرسول يقول عن المسيح أن « فيه خُلق كل شيء » (كو١ : ١٦) .

٢ ــ ولو كان حرف « **بي** » يفيد « **بواسطة** »، فإن يوحنا الرسول يقول عن المسيح « كل شيء ,, **به** ،، كان » أي بواسطته » (يو١ : ٣).

٣ ــ ولو كان حرف « **بي** » يفيد « **إليه** » أو « **له** »، فإن القديس بولس الرسول يقول عن المسيح « الكل به **وله** قد خُلق » (كو١ : ١٦).

٤ ــ أما لو كانت كلمة « **راشيت** » تفيد « **البدء** »، فالقديس بولس الرسول والقديس يوحنا الرسول يقولان عن المسيح : « **الذي هو قبل كل شيء** »، « **في البدء كان الكلمة** » (**كو١ : ١٧، يو١ : ١**).

٥ ــ ولو كانت كلمة « **راشيت** » تفيد « **الجمع أو الإحتواء الكلي** » بالنسبة للخلق، فالقديس بولس الرسول يقول : « **فيه يقوم الكل** »، « **ليجمع كل شيء في المسيح** ما في السموات وما على الأرض في ذاك » (كو١ : ١٧، أف ١ : ١٠).

٦ ــ وإن كانت كلمة « راشيت » تفيد « **الرأس** »، أي أن التوراة هي رأس الخليقة، فالقديس بولس الرسول يقول عن المسيح : « الذي **هو رأس** كل رياسة » (كو٢ : ١٠)، « **وإياه جعل ,, رأساً ،،** فوق كل شيء » (أف ١ : ٢٢).

٧ ــ وإذا كانت كلمة « راشيت » تفيد كلمة « **بكر** » أو « **باكورة** »، فالقديس بولس الرسول يقول : « **هو البداية بكر** من الأموات » (كو١ : ١٨)، « متى أدخل **البكر** إلى العالم » (عب١ : ٦)، و« صار **باكورة** الراقدين » (١ كو١٥ : ٢٠).

وهكذا يكون المسيح قد جمع في نفسه كل ما يمكن أن تحمله كلمة « **بي راشيت** » من معانٍ، كما جاءت في سفر التكوين ــ أو في فكر الربيين علماء اليهود من جهة التوراة : « **في البدء** خلق الله السموات والأرض »، وإنما بصورة مطلقة ومؤهلات تعجز عنها كلمة « التوراة » أو « الناموس »؛ لأنه إن كانت التوراة هي كلام الله العزيز الحكيم، فالمسيح هو « الكلمة » الابن الوحيد مع الآب المذخر فيه كل كنوز الحكمة.

وبذلك إن كانت قد بقيت الحكمة **صفة مبهمة** للتوراة، فذلك إلى أن استُعلنت **طبيعة فعّالة** للكلمة. لذلك لما **دخل** المسيح « الكلمة » إلى العالم **بالتجسد**، أسرع

حكماء ملوك « المجوس » إليه، إذ عرفوه، فأتوا ليسجدوا له، تعبيراً عن سلطان طبيعة الكلمة الذي جاء لإخضاع الفكر البشري « **لله الحكيم وحده بيسوع المسيح** » (رو١٦ : ٢٧). مما يربط ربطاً سراً عجيباً بين **التجسد** كعمل من أعمال الطبيعة الإلهية الحكيمة وبين هدفها المباشر وهو إخضاع الفكر البشري للحكمة وضمِّه إلى طبيعة الله للارتقاء بالبشرية للدخول في صفاء الرؤيا داخل مجال الحياة الأبدية مع الله.

ثالثاً : البر...

برُّ الناموس بالممارسات ينتهي عند طهارة الجسد،

وبرُّ المسيح بالإيمان بالدم للتقديس لنوال الحياة الأبدية :

كان البر الذي بالناموس هو أقصى ما يشتهي أن يصل إليه الإنسان المتدين في العهد القديم، حيث يُحسب أنه بار أمام الله وأنه يعيش بمقتضى أحكام الله بالتدقيق في تطبيق فرائض الناموس ليل نهار، مما يعطيه حق التفوق في المواطنة بين شعب إسرائيل والنصيب الأوفر في الاحترام والمخصصات الأرضية من أموال ووظائف، مع الظن بأن هذه المميزات تؤهله للغبطة بعد الموت، وخاصة إذا كان من فئة الفريسيين الملتزمين بالحرف. وهذا بالضبط ما كان يعتقده بولس / شاول بكل ثقة وكبرياء قبل تحوُّله إلى المسيح : « من جهة الختان **مختون في اليوم الثامن**، من جنس **إسرائيل**، من سبط **بنيامين**، **عبراني** من العبرانيين، من جهة **الناموس فريسي**، من جهة **الغيرة مضطهد للكنيسة**، من جهة **البر الذي في الناموس بلا لوم ...** » (في٣ : ٥و٦)، « فإنكم سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية أني **كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها، وكنت أتقدم في الديانة اليهودية** على كثيرين من أترابي في جنسي إذ كنت **أوفر غيرة في تقليدات آبائي ...** » (غل ١ : ١٣و١٤).

ولكنه وهو في أوج ثقته بعقيدته هذه وإحساسه بتفوقه في معرفته بالله وأحكامه وشرائعه واعتماده الفعلي على برِّه بالتدقيق في الممارسات بحسب الفرائض الموضوعة، يكتشف فجأة أنه يعيش في أوهام، وأن كل اعتماده على بر الناموس هو وقتي وحسب

الجسد ، وأن الارتكان على تطبيق الوصايا وأحكام الفرائض من أصوام وتطهيرات جسدية وصلوات مسموعة هو بلا أي رجاء بالنسبة لتقديس الروح لخلاصه وللبر الحقيقي أمام الله والحياة الأبدية ، وأن اضطهاده للكنيسة لم يُحسب له برًّا ، على سبيل غيرة مقدسة للناموس ، بل اكتشف أنه إنما كان يقاوم الله نفسه و يضطهد مسيحه ، هكذا جاءه الصوت من السماء وهو يرى وجه يسوع يلمع في الظهيرة بلمعان أكثر من الشمس : « شاول ، شاول ، لماذا تضطهدني ؟ فقال من أنت يا سيد ؟ فقال الرب : أنا يسوع الذي أنت تضطهده » (أع ٩ : ٤ و٥).

وفي الحال انطلق شاول وحيداً ، دون أن يستشير لحماً ولا دماً ، إلى العربية (الصحراء) ليراجع نفسه وناموسه وغيرته واضطهاده .

انفتحت بصيرة شاول ، وراجع كل الأحداث التي رآها والتي سمعها والتي اشترك فيها (اشترك في قتل إستفانوس أول شهيد مسيحي) ، ودقق في دراسة رقوقه وفحص أسفاره بعقلية الفريسي الحاذق « بحث عن الخلاص الذي فتش وبحث عنه أنبياء . الذين تنبأوا عن النعمة ... وعن الوقت الذي كان يدلُّ عليه روح المسيح الذي فيه » (١بط ١ : ١٠ و١١)

وأخيراً أدرك شاول (بولس) كل شيء . ورجع ليجاهر بالمسيح و بالبر الحقيقي أمام الله ، الذي منحه الرب مجاناً لكل البشرية باستحقاق آلامه وموته وقيامته ، البر الذي بالإيمان بيسوع المسيح المصلوب : « لكن ما كان لي **ربحاً** (امتيازات الفريسي) ، فهذا قد حسبته من أجل المسيح **خسارة** ، بل إني أحسب **كل شيء أيضاً** (كل امتيازات اليهودية بأكملها) **خسارة** من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي الذي من أجله خسرت كل الأشياء (فَقَد عضويته في مجمع السنهدريم وكل حقوقه كمواطن يهودي) . **وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح وأوجَد فيه ، وليس لي برّي الذي من الناموس بل الذي بإيمان المسيح ، البر الذي من الله بالإيمان** ، لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته لعلي أبلغ إلى قيامة الأموات ... أنا أنسى ما هو وراء وأمتد إلى ما هو قدام ، أسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا في المسيح

يسوع » (في ٣ : ٧ــ١٤) (٢).

لقد تيقن القديس بولس أن بعد استعلان المسيح وسفك دمه على الصليب لمغفرة الخطايا وتقديس الحياة ، أصبح بِرُّ الناموس (الفرائض والأحكام والممارسات) براً شكلياً حسب الظاهر من الأعمال والأقوال ، يرضي و يشبع الإحساس البشري بالتقوى وعدم الملامة وحسب . ومهما كان هذا البر مقنعاً فلن يستطيع أن يغش الله القدوس ، وهو بلا قيمة من جهة تقديس الروح واستحقاق ملكوت الله . وانتهى شاول إلى اليقين بأن مثل أعمال الناموس (التوراة) هذه يستحيل أن تنشىء برًّا حقيقياً ودائماً أمام الله .

ولكن بالرغم من ذلك ظل بولس محتفظاً بنظرة احترام للناموس (التوراة) بكل أحكامه ، باعتباره وصايا وضعها الله لغرض معين لزمن معين : « فهل الناموس ضد مواعيد الله ؟ حاشا . لأنه **لو أُعطي ناموس قادر أن يحيي ، لكان بالحقيقة البر بالناموس ... كان الناموس مؤدبنا إلى (مجيء) المسيح ، لكي نتبرر بالإيمان . ولكن بعد ما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب ، لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع** » (غل ٣ : ٢١ــ٢٦).

هنا يؤكد بولس الرسول أن أعمال الناموس (من فرائض وأحكام) إنما هي للتأديب ، أي تهذيب النفس والجسد . ولكن يستحيل على هذه الفرائض والأحكام الظاهرية أن تمنح حياة داخلية ، أي حياة أبدية للإنسان ، أعمال الناموس لا تستطيع أن تغير ما بداخل الإنسان ، لا تستطيع أن تطهر الضمير أو تقدس الفكر أو تغير الطبيعة . أعمال الناموس تأخذ قيمتها من طاعتها فقط باعتبارها وصية . فالطاعة في تنفيذ أحكام وفرائض الناموس كانت هي وحدها التي تعطي الإنسان الذي يعملها

(٢) ولكن ليحذر القارىء أن يفهم من هذا أن بولس الرسول يلغي الأعمال الصالحة عامة ، ولكنه يفرِّق بين عمل الفرائض بالناموس ، وعمل الصلاح في الإيمان بالمسيح : «لأنكم بالنعمة مخلَّصون بالإيمان ، وذلك ليس منكم ، هو عطية الله . ليس من أعمال (الناموس) ، كيلا يفتخر أحد ، لأننا نحن عمله ، مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدّها لكي نسلك فيها» (أف ٢ : ٨ — ١٠).

الإحساس بالبر الوقتي ، ولكن استحالة تكميل طاعة كل الناموس — وتحاشي الخطية — وضعت الجميع بالضرورة تحت الدينونة . هذا الأمر يعترف به القديس بطرس الرسول بكل صراحة ، حينما قام بعض اليهود يطالبون بضرورة أن يخضع الأمميون تحت الناموس ، فقال لهم : « والآن لماذا تجربون الله بوضع **نير على عنق التلاميذ** لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله ، ولكن **بنعمة الرب يسوع المسيح نؤمن أن نخلص** كما أولئك أيضاً » (أع ١٥ : ١٠ و١١)

ولكن بولس الرسول لم ينسب ملامة للناموس في حد ذاته ، وإنما نسب إليه العجز والقصور بسبب ناموس آخر استبد بطبيعة الإنسان وملك عليه نفسه وحياته وسكن أعضاءه . « إذاً الناموس مقدس والوصية مقدسة وعادلة وصالحة ، فهل صار لي الصالح موتاً ؟ حاشا . **بل الخطية** ، لكي تظهر خطية منشئة لي بالصالح موتاً لكي تصير الخطية خاطئة جداً بالوصية » (رو٧ : ١٢ و١٣)

لأنه بالرغم من صلاح الناموس ، وبالرغم من تأدية فرائضه بدقة وبغيرة وحماس ، ظل الإنسان يعمل الخطيئة ولا حول له ولا قوة ولا خلاص أيضاً : « الناموس روحي وأما أنا فجسديٌّ مبيعٌ تحت الخطية . لأني لست أعرف ما أنا أفعله . **إذ لست أفعل ما أريده بل ما أبغضه** فإياه أفعل ... الإرادة **حاضرة عندي وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد ، لأني لست أفعل الصالح الذي أريده ، بل الشر الذي لست أريده فإياه أفعل ؛ فإن كنت ما لست أريده إياه أفعل** فلست بعد أفعله أنا بل **الخطية الساكنة فيَّ** ... ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني و يسبيني إلى ناموس الخطية ... ، **إذاً لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع** السالكين ليس **حسب الجسد** بل **حسب الروح . لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت** » (رو٧ : ١٤—٢٣ ؛ ٨ : ١ و٢) .

« الكتاب أغلق على الكل تحت الخطية ليعطي الموعد من إيمان يسوع المسيح للذين يؤمنون . ولكن قبلما جاء الإيمان كنا محروسين تحت الناموس مغلقاً علينا إلى الإيمان العتيد أن يعلَن » (غل ٣ : ٢٢ و٢٣) .

هنا يجيء دور المسيح ، كمنقذ وكفادي ، ليفك بدم صليبه قيود الناموس ويوفي كل أحكامه ويعطي برَّه مجاناً للإنسان ، فيهبه التقديس والحياة الأبدية عوض الموت ، وحرية البنين عوض عبودية الخطية ، و يفك عنه لعنة الناموس : « لأن جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة ، لأنه مكتوب ملعون كل من لا يثبت في جميع ما هو مكتوب في كتاب الناموس ليعمل به ... المسيح افتدانا من لعنة الناموس ، إذ صار ,,لعنة،، لأجلنا ، لأنه مكتوب ملعون كل من عُلِّق على خشبة (الصليب) » (غل ٣ : ١٠—١٣) .

[ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة (عذراء) ,, **مولوداً تحت الناموس** ،، ,, **ليفتدي الذين تحت الناموس** ،، **لننال التبني** . ثم بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الآب ، إذاً لست بعد **عبداً** بل **ابناً** ، وإن كنت ابناً **فوارث لله بالمسيح**] (غل ٤ : ٤—٧) .

ولم تحرمنا التوراة من نبي رائي ، رأى من بعيد ، بعيد جداً (٧٤٢ سنة قبل ميلاد المسيح) ، رأى لنا هذه البشارة المفرحة بكل ظروفها ، رأى بيت لحم ، وأن المولود فيها هو منذ الأزل ، ورأى صهيون الجديدة التي تكلم عنها القديس بولس في الرسالة إلى العبرانيين ، وأورشليم السماوية وسلطان الرب يملأ كل الأرض : « أما أنتِ يا بيت لحم أفراتة وأنتِ صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا ، فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً على إسرائيل ومخارجه منذ القديم ، منذ أيام الأزل ... تجري إليه شعوب وتسير أمم كثيرة ، و يقولون هلم نصعد إلى جبل الرب ... لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب ، فيقضي بين شعوب كثيرين و ينصف لأممٍ قوية بعيدة ، فيطبعون سيوفهم سككاً (سكين المحراث للزراعة) ورماحهم مناجل (للحصيد) . لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد (وعلى الأرض السلام) » (ميخا ٥ : ٢ ؛ ٤ : ١—٣) .

وكأن ميخا النبي المبارك كان يسمع نشيد الملائكة يوم ميلاد المسيح ، و يفسره لنا من وراء الدهور ... !!

(يناير ١٩٨١)

بمناسبة شهر كيهك، وتركيز القراءات في الكنيسة على النبوات التي تشير إلى مجيء المسيا.

« وأنتم مَنْ تقولون إني أنا »

(متى ١٦ : ١٥)

النبوات على مدى العهد القديم **كله** تشير إلى ملكوت الله وإلى المسيا .

والمسيحية ، في أصولها الأولى ، تشهد ــ بترقُّب حار ــ للمسيا آنئذ ، ولم يكن هذا الترقب للمسيا وليد ماضٍ قريب ، بل كان يتأصل و يتجذر في العهد القديم كله بنبواته ، حيث مملكة اسرائيل ويهوذا ينبغي أن توسَّع تخومها لتشمل البشرية كلها ، فيجمعها ملك واحد يحكمها بالبر ، ويجمع العالم المفدي تحت لوائه ، يسبحه ويخدمه ، ويصحِّح كلَّ ما أصاب العالم من انهيار في أخلاقه ويشفيه ، حيث يصير الله أباً بالميلاد الجديد الروحي للمفديين ، الذين عفا عن آثامهم وجدَّد خلقتهم . كل هذا يتجمع و يتركز في شخص المسيا وحده .

هذا هو محور الوعد ، كل الوعد ، في العهد القديم ، وهذا بعينه ما أعلنه العهد الجديد أنه قد تم وأُكمل في شخص المسيح « المسيا » .

أما إذا لم يكن الأمر كذلك ، فهل يمكن أن يأتي المسيا الآن من بيت داود ؟ ومن يشهد بصحة ذلك ؟ و بيت داود انحلَّ ولم يعد له أي كيان أو وجود !

والمسيا في العهد القديم تحيطه هالة سرية من المهابة والمخافة والمجد ، ترقى إلى الألوهة في إعجاز يفوق المنطق « و يدعى اسمه عجيباً مشيراً ، إلهاً ، قديراً ، أباً ، أبدياً ، رئيس السلام » (إش ٩ : ٦) . ومملكته تأخذ صفة العمومية المطلقة في الأزلية والأبدية ، التي هي من اختصاص الله وحده ، « فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب

والأمم والألسنة ، سلطانه سلطان **أبدي** ما لن **يزول** وملكوته ما لا ينقرض » (دا ٧ : ١٤) .

أما علاقة المسيا بالله ، فلم يُحرم أنبياء العهد القديم من النطق بسر هذه العلاقة الجوهرية التي تربطه شخصياً بالله ، ولكن في غلاف من السرية ، والاعتراف بالبلادة ، والاعتذار الشديد عن عدم الفهم ، وفقدان الحكمة لخطورة النطق بهذه العلاقة في الاعتبار اللاهوتي . فيقول النبي : « إني أبلد من كل إنسان ، وليس لي فهم إنسان ، ولم أتعلم الحكمة ولم أعرف معرفة القدوس ، **من صعد إلى السموات** ونزل ؟ من جمع الريح في حفنتيه ؟ من صرَّ المياه في ثوب ؟ من ثبَّت جميع أطراف الأرض ؟ ما اسمه ؟ وما اسم ابنه ، إن عرفتَ ؟ » (أم ٣٠ : ٢ــ ٤) .

ولا يزال اليهود حتى اليوم ، في أحد أعيادهم الهامة ، يقف الرئيس وسط الجماعة ، ويسأل هذا السؤال في صورة احتفالية مهيبة و بصوت مملوء رهبة : « ما اسمه وما اسم ابنه ، إن عرفتَ ؟ » ، فيصمت الجميع . إنه المسيا ، ابن العلي القدير ، ولكن في بنوَّة لا يرقى إليها المنطق أو القياس البشري !!

لذلك يتكلم سفر الأعمال على فم القديس بولس الرسول ، من جهة هذه البنوَّة التي للمسيا ــ أي المسيح ــ ، كما أدركها القديس بولس بالتقليد ، وكما استعلنها بالرؤيا و بالروح معاً ، بيقين ، مردداً قول الوحي « إن الله قد أكمل هذا لنا ، نحن أولادهم ، إذ أقام يسوع كما هو مكتوب أيضاً في المزمور الثاني : أنت ابني أنا اليوم ولدتك » (أع ١٣ : ٣٣) .

ويعود كاتب سفر العبرانيين يردد على لسان بولس الرسول ، بنفس اليقين ، **هذا التقليد الموروث** والاستعلان الواقع معاً « لأنه لِمَنْ من الملائكة قال قط أنت ابني أنا اليوم ولدتك » (عب ١ : ٥) . وهنا يؤكد العهد الجديد أن الناطق في المزمور هو الله بنفسه ، وأن بنوة المسيا لله علاقة لا ترقى إليها الملائكة ، مهما تسامت في طبيعتها ؛ بل ويستطرد كاتب الرسالة إلى العبرانيين ليكشف عن سر الصلة اللاهوتية العميقة

والرهيبة والمتفوقة معاً التي للمسيا بالنسبة للملائكة « وأيضاً أنا أكون له أباً **وهو يكون لي ابناً**، وأيضاً متى أدخل البكر (بكر العذراء ، وبكر الخليقة , بالجسد ، ، وبكر القائمين من الأموات) إلى العالم ، ,,يقول،، **ولتسجد له كل ملائكة الله** » (عب ١ : ٥ و٦) .

ويستشهد هنا بولس الرسول بما جاء في سفر التثنية (النسخة السبعينية) : « افرحي معه أيتها السموات ، **ولتسجد له كل ملائكة الله** » (تث ٣٢ : ٤٣) ، الذي تم بالحرف الواحد يوم ميلاده الأمر الذي يشير إليه المزمور: « أخبرت السموات بعدله ورأت جميع الشعوب مجده » (مز ٩٧ : ٦ و٧) .

ويعود بطرس الرسول ليؤكد هذا التقليد ، كمن يرى و يشهد هذا التفوق الإلهي الذي للمسيا على الملائكة بقوله : « يسوع المسيح الذي هو في يمين الله (بالكيان وليس المكان) ، إذ قد مضى إلى السماء وملائكة وسلاطين وقوات مخضعة له » (١ بط ٣ : ٢١ و٢٢) .

أما المسيا ، فيما يخص عمله بالنسبة للعلاقة بين الله والإنسان ، فهو عمل يفوق الصلة أو الاتصال أو الرسالة ، التي كان يقوم بها الأنبياء . و يوضحه بولس الرسول في مطلع الرسالة إلى العبرانيين بقوله : « الله بعدما **كلَّم** الآباء **بالأنبياء** قديماً بأنواع وطرق كثيرة ، **كلمنا** في هذه الأيام الأخيرة ,,**في**،، ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء ، الذي به أيضاً عمل العالمين (أي عالم السماء وعالم الأرض) » (عب ١ : ١ ــ ٢) .

وهنا يلزم للقارىء أن ينتبه جداً للمقابلة التي وضعها بولس الرسول ليوضح الفارق الكبير والهائل بين الأنبياء و بين المسيح . فالله كلمنا **بالأنبياء**، ولكن الله يكلمنا **في ابنه** . فالأنبياء أوصلوا كلمة الله ، فكانوا واسطة لحمل كلمة الله ، أما المسيا ــ أي المسيح ــ فهو ابن الله الذي يكلمنا الله فيه ، أي أنه هو بذاته كلمة الله المرسلة إلينا . فحينما يتكلم الابن ، يكون الله هو المتكلم .

ثم يرتقي بولس الرسول بأذهاننا ، لندرك سمو صلة المسيح بالبشرية عامة ، سابقاً

ولاحقاً ، و بالخليقة كلها ، أو العالم المخلوق ، مؤكداً أنه ليس كالأنبياء من هذا العالم ، ولا يُحسب أنه من هذه الخليقة ، بل هو خالقها ، فيقول : « الذي به أيضاً عمل العالمين » .

أما نسبة المسيح لكل ما تنبأ به الأنبياء وكل العهد القديم بكل مواعيده ، فجعلها بولس الرسول تتركز في المسيح وتنتهي إليه ، كوارث لكل أعمال الله وأقواله : « الذي جعله وارثاً لكل شيء » . بمعنى أنه لم تخرج نبوة أو وعد أو عمل في الماضي أو الحاضر أو المستقبل عن ما حققه وسيحققه المسيح ، قبل و بعد تجسده وقيامته من الأموات ، حاصراً كل الزمن وكل ما يمكن أن يحدث في الزمن وخارج الزمن في نفسه ، الأمر الذي يؤكده القديس بولس الرسول في مواضع أخرى كثيرة كقوله :

— « فإنه فيه خُلق الكل ، ما في السموات وما على الأرض ، ما يُرى وما لا يُرى ، سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين ، الكل به وله قد خُلق ، **الذي هو قبل كل شيء ، وفيه يقوم الكل** ، وهو رأس الجسد الكنيسة الذي هو البداءة بكر من الأموات ، لكي يكون هو متقدماً في كل شيء . لأن فيه سُرَّ أن يحل كل الملء » (كو ١ : ١٦ ــ ١٩) .

وكقوله أيضاً في موضع آخر : « إذ عرَّفنا بسر مشيئته حسب مسرته التي قصدها في نفسه **لتدبير ملء الأزمنة ليجمع** كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض في ذاك » (أف ١ : ٩ و١٠) .

وقد فهم الرسل بكل يقين ما تعنيه كلمة « ابن الله » ، فقد نطق به بطرس الرسول شاهداً لهذه البنوة جهاراً وفي حضرة المسيح ، بل ورداً على سؤال المسيح نفسه : « وأنتم من تقولون إني أنا ؟ » (مت ١٦ : ١٥) . فأجاب بطرس : « أنت هو المسيح ابن الله الحي » .

والمسيح هنا لم يستعفِ ــ كعبد ــ أو يستكثر ــ كمخلوق ــ صفة البنوة المباشرة لله ، بل صادق عليها بكل يقين ، مؤكداً أن نطق بطرس الرسول بهذه الشهادة لم يكن وليد انفعال أو تفكير أو تصور أو استقراء أو أية معرفة بشرية على الإطلاق ، بل كان إلهاماً مباشراً من الآب السمائي : « فأجاب يسوع وقال له : طوبى لك ياسمعان بن يونا **إن لحماً ودماً لم يعلن لك** لكن أبي الذي في السموات » (مت١٦ : ١٧) .

فبنوة المسيح لله إعلان سماوي لا ينصاع له الفكر البشري بالمنطق ، بل كحالة غبطة وسعادة « **طوبى لك** ياسمعان » . وخارجاً عن هذه الطوبى أو هذه الغبطة والسعادة يستحيل أن يتم إلهام العقل البشري بحقيقة بنوة المسيح لله ، فهي بنوة في دائرة الروح وليس بمفهوم الجسد قط « ليس أحد يقدر أن يقول يسوع ربٌّ إلا بالروح القدس » (١ كو١٢ : ٣) .

أما السؤال الذي يتردد في عقول المستصعبين لهذا الإيمان ، الإيمان بابن الله ، قديماً وحديثاً ، فهو: لماذا هذا العسر في التعريف بذات الله الواحد الأحد ؟

فالإجابة هي أن ارتقاءنا من مستوى عبيد خطأة تجاه الله إلى مستوى أبناء أحباء لله ، هو بعينه الذي أنشأ هذا العسر . فالتعبد لله أسهل من كل سهل ، والسجود لله أو النطق باسم الله ليس عسراً ، ولكن أن نصير لله أبناءً أحباءَ عوض العبيد ، وأن نقف أمامه بلا لوم في المحبة ولنا جراءة وقدوم لنظهر أمامه مبرَّرين في المجد ، فهذا بعينه هو الذي حتم ظهور ابن الله في الجسد ، وهو الذي يشرح صعوبة الدور الذي قام به ابن الله لرفع البشرية التي تبناها لنفسه في جسده إلى حالة البنوة والبرارة أمام الله . فلا ملاك ولا رئيس ملائكة ولا نبي يستطيع أن يرتفع بالإنسان ــ بالنسبة لله ــ من حالة العبيد إلى حالة البنين ، إلا ابن الله وحده .

من هنا استُعلنت البنوة في الله للعالم ، ليكشف الله ما أذخره لنا في نفسه منذ الأزل من جهة ارتقاء خلقتنا فوق كل خليقة ، بل وفوق ذاتها ، لتبلغ في النهاية أقصى كمالها واكتمالها وراحتها الأبدية في الله . من أجل هذا تجسَّد « الكلمة » ابن الله بمطلق حريته ، كنزول إرادي إلى عالم الإنسان ، لكي يستطيع أن يرتفع بالإنسان

ارتفاعاً حراً إلى الله .

وحياة المسيح تشرح لنا بكل وضوح كيف امتلك المسيح كل قوة وكل قدرة فوق كل خليقة في السماء ، وعلى الأرض ، وعلى الطبيعة ، بكل جبروت الخالق ، ليتمم قصد ومشيئة الله فينا ، تماماً كما وصفه داود النبي قديماً في المزمور: « من هو الإنسان حتى تذكره ، أو **ابن الإنسان** حتى تفتقده ؟ تنقصه (وضعته زمناً) قليلاً عن الملائكة ، وبالمجد والكرامة توجته ... وأخضعت كل شيء تحت قدميه » (مز٨: ٤ ــ ٦ حسب الأجبية) .

هذا السلطان الفائق حققه المسيح بالفعل ، كما يشهد الإنجيل ، و يشهد بولس الرسول :

ــ « لتعلموا ما هو **رجاء دعوته** ... وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا ... إذ أقامه من الأموات ، وأجلسه عن يمينه في السماويات ، فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يسمَّى ، ليس في هذا الدهر فقط ، بل في المستقبل أيضاً ، وأخضع كل شيء تحت قدميه ، وإياه جعل رأساً فوق كل شيء ، للكنيسة ، التي هي جسده ... » (أف١ : ١٨ ــ ٢٣) .

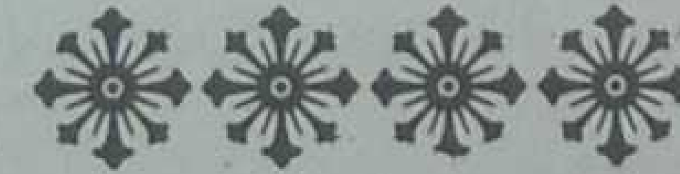
كل هذا السلطان الذي ناله المسيح فوق الموت وكل القوات المنظورة وغير المنظورة ، إنما يخدم قضية واحدة وحيدة بالنسبة لنا نحن المؤمنين باسم يسوع المسيح ، وهي قدرته الذاتية الفائقة لإقصاء حكم الموت عنا وافتدائنا من سلطان الشيطان وكل العوامل المؤدية إلى الهلاك ، تمهيداً للاتحاد به والارتقاء إلى خليقة روحانية جديدة تليق بالانتساب إلى ملكوت الله .

وهكذا ينتقل بنا المسيح في نفسه و بسلطانه الفائق ، من حالة العبيد إلى حالة البنين ، لنصير فيه بشرية جديدة ممجدة هو رأسها .

وهذا العمل الذي أكمله المسيح بسلطانه الفائق ، عندما رفع البشرية من المواطنة الأرضية إلى المواطنة السمائية بتجسده وذبيحة نفسه وقيامته من بين الأموات ، كان هو سر فرح السماء والملائكة ، سواء على فم النبي قديماً : « افرحي معه أيتها السموات ولتسجد له كل ملائكة الله » (تث ٣٢ : ٤٣) ، تماماً تماماً كترنيمة فجر يوم الميلاد المجيد ، حينما استمعت الأرض لصوت الملائكة مع جمهور جند السماء مسبحين : « المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة » (لو ٢ : ١٤) . وهي نفس الترنيمة التي ستهتف بها كل الخليقة عند ختام أزمنة الخلاص في السماء عندما يكمل كل شيء ، كما كشفها سفر الرؤيا :

— « وهم يترنمون ترنيمة جديدة ، قائلين : مستحق أنت أن تأخذ السفر (سفر الدينونة) ، وتفتح ختومه ، لأنك ذُبحت واشتريتنا لله بدمك ، من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة ، وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة فسنملك على الأرض . ونظرت وسمعت صوت ملائكة كثيرين حول العرش ، والحيوانات (الأحياء غير المتجسدين) والشيوخ ، وكان عددهم ربوات ربوات وألوف ألوف ، قائلين بصوت عظيم : مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة » (رؤ ٥ : ٩ — ١٢) .

(ديسمبر ١٩٨٠)



عيد الميلاد

استعداداً لمجيء المسيح:

المسيح عطاء الآب للبشرية

المسيح قربان البشرية:

صنع الروح القدس من مريم «عجنة للبشرية»، بعد أن قدَّسها، ثم اقتطع منها قُرباناً جعله الابنُ خاصاً له ووحَّده بلاهوته، وسلَّمه لبني الخطاة ليرفعوه قرباناً عنهم ورغماً منهم على الصليب.

الحكيمة مريم احتفظت بسر القربان إلى أن حان وقت تقديمه، وقبل الساعة المعيَّنة بقليل كانت وكأنها تقول للمسيح: «أظهِرْ نفسك»!! واليوم نحن نلتف حول المذود لنفرح بقربان حياتنا، قوة كهنوتنا الذي به نلنا جراءة وقدوماً إلى عرش الله.

فاليوم بَطُل مذبح خبز الوجوه، وعوض الخبز الساخن الذي كان يضعه الكاهن على المذبح وما يوشك إلاّ وتعتريه البرودة، وإن نُسي لحظة أصابه العطب، عوض هذا الخبز وُلد الجسد الإلهي الذي أشعل نار الله في القلوب الباردة، فقلَبها أتونَ حبٍّ ما يفتأ يضطرم اضطراماً حتى يأتي على كل خطية الإنسان!! هذا الجسد الملتهب باللاهوت الذي صرع برودة الموت، فأقام الجسد حيّاً، ما زال يقيم كل مَنْ يسمع في القبور صوته!

وُلد قرباننا في بيت لحم (أو بيت الخبز ـ بحسب معناها العبري)، الخبز الحي النازل من السماء الذي ختمه الله، وكل مَنْ يأكله ينطبع عليه ختم الروح فيصير ذبيحة حية وقرباناً مقبولاً.

كان خبز الوجوه لا يأكله في القديم إلاّ ذوو الصفة الكهنوتية، والآن صار المسيح مأكلاً لكل واحد، لأن المسيح قادر أن يجعل كل واحد كاهناً لله الحي! وهكذا أصبح

قربان المسيح بمثابة مسحة جديدة، وقرن دهن بهجة، يمسح القلب ويتوّج الروح بإكليل «قدس للرب» !!

المسيح رجاء البشرية:

المسيح رجاء البشرية المتجدد، الذي مهما أحاط البشرية ظلامٌ وتجمدٌ فهو يظل النور الذي يستطيع أن يضيء داخل قلب كل إنسان ليبدِّد بسلطان قهار كل عتمة وكل شكٍّ، وأن يشيع في الإحساس الجامد حرارة الفرح، التي تجعل من ثليج المشاعر قوة تحرك الأرض بأسرها.

فقبل مجيء المسيح، كانت البشرية، ممثَّلة في الأمم، ترزح في كورة ظلال الموت تحت برودة الظلمة الروحية وظلال العدم، حتى أشرق عليهم فجر يوم المسيح على صوت بُشرى الملائكة.

وليس الأمم فقط بل و بنو إسرائيل أنفسهم، المكنيُّ عنهم ببني الملكوت، وأبناء النور، والماسكين بمفاتيح المعرفة، حكماء إسرائيل، المتعلمين في ملكوت الله، أبناء الأنبياء، أصحاب العهود والمواعيد، والمشرِّعين للفضيلة وناموس البر؛ هؤلاء كلهم خيَّم عليهم ظلام الموت والجهل، بل وأُغلق عليهم جميعاً في العصيان، لكي يظهر أنه بدون المسيح ليس ملكوتٌ ولا نورٌ ولا معرفة ولا حكمة ولا علمٌ ولا رجاءٌ في عهدٍ ولا قيمة لتشريع أو فضيلة أو ناموس أو برّ!

إذاً، فيا لفرحتنا بالمسيح اليوم! فهو وحده يكفينا، لأنه قد تعيَّن لنا من الله أن يكون هو برّنا. فقد صار لنا براً وقداسة وفداءً من الله؛ بل وماذا بعد المسيح وهو الذي فيه كل كنوز الحكمة والمعرفة؟ فحينما نقبله ونُسكنه في قلوبنا، يصير قلبنا بحد ذاته هو كنز الصلاح الذي منه تخرج الصالحات، بل ويصير يُنبوع نعمة يُفيض منه الروح القدس كل معرفة وكل فهم وكل وقار ورزانة وحب.

لقد صار لنا المسيح ناموساً بحد ذاته، لا بكلمات مكتوبة بل بفعلٍ حي، يسيطر على تفكيرنا وإرادتنا وعملنا وكل حياتنا، حتى تنتهي كلها إلى مشيئته المباركة

لخلاصنا من هذا الدهر، وذلك عندما نقبله ونتقبل مشيئته بكل رضا وتسليم.

إن طاعة المسيح للآب كانت في إحدى صورها المبدعة هذه الطفولة المستسلمة ليد الله في وسط محيط الشر الآدمي، ولكنها حُفظت من كل أذى بكل حكمة وفطنة. وهكذا دُعينا نحن أن نكون في طاعة الطفولة عينها تحت تدبير عناية الآب السماوي، لنؤهَّل لتدبير حكمته، ليمكِّننا من ملكوته الأبدي، وليظهر فينا مسرة مشيئته.

المسيح فرح البشرية وقوتها:

المسيح جاء فرحاً سمائياً للبشرية، فيه تختلط أصوات المرنمين من بني البشر مع أصوات الملائكة بلا تفريق، تشدُّهما معاً رؤيا واحدة هي الحب الأبوي المطلق، الفائق الحنان والاتضاع، الذي تجسد في يسوع، هدية أبدية لبني الإنسان، الذي فيه استُعلنت كل حكمة الله وكل تدبيره، ليكون المسيح حامل مجد الآب والمتقبَّل لكل عبادة لله، والذي فيه ينتهي قصدُ الخليقة كما بدأت به.

يسوع المسيح بدأ حياته على الأرض طفلاً بلا قوة، وأنهى حياته على الأرض بالقيامة من الأموات بكل قوة؛ ليثبت أنه فعلاً الألف والياء، بداية كل شيء ونهاية كل شيء، حتى نجد فيه كل قوتنا في منتهى ضعفنا، ثم نجد فيه منتهى ضعفنا في قوتنا، لأنه حاملٌ لفخر القوة والاتضاع معاً. وهكذا يغطي المسيح ضعفات الإنسان المتوشح بالمسيح، ويكشف سترَ الإنسان المتقوِّي بنفسه.

هيرودس الملك أراد أن يقتل الطفل يسوع، لأنه ظن أن ضعف الطفولة فرصة مواتية لسيفه الأحمق. ولكن ضعف الله يستحيل أن يقع في متناول ذراع الأحمق والظالم، «فضعف الله أقوى من الناس» (١كو١: ٢٥). وعلى الصليب و بالصليب انهزم الشيطان هزيمة أبدية.

الإنسان بحد ذاته ضعيف، مهما بلغ من القوة والبطش والسلطان، بل مهما بلغ من القداسة والبر والتقوى؛ أما القوة الحقيقية، القوة التي تظل أبداً قوة والتي تخرج منها كل النصرة، فهي لا تُستمد إلاّ من المسيح بالنعمة مجاناً، وذلك حينما يؤمن الإنسان

ويتحقق تماماً من ضعفه وييأس كلية من كل اعتماد على قوة الإنسان ووسائل تغلُّبه المصطنعة بالعقل والمال والحيلة. فحينئذ يستمد قوة المسيح نفسه من مصادرها الإلهية غير المحدودة.

المسيح عزاء البشرية:

بميلاد المسيح سمع الإنسان لأول مرة ــ بعد خطيئة آدم ــ صوتاً من السماء يعزي قلب الإنسان ويدعوه للسلام والسرور. مباركٌ هذا اليوم لأنه يوم عزاءٍ للبشرية، وقوة سرورٍ قادرةَ أن تحوِّل دائماً و باستمرار كل أحزان الإنسان إلى رجاء.

إن القارىء للنبوات الأخيرة، وخاصة بعد إشعياء النبي، ليُصدم من كثرة الويلات والأحزان والتهديدات التي صبها الأنبياء الواحد تلو الآخر على نصيب كل الأمم والشعوب: «وحي من جهة ...»، «وحي من جهة ...»، «وحي من جهة ...»؛ حتى ليكاد قلب الإنسان ينخلع من فرط التهديدات السمائية الغاضبة... ولكن شكراً لله القادر على كل شيء الذي أنهى عهد الغضب والويلات، وفتح صفحة جديدة كلية لمصير كل الشعوب والأمم يوم ميلاد المخلص: «نور إعلان للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل» (لو٢: ٣٢)!

ما أجمل إشعياء وما أروع صوته المعزي: «عزُّوا عزُّوا شعبي» (إش ٤٠: ١).

«هذا هو اليوم الذي صنعه الرب. نبتهج ونفرح فيه» (مز١١٨: ٢٤)، لأنه يوم خلاص مجاني، يوم فداء من لدن الله، يوم عهد صادر من طرف واحد هو الله فقط، أما الإنسان فلم يشترك فيه إلاّ بتقديم جسد طاهر من العذراء لله ليتخذه خيمة يحل فيها ليكمِّل عهده بذراعه هو!!

نحن شركاء فعليون في العهد الجديد، ولكن لا كمسئولين وإنما كمتقبِّلين!

يا لهذا السخاء في الشركة! ويا للتساهل المفرط! فالدم المسفوك دمنا، أحمر قاني ملتهب، ولكن القوة التي فيه إلهية فائقة الفعل والمفعول، هو جسد وهو دم حامل لضعفنا وحامل لقوة خلاصنا في آن واحد.

أنظروا إلى بيت لحم وتأملوا، فالمولود هو إبنكم وهو ربكم! هو الحامل لطبيعتكم وهو المقدِّس لها والفادي. اليوم لبس اللاهوتُ طبيعتنا، لكي تلبس طبيعتنا اللاهوت. اليوم تحول الضعف إلى قوة، والخطيئة اضمحلت، وحل مكانها برٌّ أبدي.

المسيح حياتنا الجديدة:

ميلاد المسيح هو اليوم الذي نبدأ به سنتنا أو سنة الرب المقبولة، بل نبدأ به حياتنا في الله وخلاصنا الأبدي. هي حياة يسميها الكتاب حياة أخرى، لها سمات روحية لا تخضع لمؤثرات هذا الزمان، ولا تستمد سعادتها من الجسد: «انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه» (يو٢: ١٩).

وإن كانت الحياة التي عاشها المسيح على الأرض هي حياة «في الجسد»، وكان لها كل السمات الجسدية وخضعت لكل المؤثرات الزمانية، إلاّ أنه بالقيامة ثبت أنها كانت حقاً ليست من الجسد ولا بالجسد، بل حياة إلهية أُظهرت في الجسد وحسب: «فإن الحياة أُظهرت، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا» (١يو١: ٢).

هذا السر الإلهي المتضاعف قوة وعمقاً بدأ بسيطاً في بيت لحم وكأنه طبيعي، ولكن استُعلن عجبه واستُعلنت آيته العظمى يوم العماد في الأردن، لذلك عُلم يقيناً أن المولود في بيت لحم هو الحياة الأبدية قد تجسدت، حسب مسرة الآب، وهو أقنوم الابن صار متأنساً. لذلك كان من حكمة الكنيسة الأولى أن تعيِّد للميلاد والغطاس معاً في يوم واحد باعتبار أن الغطاس هو استعلانٌ لسر الميلاد الأزلي القائم في الميلاد الجسدي، بحيث أنه من غير الممكن بل ومن المستحيل أن نفصل أحدهما عن الآخر.

وعلى نفس النمط تماماً نحن نبدأ حياتنا الإلهية، التي هي الحياة الحقيقية والأبدية، بالمعمودية عندما نأخذ روح المسيح أي روح الابن، أو على وجه أدق روح الآب، المنبثق من الآب في الابن الذي يلدُنا من جديد أو يلدنا ثانية، أو على وجه أدق يلدُنا من البدء لله. وهكذا تبدأ الحياة الأبدية تتحرك وتنمو في أحشائنا سرًّا، فنبتدىء نعيش

مع المسيح في الله حياة أبدية تتخطى كل مؤثرات هذا الزمان وتتجاوز كل عيوب ونقائص الجسد، لا تزيدها هذه وتلك إلاّ وضوحاً وقُرباً من جوهرها الإلهي القادر أن يبتلع الموت والفساد ابتلاعاً، حتى يتجلى الجوهر الروحي بكل جماله وكماله الإلهي، وحينئذ يهتف كل لسان بعظمة رحمة الله في المسيح الذي عوَّض الإنسان عن كل ضعفه وألمه ودموعه فرحاً وعزاءً وسروراً.

المسيح بكرُ الخليقة الجديدة:

اليوم أُخصبت البشرية بعد عقم الروح الذي أصاب أبوينا. اليوم وُلد للإنسان ابنٌ يُدعى إلهاً أبدياً!! نحن نعيِّد اليوم عيد باكورة ثمر البشرية الذي صار بكراً بين إخوة كثيرين ورأس كنيسة روحية ملء السماء. هذا هو الوسيط الوحيد بيننا و بين الآب، لأنه أخونا ــ بالتدبير ــ وابن الله بآنٍ واحد! قادر بحق وجدارة واستحقاق أن يشفع في كل ذنب وكل ضعف من جهتنا، لأنه ارتضى أن يحمل أمام الآب والملائكة كل خطيئة الإنسان و يتقبَّل عنها كل تعيير وعقاب. و بعد أن أكمل كل تطهير لازم لطبيعتنا ألبسنا جسده الطاهر لنظهر به أمام الآب بلا عيب ولا لوم.

فمباركٌ هذا اليوم في عداد كل أيام الإنسان، الذي فيه سلمنا جسدنا للروح القدس بواسطة العذراء ليأخذه المسيح عنا و يصيِّره له خاصة، فيتراءى أمام الآب به مصالحاً كل إنسان فيه!! ومباركٌ هو كل إنسان له روح المسيح بالإيمان، لأنه لن يعود يظهر بعد في جسده الميت الفاسد أمام الآب، لأنه سيُعْطَى جسد المسيح ليتراءى به، فينال نعمة ويحل عليه مجد الله.

المسيح عطاء الحب وهبة الاتضاع:

مباركٌ الآب الذي أعلن لنا حبه وكشف لنا اتضاعه في شخص يسوع المسيح، لأنه ليس فقط بإعلان عرَّفنا بالسر الذي احتفظ لنا به في قلبه، بل بإرسال ابنه الوحيد المحبوب. والمسيح أتى لا لكي يعرِّفنا فقط عن سر حب الآب من نحونا ولا لكي يعلن لنا عن سر اتضاعه الذي قَبِلَه ليكمِّل به خلاصنا فحسب، بل ولكي **يعطينا** نفس حب الآب عطاءً متجسداً ملموساً، **ويهبنا** سر اتضاعه لكي يكون قوة ساكنة فينا تضمن

خلاصنا ضماناً كلياً. أما عطاء الحب وهبة الاتضاع فهما في المسيح نفسه، ولا يمكن التعرف عليهما بدونه، ولا يمكن الحصول عليهما منفصلين عن شخصه الحي، ولا إلى لحظة واحدة أو طرفة عين. فالحب الذي يعطينا إياه المسيح هو الروح الأبوي المنسكب فيه، والاتضاع الذي يهبنا إياه المسيح هو جسده المهان المضروب المجروح الميت الحي!

ماذا نرى في بيت لحم إلاّ حباً خالصاً ملفوفاً باتضاع مذهل، وأُمَّا سكرى بالروح لا تعي من ألم المخاض إلاَّ ملائكة تصعد وتنزل عبر السماء، وجسدها المتعب الملقى على تبن المذود! الطفل هو ابنها تماماً، وهو الحامل لكل صفات الإنسان وطبيعته، ولكنه هو هو الابن الأزلي القائم في حضن الآب ظهر متجسداً ليجمع في شخصه كل ما للآب وكل ما للإنسان.

ماذا نرى في بيت لحم اليوم إلاّ حضوراً إلهياً، مضمونه الحب، ووسيلته الاتضاع، وغايته الخلاص، ونحن موضوع هذا الحب، وطبيعتنا وسيلة هذا الاتضاع، وخطيئتنا وذلُّنا ومسكنتُنا هي ميدان هذا الخلاص وعمله؟ نحن اليوم موضوع بيت لحم، نحن نعيِّد عيد الحب الأبوي، ونطوِّب البشرية المسكينة التي صارت مسكناً للاهوت، ونهلِّل للخلاص الذي صار.

فما أعجب هذا الحب والاتضاع بصورتيهما المتجسدتين، اللتين صارتا في لحظة الميلاد قوتين جديدتين حاضرتين في طبيعتنا بمجرد قبولها أو الرضى بهما!

المسيح عريس الكنيسة:

الميلاد عيد الكنيسة الأول الذي فيه تعيِّد لميلاد عريسها.

في هذا اليوم افتقد الله كنيسة البرِّية (العهد القديم) العاقر، التي تمخضت بصراخ الأنبياء وعويلهم، ولم تلدْ إلاّ شعباً جافياً مات في القفر والبقية فسدوا.

اليوم صار الوعد بميلاد ــ كنيسة الأبرار ــ الشعب المُقْتَنَى؛ فسرُّ بيت لحم كُشف لنا بالمعمودية، وميلاد ابن الله بالجسد أعطانا حقَّ الميلاد بالروح. فاليوم هو عيد الكنيسة، هو سر معموديتها وقوة قيامها ودوامها.

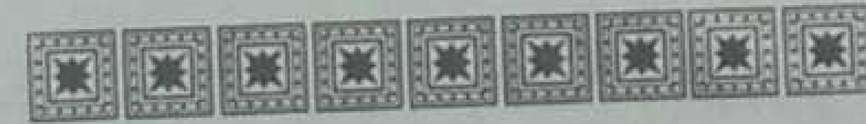
الكنيسة في أصل اللغة اليونانية معناها المدعوّين للظهور[1]، أو بمعنى آخر المدعوين للانتقال من غير المنظور للمنظور، تماماً كما دُعي ابن الله ليلبي نداء حب الآب السماوي للظهور والاستعلان من غير المنظور للمنظور. فالكنيسة تستمد اسمها وحقيقتها من يوم الميلاد الإلهي الذي فيه «ظهرت نعمة الله المخلِّصة لجميع الناس» (تي ٢ : ١١). اليوم نحن مدعوون للظهور علناً بفرح و بشارة، كما ظهرت كنيسة السماء — ممثلة في جوقات الملائكة — وتراءت لبني البشر.

نحن نعلن أصواتنا المكتومة داخل قلوبنا، بتسبيح علني في وسط الكنيسة، لنعلن فرحتنا لدى الملائكة، كردِّ فعل واستجابة لبشارتهم لنا؛ هم أعلنوا لنا بُشرى الميلاد مرة، ونحن نعلن استجابتنا وترديدنا للبُشرى يومياً وإلى الأبد.

ولكن ليس بالأصوات والحناجر فقط تُعلَن البُشرى أو تنطق الكنيسة وتبشر، ولكن بحياة أتقيائها وعُبَّادها. وهم وإن عاشوا وماتوا صامتين، ولكن الكنيسة تستطيع أن تقدمهم كآية لاستجابتها لحب الله المعلَن في المذود، كما تستطيع أن تقدمهم كنموذج متواضع نجح في استعلان تواضع الملفوف بالخرق!

الفرح اليوم هو قوتنا والمسرة هي طعامنا.

(١٩٦٨)



---

(١) كلمة إكليسيا ἐκκλησία مشتقة من الفعل ἐκκαλέω بمعنى يدعو أو يستدعي للمثول والظهور.

سلامٌ لكِ يابيت لحم

ياللتعطفات الأبوية الرحيمة !!

هو خلقنا ولا يزال يحمل مسئولية أنيننا، ويهتم جداً بأحوالنا، ولا يطيق أن يرى أولاده تحت ظلم أو سُخرة أو ضيق، لأنه في كل حال ضيقهم يتضايق جداً... ومن يمسهم كأنه يمس حدقة عينه.

أليس بسبب تعطفات الأبوة الرحيمة التي تملأ طبيعته المجيدة أرسل لنا إبنه الحبيب ليتجسد و يتأنس و يصير تحت آلامنا كلها بعينها، فلا يعود الآب يتشارك معنا في آلامنا تشاركاً معنوياً فقط، بل تصير المشاركة مشاركة فعلية حقيقية في جسد إبنه !!

من ذا يستطيع بعد ذلك أن ينسى حنان الأبوة التي افتقدنا بها في المسيح أو يتجاهلها؟ أو من ذا يتضايق إلى حد التذمر مهما بلغت شدة الضيقة، بعد أن عرفنا بتأكيد أنه يتضايق معنا ومثلنا؟

وإن كانت أنوار بيت لحم في هذه الأيام المباركة تجذب أبصار قلوبنا بشدة للتأمل في أمجاد البنوة المملوءة حباً وسلاماً، فإن أصوات الملائكة لا تزال تلحُّ عليَّ جداً أن أتكلم معطياً المجد لله الآب في الأعالي، مكرِّماً مشاعر الأبوة المتعطفة التي صارت منها هذه المسرة والنعمة المتضاعفة.

ومن ذا يستطيع أن يتقدم إلى بيت لحم إن لم يجذبه الآب أولاً؟
أو من ذا قد صار في الإبن ولم يسبق أن اختاره الآب؟
هذا هو عيد البنوة حقاً، وهو عيد الأبوة بالضرورة.

فإن امتلأت قلوبنا بمشاعر المسرة بالإبن، فلنا أيضاً شركة مع الآب في مسرته «هذا هو إبني الحبيب الذي به سررتُ» (متى ٣ : ١٧)، ممجدين مقاصده الرحيمة لنا

التي اذخرها لنا في المسيح قبل تأسيس العالم . إن الآب إذ رأى وسمع أنين البشرية كلها أرسل ابنه .

بل إن الآب الرحيم المحب أظهر لنا قدم محبته لنا ، إذ ونحن بعد خطاة وُلد المسيح ... والعالم وهو غارق في ظلمة الجحود أحبه هكذا وأرسل ابنه ليبذل نفسه فدية للجميع .

أية متعة لنا في مشاعر حنان الأبوة ! آه أنا محصور في حب الآب ! إني أستشعر حبه جداً قديماً قبل بيت لحم هذا الذي به عرفني ابنه ، وهذا الذي به أيضاً جذبني إليه ...

ومحبة الآب لا زالت واضحة المشاعر في أعماقي أرى في نورها نور محبة المسيح ، وأفهم على هداها مجد ذبيحة المسيح وتكميل المقاصد المكتومة في أسرار ما قبل الدهور .

وفي الحق أنا محصور بين الإثنين ، فمن قلب الآب تقبلتُ أعظم وأجلّ مشاعر محبة الله ملموسة منظورة في الحياة الأبدية وطبيعته الإلهية التي أُظهرت لنا في المسيح متجسداً . ومن قلب المسيح المجروح من أجلي تقبلتُ أسمى آيات الحب الباذل لرفع نفسي والصعود بها في طريق النور، طريق مقدس كرسه حديثاً بجسده المكسور، ليوصلني أنا بنفسي إلى أعماق قلب الآب .

وها أنا كلما أنظر المسيح يسوع ربي وأنذهل من فرط حبه واتضاعه وانفعل في قلبي بحب لذيذ واضح ، لا أملك إلا أن أرفع نظري إلى فوق نحو الآب أبيه وأبي كل أحد ، وأرى وأحس بحبه الأبوي ، فأنذهل أيضاً من فرط هذا الحب والإتضاع ، فيزداد قلبي انفعالاً واضطراباً لذيذاً حتى أكاد أغيب عن وعيي وأستريح من فرط فرحتي التي أثقلت عقلي .

كذلك كل مرة أتطلع فيها إلى الآب وأتقبّل منه مشاعر الأبوة الرحيمة كما يتقبلها ابن عاطل من القوة مستكين في حضن أبيه سيد كل البشر، يمتلىء قلبي شجاعة وينطلق لساني تسبيحاً ومجداً ، لا يكمل فرحي ولا تهدأ نفسي حتى أنظر إلى الإبن

الجالس في حضن أبيه الذي به صار لي مثل هذه الجرأة إلى صدر الله وقدوماً بثقة إلى أبوته الرحيمة ومعرفة بطبيعته المجيدة .

فأي تسبيح يانفسي يمكن أن تقدميه إلى الآب السمائي في ذكرى ميلاد ابنه الحبيب ؟ وأي مجد يليق بالأبوة في يوم عيد البنوة ؟! ولكن مهما مجدنا الآب بالمجد اللائق الفائق ، فلن نستطيع أن نبلغ شيئاً مما بلغه المسيح في ذلك . فما من عظمة لائقة في موضعها إلا وقدمها لأبيه ، وما من فرصة مواتية بقول حسن أو عمل مجيد أو آية أو صلاح إلا ونسبهُ للآب ! حتى فاق في تمجيده لأبيه كل حدود إمكانيات البشر ولم يستبق لنفسه منها شيئاً قط متمماً القول القائل : « إنه أخلى نفسه » (في ٢ : ٧) ... ولكن ليس عن تمايز أو تفاضل بين الآب ونفسه حاشا ! لأنه هو القائل : « أنا والآب واحد » و« كل ما لي فهو لك (للآب) وكل ما لك (للآب) فهو لي » (يو ١٠ : ٣٠ ، ١٧ : ١٠) ، بل بكفاءة متساوية وكرامة واحدة متحدة .

ونحن وإن كنا قد تصورنا أنفسنا في عداوة سابقة ، كلٌّ واحد منا كإبن رافض لمحبة أبيه متغرباً عنه في كورة بعيدة ؛ إلا أن الآب الصالح ما فتىء يطلبنا بنداء الحب الصامت و يدعونا إليه ناسياً جهلنا في اشتياقات صلاحه ، و بتوسط ذبيحة إبنه .

وما الصورة التي قدمها لنا السيد المسيح في قصة الإبن الضال إلا شرحاً لصلاح الأبوة بالأكثر، مُظهراً في نهايتها المبدعة كيف تُغسل عيوب البنوة في حب الآب فتُنسى .

ثم يزيد المسيح قرباً وتلامساً لصلاح أبيه وحنانه ورقة مشاعره من نحونا في مقارنة لطيفة قصيرة غزيرة المشاعر مزدحمة بالأحاسيس بين أبوة الإنسان وأبوة الله [انظر متى ٧ : ٧–١١] ، مقرِّراً في تأكيد كم أن هذه الأخيرة أكثر تعرُّفاً على الخير وأكثر سخاءً في تقديمه .

ولقد كان شغل المسيح الشاغل أن يعرِّف الجميع بكل وسيلة ممكنة وغير ممكنة من هو الآب ... فلم يكُفّ فمه الطاهر عن نطق هذه الكلمة العزيزة عنده أعز من كل

شيء ، فقد رآه وأراه واضحاً ظاهراً في كل عمل وقول ، معلناً بوضوح أنه من حضن الآب جاء ، وبالآب يعمل الأعمال كلها ، ومن الآب يتكلم ، ومن عنده يشهد ، وله وحده يمجّد ، وفي الآب هو كائن ، وإلى الآب يعود ؛ حتى أن التلاميذ فات عليهم عمق اتضاعه وارتبكت معرفتهم عنه هو فسألوه : « أرنا الآب وكفانا ... » (يو١٤: ٨) .

و يالعظم مسرة قلوبنا وغنى حظنا في الآب بالإبن ، لأن المسيح لم يكف بعد عن أن يعرّفنا الآب حتى الآن « عرّفتهم اسمك وسأعرّفهم » (يو١٧: ٢٦) وذلك « ليتمجد الآب بالإبن » كما مجّد الآب الإبن (يو١٤: ١٣ ، ٨: ٥٤) .

والنفس التي ذاقت حقاً حب المسيح وتنسمت رائحة أقنومه الإلهي وتقلبت على جمر نار حبه ، لابد وأن تذوق حب الآب أيضاً الذي هو أسمى إختبارات البشرية ، هذا الذي يُقال عنه في التصوف « التاورية الثالثة » أي تاورية الثالوث الأقدس . هذا هو نهاية جميع الهبات وختام مواهب الروح القدس الذي ختم به السيد المسيح صلاته وسؤاله عنا في نهاية رسالته على الأرض « ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به » (يو١٧: ٢٦) .

ولقد كان الرسل شديدي الإحساس بالآب وما استطاعوا أبداً أن يتذوقوا جمال الإبن إلا في أبيه ، ولا رسالته إلا في إرساليته ؛ بل وما ذكروا الإبن إلا بالآب ، وما طلبوا سلاماً أو نعمة أو بركة إلا واستمدوها من الآب بالمسيح أو في المسيح . وهذا الشعور المقدس في تفهُّم الرسل لشخصية الآب يحدده يوحنا الرسول في عبارة موجزة شاملة مكملة « الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا . وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً » (١يو١: ٣) .

وإن قداسي القديسين باسيليوس وكيرلس لَتطبيق عملي لحياة الشركة العميقة مع الآب ومع الإبن التي تكلم عنها يوحنا الرسول .

فياليتنا نتذوق مشاعر الآب في ذكرى ميلاد إبنه ، ونجعلها تنمو في قلوبنا لتحتل

في حياتنا وأفكارنا ولغتنا مكانها الأول المناسب . فنحن أبناء الله الآب في يسوع المسيح وشركتنا هي مع الآب ومع الإبن .

سلام لكِ يابيت لحم مسقط رأسنا . فقد وُلدنا فيكِ لله بالمسيح ، وصرتِ لنا مكان التبني الذي حُسبنا فيه أهل بيت الله لما وُلد فيك أخونا البكر .

يسوع الذي تجمعت فيه بنوّات الإنسان الكثيرة المتباينة المتنافرة ، فأخذها وغسلها بالماء والدم وطهرها وقدسها ووحّدها بروحه الأزلي ، وقدمها في طاعة محبته بنوة واحدة لائقة للآب ...

وهو « آتٍ بأبناء كثيرين إلى المجد » (عب٢: ١٠) مستطيعاً أن يجعل الكل واحداً فيه ، وهو إذ لم يستح أن يدعونا أخوة استحققنا باتضاعه واشتراكه معنا في اللحم والدم أن ندعو أباه أبانا . وهو لما تجسد وهبنا فكره الذي به استطعنا أن نمتد وراء الدهور ، لنقرأ بالروح مكنونات الأسرار في الأزلية ؛ عن قصة خلقتنا الحقيقية في مقاصد الآب ، ونعلم أننا كنا في المسيح قبل تأسيس العالم لمقاصد ومشيئات الآب الصالح ولنهاية مجيدة مفرحة .

يالِقدم تاريخ الإنسان الذي انكشفت أهم وأمجد حلقاته الروحية بتجسد الإبن ، رافعاً الستار عن طبيعة الإنسان المباركة المكرمة في المسيح يسوع قبل أن توجد خليقة ما وقبل أن يرف روح الله على وجه المياه .

هذا هو كلمة الله الأقنوم الثاني والمساوي مع الآب في الجوهر صانع الخليقة المنظورة وغير المنظورة ، الذي ليس مخفياً عن معرفتنا بل مقروء لاهوته في خليقته ومدرك لاهوته بالمصنوعات (رو١: ٢٠) ... هذا الذي لما عرفوه لم يمجدوه كإله ، ولما جهلوه نزل ليعلن و ينطق بخبر الآب الذي أرسله و يكشف عن طبيعة الله بكلمته .

هذه هي الحياة الأبدية التي أُظهرت لنا في جسد إنسان ، وهي هي التي تمد الخليقة بالحياة وتحفظها من العدم .

هذا هو الحق المتجسد ليعلن لنا أسرار الله في ذاته وفي قيامته .

هذا هو النور الذي جاء إلى العالم مضيئاً بالحق والحياة التي فيه ، حتى بنوره نستطيع أن ندرك النور أي الحق والحياة معاً التي في الله .

هذا هو الإله المتأنس الذي يحمل طبيعة الإنسان بكافة نواحيها ، الذي اكتملت فيه مشاعر الطبيعة البشرية حتى يستطيع أن يتلامس مع كل إنسان في الوجود ، إذ يجمع في شخصه كل سجيات البشرية الفاضلة ولمسات روحها المبدعة بكل أنواعها وصفاتها العديدة ، من كل شكل وكل جنس وكل قامة من فجر الطفولة إلى غسق الشيخوخة ، خلا صفة واحدة ذات اسم شنيع مكروه : « الخطية » .

ففي المسيح ، كل ذي جمال وكل ذي عاطفة نبيلة أو حاسة مقدسة طاهرة ، يجد فيه اتفاقاً وتوافقاً ومعيناً لا ينضب لإلهاماته وإبداعه . وفي المسيح أيضاً يجد كل إنسان ، خلا من امتيازات العبقرية والإلهام ، يجد في المسيح إنساناً نظيره ، ولكن فيه مقدرة أن يستكمل فيه ومنه كل ما تشتهيه نفسه من إلهام وإبداع .

وكل مرذول محتقر ، كل من نبذته البشرية وأذلته فصار كأنه غريب على عنصرها ، يكدح خارجاً عن دائرة اعتبارها مع المخلوقات الأقل ... هذا يجد في المسيح إنساناً مهاناً مرذولاً نظيره يستطيع أن يستعيد فيه كرامته البشرية ، ويجد عنده راحة من كدّ هذا العالم ، و يتقبل منه شرف أخوية أسمى لعنصر أرقى وحياة أبقى .

إذاً فاليوم عيد ، عيد لكل الناس ، لأنه وُلد للبشرية معين ، وأُعطي للإنسان ابن تكملت فيه كل أعوازها .

سلام لكِ يابيت لحم ! فأنت حقاً لستِ الصغرى ، فتخومك امتدت مع المولود فيكِ ودخلت مناطق الأزلية في أقصى السموات ، وصار لنا منكِ عبور سهل إلى تلك النواحي البعيدة في اللانهائية .

وسلام للنجم الذي لا يزال يضيء قلوب الحاجين إليه ، أي كلمة الحياة ، التي

هي سراج منير في موضع العالم المظلم ، يسير أمام السائرين عليها حتى لا تدركهم الظلمة ، يرق بهم إلى مراقي المجد حتى قلب الله .

وسلام على موكب الحكماء السائرين في ليل هذا العمر ، متشجعين بالرؤيا وبالنجم الذي يتقدمهم و يلهمهم حكمة لمعرفة الطريق ، حكمة ليست من هذا الدهر ولا من عظماء هذا الدهر ، حكمة في سر ، حاملين هداياهم مال العالم والذهب ، ومشتهيات الجسد مع اللبان ، ومر الحياة مع الرضى .

قدموا أموالهم لينالوا الملكوت ، ووهبوا أجسادهم ليحظوا بالكهنوت ، واحتملوا المر ليجدوا السرور .

ما أحكم المجوس وما أعمق سر الهدايا ... إن أسرارها لكثيرة .

وسلام للعذراء الأم الممتلئة نعمة التي اختيرت ليحل روح الله على هيكلها البشري حتى تصير نموذجاً أبدياً لإمكانية حلول الله في الإنسان .

سلام للتي لها دالة عند الله أفضل من نبي ورسول ، ومن البشريين قاطبة ، إذ لها مع الأقنوم الثاني رباط وثيق مقدس يضمها إليه إلى الأبد .

سلام للتي وجدت نعمة أكثر من ملاك ومن رئيس ملائكة ، وأُعطيت أن تجلس عن يمين الملك في مجده لأن القدير صنع بها عظائم ، رفعها وأنزل الأعزاء عن الكراسي .

هو الرب ، لذَّته دائماً مع المتضعين في بني الإنسان .

لذلك جميع الأجيال تطوّبها ، وسعيد أنا إذ بلغت جيلاً يطوبها .

بركات بيت لحم فلتحل على شعب الله من جيل إلى جيل ، له المجد في كنيسته إلى الأبد .

(يناير ١٩٥٩)

الخليقة كلها تهللت بمجيئك

إن فرحة الكون العلوي في لحظة ميلاد المسيح ، وظهور الملائكة يسبحون بأمجاد الله ، دليل ما بعده دليل على أن سر التجسد يتجاوز حدود الخليقة المنظورة .

ألم تسبق أخباره في العالم العلوي غير المنظور ، حيث بدأت البشارة من فوق ، قبل أن تفيق البشرية من نعاسها لتدرك سر الميلاد ؟

لقد سرى التجسد لا كخبر بل كقوة بين الخلائق الروحانية ! حتى أن الملائكة وهي منحجبة بطبيعتها عن أعين الناس وأسماعهم ، وُهبت في هذه اللحظات قوة على الظهور والبشارة والتسبيح ، ورأى الإنسان وسمع ما لم يُرَ وما لم يُسمع ...

ألا يعني هذا أن بميلاد المسيح قد رُفع الحجاب المتوسط ، توطئة للمصالحة العظمى المزمع أن يكملها على الصليب ، ثم بقيامته وصعوده يفتتح الطريق إلى السماء ؟

+ + +

لقد ظلت ساعة البشرية في دوراتها الطويلة المملة عبر الدهور السالفة ، تعد أيام الإنسان التي طالت في شقاء وبلا رجاء ، دون أن تحس الملائكة لا بغدوات الإنسان التي تشرق ذابلة ولا بأمسياته التي تذهب حزينة ، إلى أن بلغت ساعة البشرية لحظة ، حُسبت أسعد لحظات الإنسان طرا ، انفتحت فيها السموات لتستقبل خبر ميلاد ابن الله وظهوره بالجسد في عالم الإنسان ؛ ومن بعدها دخلت أيام البشرية في مجال الخلود بقدر ما اقتحم الخلود مجال أيام الإنسان وآلامه !!

لقد غيَّرت لحظة ميلاد المسيح مركز انطلاق الزمن ، وجددت قياسه . فبعد أن كان يرتكز في انبعاثه على حوادث الإنسان ، بدأ ينطلق من يوم الميلاد كأساس لقياسه ، وبعد أن كان يعدُّ على الإنسان أيام شقائه ، صار يقيس له أيام خلاصه . في

المسيح ، كل يوم للإنسان صار يوم خلاص إذا شاء ؛ وكل ساعة وقتاً مقبولاً في وجه يسوع المسيح ...

الله كلمنا ، في قديم الأزمان ، بالأنبياء بأنواع وطرق كثيرة ، ولكنه في هذه الأيام كلمنا في إبنه يسوع المسيح بهاء مجد الله ورسم جوهره (عب ١ : ١ — ٢) !! ، وبهاؤه ورسمه لا يُدرَك إلا بالإيمان بالرؤيا المعقولة غير المصورة ، حينما يحل المسيح بالإيمان في القلوب التقية ، فتمتلىء من بهجة حضور الله وتشتعل بالحب غير المنطوق به .

• • •

كان استعلان الله للعالم في العصور السالفة يتم على مستويات الحكمة في حدود المنطق والبلاغة ، وبقدر ما أوتى الإنسان من فلسفة وتصور ، وكان ذلك ضرورة حتى يتمهد ذهن الإنسان ومنطقه لقبول استعلان الله ، بواسطة المسيح الذي هو عقل الله وكلمته .

وبميلاد المسيح بلغ استعلان الله للعالم آخر مراحله ومنتهاها ، لا بتوسط الحكمة ولا على مستوى المنطق ، بل تعدى كل ذلك وكل حدود الفلسفة والتصور أيضاً ، فقد تم الإستعلان الإلهي على مستوى حياة !! حياة في إنسان ! حياة فيها كل ملء الله وحضرته ببرهان القوة والفعل لا ببرهان الكلمة والعقل ! ... حياة الله في إنسان كامل : يسوع المسيح !!

بميلاد المسيح بطلت الحكمة البشرية وفقدت قيمتها ، كواسطة لإستعلان الله أو حتى الإقتراب إليه ... وتوقفت الكلمة البشرية بكل منطقها وبلاغتها ، وأعطت الطريق لكلمة الله يسوع الحي المذخر فيه كل كنوز حكمة الله وقدرته ، لكي بكلمته يحيي ويجدد ويقيم من الموت !!

لقد كان العالم يستمد معنى وجوده وكيفية عمله وغاية سعيه من عقل الإنسان ومنطق تفكيره ، ولكن بعد أن تجسدت كلمة الله الخالقة للكون والمدبرة والضابطة لحركته وتطوره ، ابتدأ يستمد الكون معنى وجوده ونظامه وغايته من مصدره الحقيقي

يسوع المصلوب والقائم من الموت ؛ في هذا المسيح الميت والحي فُهمت طبيعة العالم التي سقطت وقامت ، وفي مجيئه الذي لابد أن يتم سوف تنكشف غاية العالم ونهاية كل شيء !!

لقد حمل المسيح في صميم طبيعته وكيانه معنى الله ومعنى العالم !!

ما أجمل الله في شخص يسوع وما أبدع العالم معه .

لقد رُئي الله في يديه الحانيتين شافياً معافياً ، وفي فمه معزياً مفرحاً ، وفي عينيه باكياً متألماً !!

وقد رُئي العالم في المسيح كطفل صغير يتعلم كل يوم ، و يتهذب و يتأدب في مدرسة الله ، « اذهبوا ... تلمذوا جميع الأمم !! » (مت٢٨ : ١٩ ؛ مر١٦ : ١٥) ...

لم يعد الله — في المسيح — بعيداً عن العالم ، متجاهلاً أمراضه وأتعابه وأعوازه ...

ولم يعد العالم — في المسيح — بعيداً عن الله ، متجاهلاً حبه ورحمته وفداءه ...

* * *

المسيح في تجسده لم يعلن عن عظمة الله المنظورة لأن العالم المادي لا يحتملها ، لذلك أخلى ابن الله ذاته من كل مجد منظور ليعطي العالم فرصة ليدرك عظمته من وراء اتضاعه !!

فالتجسد ، في حقيقته وسره ، استعلان منظور لعظمة اتضاع الله !!

وهو قصد في نفسه أن يعيش في سحق وضعف وإذلال ، توضيعاً لقلب الإنسان المتعالي ...

الله ظهر بجبروته مرة في جبل سيناء فأرعدت سيناء وارتعدت الأرض ودخنت الجبال واشتعلت ناراً ، واستعفى الشعب العاتي من سماع صوت القدير لأنه أرعبهم ! ...

وفي الميلاد ظهر وديعاً بصوت خافت من فم طفل رضيع ، فاهتزت له أساسات السماء بجبروتها وطأطأت وانخفضت وانحدرت جماهير جند العلي إلى الأرض تسبح الله من فرط تأثرها ، لأن اتضاع الله أرهبهم ! ...

وهكذا فإن كان جبروت الله لا تحتمله الخلائق الخاطئة ، فاتضاع الله لا تحتمله الخلائق السمائية الطيبة ! ...

لذلك ، فسرُّ الميلاد لا يهز إلا القلوب التقية .

□

يا ربنا يا كلي المجد .. باتضاعك ، اطرح سلامك على ربوع بلادنا التي وطأتها أقدامك ! .. وعلى كل بلاد العالم حتى يلتفت الإنسان في كل مكان إلى رسالة الخلاص وسلام القلب الحقيقي ! ..

واذكر كنيسة مصر كنيسة ربوات الشهداء والنساك ، وجدد شبابها كالأول ، واعطِ سلامك لراعيها ورئيس أساقفتها ، ليرعى شعبك بالحكمة ويصالح المتخاصمين فيحل السرور بين الناس !

(يناير ١٩٦٨)

الوعـــد
تأملات في الميلاد

عشرون قرناً مضت منذ وعد الله ابراهيم والآباء بمجيء المخلص والفادي ، وعلى مدى هذه السنين الطوال ظل يترقبه الأتقياء في كل جيل ، عابدين بالجهد « ليلاً ونهاراً » (لو ٢ : ٣٧) ، وكل جيل يسلم وديعة الترقب الحار الذي لا يخمد إلى الأبناء ثم يرقدون على الرجاء ! ...

وفي هذا الشعور المرهف الحساس ، الذي يترقب تتميم الوعد في كل يوم وكل لحظة ، كان يقرأ الملهمون النبوات و يطبقونها على الحوادث لعلهم يحصلون على شيء من ملامح القادم أو قرب الزمان .

ولم يستطع طول الزمان أن يضعف حركة هذا الترقب ولا الحوادث الجسيمة استطاعت أن تخمد هذه النار المتأججة ، بل على النقيض كانت خفقات القلب تزداد بمرور الزمن ولهيب الشوق يشتد بعصف الحوادث ، وكأنما المسيا الآتي من وراء الزمن تستدعيه الأيام وتتعجله الحوادث !!

ولما بلغت المحنة أقصاها كان قد بلغ الترقب غايته ووقف المنتظرون على أصابعهم باحساس من قد بلغ النهاية ، تتطلع نفوسهم بأقصى جهد « نحو أربع وثمانين سنة لا تفارق الهيكل عابدة بأصوام ليلاً ونهاراً **مع جميع المنتظرين فداء في أورشليم** » (لو ٢ : ٣٧) . وفعلاً كانت الأيام قد بلغت ملأها وكفَّ الزمان عن دوراته الفارغة ، فأُعطيت الإشارة من لدن القدير لظهور ابن الله في الجسد ليكون هو المسيا الموعود به مسيح الرب المخلص والفادي : « ولما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة ، مولوداً تحت الناموس ، ليفدي الذين تحت الناموس لننال التبني » (غل ٤ : ٤ ، ٥) .

هذا هو الغصن الذي نبت من جذع يسى الأسد الخارج من سبط يهوذا ...
« شيلون » رجل السلام ، الكوكب المشرق من سبط يعقوب ...

بذرة ابراهيم الذي تتبارك به كل ممالك الأرض و يرد الفجور عن اسرائيل ...
نسل آدم ، العتيد أن يرفع ذلة بني آدم و يسحق رأس الحية ...
هذا هو الناقض لهيكل الحجارة الزمني فخر اسرائيل المنهدم ، والباني لهيكل الروح في قلب الإنسان !

هذا هو الوسيط والمصالح للأرض مع السماء والشعب مع الشعوب والنفس مع الجسد !

هذا هو المسيح الذي خرج نوره إلى أقصى الأرض ، الذي لم يعرف له العالم مثيلاً أو شبيهاً أو معادلاً ...

ابن الإنسان الذي وُلد من عذراء ، وعاش بلا خطيئة ، ولم يوجد في فمه غش ...

ابن الله الذي علَّم بسلطان ، وكان كلامه روحاً وحياة ، له قدرة الخَلْق والإقامة من الأموات ! ...

كلمة الله الذي أنار بشخصه في وسط العالم طريق الحياة والخلود ، وأسَّس في قلب الإنسان ملكوت الطهارة والقداسة والمحبة والسلام ! ...

الراعي الصالح الذي ما يزال يقود قطيعه في كل الأمم إلى مراقي القداسة والحق ، الذي قدم نفسه مرة فدية عن الخروف الضال .

فإن كان قد رفضه اليهود الصالبون غير الأتقياء ، لأنهم لم يروا فيه عظمة المسيا الذي توهموه بقوة الذراع و بأس السيف وسطوة الذهب ، فعلى كل حال قد أكمل المسيح كل أعمال المسيا ولم يتبقَّ من بعده عمل واحد لمسيا آخر يأتي ، إلا الدينونة المزمعة أن يكملها على كل الذين رفضوه وأهانوه وأحبوا الظلمة أكثر من النور ...

وإن كان قد ترقبه اليهود مولوداً في « قلعة قصر في بيت لحم » ، حسب ما فسره بعض الربيين وعلماء التلمود لأقوال ميخا النبي ، فميلاده في مذود للبهائم حطم كل كبرياءهم وحجزهم عن الإيمان به ، كما أثبت ضمناً أن قصة الميلاد من وضع إلهي دُبرت بعناية فائقة لتناسب اتضاع الخلاص وليست من نسيج كبرياء الإنسان ! ...

شهر ديسمبر (تب هث اليهودي) في فلسطين وإن كان ليس مطيراً نسبياً ، إلا أنه من أشد شهور السنة برودة . لذلك كانت الرحلة من الناصرة إلى بيت لحم ، والتي استغرقت ثلاثة أيام كاملة[1] شاقة للغاية ومجهدة للعذراء أقصى إجهاد ... وما أن انتهى يوسف ومعه مريم القديسة من الإستقرار في المغارة الملحقة (بالخان)[2] والمعدَّة (للركايب) — إذ لم يجدوا مكاناً في (الخان) نفسه ؛ حتى بدأ يرخي الليل سدوله لأن نهار الشتاء قصير... فأسرعوا وأفرغوا ما في (الخُرج) من أدوات السفر والأكل والملابس القليلة والغطاء الذي افترشوه ، وجلسوا ليستريحوا ...

كان كل شيء حولهم غير مناسب ولا يمكن أن يقبله ذوق أي إنسان ، و بالأخص لو أدخل في الحسبان احتمال حدوث « وضع » في هذا المكان بهذه الظروف ، و يكاد الإنسان بمشقة أن يضبط قلمه من أن يسترسل في وصف صعوبة هذا الحال وبؤسه ، كرامة للمولود ! ولكن من ناحية أخرى مهمة وذات اعتبار جوهري ، أن هذه الظروف بعينها كانت تتناسب كل التناسب مع مشيئة يسوع المسيح نفسه إذ أراد أن يدخل إلى العالم بهذه الكيفية تماماً !!

ألم يقل هو نفسه بعد ذلك طوبى للمساكين ؟

كان ممكناً ، لو تقدموا يوماً أو بعض يوم ، أن يجدوا مكاناً أو ربما غرفة خاصة ، ولكنه كان قد أضمر أن يسند رأسه أول ما يسنده في مذود للبهائم ... ألم يقل هو نفسه

---

(١) لقد فضَّل يوسف على وجه الترجيح أن يتفادى المرور بالسامرة جرياً على عادة اليهود ، فاضطر أن ينحدر شرقاً و يسير بحذاء ضفة الأردن الشرقية ثم يعبر الأردن قبالة مخاضة أريحا ثم ينحدر جنوباً بغرب نحو بيت لحم ، وسواء اتخذ هذا الخط أو سار عبر السامرة فالرحلة من الناصرة إلى بيت لحم لا يمكن أن تستغرق أقل من ثلاثة أيام كاملة .

(٢) « الخان » هو المنزل المعد لنزول المسافرين وقد وردت الكلمة « κατάλυμα » بهذا المعنى في الترجمة السبعينية خر٤ : ٢٤ ، وكان الخان قديماً يحتوي بالضرورة على مكان لإستراحة الركايب ، والتقليد الكنسي ينص على أن المزود المذكور في الإنجيل الذي وُلد فيه المسيح ، والذي هو عبارة عن المكان الذي يوضع فيه التبن لتأكل منه البهائم ، كان داخل مغارة منحوتة في الجبل . وهي الآن المبني فوقها كنيسة الميلاد ببيت لحم ، وهذا يدل على أن المغارة كانت ملحقة بالخان .

فيما بعد أن : « ليس لابن الإنسان أين يسند رأسه » (لو٩ : ٥٨) ؟ ... إنه حقاً قد جاء ليجعل الراحة الحقيقية ليست للجسد وإنما للقلب ! .. كما نوى بالفعل أن يجعل من تعبه راحة للمتعبين ! ..

هو فضَّل أن يولد بين البهائم الطيبة ، ليس لأنه كان يكره الإنسان في شره ، أبداً ، ولكنه تنازل عن مكانه في الخان لإنسان آخر رآه أكثر حاجة ! ...

لقد اختار أن يولد في هذا الظرف العجيب « الإكتتاب العام » أي التعداد ، لكي يأخذ رقماً رسمياً كمواطن على الأرض ! .. « مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس » (غل٤ : ٤-٥) .

ولم يكن جزافاً أن يأتي مجيء أمه إلى بيت لحم قبل الميلاد ، بل هو قصد ذلك منذ الدهر إذ تكلم الأنبياء عن هذه المشيئة ، لأنه شاء أن أول نسمة هواء تدخل صدره تكون من « بيت لحم » التي ترجمتها « **بيت الخبز** » — لأنه نوى منذ الدهور أن يقدم جسده قرباناً لأبيه وخبزاً حياً للعالم : « **لذلك عند دخوله إلى العالم** يقول ذبيحة وقرباناً لم ترد ولكن **هيأت لي جسداً** ... ونحن مقدسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة » (عب ١٠ : ٥ ، ١٠) ، « أنا هو الخبز الحي النازل من السماء ... الخبز الذي أنا أعطيه هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم » (يو٦ : ٥١) .

* * *

لم يكن مع العذراء في ساعة الوضع أي إنسان — ولعل يوسف أيضاً كان في الخارج — لأن الكتاب لم يذكر عبثاً أنها هي بنفسها « قمطته وأضجعته في المذود إذ لم يكن لهما موضع في المنزل » (لو٢ : ٧) . ولم يقصد الرب هذا في نفسه ولأمه ترفعاً عن معونة الناس ولكن حفظاً لسر الميلاد ، لأن عجيبة ولادته من البتول يليق بها التحفظ والكتمان ؛ ولقد حرصت العذراء في سردها لهذه الظروف سواء للقديس لوقا كاتب الإنجيل أو لغيره أن يظل هذا السر مغلقاً دون استقصاء . ولكن ليس عسيراً على العقول الطاهرة النقية أن تلمح من وراء هذا الحجاب الصامت الملقى على القصة ، بدقة وعمد ، أبعاداً أخرى من الوقائع التي قد يكون سردها هنا أيضاً خروجاً على مشيئة الوحي ! ...

ولكن على أية حال فهذا الإقتضاب الشديد في كشف وقائع الميلاد ، وإن كان فيه إجحاف بالبشرية المتعطشة لمعرفة المزيد من ظروف أعظم ميلاد حدث على وجه الأرض لأعظم إنسان ظهر في الوجود ، إلا أن هذا الإقتضاب عينه يرتفع بنا إلى مستوى الروح لنقدم الوقار الفائق واللائق بالأم البتول ، وننحني ساجدين لهذا الطفل الإله الذي خرج من حضن الآب السماوي ليلتقي بنا في المذود ! ... نعم كان يليق فعلاً بالإنجيل هذا الأسلوب الإلهي المبدع لأن عبارات البشر مهما طالت ودققت ، فهي ستقف في النهاية عاجزة عن وصف دخول المسيح إلى العالم ! ...

* * *

لقد جاءت قصة الميلاد مخيبة لكل آمال اليهود وتقاليد شيوخهم ، فكون المسيا يولد في مذود للبهائم شيء لا يطيقه العقل اليهودي ، وقد قصد رب المجد أن يجعل من ميلاده آية اتضاعه حتى لا يؤمن به العقل إلا إذا انحنى إلى مستوى المذود ، كما جعل صليبه آية طاعته العظمى للآب حتى لا يخلص به إلا الذي ينحني تحت ثقله وعاره ! ...

الرعاة المتبدُّون[١] :

كان من الأمور الثابتة لدى الكهنة والربيين أن ميلاد المسيا سيتم في بيت لحم طبقاً لنبوة ميخا النبي « أما أنتِ يابيت لحم أفراته ، وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا ، فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل » (ميخا٥ : ٢) .

ولكن من المدهش حقاً أن تمتد حساسية الأنبياء وقدرة المفسرين إلى تعيين كيفية البشرى بميلاد المسيا ومكانها !! إذ يعلق عليها كتاب « الترجوم »[٢] في شرحه

(١) المتبدون : أي المقيمون في البادية .

(٢) كتاب الترجوم هو الكتاب الذي كان يحوي ترجمة الأسفار الخمسة الأولى من اللغة العبرانية القديمة إلى اللغة الآرامية التي بدأ يتكلم بها الشعب اليهودي بعد رجوعهم من السبي وهو يشمل مع الترجمة شرحاً مختصراً تقليدياً عن الربيين الكبار .

عرضاً لسفر التكوين للآية ٢١ من الأصحاح الخامس والثلاثين ـ أن في المكان المذكور باسم « برج القطيع » « ميجدال عدر » (انظر تك ٣٥ : ٢١) ستعلن بشرى ميلاد المسيا ، وذلك اعتماداً على ما جاء في سفر ميخا النبي (٤ : ٨) ، الذي فيه يقول « وأنتِ يابرج القطيع (**ميجدال عدر**) أكمة بنت صهيون ، إليكِ يأتي ويجيء الحكم الأول ملك بنت أورشليم » .

وبرج القطيع هذا ، أو « ميجدال عدر » كما جاء باسمه العبراني في سفر التكوين ، هو برج مشيد على أكمة في حدود بيت لحم على الطريق نحو حبرون ، وهو المكان الذي خيَّم فيه يعقوب بعد موت راحيل امرأته المحبوبة . والذي يقرأ في كتاب « المِشنا »[٣] يجد أن هذا البرج قديم ، وكان يستخدمه الرعاة حرَّاس قطعان الغنم الذين يُوكل إليهم رعاية الغنم المخصصة للذبائح الهيكلية ، وهي القطعان الوحيدة التي كان يصرَّح لها بالوجود داخل حدود المدن وخاصة بالقرب من أورشليم ، وذلك لا يكون على مدار السنة بل في الأشهر المطيرة فقط التي تبدأ من شهر نوفمبر (كسلو) ، أما بقية أيام السنة فيلزم أن تكون القطعان في البراري البعيدة عن المدن ، ومن هذا يتحقق لنا أن ظهور الملاك المبشر كان لهؤلاء الرعاة بالذات ، الذين لم يكونوا رعاة عاديين بل من أصحاب الوظائف الهيكلية كما ينص التلمود .

وهكذا تحققت تماماً رؤيا ميخا النبي بكل صفاء وجمال ، إذ ظهر الملاك فعلاً لرعاة الذبائح الهيكلية من فوق هذا البرج ...

ولكن لا يفوتنا هنا أن نلمح سر اختيار هؤلاء الرعاة الهيكليين بالذات دون جميع الرعاة ، أليس المسيا عندما يجيء يكون هو الراعي الهيكلي الحقيقي ؟ ... « راعي الخراف العظيم » (عب١٣ : ٢٠) ؟

أليس هو أيضاً الذبيحة الحقيقية التي ستقدم مرة واحدة ليبطل عهد الذبائح إلى

(٣) كتاب المِشْنا هو ملخص للقوانين والتعاليم العامة لأعاظم الربيين وطريقته في التعليم تعتمد على ترديد الحقائق للحفظ .

الأبد ؟ إذن ، فكانت البشرى بمثابة إعلان عن الذي سيحل محلهم إلى الأبد !! أو هي إن شئت تسليم وتسلُّم عهد لعهد ، فقد جاء الراعي الحقيقي الذي سيرعى الخراف الناطقة ، ليقدمها ذبائح حية بالطاعة والحب على مذبح القداسة ...

إذن ، فبشارة الملاك للرعاة لم تكن بغير ذي معنى ، ومعناها عميق لأنهم أول من اختارتهم السماء ليُستأمنوا على سر الخلاص !...

وكأنما شاء المسيح بصفته الحمل المعد للذبيحة العظمى أن يولد في بيت لحم في تخوم « ميجدال عدر » ، حيث تولد الخراف عادة في قطعان الهيكل ، ثم يبشر هؤلاء الرعاة بميلاده ، كحمل بين الحملان ، و يُؤمروا بز يارته ليدخل أيضاً ضمن حراستهم فيكون منذ أول لحظة حملاً معداً للذبح !!...

ليلة الميلاد :

من الأمور المدهشة حقاً والتي لا يمكن أن نعزوها إلى الصدف ، أنه في العهد القديم كان يوجد تقليد متوارث للصوم في اليوم التاسع من الشهر العاشر العبري « تب هث » ، ولكن أصوله الطقسية الأولى وتفاسير تقديسه ضاعت من التقليد اليهودي ، إلا أنه كان معروفاً لدى الربيين المفسر ين للطقوس ، أن هذا اليوم يحوطه سر خاص وأنه سيتم فيه ميلاد المسيا ، كما جاء في الكتاب الطقسي المدعو « ميجلات تانيث » (ص ٢٠) . والعجيب في هذا الأمر حقاً أن هذا اليوم يوافق في التقويم الغربي ٢٥ ديسمبر، وقد قام بتحقيق هذا الموضوع العالم الألماني « زنر » المتخصص في هذه الأبحاث في كتابه (طقوس المجمع اليهودي ص١٢٦) . وقد تحقق أنه في غضون ما بين سنة ٥٠٠م ، ٨١٦م وافق مجيء هذا اليوم ٢٥ ديسمبر، ليس أقل من ١٢ مرة (علماً بأن التقويم اليهودي ليس دقيقاً تماماً لأنه مرتبط بالقمر) .

وهذا من شأنه أن يلفت نظرنا إلى أن تحديد هذا اليوم يحوطه سر عميق منذ الدهور ، يدفعنا إلى تقديس هذا اليوم تقديساً يتناسب مع اهتمام الوحي الإلهي به ...

ومعلوم أن عيد الميلاد تحدد منذ بداية المسيحية ــ كما جاء في الدسقولية (٥)ــ ليكون في اليوم الخامس والعشر ين من الشهر التاسع اليهودي « كسلو » وليس في اليوم التاسع من الشهر العاشر « تب هث » بفارق ١٣ يوماً وذلك نظراً للتغيير الذي طرأ على التقويم اليهودي (الشهر القمري ٢٩ يوماً) :

[ياإخوتنا تحفظوا في أيام الأعياد التي هي أولاً عيد ميلاد الرب وكمله في اليوم الخامس والعشر ين من الشهر التاسع الذي للعبرانيين « كسلو » الذي هو اليوم التاسع والعشرون من الشهر الرابع « كيهك » الذي للمصر يين] (دسقولية ١٨) .

وهذا اليوم الذي حددته الدسقولية (في القرون الأولى للمسيحية) يوافق ٦ أو ٧ يناير ، وكانت الكنيسة كلها تعيِّد هذا اليوم ، ولكن بعد التعديل الغر يغوري الدقيق الذي أخذ به الغرب عام ١٥٨٠م اعتماداً على الحسابات الفلكية عاد هذا اليوم مرة أخرى (دون أن يقصد الفلكيون ذلك) إلى وضعه الأول ليطابق ٩ « تب هث » ، وهذا أمر يُدهش له .

وقد استمرت الكنيسة في العصور الأولى تصوم هذا اليوم فقط حسب الطقس القديم ، قبل أن يتحدد صوم الميلاد بأربعين يوماً ثم بعد ذلك بثلاثة وأربعين يوماً ، علماً بأن بدء دخول صوم الميلاد في الطقس القبطي جاء متأخراً وذلك في أيام البطر يرك خرستوذولوس السادس والستين ١٠٣٩ م ، وهو الذي قام بتحديده وترتيبه (انظر المجموع الصفوي ص ١٧٢ حاشية) .

ولايزال حتى الآن يحتفظ الطقس القبطي بأصل صوم اليوم الواحد قبل العيد الذي يدعوه البرامون (تفسير كلمة « بارامون » παραμονὴ هو « **حفظ اليوم**

---

(٥) الدسقولية كلمة محرفة عن أصلها اليوناني ديداسكاليا Διδασκαλία أي كتاب التعاليم ، وهو منسوب للرسل لأنه يحوي ضمن تعاليمه الأصول الأولى التي استلمتها الكنيسة شفاهاً من الرسل ، وله عدة أصول أهمها الأصل الإسكندري وهو يحوي تعاليم كتبت على مدى الثلاثة أو الأربعة قرون الأولى .

الواحد »).

الملاك الذي بشّر الرعاة :

« وإذا ملاك الرب وقف بهم ومجد الرب أضاء حولهم » (لو٢ : ٩)

حسب التقليد المتوارث أن الملاك لا يصاحب ظهوره نور، إلا إذا كان بقصد الإعلان عن وجود الحضرة الإلهية، فالنور يكون دائماً تعبيراً عن المجد الإلهي.

ومعروف أيضاً أن الملاك الذي يعلن عن الحضرة الإلهية، هو الملاك ميخائيل.

وقد جاء ضمن التعاليم الطقسية التي تختص بالعهد القديم في كتاب « المدراش » (*) المدعو « شموث رابا »، وفيه تعاليم على سفر الخروج — أن ظهور الملاك ميخائيل يصاحبه دائماً نور الشاكيناه (الشاكيناه تعبير عبري عن الحضرة الإلهية المضيئة، وقد تخصص مكان ثابت لها ضمن خيمة الإجتماع في قدس الأقداس بين الكاروبين فوق غطاء التابوت حيث كان يتكلم الله مع موسى عند الضرورة).

ويقول « المدراش » أن النار التي ظهرت في العليقة لموسى، كانت هي « الشاكيناه »، وكان الملاك واقفاً خلفها، وموسى كان يرى الرؤيا وحده أما الذين معه فكانوا يسمعون صوته ولا يرون شيئاً (وهذا نجده مطابقاً لحادثة رؤيا بولس الرسول تماماً، من جهة ظهور الرب وسط النور، ومن جهة عدم رؤية الذين معه لما كان يراه هو).

إذن فظهور الملاك للرعاة لتبشيرهم بميلاد رب المجد كان يصاحبه حضور إلهي، أي أن الرب كان حاضراً بنفسه في مجده، وهذا أمر واضح جداً من رواية الإنجيل **« ومجد الرب أضاء حولهم »** !!

هنا إشارة سرية أن الرب عندما كان مضطجعاً في المذود في عتمة المغارة، كان يملأ السماء بمجده، وأن تجسده لم يغيّر ولم يحد من صفاته الإلهية الفائقة !! « الذي نزل من السماء إبن الإنسان الذي هو في السماء » (يو٣ : ١٣).

---

(٥) كتاب المدراش هو المختص بدراسة كافة التعاليم الشفهية التقليدية للأسفار والناموس الشفاهي المتوارث بالتواتر. وفيه تعاليم قانونية وتعاليم عبارة عن أحاديث متواترة.

فإن كان المسيح قد ارتضى في تواضعه أن يُترك لدى عالم الإنسان بلا عناية، يحتضنه مذود للبهائم وتحوطه عتمة المغارة فهو لا يزال في عالم الروح تتبعه الملائكة والنور يحيط به، ألوف ... ألوف تسجد له، وربوات ... ربوات يقدمون له الخدمة !

جمهور الجند السمائي المسبّحين :

حينما أكمل الملاك إعلانه للرعاة، كان بمثابة إشارة ظهر بعدها في الحال « جمهور من الجند السمائي مسبحين الله وقائلين **المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وفي الناس السرور** » (لو٢ : ١٤).

هذه التسبحة المثلثة القوى والمعاني تذكّرنا بتسبحة السيرافيم التي سمعها أشعياء النبي في رؤياه، فإن كانت التسبحة السيرافيمية استعلاناً نبوياً عن طبيعة الثالوث الإلهي المتساوي في القداسة والمجد، فتسبحة الميلاد الملائكية كشف عن صلة قداسة طبيعة الله ومجده في الأعالي بالسلام على الأرض والسرور في الناس !! فأدركنا بهذه التسبحة أن قداسة الله هي مصدر سلام الأرض وسرور الإنسان !! أو بمعنى آخر أن السلام على الأرض وسرور الإنسان يتوقفان على تقديس الله وتمجيده !! وكأن الميلاد في نظر الملائكة في هذه اللحظة يعبّر عن هذه الصلة العميقة بين قداسة طبيعة الله و« سلام الأرض ومسرة الناس ». فتسبحة الميلاد الملائكية شرح توضيحي سري لمعنى الميلاد وطبيعته !!

المجد لله في الأعالي :

مجد الله هو عظمته ورفعته، وإعطاء المجد لله شهادة لسموه اللانهائي فوق كل ما هو مخلوق ومدرك. فالله حسب تعبير بولس الرسول « أبو المجد »، أي الذي تستمد منه كل عظمة وكل سمو وكل انتقال من حال إلى حال أعلى، أي أن مجد الله قوة ترفع الطبائع وتغيرها إلى ما هو أسمى.

هنا تسبيح الملائكة بإعطاء المجد لله في الأعالي في لحظة الميلاد، هو تأكيد أن هذا التنازل الذي أجراه الله بتجسد كلمته في طبيعة بشرية لا يُنقص ولا يُحط من مجد

الله ، بل هو إعلان جديد عن قدرته الفائقة في إخلاء ذاته . هذا هو مجد اتضاعه الذي أخفى أقوى صفات الله المدركة ، وهي محبته التي ظهرت منسحقة على الصليب في صورتها الباذلة !

هذا الإتضاع صفة جديدة انكشفت للبشرية ولكنها من ذات صفات الله الصميمية لأنه اتضاع بالمشيئة لم تلوثه الخطية ولم يفرضه العجز ، وقد ثبت المسيح في اتضاعه حتى النهاية دون أن تمسكه شهوة الأرض . لذلك لم يعُقه هذا الإتضاع عن قبول مجده الأول « والآن مجّدني أنت أيها الآب **عند ذاتك** بالمجد الذي **كان لي عندك** قبل كون العالم » (يو١٧ : ٥) . فالمجد الذي ناله المسيح ثمناً لإتضاعه في الميلاد وطاعته على الصليب ، صار مساوياً تماماً لمجده الأول الذي أخلى نفسه منه ليكمل تجسده وصلبه !! لأننا نعلم أن الآب مجّده فعلاً « مجدت وأمجد أيضاً » (يو١٢ : ٢٨) ورفعه وأجلسه عن يمينه في العظمة في السماوات فوق كل رياسة وسلطان وإسم ، وهذا هو برهان التساوي المطلق « الأوموؤوسيوس » ، الذي دافع عنه القديس أثناسيوس .

هذا المجد الذي ناله المسيح **بالقوة** بعد أن كان له **بالطبيعة** « لتعلموا ... ما هي عظمة قدرته الفائقة **نحونا نحن المؤمنين حسب عمل شدة قوته الذي عمله في المسيح إذ أقامه من الأموات وأجلسه عن يمينه** في السماوات فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل إسم يسمى ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً » (أف١ : ١٩ــ٢١) .

هذا المجد الذي ناله المسيح بالقوة بمقتضى عمله الذي أكمله على الصليب وفي القبر، والذي أقامه أيضاً ، قد صار لنا فيه ــ نحن المفديين بدمه ــ نصيب ، إذ « أقامنا معه وأجلسنا معه في السمويات » (أف٢ : ٦) .

وهكذا صار مجد المسيح الذي اكتسبه باتضاعه وطاعته ، هو مجدنا نحن أيضاً « أنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني » (يو١٧ : ٢٢) .

هنا يتبين عمق تسبحة الملائكة بالذكصا الكبرى « **المجد لله في الأعالي** » في لحظة اتضاع التجسد في الميلاد ، باعتبارها استعلاناً وشهادة ونبوة ، بأن هذا الإتضاع عتيد أن يتمجد بكل مجده و يُزاد عليه شركة البشرية المفدية ، فيكون لها نصيب في هذا المجد أيضاً ...

وعلى الأرض السلام :

« سلامي أترك لكم سلامي أعطيكم ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا » (يو١٤ : ٢٧) . في لحظة الميلاد دخلت البشرية بالفعل في عهد مصالحة وسلام مع الله ، إذ ظهر يسوع الطفل « **إبناً لله وإبناً للإنسان** » . وهنا يبلغ الصلح والسلام بين الله والإنسان أقصى مفهومه العملي وأبلغ آيات صدقه ، بل و يصير سلاماً أبدياً ما دام المسيح ! ...

ولكن يظل السلام في القلب رهين الإيمان بالمسيح وتدخُّله ، لا كمصالح بشخصه فقط ، بل كفادي بدمه . إذ يظل الإنسان متغرباً عن سلام الله الحقيقي حتى يقبل فعل الدم الإلهي في كيانه الروحي وضميره !! وفي اللحظة التي يحس فيها الإنسان بضمير مطهر من الخطايا بغسل دم المسيح ، حينئذ يقبل سلام الله الحقيقي الذي يفوق كل عقل ...

لقد كانت تسبحة الملائكة بالسلام على الأرض لحظة الميلاد حقيقة فعلية للسلام الذي بدأ بتصالح الطبيعتين في شخص المسيح بالميلاد ، وكمل على الصليب بالكفارة عن كل خطايا الإنسان !!

وفي الناس السرور:

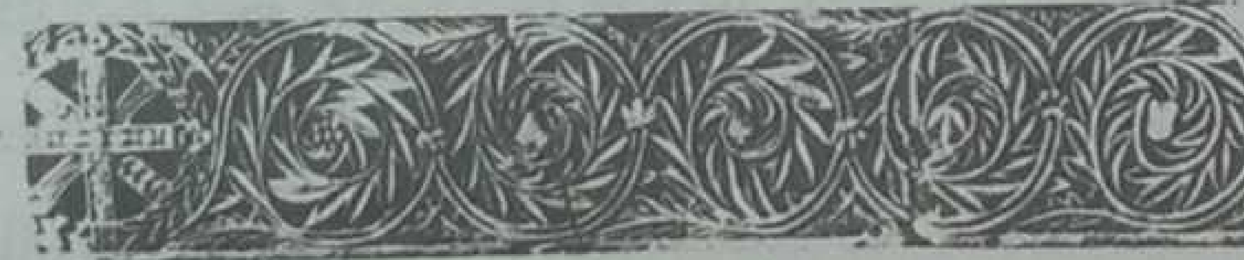
إن جوهر المسرة كائن في الوجود مع الله والقرب منه ، أما الحزن والبكاء والتنهد مع اليأس والندم فهي حقيقة البعد عن الله والحرمان من حضرته والوقوع تحت إحساس قصاص عدله .

وهذا السرور قد صار لنا « بميلاد المسيح » الذي تعبيره اللاهوتي هو « دخول الله إلى العالم » أو « حلول الله بيننا » ، لأن معنى أن يحل الله في جسد إنسان هو فتح الله لباب المودة وتأسيس علاقات مع الإنسان وتكوين دالة شخصية معه . وأن يأتي إلينا الله معناه أنه رضي أن نذهب إليه !

هذه المودة وهذه الدالة وهذا المجيء والذهاب عن طريق يسوع هو منتهى الرجاء ثم منتهى السرور!

« المجد لله في الأعالي ، وعلى الأرض السلام ، وفي الناس السرور» ، هذه التسبحة الملائكية المثلثة القوى هي استعلان كامل لطبيعة الملكوت الذي أدخله المسيح إلى العالم يوم ميلاده العجيب المملوء أسراراً .

(يناير ١٩٦٨)



مسيحُ العالم كلّه

فلنبدأ رسالة الميلاد الجديد لهذا العام بأُنشودة بولس الرسول ، اللاهوتية في مبناها ، الإنسانية في معناها ، ذات الشموخ الذي يمتد بمعرفتنا للمسيح ، ليرسو بها على قواعد جديدة عالية إلهية وإنسانية معاً ، ممتدة حتى السماء وفي الأرض كلها ، ولا حدود لإمتدادها . بولس الرسول يتجاوز هنا في وصفه للمسيح كل معرفتنا التقليدية وألفاظنا المألوفة التي طالما تغنينا بها عن المسيح المولود في بيت لحم ، كلمات الرسول هنا لازمة لنا هنا وفي هذه المناسبة لتهز أساسات التفكير المنطقي ، ولتوقظ وعي الإنسان المسيحي ، حتى يتعرف أكثر على مسيحه المولود في بيت لحم ، مسيح العالم كله !!

الرسالة إلى كولوسي الأصحاح الأول من عدد ١٥ـ٢٠ (*)

١٥ ــ « هو صورة الله الذي لا يُرى ،

المولود قبل الخلائق كلها(١)

١٦ ــ ففيه خُلق كل شيء

مما في السموات ومما على الأرض ، ما يُرى وما لا يُرى .

أأصحاب عروش كانوا أم سيادات أم رئاسات أم سلاطين(٢) ، كل شيء خُلق به وله(٣)

١٧ ــ كان قبل كل شيء و به قوام كل شيء(٣)

١٨ ــ وهو أيضاً رأس الجسد أي الكنيسة .

(*) الطبعة الكاثوليكية الحديثة ببيروت .

(١) أي مولود غير مخلوق ، قبل الخلائق وأعظم منها جميعاً بما فيها رتب الملائكة جميعاً .

(٢) أسماء الرتب الملائكية .

(٣) كل خليقة تستمد وجودها و بقاءها من المسيح ، وفي المسيح ينتهي القصد من خلقها ، فهو المبدأ والنهاية ، العلة والغاية لكل حياة ونظام .

الذي هو البداءة و بكر القيامة من الأموات(٤)
لتكون له الأولوية في كل شيء .
١٩ ـــ فقد شاء الله أن يحل به الملء كله(٥)
٢٠ ـــ و به شاء أن يصالح كل موجود(٦) ،
سواء في الأرض أو في السموات(٦) ،
فهو الذي حقق السلام بدمه على الصليب(٦) .

أفيقوا أيها السامعون ، نحن هنا أمام أب البشرية كلها ورأسها الجديد ، آدم الثاني الذي لا بداية أيام له ولا نهاية ، الذي تحت أبوته ينطوي آدم الأول و ينحني مع كل ذريته ، وكل الخلائق تستقي من حنان أبوته حتى نهاية الدهور .

لقد حان الوقت أن نتعرف على مسيح العالم كله .
كلنا عرفنا مسيح الأسرة الملتئمة حول أب تقي وأم تقية ،
كلنا عرفنا مسيح الجمعية ومسيح الكنيسة المجتمعة حول كاهن صالح .

وقد حان الوقت أن نعرف مسيح الشارع ، مسيح الناس ، الناس كل الناس الذين عرفوه والذين لم يعرفوه ، مسيح الأشرار والأبرار الصالحين والطالحين ، في كل مدينة وقرية ، في كل شعب وأمة ، في كل أنحاء العالم ... مسيح العالم كله .

المسيح أكبر من ركن الصلاة في البيت ، المسيح أكبر من صالة الجمعية وصحن الكنيسة والكنائس كلها .
المسيح لا يرضى بأقل من العالم كله .

---

(٤) أي مبدأ الحياة الأبدية وسببها فهو أول من قام ولا قيامة إلا به .
(٥) بمعنى ملء اللاهوت الذي حل في الجسد .
(٦) أي أكمل الصلح والإنسجام بين الخلائق معاً و بين الخلائق والله ، فقد صالح السمائيين مع الأرضيين ، وصالح السمائيين والأرضيين مع الله . وهذه المصالحة إجمالياً تشمل الطبائع والأجناس تمهيداً للمصالحة الفردية التي ينبغي أن تتم بطاعة كل فرد للمسيح واغتساله بالدم ، دم الفداء والتكفير والتطهير .

ـــ المسيح رفض أن يبقى سجين أسرة : « من هي أمي ومن هم أخوتى ، ثم مد يده نحو تلاميذه وقال ها أمي وأخوتى ، لأن كل من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي » (مت ١٢ : ٤٨و٤٩) .

ـــ المسيح رفض أن يكون سجين تلاميذه ، وحِكراً على تابعيه ومريديه : « يامعلم رأينا واحداً يُخرج الشياطين باسمك فمنعناه لأنه ليس يتبع معنا . فقال له يسوع لا تمنعوه لأن من ليس علينا فهو معنا » (لو ٩ : ٤٩) .

ـــ المسيح رفض أن يكون سجين مبادىء وأفكار وآراء وأسماء : « كل واحد منكم يقول أنا لبولس وأنا لأبُلُّوس وأنا لصفا وأنا للمسيح . هل انقسم المسيح ؟ ألعل بولس صُلب لأجلكم أم باسم بولس اعتمدتم ؟ » (١ كو ١ : ١٢، ١٣) .

ـــ المسيح رفض أن يبقى سجين أماكن ومقدسات : « آباؤنا سجدوا في هذا الجبل وأنتم تقولون أن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجد فيه . قال لها يا امرأة صدقيني أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب ... الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق » (يو ٤ : ٢٠ ـــ ٢٣)

ـــ المسيح رفض أن يبقى سجين شيعة أو طائفة ، كما أوضحه في مثل السامري الصالح (لو ١٠ : ٣٠ ـــ ٣٦) .

ـــ المسيح رفض أن يبقى سجين وطن أو شعب أو تخوم بلاد أو أجناس أو لون : « وتكونون لي شهوداً في أورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض . اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم !! » (أع ١ : ٨ ؛ متى ٢٨ : ١٩) .

فالآن وقد عرفنا مسيح بيت لحم مسيح اليهودية وأورشليم ، فهل آن الأوان أن نعرف مسيح بلاد الدنيا كلها ؟ المسيح الكامل مسيح جميع الأمم بلا استثناء ولا تمييز ولا تحيُز بين شيعة وأخرى أو طائفة وأخرى أو شعب أو تخوم أو أجناس أو ألوان ؟ « حيث ليس يهودي ولا يوناني (اختلاف الأجناس) ـــ ليس ختان وغرلة (اختلاف

طقوس) ـ ليس بربري وسكيثي (اختلاف ثقافة وحضارة) ـ ليس عبد وحر (اختلاف اجتماعي وطبقي) ـ ليس ذكر وأنثى (اختلاف جنسي) ـ بل المسيح الكل في الكل » (كولوسي ٣ : ١١) .

مسيح العالم كله ولد من أجل العالم كله لأنه أحب العالم كله ، ومن أجل كل العالم سفك دمه « وهو كفارة **ليس لخطايانا** فقط بل لخطايا **كل العالم** أيضاً » (١يو ٢ : ٢) ، فدمه لا يمكن أن يساوي أقل من العالم كله . فلماذا نحصر حب المسيح ونكتمه ، ونحكم أنه لا يكفي إلا لنا ولمن يتبعنا فقط ؟ لماذا نحتكر دم المسيح لأنفسنا فقط ، ونمنعه عن الآخرين الذين لا يتبعوننا وكأننا اشتريناه بتقوانا أو بمبادئنا وحكمتنا ... لماذا نرى خطايانا تُغتسل في دم المسيح مجاناً وبسهولة ، وننكر على الآخرين باعتداد وعناد هذا الإغتسال والتطهير ؟ مع أن المسيح لم يجعلنا قوّامين على شرف دمه ولا نحن أكثر من مغتسلين ، والدم قيل عنه بصراحة شديدة ووضوح كافي أنه كفارة « ليس لخطايانا فقط بل لخطايا **كل العالم أيضاً** » (١يو ٢ : ٢) !!

لقد عرفنا مسيح المعتَبَرين أنهم « بنو الملكوت » المدعوون الرسميون لعشاء المسيح وفَعَلة الساعة الأولى من الصباح ، وعرفنا مسيح « الكاتشيزم » والنصوص والقوانين والحدود الموضوعة . فهل آن الأوان أن نعرف أيضاً مسيح جهلة العالم والمتجاهلين من شعوب الأرض والتائهين في شوارع الدنيا والأزقة وليس لهم من حدود أو قيود وليس من يذكرهم أو يردهم ؟

هل آن الأوان أن نعرف مسيح الماديين والملحدين والمستهترين من شباب الدنيا الذين لما لم يجدوا مسيحهم في كنيسة أو في أب صالح أو قدوة طيبة ، المسيح الطيب الذي يحيا لهم وبينهم ويحمل خطيتهم ، أخذوا يبحثون في الطبيعة أو في الغريزة أو المخدر علّهم يجدون سلامهم المفقود !

هل آن الأوان أن نعرف مسيح هؤلاء وأولئك ، المسيح المتألم المرفوض والمهان ، التائه في شوارع المدينة وأزقتها : « أخرج عاجلاً إلى شوارع المدينة وأزقتها وأدخل إلى

هنا المساكين والجدع والعرج والعمي ... » (لو ١٤ : ٢١) .

مسيح المرفوضين بمقتضى القوانين ، والأنظمة ، والتشريعات ، والمعتبرين أنهم خارج الحدود وخارج السياجات : « أُخرج إلى الطرق والسياجات **وألزمهم** بالدخول **حتى يمتلىء بيتي** » (لو ١٤ : ٢٣) .

مسيح العشارين والزواني : « العشارون والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله » (مت ٢١ : ٣١) .

مسيح الأشرار والصالحين : « فاذهبوا إلى مفارق الطرق وكل من وجدتموه فادعوه إلى العرس . فخرج أولئك العبيد إلى الطرق ، وجمعوا كل الذين وجدوهم **أشراراً وصالحين** ، فامتلأ العرس من المتكئين » (مت ٢٢ : ٩ و١٠) .
مسيح الخطاة : « إنه دخل ليبيت عند رجل خاطىء » (لو ١٩ : ٧) .

هل آن الأوان أن نئن على بقية أعضاء المسيح المهانة المفضوحة في أنحاء العالم كله ، التي عرتها الخطيئة وعراها الظلم وعراها العقل البشري ، فتبرأت منها الكنيسة ، مع أنها جزء من الكنيسة لأنها رسالتها رضيت أو لم ترضَ ، فهي جزء من المسيح لا يمكن أن يستحي به أو يتخلى عنه ، لأنه جزء من آلامه ومن صليبه ومن مجده !!

هل آن الأوان أن نستكمل معرفتنا بشكل المسيح الحقيقي الذي يجمع كل هذه البشرية في نفسه وبالأخص هذا الجزء منه ، القبيح في نظرنا ، المستهتر والنجس والشنيع في أعيننا ، الذي به وبالرغم من وجوده يبقى المسيح جميلاً كما هو، طاهراً كما هو، قدوساً بلا عيب !! ألم يُصلب من أجل الكل ؟ ألم « يحمل خطايانا في جسده » (١بط ٢ : ٢٤) على الخشبة ؟ ألم يغسل خطية العالم كله بدمه لما تخضب به جسده وجسده نحن والبشرية كلها ؟ « ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا » (رو ٥ : ٨) .
فالصليب سابق لوجودنا ، سابق لإيماننا ، والدم الذي سُفك ثمناً لفداء الجميع قد دُفع كله مقدماً قبل أن يدركه أحد وقبل أن يطالب به إنسان !!

+ + +

فالآن إن كنا نؤمن بالمسيح الكامل، مسيح العالم كله، آدم الثاني، أبو البشرية الجديد الذي تبنى طبيعة الإنسان عامة، لتكون له خاصة فوُلد بها، ليعلن فيها نفسه، وذُبح بها ليقدّسها و يقدمها ذبيحة للآب، فصارت بواسطته خليقة جديدة، متبنّاه، مصالَحة ومقبولة أمام الآب، وصار هو بها مسيح العالم كله، مسيح الطبيعة البشرية قاطبة الذي «شاء الله أن يحل به الملء كله و به شاء أن يصالح كل موجود» (كو١: ١٩). إن كنا نؤمن به كذلك ونؤمن أننا به متحدون، فقد أصبحنا مسئولين بمقتضى إيماننا هذا عن وحدة الطبيعة البشرية التي في المسيح بكل شعوبها وأجناسها ولغاتها وأديانها وعقائدها وطوائفها، مسئولين عن وحدتها داخل قلبنا، داخل شعورنا وإيماننا وثقتنا، داخل وجودنا وكياننا المسيحي... هذا إن كنا حقاً في المسيح، والمسيح فينا.

نحن لا يهمنا موقف هؤلاء الناس من المسيح، ولكن الذي يهمنا هو موقف المسيح منهم، لأن مثله تماماً ينبغي أن نكون نحن أيضاً، لأننا به متحدون!! فالمسيح مصلوب من أجل كل إنسان و بالتالي من أجل العالم كله، ونحن «مصلوبون مع المسيح» ينبغي أن نكون كذلك مصلوبين معه من أجل كل إنسان مهما كان موقفه من المسيح ومنا، و بالتالي من أجل العالم كله!

المسيح مات بيد جماعة أظهروا نحوه عداوة قاتلة وأبغضوه حتى الموت، ولكن المسيح لم يبغضهم لأنهم جزء منه، لذلك فرح أن يموت عنهم ليفديهم و يفدي العالم كله من الموت ومن لعنة العداوة والبغضة القاتلة!! هذه كانت ولا تزال أعلى درجة في مفهوم المحبة العملية نحو العالم، وأعظم وسيلة لجمع البشرية المتفرقة إلى واحد. موت المسيح بيد أعداء له راضياً ومن أجلهم كان ذروة الكرازة بمحبة الله، لأن بموته امتص سم العداوة وغسل خطية العالم. والآن كرازتنا للعالم ستبقى عاجزة وغير ذات قوة إلى اللحظة التي فيها نقبل أن نموت و يُسفك دمنا مع دم المسيح، لا عن أحبائنا بل عن أعدائنا والغرباء عنا وعن عقيدتنا، وعن كل الذين يبغضوننا وكل العالم. و بذلك نشترك مع المسيح مجدداً في الموت عن العالم كل يوم، لقتل العداوة وكسر شوكة

الخطيئة وجمع المتفرقين إلى واحد «من أجلك (ومعك) نُمات كل النهار وقد حُسبنا كغنم ذبائح» (رو٨: ٣٦)!

هذه هي ذروة الكرازة بمسيح العالم كله لوحدة شعوب العالم وأجناسه. وهذه هي رسالة المسيحية الأولى والعظمى في العالم: أن نموت من أجل العالم بلا تمييز بين إنسان وإنسان... هذه هي الرسالة التي ظلت متعطلة ومحبوسة في إطارات حديدية من الأنانية والطائفية والعنصرية والتعصب للأجناس والأديان والعقائد.

+ + +

كل سنة كنا نعيِّد لميلاد المسيح، ولكنه كان حتى الآن مسيح الأسرة، مسيح العقيدة المنحصرة في ذاتها، مسيح الفضلاء والأتقياء، مسيح ذوي البشرة البيضاء. فهل آن الأوان يا أخوة أن نعيِّد لميلاد مسيح كل العالم؟ مسيح كل عشيرة تسمى على الأرض وفي السماء من كل أمة ولسان و بشرة سوداء وصفراء وحمراء؟ مسيح كل من ينادي باسم الرب ولو لم يعرفه؟ مسيح مساكين الأرض الذين لا يعرفون شمالهم من يمينهم؟ مسيح خراف العالم الضالة والمشردين شباناً وشابات، مسيح الخطاة والعشارين والزواني وكل الجالسين في الظلمة وظلال الموت يترقبون إشراق نور الخلاص.

فهذا هو المسيح الحقيقي الذي وُلد في بيت لحم وصُلب فوق الجلجثة، مسيح العالم كله...

(يناير ١٩٧٠)

ملكوت الله وملكوت الناس في مواجهة

« المجد لله في الأعالي
وعلى الأرض السلام
وفي الناس المسرة »

هذه هي تسبحة الملائكة ساعة ميلاد المسيح ، رنت أصداؤها بين السماء والأرض ، وسمعها الرعاة المتبدُّون وهم يحرسون حراسات الليل على قطعان أغنامهم في برية بيت لحم ، فهل من معنى واقعي لهذه التسبحة بالنسبة لعالم اليوم وهو يعاني من تمزق سياسي واجتماعي وعنصري لم يسبق له مثيل ، حيث وقفت شعوب الأرض متخاصمة متنازعة يتربص بعضها ببعض ، وقد انتزع السلام من بينهم ، يقتتلون من أجل كل شيء ، من أجل المال والأرض والأسواق والألوان والأجناس والأعراق والمبادىء والنظريات والتاريخ والدين والفضاء الخارجي وتلوث الهواء وأعماق المحيطات ؟!

حتى العلم دخل في معركة الشعوب كعنصر للإرهاب وأداة للقتل والتدمير. وحتى المعرفة الخالصة ، التي هي أصلاً وسيلة تقارب وتآلف ، أصبحت بواسطة التمادي في التخصصات وسيلة تشتت وتباعد وتحزب بين الجماعات و بين العلماء أنفسهم ، فالعالِم المتخصص في مادته أصبح جاهلاً تماماً بتخصص آخر في فرع آخر من نفس مادته ! وهكذا يسير العالم كله بكافة ميادينه السياسية والثقافية والعلمية وحتى الدينية في انحلال وتفكك وتباعد مبدداً كل مذخراته وقواه ومواهبه ، ... نقول هل من واقع ممكن أن يتلمسه العالم اليوم في تسبحة الملائكة هذه : المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة ؟؟ ...

السر الأعظم في تسبحة الملائكة :

واضح أنها المرة الأولى في تاريخ الإنسان التي فيها تخرج الملائكة عن صمتها الأبدي وتنطلق تسبح بصوت مسموع ومفهوم داعية لتمجيد الله ومنبئة بسلام يكون على الأرض وسرور بين الناس ، فما هو السر الكائن وراء هذه الظاهرة السماوية ؟

واضح بلا شك أن سر هذه التسبحة وهذا التمجيد وهذا السلام والسرور الموعود به يتركز في ميلاد المسيح الذي صاحبته هذه المظاهرة السماوية العجيبة . فميلاد المسيح ، إذن ، كان يعني شيئاً هاماً جداً وخطيراً بالنسبة للملائكة ، بالنسبة لتمجيد الله في الأعالي ، بالنسبة للسلام **على الأرض** ، وأخيراً بالنسبة للسرور **بين الناس** .

ولكن ما هو هذا الشيء أو ما هي الحقيقة الكامنة في ميلاد المسيح والتي اهتزت لها السماء هكذا ؟؟ هنا نهاية كل سؤال ، هنا الجواب الذي يستطيع أن يرد على كل تساؤل منذ بدء الخليقة وعن علة خلقتها حتى اليوم ! فدخول يسوع المسيح إلى العالم آتياً من عند الآب ظاهراً في هيئة إنسان يعني بداية ظهور وعمل ملكوت الله على الأرض . الله ارتضى بهذا أن يظهر علانية على الأرض ، و يستوطن ضمائر الناس والشعوب ، يحكم فيها وعليها في شخص يسوع المسيح و بواسطته ... الله بتجسد إبنه ينقل حكومته السماوية ظاهراً وملموساً في شخص إبنه من أعلى السماوات إلى الأرض ، حتى يحكم بمشيئته « كما في السماء كذلك على الأرض » !! وهذا النزول والتنازل معاً هو الذي اضطر جوقات من الملائكة أن تنقل مركز خدمتها بالتالي وفي الحال من السماء إلى الأرض !!

ظهور إبن الله على الأرض كان يبدو أمام الملائكة مفهوماً بغاية الوضوح أن ملكوت الله امتد من عالم الملائكة إلى عالم الإنسان ، لذلك تحتم عليهم أن يبدأوا أول خدمتهم على الأرض بمرأى من الناس كدعوة للإشتراك في ذات الخدمة !! وهذه هي أول مرة يُدعى فيها البشر للإنضمام مع خورس ملائكة ليقدموا خدمة تسبيح مشتركة ! ...

إن نقطة السر العظمى في هذه التسبحة المملوءة سراً ورجاءً وحياة تكمن في ربط خدمة تمجيد الله في الأعالي بتمجيده على الأرض ، هنا الحدث الأعظم ... الله دخل إلى عالمنا ، الله صار معنا ، في شخص المسيح (عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا) . وهكذا انفتحت السماء على الأرض بكل أسرارها وأمجادها وخدامها وسلامها وسرورها ... لأن إبن العلي صار معنا وفينا !! الله في شخص المسيح و بتجسده السري العجيب اتحد بصميم طبيعتنا الإنسانية ، بصميم كياننا البشري ، الله لم يعد يحكم علينا من فوق ، بل صار يحكم فينا من داخل كياننا من داخل تفكيرنا وضميرنا ، فالمسيح إبن الله دخل إلى العالم كملك وكصاحب ولاية على كل مُلك الله ـــ أي ملكوته ... الله سُرَّ أن يرسل إبنه ليملك فينا ملكوت السلام والسرور... الحديث مع بيلاطس زعيم الصالبين يكشف عن ترأُس المسيح على ملكوت الله : « أفأنت إذن ملك ؟ أجاب يسوع : لهذا وُلدت ولهذا أتيت إلى العالم ... مملكتي ليست من هذا العالم ... مملكتي ليست من هنا » (يو١٨ : ٣٧و٣٦) .

المسيح إذن جاء حاملاً ملكوت الله بكل قوته ومجده وسلطانه ، حاملاً إياه في ذاته ، في شخصه ، في كيانه ، في لحمه ودمه !!

المسيح لما دخل العالم دخل ملكوت الله معه إلى عالمنا . وعندما تجسد إبن الله ، أي اتحد بجسد الإنسان ، استودع ملكوته بالتالي جسد الإنسان . ملكوت الله دخل فينا ، في طبيعتنا ، في كياننا : « ملكوت الله داخلكم » (لو١٧ : ٢١) .

ملكوت الله دخل الطبيعة البشرية بصورة إلهية لما تجسد إبن الله ، وقبلناه نحن منه بصورة سرية لما أكلنا جسده وشربنا دمه في سر الكنيسة .

ملكوت الله انتشر على الأرض كلها ممثَّلاً في الذين قبلوا المسيح في كيانهم وأرواحهم قبول الأكل السري والشرب السري لكل كيان المسيح بجسده وروحه ، العالم قَبِلَ في صميم كيانه ملكوت الله في أشخاص الذين آمنوا ، ولن ينحصر ملكوت الله عن عالم الإنسان طالما يوجد على الأرض إنسان يأكل جسد المسيح و يشرب دمه .

وملكوت الله يتجدد كل يوم في أشخاص الذين يتجددون بالإيمان والحق والحب ، و بقدر ما يخضع الإنسان لملكوت الله في القلب بالروح بقدر ما يخضع العالم و يتجدد .

طبيعة العالم الجديد في تسبحة الميلاد :

حينما رنمت الملائكة معاً ترنيمة الميلاد مبشرة بميلاد المسيح أعلنت ضمناً عن طبيعة مُلكه العتيد أن يكون على الأرض و بين الناس « سلام على الأرض وسرور بين الناس » ... السلام هنا سلام يفوق طبيعة الأرض ومسراتها ومباهجها وملذاتها وكل ما يوفره العالم من أمان واطمئنان مادي ... والسرور هنا سرور يفوق طبيعة الإنسان ، يفوق العقل ، و يسود على كل المحزنات ، و يُخضع كل المظالم والآلام والأمراض لسلطان السرور الفائق ...

فما هي طبيعة السلام الذي يعطيه المسيح للذين يعيشون في ملكوته **« على الأرض »** ؟ وما هي طبيعة الفرح الذي يُدخله في القلوب ليكون هو أساس العلاقة **« بين الناس »** بني الملكوت ؟

الرد على ذلك غاية في البساطة والوضوح ، فطبيعة كل شيء تستمد نوعيتها من معطيها ، كما يقول الإنجيل ، من جهة الينبوع المالح والينبوع العذب (راجع يعقوب ٣ : ١١) ، فكل منها يعطي ماءً كطبيعته ، وكذلك التينة والزيتونة والعنب والشوك والحسك ، كلٌ من هذه تعطي ثمراً كطبيعتها ...

فالعالم يعطي سلاماً ، ولكن أي سلام هو ومن أي طبيعة ، فالعالم أول كل شيء متغيِّر متقلقل و بالنهاية زائل ، هذا هو أساس طبيعة العالم ، وهو يبثها في صميم طبيعة سلامه الذي يعطيه لأولاد العالم . فمع الأمان والإطمئنان والسلام والهدوء والسكينة التي يمنحها يبث في أعماقها حتماً طبيعته ، أي التغير والتقلقل ثم الزوال ، فيستحيل على العالم استحالة قاطعة أن يعطي سلاماً دائماً أو هدوءً مستمراً أو اطمئناناً كاملاً ، فبعد السلام حرب لا محالة ، و بعد الهدوء اضطراب ، و بعد الإطمئنان انزعاج وكدر.

وكذلك الناس في مملكة الناس عندما يقيمون علائق الود والمسرة فيما « بينهم » نجدها مسرة قائمة حتماً على المنفعة المتبادلة أو المجاملة المتبادلة أو التكريم المتبادل أو الواجبات المفروضة أو إلحاحات طبيعة الأمومة أو الأبوة أو الأخوة ، وكل هذه لا تضمن على الإطلاق سروراً دائماً ثابتاً بين الناس ، لأن هذه الدوافع أو العلل التي تصدر منها أو عنها علائق الود يمكن أن تتوقف في لحظة ، وقد تنقلب إلى أشرس ما تكون الدوافع والعلائق فتنقلب المودة والمسرة إلى غم ونكد وأحقاد واضطهادات وتهم وفضائح وانتقام بلا أي تعقل و بلا أي مبرر!! وربما بين الأخوة الأشقاء !!

هذه هي طبيعة ملكوت الأرض والناس !!

أما طبيعة ملكوت الله فهي ليست هكذا أبداً... فسلامها قائم دائم أبدي لا يمكن أن تزعزعه كل كوارث الأرض ونوائبها « إن سلكت في وسط ظلال الموت فلا أخاف شراً لأنك معي » (مزمور٢٣) ، « إلهنا ملجأنا وقوتنا ومعيننا جداً في شدائدنا التي أصابتنا ، لذلك لا نخشى إذا تزعزعت الأرض وانقلبت الجبال إلى قلب البحار » (مزمور٤٦) . فالسلام الذي يعطيه الله هو كالله ومن طبيعة الله يستمد صفاته ، فهو سلام أبوي نابع من أبوة واحدة لكافة الناس ووطن واحد يضم كافة الناس ، لا يتغير ، لا يتزعزع ، لا يزول إلى الأبد . سلام الله لا يلغي الضيق بل يسود عليه ، و يأخذ من صميم الحزن عظة تزيده سلاماً على سلام .

سلام الله لا يتجاوز التجارب كأنه حقنة مخدر، بل يحلل التجارب إلى أسبابها ومسبباتها ، ويمتص منها عافية جديدة فيتقوى السلام في التجربة و بعد التجربة .

سلام الله لا ينحصر في حيز خاص من المكان أو الزمان أو التفكير بعيداً عن أسباب ومواضع الغم والهم والنكد الذي ينسجه العالم للعائشين فيه ، بل يقتحم الهموم والمخاطر و يتقبّل أخبار السوء بلا حذر أو خشية « لا يخشى من خبر السوء ، قلبه مستعد متكل على الرب ، قلبه ثابت فلا يتزعزع » (مز١١١) .

سلام الله لا يتجاوز المكان ، كأن الأرض موضع الشقاء فقط والسماء للسلام ، بل

بروح التجلي يرى بنو السلام أن الأرض موطن السلام الحقيقي كالسماء تماماً طالما الله معنا وفينا « إن كان الله معنا فمن علينا » (رو٨: ٣١) ؟ .

سلام الله لا يتجاوز الزمان ، كأن الحياة هنا على الأرض كُتب عليها الشقاء والإضطراب ، وقد حُجز السلام للحياة الأخرى ، ... أبداً فالسلام الدائم الحقيقي أصبح من صميم طبيعة هذه الحياة الدنيا لأن « **رئيس السلام** » الرب يسوع هو حياتنا على الأرض كما هو حياتنا في السماء . « أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر » (مت٢٨ : ٢٠) ، « سلاماً أترك لكم سلامي أعطيكم ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا » (يو١٤ : ٢٧) .

+ + +

وأما طبيعة الملكوت من حيث « المسرة بين الناس » فهي لا تقوم على المنفعة أو الكرامة أو المجاملة أو علائق اللحم والدم ، التي هي كلها دوافع متغيرة ومتقلبة ، بل هي مسرة أُخوَّة واحدة لأُبوة واحدة في وطن واحد يضم الأرواح قبل الأجساد !! فالمؤمنون بالمسيح في كل الأرض مستوطنون الله ، الله وطن حقيقي لكل بني الملكوت على الأرض في كل ممالك الدنيا ، لذلك ليس بينهم داعي نزاع وخصام ، فالله هو أكلنا ، هو شربنا ، هو دفئنا ، هو عزاؤنا ، وسرورنا ، هو كل شيء لكل مواطن عنده ، الله الكل في الكل ، والمسيح يملأ الكنيسة ، والكنيسة على صغرها تملأ العالم ، تملأه حباً وسروراً...

في ملكوت الله ليس امتياز للرجل على المرأة ، المرأة ليست من دون الرجل في شيء ، ليس عبد للناس وحر ، فالكل عبيد حب الله وأحرار في الخير فقط ، ليس يوناني ويهودي ، و بالمثل ليس زنجي وأمريكي ، أو أسود وأبيض ، ليس طاهر ودنس ، مقبول ومنبوذ ، ليس مواطن ولاجىء ، ليس غريب وصاحب دار ، فالكل نزلاء الله ، وأهل بيت الله ، الكل أحبَّة ومحبوبون « فالبسوا كمختاري الله القديسين المحبوبين أحشاء رأفات ولطفاً وتواضعاً ووداعة وطول أناة ، محتملين بعضكم بعضاً ومسامحين بعضكم بعضاً إن كان لأحد على أحد شكوى ، كما غفر لكم المسيح هكذا أنتم أيضاً .

وعلى جميع هذه إلبسوا المحبة التي هي رباط الكمال . **وليملك في قلوبكم سلام الله الذي إليه دُعيتم** في جسد واحد وكونوا شاكرين ، لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى وأنتم بكل حكمة معلمون ومنذرون بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية ، بنعمة ، مترنمين في قلوبكم للرب. **وكل ما عملتم بقول أو فعل فاعملوا الكل باسم الرب يسوع شاكرين الله والآب به** » (كو٣ : ١٢—١٧) .

هذه صورة عملية صادقة لمختاري الله ، بني الملكوت ، المحبوبين المحبين ، المسامحين اللطفاء دائماً المملوئين تواضعاً ، الودعاء طويلي الأناة الذين يملك على قلوبهم سلام الله فيترنمون بنعمة الله وهم مسرورون دائماً ومربوطون برباط الحب ، وإسم المسيح في أفواههم وقلوبهم كل حين . هذه هي سمات بني ملكوت الله ، وإن كان الفرح هو طبيعة تفكيرهم وعملهم وعلائقهم والسرور دائماً يقيم فيا بينهم ، فلأنه ليس بينهم امتيازات ولا بينهم فوارق ، لذلك لا امتيازات يتناحرون عليها ولا فوارق تصدهم عن بعضهم البعض !! هذه هي طبيعة عالم الله الجديد عالم الملكوت الذي أدخله المسيح على الأرض وفي الناس يوم ميلاده « على الأرض السلام وفي الناس المسرة » .

طبيعة المسيح التي دخل بها العالم كملك السلام !

لم يكن دخول المسيح إلى العالم كملك بنوع السيادة الملزمة ، أو على مستوى الحكم المطلق التعسفي « لأنه لم يرسل الله إبنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلُص به العالم » (يو٣ : ١٧) .

والمسيح لم يولد في قصر كما يولد ملوك الأرض ، ولم يباشر حكمه من فوق عرش ، المسيح وُلد في مذود ، وملك على خشبة (مز٩٥) ، وكلنا يعرف كيف ظهر المسيح أول ما ظهر في زي نجار . وكيف رفض دعوة الرئاسة المظهرية أو أي شكل من أشكال السيادة والملوكية الآدمية : « وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن **يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً** انصرف أيضاً **إلى الجبل وحده** » (يو٦ : ١٥) . وهكذا استبدل السيادة على رقاب الناس من فوق عرش ، إلى التسلل لقلوب الرعية من وراء البرية

وهدوء الجبل . وعوض تجنيد الجيوش المسلحة واعداد الأعوان والمعدات لخوض المعارك ضد الرافضين لسلطان مُلكه ، ارتأى المسيح أن يسلم ذاته لأيدي أعدائه ويخفض رأسه للضاربين والمستهزئين ، ثم يموت طواعية — وهو عالم بقيامته — حتى بموته يحصّن بني الملكوت ضد الموت ، وبقيامته يقيمهم ويحييهم منذ الآن كرعايا للحي إلى أبد الآبدين ...

وإن كان العالم قد تباطأ جداً في قبول الإنضواء تحت رعاية هذا الملكوت ، فبسبب هذا الأسلوب الفريد في تكميل تدبير ملكوته — بعد صلبوته — بهذا الهدوء العجيب ومن خلال وجوده المستتر الذي لا تحسه إلا القلوب المفتوحة له !! يدعو بغير قسر ، و يلح في الدعوة بغير اضطرار ، يقنع بالحب فقط وليس بالحجة ، يُلزم بالدخول إليه وهو واقف على الباب كمن يستعطف ، يقف كملك شامخ والسماء تحت موطىء قدميه يعرض ملكوته علينا و يطرحه تحت أقدامنا ... يقدم نعمه ومواهبه و يغدق من ألطافه وإحساناته حتى قبل أن نسلم أنفسنا له ودون أن نكون مستحقين بعد أن نُدعى له عبيداً ، يتودد إلينا وكأنما هو في حاجة إلى خلاصنا وسلامنا وسرورنا ... ينادي : « إن عطش أحد فليُقبلْ إليَّ و يشرب » (يو٧ : ٣٧) ، وكأنما هو سبيل أو ساقي مياه على قارعة طريق العالم المعطشة ... يقف على باب اللاهين عنه و يقرع عسى يحن اليه قلب أحد فيقوم و يفتح وكأنه يطلب العشاء أو المبيت ، وهو إنما يسعى لإنتزاعنا من مخابىء الموت وجحور الذئاب ... يجوب أطراف الأرض فاتحاً ذراعيه و يقول « تعالوا إليَّ ياجميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم » (مت ١١ : ٢٨) وصح فيه قول أشعياء النبي : « أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ، ... والرب وضع عليه إثم جميعنا » (أش٥٣ : ٤و٦) .

وهكذا كانت طبيعة المسيح من طبيعة ملكوته : « سلام ومسرة » ؛ « قصبة مرضوضة لم يقصف وفتيلة مدخنة لم يطفىء » (متى١٢ : ٢٠) ، وهو هو لا يزال يدعو لملكوته حتى اليوم ويخاطب القلوب بهذا الأسلوب التواضعي الذي يسلب العقل !! ...

وإن كان قد عثر فيه كثيرون من ذوي العقول المنطقية والقلوب القاسية ، فعزاؤنا كما قال هو رداً على سؤال يوحنا المعمدان : « أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟ » فأجاب

يسوع : « اذهبا أخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران ... أن المساكين يُبشَّرون ... وطوبى لمن لا يعثر فيَّ » (مت ١١ : ٣ ـ ٦) . ولكن إن كان الذين يقبلون على الدعوة هم دائماً قلة ، حتى يبدو العالم بهذه النسبة وكأنه في تباعد مستمر عن بلوغ ملكوت الله ، إلا أن مَثَل الخميرة الصغيرة التي استطاعت في النهاية أن تخمر العجين كله لا يزال هو أمل الإنجيل في إتيان ملكوت الله بصورة محققة وكاملة ، حتى أنه لا يحق لنا أن نرضى بأقل منها ، فالعجين لابد أن يخضع في النهاية لسلطان الخميرة الصغيرة طالما الخميرة طاهرة وجادة في عملها الهادىء في الخفاء !!

المواجهة بن ملكوت الإنسان وملكوت الله بلغت ذروتها :

منذ فجر التاريخ الحضاري حتى اليوم والفلاسفة والسياسيون يجهدون غاية الجهد ليصنعوا من البشرية الممزقة وحدة بأي صورة و بأي حال ، ولكن باءت كل اجتهاداتهم بالفشل ، من أفلاطون لهتلر لموسوليني لكارل ماركس ، وهي خلاصة التجارب التي مر فيها العالم حتى اليوم .

فالأول رأى في الفلسفة الملاذ الوحيد لحكومة جمهورية عادلة حكيمة تسوي خلافات البلاد والممالك والأجناس بالعقل ، فإذ بالفلسفة تنقسم على ذاتها وتنتهي إلى نظريات تلغي الواحدة منها الأخرى ؛ وإذ يتشيع لها الإنسان ينقسم بانقسامها و ينهدم بانهدامها ، وتقوم مدارس وتموت مدارس والعالم كما هو يزداد تمزقاً من جيل إلى جيل على مرأى من الفلسفة والفلاسفة ...

والثاني وهو هتلر ، رأى في نقاوة الدم وأصالة العرق ملاذاً لوحدة بشرية فائقة متعالية ، إذا اتحدت تحكم الأرض كلها ، فتصبح الأرض وحدة محكومة لوحدة حاكمة تخضع لها وتتعبد . و باءت هذه المحاولة الأخرى بالفشل ومات صاحبها منتحراً وتمزقت بلده إلى نصفين ، بعد أن أذاق الدنيا و يلات حرب ضروس .

والثالث وهو موسوليني ، رأى في إقامة الوحدة القومية داخل الدولة على أساس الوطنية التعصبية الملتهبة والمترابطة (الفاشية) ، الملاذ الوحيد لحكم العالم بأسره وتوحيد

قواه . وهذا الآخر باء بالفشل ومات مشنوقاً بعد أن عانت بلاده بسببه الهزء والسخرية .

والرابع وهو كارل ماركس ، رأى أن وحدة البشرية لا تقوم إلا بتوحيد النظام الإقتصادي في العالم بأسره ، فالإقتصاد وحده هو المسئول عن تمزق العالم وتطاحنه ، ولا سبيل إلى هذه الوحدة الشاملة إلا بحرب الطبقات حتى تتصفى جميعها ولا يبقى إلا طبقة الرفاق العاملين التي بوسعها أن تحكم كل دولة و بالتالي كل العالم ... وهذه الأخيرة وإن كانت قد نجحت في تطبيقاتها الأولية إلا أنها تعثرت في الطريق ثم وقفت محاصرة ففقدت قدرتها على الشمول ، وهل يمكن أن ينطفىء روح الله في العالم تحت وطأة نظام اقتصادي ؟

هذه هي المحاولات الأربعة الكبرى التي عانى منها العالم في سبيل إقامة وحدة مزعومة لم يبلغ شيئاً منها ، بل على النقيض كانت نتائج كل منها مزيداً من التمزيق ثم مزيداً من اليأس ... ولو لاحظنا طبيعة هذه المحاولات نجد أن **الأولى** قامت على حكمة « **العقل** » (الفلسفة) ، **والثانية** قامت على نقاوة « **الدم** » (الجنس) ، **والثالثة** قامت على قداسة « **التراب** » (الوطن) ، **والرابعة** قامت على تنظيم « **المال** » (الإقتصاد) .

ولكن ، بمزيد من التعمق والفحص نجد أن هذه الأربعة **العقل** ، **والدم** ، **والتراب** ، **والمال** ، التي لجأ إليها العالم كواسطة لترابطه وتوحيده هي بعينها التي كانت ولا تزال أسباب تمزيقه وعلة حروبه ونزاعاته التي لا تنتهي ...

وهكذا ثبت فشل حكمة الإنسان ، وادعاء نقاوة دمه ، وتوهُّم قدسية ترابه ، واتكاله على نظام اقتصاده ...

وفي مواجهة هذا الفشل المريع الذي يعانيه العالم اليوم يقف ملكوت الله الذي يباشره المسيح منذ ميلاده وحتى اليوم وحدة واحدة تملأ الأرض والسماء في كنيسة عظمى منظورة وغير منظورة مجاهدة ومنتصرة ، وإن كانت تبدو نسبتها ضئيلة في كل

جيل فهي بتجميع الأجيال شيء هائل لا يستطيع العدد أن يحصره ألوف ألوف وربوات ربوات .

ولكن ذلك لا يرضي قلوبنا ولا يريح ضمائرنا ، فحالة العالم اليوم لا تجعل لبني الملكوت راحة على الإطلاق . العالم يتمزق أمام أعيننا بصورة مرعبة لم يحدث لها مثيل من قبل . فأموال العالم تتكدس لشراء الأسلحة في كل مكان ، في كل دولة ، والبلاد تجوع والجيوش مطهمة بالحديد والنار ، الحرب أصبحت أقرب معقولية من السلم لدى كل دولة وفي فكر كل سياسي ، السلام أو الدعوة إلى السلام أصبحت نغمة التضليل ، **الحرب من أجل السلم** هي آخر موضة لدى السياسيين . فإذا تركنا الحروب وأخبارها واحتمالاتها لنفحص حالة العالم روحياً واجتماعياً ، نرى العالم يجري في طريق آخر للموت والهلاك الأبدي أكثر رعباً من الحروب وويلاتها ، فالإنحلال الخلقي والإباحية الجنسية والإدمان على المخدرات يسود العالم كله ، وقد أصاب قلبه في الصميم ، أصاب الشباب ، وتعداه إلى صبية المدارس ، ففي المدارس الإبتدائية في بلاد النرويج عندما يفتشون الصبيان قبل دخولهم الفصول كل يوم يعثرون على نسبة عالية جداً من الأولاد يحملون المخدرات في حقائبهم !! هذا بالإضافة إلى نسبة الجرائم التي أصبحت تهدد أمن العالم أكثر من الحروب وتقلق بال الدولة والمواطنين معاً على الدوام . فلو أضفنا إلى ذلك مشاكل البطالة في العالم ومشاكل الطلاق يبدو لنا العالم على حقيقته بصورته الجريحة النازفة .

حالة العالم اليوم أمام بني الملكوت هي تماماً حالة الإبن الأصغر في مثل المسيح ، الذي أخذ ميراثه كله وذهب وبذّره بعيش مسرف في كورة الضلال حتى أعيي واعتاز وأكل طعام الخنازير... العالم هجر الله وابتعد عنه بعيداً وبذر كنوزه ومدخراته ومواهبه بعيش مسرف حتى أعيي واعتاز ولم يعد يحسبه عاراً أن يأكل أكل الخنازير ويحيا حياتها ...

الإبن الأصغر سئم الحياة الرتيبة في بيت أبيه وسئم نصائح أبيه وسئم السلام والهدوء والبركة واللقمة الحلال ، سئم عشرة الإبن الأكبر ، سئم كل شيء فخرج

يطلب الحرية ، الحرية في كل شيء فوقع في حضن الزواني وأضاع ماله وقوته ، هذا هو عالم اليوم فقد سئم صوت الله وبيت الله ، سئم السلام في حضن الآب السماوي ، سئم عشرة الأتقياء والتقليديين ، وخرج يطلب الحرية في ميدان العقل والفن والمرح ، فبذّر كل مدخراته التقليدية وفقد رزانته وانحلت قواه وهو الآن يسير بقدمين مسرعتين نحو الهلاك ، ولكنه يرفع بصره ويمد يديه لبني الملكوت كالرجل المكدوني الذي ظهر لبولس الرسول في الرؤيا ممثلاً العالم الضال قائلاً : أقدم إلينا وأعنا !!

التطلع إلى وحدة الإنسان من جديد أصبحت أكثر من أمنية ، أكثر من أمل ، هي رجاء وأكثر من رجاء ، هي توسل وإلحاح ، لقد جرب الإنسان كل شيء في سبيل وحدة البشرية وسلامها وإعادة علائق المودة والسرور بين الناس ، جرب الحكمة الفلسفية ، وجرب العلم ، جرب السياسة ، وللأسف كلها زادته انقساماً على انقسام وتباعداً وفرقة .

لم يعد أمام الأرض كلها إلا أن تتطلع نحو الله تقوم وتلتجىء إلى أبوته مرة أخرى ، تطلب صفحه ودخول ملكوته ، ففيه وحده الملاذ الأخير لوحدة الإنسان وسلامه وسروره .

العالم اليوم جائع أشد الجوع إلى من يملأ قلبه لا بطنه ، إلى من يملأ روحه لا عقله ، إلى من يمنحه سلام الروح لا تسلية العينين والأذنين ونزهة الجسد . الجوع واحد في الأرض كلها وهو شديد ، جوع ليس إلى الخبز بل إلى كلمة الله المحيية ، حنين العودة إلى الله يجتاح قلب العالم كله وضميره ، فالعالم كله اليوم محسوب أنه لاجىء ومهاجر يعيش خارج وطنه الحقيقي !!

الإحساس بالفراغ في علاقات الشعوب والأسر والأفراد أصبح مرعباً للنفس البشرية وأشد ضغطاً على أرواح الناس من الموت ذاته ، فكثيرون يرتضون الموت وبأيديهم ، تخلصاً من القلق الذي أصاب أرواحهم من جراء الفراغ الذي يعيشونه !

العالم كله يشعر الآن أنه لا فائدة من كل الحلول والمؤتمرات والمشاورات

والمعاهدات ، فمعاهدات الحرب أكثر من معاهدات السلم ، والقنبلة والصاروخ أصبحت أكثر احتراماً من كلمات الرجال ...

الحاجة أصبحت واضحة أشد الوضوح إلى من يستطيع أن يجمع شمل الأمم والشعوب والجماعات ، واحد له من القدرة والحب واتساع القلب ما يؤهله إلى مصالحة الألوان والأجناس والمذاهب ، يصالح الإنسان بأخيه الإنسان ، والإنسان بنفسه ، والإنسان بالله . واحد يبذل نفسه عن الجميع ليصالح المتخاصمين ويجمع المتفرقين و يوحد الكل في نفسه ليقدم البشرية كلها كأسرة متحابة إلى الآب الذي هي منه وله .

إن تسبحة الملائكة وهي تعلن بداية تأسيس مُلك الله على الأرض يوم ميلاد المسيح قد أعطت الأرض كلها إشارة البدء للرجوع إلى حضن الآب السماوي ، أنَّما أرادت وحيثما شاءت ، وهي هي لا تزال تُعتبر إشارة العودة مهما طال الضلال ، فلكوت السلام وملكوت المسرة بين الناس قائم على الأرض حتى اليوم وهذه الساعة يدعو كل المتعبين والثقيلي الأحمال لإلقاء أحمالهم وهمومهم على المسيح الذي جاء إلى عالمنا خصيصاً ليحمل همومنا وإخفاقاتنا وكل حماقاتنا ... فهو الفادي الوحيد نور الأمم ورجاء كل الشعوب وأمل مساكين الأرض ومنبوذيها وكل المظلومين واللاجئين والمطرودين . وهو الوحيد الذي ينعقد عليه أمل العالم الأخير ، ليحكم الأرض كلها بالعدل والقسطاس في وحدة تفوق قدرات الإنسان وحكمته وكل إمكانياته ...

التوبة الجماعية والإستعداد لقبول تسبحة الملائكة من جديد :

إنه الرجاء الأخير والرجاء الوحيد والأعظم ، فلكوت الله حقيقة قائمة وموجودة على الأرض منذ أن رنت أصداء تسبحة الميلاد بين السماء والأرض حتى اليوم وإلى آخر لحظة من حياة الناس على الأرض . والملكوت يوجد أنَّما وُجدت التوبة وحيثما كانت ، من أطراف الأرض إلى أطرافها ، فبداية الملكوت توبة و بداية التوبة ملكوت ، وحينما بدأ المسيح بشارته أول ما بدأ بدأ هكذا : « منذ ذلك الزمان ابتدأ **يسوع يكرز** و يقول

توبوا لأنه **قد اقترب ملكوت السموات** » (مت ٤ : ١٧) .

والدعوة للتوبة هنا ، كما يلاحظ القارىء ، جماعية قبل أن تكون فردية ، والآن أيضاً الحاجة الوحيدة التي نكاد نلمسها بأيدينا هي حاجة إلى توبة جماعية . فالضلالة تجاوزت ضلالة الأفراد ، لقد صارت ضلالة جماعات و بلاد وأمم وشعوب ، لذلك لزم أن تكون التوبة فوق مستوى الفرد وإن كانت تحتويه بالضرورة !

لقد أعطانا الكتاب مثالاً لتوبة مدينة بأسرها ، نينوى المدينة العظمى تابت كلها عندما واجهت إنذاراً من الله بخرابها . لبست المسوح كلها جالسة في التراب صائمة ، من ملكها الجالس على العرش إلى الطفل الرضيع على صدر أمه حتى البهيمة في الدار رُفع عنها الطعام والماء ، التذلل في نينوى كان جماعياً والملك كان نموذجاً يُحتذى : « قام عن كرسيه وخلع رداءه عنه وتغطى بمسح وجلس على الرماد » (يونان ٣ : ٦) فعفى الله عن نينوى !!

وعلى مثال نينوى تماماً وقف المسيح مطالباً كورزين وكفرناحوم بتوبة مماثلة ، استجابة لكرازته التي صنع فيها ، وإلا فالقصاص المحتوم الذي نالته سدوم وعمورة هو في انتظارها !! ... إنه ليكاد الإنسان الخائف من الله أن يسمع نفس الإنذار موجهاً للعالم بمدنه الشامخة وصواريخه التي ارتفعت إلى عنان السماء ، فصوت الإنجيل بلغ أقطار المسكونة كلها وقد آن أوان المحاسبة ...

لقد بكى المسيح على أورشليم لما رفضت كرازته لأنه كان ينتظر توبتها ، لو هي أدركت زمان افتقادها ... فهل يدرك العالم زمان افتقاده ؟ ما أظن ذلك إلا لو بكى بنو الملكوت وتذللوا وندموا وتابوا وصاموا عوض العالم الزائغ عن خلاصه ...

لقد وقف إبراهيم أبو الآباء يوماً يحاجج الله بخصوص اعتزامه على قلب سدوم وعمورة وحرقها بالنار : « أديّان الأرض كلها لا يصنع عدلاً ؟؟ عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة !! أفتُهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين ؟؟ » (سفر التكوين ١٥)... ولدهشة ابراهيم أنه لم يكن في تخوم سدوم وعمورة كلها لا خمسين باراً

ولا عشرين ولا عشرة !! وهو آخر رقم ارتضى الله به لكي من أجله أي من أجل عشرة أبرار فقط يعفي الله عن كل سدوم وعمورة إن وجدوا !! فهل يوجد الآن في العالم من يصلي و يشفع و يتوب و يندم عوض الذين لا يعرفون الصلاة أو التوبة ؟؟

بطرس الرسول يوضح في بداية كرازته أهمية توبة الجماعة التي جهلت خطاياها ، فكان لوعظه أثر بليغ في نفوس الشعب : « والآن أيها الأخوة ، أنا أعلم أنكم بجهالة عملتم كما رؤساؤكم أيضاً ... فتوبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم لكي تأتى أوقات الفرج من وجه الرب و يرسل يسوع المبشَّر به لكم قبلاً ، الذي ينبغي أن السماء تقبله إلى أزمنة ردّ كل شيء التي تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر» (أع ٣ : ١٧ــ٢١) .

ونحن أيها القارىء العزيز محتاجون في هذه الأيام إلى صوت بطرس الرسول ليوقظ ضمائرنا كجماعة نصلي ونتوب ونتذلل أمام الله من أجل أنفسنا ومن أجل العالم الذي يسير في طريق الهلاك .

•

فلنذكر جميعاً شباب العالم وشاباته الذين أخذوا دور الإبن الأصغر في مثل الإنجيل وخرجوا من بيت الآب السماوي يرعون مع الخنازير و يبيتون على جحور الذئاب ، و يترنمون ترنيمة الموت وهم سائرون في طريق الهلاك .

فلنذكر جميعاً كيف اختزنت الدول الكبرى ملايين الملايين من أطنان أسلحة الخراب والدمار في انتظار صوت الشيطان ببدء يوم الخراب العظيم ...

فلنذكر جميعاً ملايين العمال الذين يواجهون البطالة والجوع الذي يهدد العالم ...

فلنذكر جميعاً الشعوب الفقيرة التي لا يحتكم الفرد فيها على رغيف عيش واحد كل يوم !!

فإذا تذكرنا هذا ، فهلم إلى توبة جماعية نبدأها بأنفسنا ، ولتكن توبة كل جماعة على حدتها . وأولاً الجماعة المحسوبة أنها أهل بيت الله ، جماعة الأساقفة على حدتها ، وجماعة الكهنة على حدتها ، وجماعة الشمامسة على حدتها ، وجماعة الخدام على حدتها ،

ثم جماعات الشعب عشائر عشائر وفئات فئات و بلاداً بلاداً ؛ كل جماعة تنذر نذراً وتصوم صوماً تلبس فيه عوض المسوح لباس حشمة ، وتسير بانكسار وتصلي بانسحاق تطلب الرحمة تائبة عن نفسها متذللة من أجل العالم ، حتى تعود أزمنة الفرج التي تكلم عنها بطرس الرسول والتي فيها سيأتي الرب : « لتمحى خطاياكم **لكي تأتى أوقات الفرج من وجه الرب . و يُرسَل لكم يسوع المبشَّر به قبلاً** » (أع ٣ : ١٧ــ٢١) .

وهكذا نواجه مجيئاً آخر للرب يصحبه الفرج من الضيقة العظمى التي يعانيها العالم ، وبمجيء الرب تظهر حتماً و بالضرورة جوقات الملائكة عينها مرنمة من جديد ترنيمة الملكوت الآتي و يسمع في الأرض هتافها مرة أخرى :

« المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة »

(يناير ١٩٧٢)



نزل من السماء
وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء

نقول في قانون الإيمان: «نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء». فما هو هذا النزول؟

إن أول ما نسمع عن نزول الله إلى الإنسان وإلى أرض الإنسان، نسمعه في سفر الخروج في الأصحاح الثالث، في الموضع الذي يقول فيه الكتاب:

«فنظر (موسى) وإذا العلّيقة تتوقد بالنار، والعليقة لم تكن تحترق، فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم، لماذا لا تحترق العليقة. فلما رأى الرب أنه مال لينظر، ناداه الله من وسط العليقة وقال: موسى موسى. فقال هأنذا. فقال لا تقترب إلى ههنا، اخلع حذاءك من رجليك، **لأن الموضع الذي أنت واقفٌ عليه أرضٌ مقدسة**»!! (خر٣: ٢ــ٥).

هنا واضح جداً أن الله ــ تمجَّد اسمه ــ نزل فعلاً، نزل إلى **أرض** الإنسان، وصار في مواجهة الإنسان، فأصبحت الأرض مقدسة لأول مرة منذ لعنة آدم التي كانت قد حلت على الأرض كلها (تك٣: ١٧)!!

ثم يقول الله لموسى: «أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب. فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله. فقال الرب إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم. إني علمت أوجاعهم، **فنزلت لأنقذهم!!**» (خر٣: ٦ــ٨).

إذن هو نزول حقيقي. الله رأى، وسمع، وعلم: رأى المذلة التي يعيشها أولاده تحت السخرة، وسمع صراخ المتألمين بالظلم، وعَلِم بأوجاع المساكين الذين يطلبون وجهه.

واليوم يتحقق بصورة أعظم وأدق، النزول الذي بدأه الله يوماً في سيناء. ولكن، في هذه المرة، ليس على الأرض وحسب، بل نزول إلى جسد البشرية في صميم جسم الإنسان وقلبه وعقله وروحه.

ذلك لأن نزوله في سيناء كان لتخليص الإنسان من مذلة خارجية، وصراخ من جهة ظلم وسخرة مسخرين، وأوجاع معاملة واضطهاد إنسان لإنسان... أما نزوله اليوم، فهو لخلاص من مذلة داخلية وصراخ ضمير، وأوجاع نفس متوجعة من ذاتها وليس من آخر. لذلك تحتم أن يدخل إلى أعماقنا ليصالح هذا الإنشقاق الداخلي الذي صنعته الخطية داخل جسم الإنسان ونفسه وعقله وضميره.

اليوم نزل إبن الله من السماء على الأرض، ولكن ليس كضيف أو كزائر ليواسي الإنسان الخاطىء المتوجع من نفسه ثم يعود؛ لا، بل إن نزوله صار نزولاً غير متناه، دائماً وأبدياً فينا، لأنه التحم بطبيعتنا، وأخذ جسداً بشرياً، أخذه لنفسه ليصير به إبناً للإنسان، وهو لم يأخذه كإستعارة، يمكن أن يخلعه يوماً، بل أخذه خاصة، ووحَّده بلاهوته، فصار جسداً إلهياً، وبذلك صار ابن الله إنساناً معدوداً ومكتتباً كمواطن أرضي من مواليد قرية في فلسطين تدعى بيت لحم!

فهو وإن كان قد صعد بعد ذلك إلى السموات بجسده، أو بالحري بجسدنا، ليكمل عمل الخلاص والفداء بالشفاعة الدائمة أمام الآب، إلا أنه محسوب أنه دخل إلى الأقداس كسابق من أجلنا، أي لا يزال محسوباً منا ولنا كرسول خلاصنا (عب٦: ١٠، ٣: ١).

إذن فهو نزول دائم وأبدي لحسابنا، ونزول شمل كياننا البشري حتى أعماقنا جسداً ونفساً وروحاً وعقلاً ووجداناً وكل شيء «ما خلا الخطيئة وحدها»!! فصار الله معنا (مت١: ٢٣)، وصار عمانوئيل إسماً لله من أجلنا. لأن كل ما فينا أصبح له ومحسوساً عنده، فالله الآن بواسطة يسوع المسيح يشاركنا في كل ما يدور فينا وكل ما يحدث لنا. الذي يؤلمنا يؤلمه، والذي يفرحنا يفرحه. قلبنا قلبه، وعيننا عينه،

وهمّنا همّه . ولا يمكن أن يحدث لنا شيء دون أن يتردد صداه عنده وفي جسده !! لأنه احتوى جسد البشرية كلها لما تجسد . فنزوله إلينا في بيت لحم في شخص يسوع المسيح ، رفع كل طبيعتنا إليه ، جعل بشريتنا على مستوى ألوهيته ، تحت بصره وسمعه وإحساس قلبه على الدوام !! ...



مظهر نزول الله في ميلاد المسيح :

نزول الله في سيناء لخلاص شعبه من عبودية فرعون القاسية وسخرة المصريين ، كان مظهره ناراً مشتعلة ، تعبيراً عن القوة والإقتدار ، وكان الخلاص ، ووسيلته كانت غضباً وقسوة وضربات متعددة أنزلها على فرعون والمصريين حتى يفك أسر الشعب الضعيف من يد القاسي ...

ولكن لأن نزول الله في بيت لحم ، أي بميلاد المسيح ، كان لخلاص الإنسان من نفسه ، والنفس البشرية في جملتها صارت بسبب الخطية عاتية متكبرة ، عنيفة وشريرة ؛ لذا لزم أن يكون مظهره كما عرفناه طفلاً مولوداً في مذود للبهائم (لأنه لم يكن لهما موضع في المنزل ولا في أي منزل) ، في حضن عذراء فقيرة في ديسمبر أشد ليالي الشتاء برداً ...

وهكذا نزل الله إلى الإنسان في أضعف حالاته وأفقرها . الله عانق فقر الإنسان وعوزه ليبدأ معه من الصفر ، من مستوى البهيمية ، من شتاء الطبيعة ، من غربة إجتماعية قاسية ، ولكن من طهارة فائقة ، من عذراوية جنسية ، ليردنا إلى بساطة خلقتنا الأولى ، ليردنا إلى نفسه ، و يلدنا مرة أخرى من جسده المتألق في القداسة والألوهة والعزة والمجد !!

نزول الله في سيناء كان مظهره القوة والإقتدار والنقمة ، فعرفت البشرية الله أول ما عرفته قديماً في هذه الصفات ، باعتبار أن التأديب الخارجي تعوزه حقاً هذه الصفات ...

أما نزوله في بيت لحم فكان مظهره الفقر والألم والعزلة ، ولكن في الطهارة و بساطة الطفولة . فعرفت البشرية الله في أعجب وأروع الصفات التي كانت قد عزّت على البشرية ، مع أنها من أوجب خصائصها ... وهكذا أخذ الله أضعف ما عندنا ، ليعطينا أقدس ما عنده ، أخذ جسدنا وأعطانا كلمته ! فلنسبحه ونباركه ونزيده علواً !!



شهود سر الميلاد

أولاً : مريم العذراء :

أول من استُودع سر الميلاد . والعذراء بالنسبة لجبلتنا البشرية عامة ، نموذج مبدع لناموس الإختيار . فالله اختارها ليقدسها ، وقبلت هي دعوة القداسة والملء . الله لم يختر العذراء مريم لأنها كانت قديسة أو أطهر نساء العالمين ، ولكنه اختارها لتكون كذلك ! فلما قبلت دعوة الإختيار ، تم لها كل ما وعدها الله به ... البشرية أصبحت كلها في المسيح يسوع عذراء مخطوبة لتكون جسد الله الخصوصي ، وهيكلاً يحل فيه ... البشرية الآن مختارة كاختيار العذراء مريم ، ذلك إذا قبلت البشرية ناموس الإختيار ، وآمنت وقالت ما قالته العذراء : « هوذا أنا أمة الرب ، ليكن لي كقولك » (لو١ : ٣٨) .

فإن استجابت البشرية لصوت الله كالعذراء ، حملت البشرية بالمسيح بالإيمان ، وولدته ، وصارت البشرية كلها أُمّاً للمسيح بدل أن كانت أمة (أي عبدة) ، وصار لها المسيح الذي هو إبن الله ، إبناً لها !! لأنه ارتضى أن يكون إبن البشرية كلها !! إبن الإنسان ...

مريم العذراء لما آمنت بما قيل لها ، وقبلت ناموس الإختيار ، قبلت كلمة الله ، فتقدست ، وحملت بالقوة الإلهية وولدت المسيح الكلمة .

كلمة الله عينها ــ و يسوع المسيح هو كلمة الله الحية الفعالة ــ معروضة لكل بشر ، كل من يقبلها يتقدس بها ، يحل المسيح في أحشائه ، يسكن الله هيكله الجسدي

و يتحد به ، فيصير مع المسيح إبناً لله مولوداً من الله من الروح القدس ، في جسد المسيح ومن جسد المسيح العذري الطاهر .

إن ميلاد المسيح من مريم العذراء قد تم على مستوى التاريخ والإنجيل والنبوة وشهادة الروح القدس والرسل ، و بيقين القوات والآيات .

الآن ميلاد المسيح لا يحتاج إلى عمق أو برهان من خارج الإنسان . ولكن الحاجة كل الحاجة إلى تعميق ميلاد المسيح داخل الإنسان في قلب الإنسان وروحه و وجدانه وجسده عضواً عضواً . لابد أن يحل المسيح بالإيمان في قلوبنا ، ويملأ وجداننا وشعورنا وذاكرتنا ووعينا ، بل واللاوعي فينا أيضاً ، حتى نبلغ إلى حقيقة الميلاد أي حقيقة اتحاد إبن الله بجسد الإنسان أي بجسدنا .

حينما نتأمل الميلاد بشغف ، حينما نحب الميلاد كهدية عظمى من الله للإنسان ، ونذكره ونهذ فيه كشيء يخصنا ، ونستبطنه داخل قلبنا وإحساسنا ، ونلهج به الليل والنهار ، باعتباره أول وأعظم عمل رحمة عمله الله في صميم الإنسان مجاناً و بقوة خارقة ؛ حينئذ نشاهد بالتجربة ميلاد المسيح فينا ، ميلاد الحق الإلهي والنور والبصيرة والحب الإلهي الجارف ، ميلاد الطهارة والقداسة وخوف الله المذهل لكل كبرياء الإنسان وعتوّه واعتداده بنفسه ...

فحينما يشرق وجه المسيح الإلهي المملوء بساطة و وداعة واتضاعاً ، في أعماق إنساننا الجديد ، حينئذ تتبدد كل مخاوف كبريائنا ، وكل ظنون جبننا ور يائنا ، و يبطل في الحال أنيننا . وحينئذ نعلم ونفهم معنى الميلاد فينا ، ونذوق قوة التجسد وقداسته في أحشائنا وفي إدراكنا وفي سلوكنا ، بل وفي كلامنا وصمتنا ! ... فنصرخ مع بولس الرسول عن تجربة و يقين : « لا أحيا أنا بل المسيح يحيا فيَّ » (غل ٢ : ٢٠) ... بولس الرسول جاز تجربة الميلاد في نفسه ، ذاق مخاض الميلاد وأدركه بكثافته الإلهية ، وقاس عمقه وعلوه وقوته المخصبة ، حتى صار قادراً أن يتمخض بآخر ين إلى أن يتصور المسيح فيهم : « يا أولادي الذين أتمخض بكم أيضاً إلى أن يتصور المسيح فيكم » (غل ٤ : ١٩) ...

وهكذا صارت البشرية في نموذج بولس الرسول ، قادرة أن تلد المسيح مراراً و باستمرار وفي آخر ين أيضاً .

إن تجربة حمل المسيح في أحشاء الإنسان ، هي تجربة الملء البشري الذي به يصبح الإنسان عائشاً في الله على الدوام ، متحداً به ، مسبياً بالحب الإلهي في زيجة سرية أبدية سماوية لا يفكها إنسان ولا يحلها الموت ولا يزعزعها فكر .

ثانياً : يوحنا المعمدان :

أول من اكتشف التجسد أو بالحري اكتشف الحمل الإلهي بالمسيح ، والمسيح ما يزال بعد إبن أيام قليلة في أحشاء البتول ، هو يوحنا المعمدان .

هذا إعجاز ما بعده إعجاز ، لأن بمجرد أن سمعت أليصابات أم يوحنا المعمدان ، صوت سلام مريم العذراء ، تحرك يوحنا وهو بعد جنين ، بابتهاج في بطن أليصابات . فيوحنا كان في هذه اللحظة جنيناً في بطن أليصابات إبن ستة أشهر . ولكن ما هي قيمة السنين وطول العمر إزاء عمل الروح القدس ؟ لأنه قيل عن يوحنا أنه من بطن أمه يمتلىء من الروح القدس (لو ١ : ١٥) .

لقد أحس يوحنا بالروح وأدرك وهو جنين إبن ستة أشهر ، أحس بالمسيح الرب وهو بعد إبن أيام قليلة في بطن العذراء ... ذلك ما لم يحسه يوسف خطيب مريم وهو الذي لُقّب في الإنجيل بالبار ، الذي لم يسعفه بره ، فأراد أن يتخلى عن خطيبته لما رأى الحمل عياناً !!

يوحنا وهو في بطن أليصابات يبكت قلوبنا القاسية وأفكارنا المزعزعة التي تطلب المزيد من برهان التجسد و برهان الألوهة ! ... أما يوحنا وهو بعد جنين ، فنجده يتحرك فرحاً وابتهاجاً بالمسيح ، والمسيح لا يزال مخفياً في بطن العذراء ، لم يتصور بعد !! ... ونحن ، وقد تصور المسيح أمام عيوننا بأعمال لم يعملها أحد قط منذ أن قامت الخليقة حتى اليوم ، لا نزال نطلب البرهان والدليل ؟! ...

يوحنا بدأ وهو بعد جنين ، يعد طريق الرب ، وذلك لم يكن بالكلام ولا بالصوت الصارخ ، وإنما بالإبتهاج والحركة الصامتة ، هذا الذي جعل أمه تنطق وتسبِّح وتشهد بما سيكون !! ...

يوحنا يمثل الضمير الإنساني الذي ينبغي أن يولد بميلاد المسيح ، ولكن يلزم أن يستيقظ أولاً قبل أن يتصور المسيح ، يمهد في قفر الحياة طريقاً مستقيماً لإلهنا ... أو من ذا الذي يصلح طريق الإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه ؟! ومن ذا الذي يوبِّخ الإنسان و يبكته إلا ضميره ؟! ... لأنه يستحيل أن يأتي المسيح إلينا وطريقنا معوج ... وهل يمكن أن يأتينا المسيح ونحن في علو كبر يائنا ؟! أو هل يمكن أن يأتينا ونحن منبطحون في حفرة اليأس ؟! أو كيف نراه ونعرفه ونحن نعيش في انقسام وتمزق على دروب وشعاب لا هدف لها ؟! ...

هذا هو يوحنا المعمدان السابق ، شاهد الميلاد ، وهذا هو عينه ضمير الإنسان الذي عليه أُلقيت مسئولية الشهادة لميلاد المسيح في حياة الإنسان !

« صوتُ صارخٍ في البرية ، أعدوا طريق الرب ، اصنعوا سبله مستقيمة . كل وطأ يرتفع ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، وتصير المعوجات مستقيمة والشعاب طرقاً سهلة ، حتى يبصر كل بشر خلاص الله » !!

(لو٣ : ٤–٦ ، إش ٤٠ : ٣و٤)

وكما دمغ يوحنا المعمدان شهادته للمسيح بالمعمودية ، ليظهر المسيح لإسرائيل بالروح حسب قوله ، هكذا يختم ضمير الإنسان شهادته للمسيح بالمعمودية ليشرق نور المسيح في حياة الإنسان ، و يُستعلن في القلب حمل الله الذي يرفع خطية العالم كله ...

ثالثاً : الملاك والرعاة :

والرعاة يمثلون في حياتنا الروحية الساهرين على خلاص أنفسهم وخلاص الآخرين . ولا يزال هنا الوحي يشير إلى الليل وسهر الليل و يقظة الليل . فالساهرون في الصلاة والطلبة والتسبيح ، موضوعون على مستوى الحكمة والحكماء . فالمجوس استعلن

لهم المسيح من خلال الحكمة المستنيرة بنور الله ... والرعاة الساهرون وهم يمثلون بساطة اليقظة الروحية وأمية الجهاد والمعرفة ، انحدر لهم ملاك الرب الخصوصي ليعلن لهم بالكلمة و بالنطق المسموع الخبر المفرح والبشارة السماوية بميلاد المسيح .

الحكماء لم يأخذوا كلمة ولا علامة لأن حكمتهم العميقة هدتهم بواسطة النجم المضيء الذي استعلن لهم وحدهم بالرؤيا الداخلية إلى حيث كان المسيح في حضن العذراء ... أما هؤلاء الأميون في المعرفة فلأجل جهادهم الحسن وأمانتهم الفائقة في الرعاية والسهر ، أخذوا علامة من فم الملاك : « وهذه لكم العلامة تجدون طفلاً مقمطاً مضجعاً في مذود » (لو٢ : ١٢) ، كما أخذوا اليوم والمكان الذي ولد فيه : « إنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلّص هو المسيح الرب » (لو٢ : ١١) .

الله لا يكلف البسطاء جهداً في التعرف عليه ، فالله يأخذ على عاتقه كل ما يعوزنا فيما يختص بمعرفته وفهمه وإدراك وجوده وتمييز أقواله واتباع الطريق الموصل إليه : « هأنذا أرسل ملاكي فيهيء الطريق أمامي » (ملاخي٣ : ١) ... هكذا سبق الرب وطمأننا على فم ملاخي النبي .

الرعاة المتبدُّون الذين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم هم مَثَل حقيقي مبدع لسهر الله و يقظته على الساهرين المتيقظين لكلمته ... كيف يرد الله على الأمانة بالأمانة ، وعلى السهر والجهاد بكشف السبل المؤدية إليه ، وعلى الصلاة والطلبة بالظهور و بالآية و بالعلامة .

ولكن يلزم الإنسان دائماً أبداً أن يفهم علامات الله وآياته ، وأن يكون قلبه بسيطاً مستعداً للبشارة وفك لغز الآية مثل هؤلاء الرعاة الأميين الذين تعرفوا على المخلص مسيح الرب في شخص طفل مسكين فقير معدم نائم على التبن في مذود للبهائم ، وبجواره أُم فقيرة صغيرة غريبة كأن لا أهل لها ولا معين !! ... وهكذا آية حضور الله دائماً في حياة الإنسان من خلال الأعمال الصغيرة والحقيرة تكاد لا تصدَّق . فكم مرة ظهر الله لنا وعبر علينا من خلال حوادث بسيطة تافهة كتفاهة المذود ، فلم نتعرف عليه ، وعبر عنا آسفاً على حكمتنا الجاهلة وعقلنا الجبار العاجز...

إن آية الميلاد التي وصفها الملاك للرعاة كعلامة مضمونة وأكيدة للتعرف على المخلِّص مسيح الرب ، لا تزال هي بعينها آية الظهور الإلهي وآية الخلاص معاً : « طفلاً مقمطاً مضجعاً في مذود » ... فالله لا يتراءى إلا في عمق الإتضاع ، « والطفل المقمط المضجع في مذود » هو هو الذي « تقيد في يديه و وضعوه على الصليب » ... وهو هو الذي قال : « تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب » ...

نحن مدعوون دائماً للتعرف على المسيح ، ولكن قلَّ من يجده وقلَّ من يراه ، لأننا نطلبه في غير المذود ونبحث عنه خارج الصليب ... لذلك نضيِّع العمر باطلاً ... ملاك الميلاد يستحثنا أن : « وُلد لكم اليوم مخلص هو مسيح الرب وهذه لكم العلامة تجدون طفلاً مقمطاً مضجعاً في مذود » ، « فولدت إبنها البكر وقمطته وأضجعته في المذود إذ لم يكن لهما موضع في المنزل » (لو٢ : ١١و٧) ...

في بساطة الطفولة نتعرف عليه . في قيود الضعف والتسليم والطاعة يشرق علينا لاهوته . في فقر الجسد وعوز الطبيعة نرى مجده ونعاين قوته وسلطانه وملكه الأبدي ... وحينما يصبح « ليس لنا مكان في المنزل » حينئذ نجده .

رابعاً : المجوس :

ويمثلون في البشرية الحكمة . ومعروف أن من ألقاب المسيح أو صفاته الذاتية : الحكمة . فالمسيح هو كلمة الله وحكمة الله . لذلك ليس عجيباً أن يستعلن ميلاد المسيح عند الحكماء بلا مبشر أو رسول . فالحكمة هي بحد ذاتها استعلان للحق الإلهي و بالتالي استعلان للمسيح .

ومن هو الحكيم إلا الذي يدرس كل يوم كلمة الله مشتاقاً إلى معرفة الله بلا توقف و يتأمل صفاته و يفرح بتأديباته و يصبر لتعليمه و يتميز تدبيره و يرصد توجيهاته ، يجري وراء سر الله بلا تعب ، كعطشان ملتهب يسرع إلى الماء ليرتوي من كل سفر من أسفار الله ، من كل قديس من قديسي الله ... هذا هو الحكيم الذي يجلس إلى الله كل يوم ساهراً بإلحاح حتى تكشف له الحكمة كنوزها ، وكل كنوزها مذخرة في المسيح ، لأن

المسيح مذخر فيه كل كنوز الحكمة والعلم كما يقول الكتاب (كولوسي ٢ : ٣) .

لقد قامت قافلة المجوس من الشرق ــ لعلها من بلاد فارس أو الهند ، بدون دليل بشري ، بل نور من السماء كان يقودهم ، نجم غير عادي استعلن لقلوبهم أولاً فرأته عيونهم . ولم يكن هذا النجم سوى وجه يسوع المسيح المضيء الذي استُعلن أيضاً لقلب شاول بولس في منتصف النهار بلمعان أكثر من الشمس ، حتى لم تحتمله عيناه ، لأنه لم يكن مؤمناً بعد إذ كان فريسياً متمسكاً ببِرِّ نفسه ، فلما استغنى عن بره وأسقطه من قلبه سقط عماه من عينيه مثل قشور هي قشور البر الذاتي فرأى وآمن واعترف واعتمد ... المجوس آمنوا بالرؤيا و بالنور ، وكان إيمانهم وطيداً محصته مشقة الرحلة القاسية عدة شهور وهم يكافحون في قلب الصحراء ، لم يسقط إيمانهم من قلوبهم ولا شكُّوا لحظة فكان إيمانهم يزيد النجم نوراً ولمعاناً ، وحرارتهم تستحث مسيرة النجم في السماء على وقع أقدامهم السريعة .

يالبهجة قلب المجوس وهم يغنون و يترنمون على مسيرة وجه المسيح في سماء قلوبهم بصوت مطرب ! نعم يالسعادة الحكيم بحكمته فهي تقوده بيقين خطوة خطوة من مجد إلى مجد برؤيا وجه المسيح مكشوفاً بالإيمان يلمع بالرجاء حتى يستقر إلى حضن المسيح ... إلى قلب الله ... !!

أين هو المولود ملك اليهود؟ ياللحكمة المعجبة ! طلبوه كملك وهم عالمون أنه طفل وليد !! هذا هو منطق الإيمان عند الحكمة ، والحكماء لا يحسبون القامات ولا المستويات ولا الظاهرات ... فلما رأوه في حضن أمه سجدوا له !! سجودهم تجاوز المنظور إلى ما هو فوق المنظور ، فالمنظور طفل رضيع « لا يعرف أن يرفض الشر أو يختار الخير » كقول إشعياء النبي (إش ٧ : ١٥) .

أما غير المنظور الذي كان يراه هؤلاء الحكماء وكانوا له يسجدون فهو المسيح الرب الملك السمائي الذي له ينبغي السجود في كل زمان ومكان . وسجود الحكيم ترافقه دائماً الحكمة ، لذلك قدموا عند سجودهم ما يبرهن على فطنتهم وصدق رؤيتهم وحق دعواهم . قدموا له ذهباً كما يليق بملك وقدموا له لباناً كما يليق بإله ، وقدموا له مُرًّا كما

يليق بحياة تخللتها المرارة حتى كملت بالصليب .

كيف استطاع هؤلاء الحكماء أن يقيسوا حياة المسيح هكذا و يقيِّموها مادياً بالهدية مدعمين بها صدق حكمتهم لدى كل الأجيال الآتية ؟ أليس هذا تبكيتاً لحكماء هذا الدهر الذين لم يستطيعوا أن يتابعوا هذا المستوى المستنير الرؤ يوي لهؤلاء المجوس ؟ ولكن أليس هذا أيضاً مشجعاً لنا حتى نتابعهم نحن ، لكي تُستعلن لنا بقية مذخرات الحكمة المكنوزة في المسيح ، ولنسير مسيرتهم على نور وجه الحبيب ، عابر ين وادي الدموع بالبهجة والرجاء ، بتجليات الحكمة ونورها القلبي ، إلى أن نقف كلنا أمام كرسي المسيح حيث الملك جالس والملكة عن يمينه في بيت لحم السماء وجمهور جند السماء من حولنا يتابعون ترنيمتهم الخالدة ...

خامساً : سمعان الشيخ :

شخصية ميلادية تحمل لنا صورة ليقين الرجاء وكيف يجازي الله الأتقياء في الزمان الحاضر برؤ يا وجه الحبيب . يقول الكتاب أنه كان رجلاً باراً وتقياً (لو٢ : ٢٥) ، أي أن بره كان عن تقوى حقيقية وليس عن شعور باكتفاء ذاتي ، لذلك كرمه الله بحلول الروح القدس عليه ، وكانت له بصيرة وإلهام ووحي ، وبماذا يمكن أن يكافىء الله إنساناً في هذا الزمان أكثر من أن يعطيه وعداً بأنه لا يموت حتى يرى المسيح ؟ أو بالحري لا يموت أبداً ، لأنه كيف يرى الإنسان المسيح ويموت ؟ لذلك نسمعه يقول : « اطلق عبدك بسلام » (لو٢ : ٢٩) ، والإطلاق هنا تعبير عن الإنتقال إلى حال أعلى !! لأن عيني سمعان أبصرتا الخلاص !

طوبى للذي يتوقع التعز ية كما توقعها سمعان ذلك الرجل الشيخ الذي ما استطاع الموت أن يقتحم شيخوخته بسبب توقعه تعز ية الله ! وكان سمعان رجلاً « باراً تقياً متوقعاً تعز ية إسرائيل » (لو٢ : ٢٥) . لقد توقع سمعان تعز ية الله لشعبه فرأى الخلاص عياناً لأنه رأى وجه المسيح . هنا سر من أسرار الله التي يفاجىء بها أولاده الأتقياء الذين عبر عنهم المسيح مرة بقوله : « فكم بالحري يعطي الله الروح القدس

للذين يسألونه » (لو١١ : ١٣) !! هنا عطية الروح القدس هي هي عين العطية التي نالها سمعان البار أن يرى وجه المسيح ، أن يرى الخلاص بعينيه فيحيا إلى الأبد ! ...

ما أشد حاجتنا إلى رؤ يا وجه المسيح مولوداً في بيت لحم حياتنا . إن رأس مال سمعان لم يكن شيئاً أكثر من الصلاة بيقين والتمسك بوعد الله ... ولكن أي صلاة هذه أو ما نوعها ؟ هذا يكشفه الرب لنا بقوله في موضع آخر : « الصارخين إليه ليلاً ونهاراً » (لو١٨ : ٧) !!

سادساً : حنة النبية :

من أعجب الشخصيات التي رافقت ميلاد المسيح امرأة أصيبت في زوجها مبكراً جداً ربما في سن الواحد والعشر ين أو أكثر قليلاً ثم عاشت مترملة أربعة وثمانين سنة ملازمة للهيكل لا تفارقه قط عابدة بأصوام وطلبات ليلاً ونهاراً ، أي ناهزت المائة وعشر سنين وهي في نسكها !! العجب هنا أن تقوى هذه المرأة حوَّل حزنها على موت زوجها إلى حالة نبوة !! ثم إخلاصها المذهل في العبادة والإلتصاق بالله و ببيت الله جعلها ترى ميلاد المسيح بالروح وتكشف ساعة الخلاص التي أتت على المسكونة كلها ، ورئيس الكهنة في سهو ولهو داخل الهيكل يعدّ الذهب ويجرد الأواني والأسلاب .

حنة النبية تعطينا صورة للرجاء الحي المبارك الذي يمكن أن ينبثق من ضيقة ــ أي ضيقة ، أو كارثة ــ أي كارثة ، أو حزن ــ أي حزن ؛ ولكن ليس مجرد رجاء يكون ، بل رجاء يبلغ إلى التصاق كلي بالله مدى الحياة . هذه هي التي اشتهت أن تسكن في بيت الله كل أيام الحياة فسكنت وعاشت حتى رأت المسيح وتكلمت عنه مع المنتظر ين **فداءً** في أورشليم (لو٢ : ٣٨) .

سمعان عاين **الخلاص** في الميلاد ، وحنة عاينت فيه **الفداء !!** لقد تجاوزت حنة كل بهجة الخلاص في حياة المسيح ولمحت الصليب والموت والفداء من بعيد ، باعتبار أن الفداء هو سر الخلاص النهائي والباب المؤدي إليه ... إن رؤ يا حنة فاقت كل الرؤى لأن سيرتها فاقت كل السير !!

حنة كانت تواظب على الصلوات، صلوات النهار وصلوات الليل كما يقول الكتاب: «بأصوام وطلبات ليلاً ونهاراً» (لو٢: ٣٧)، هذا هو سر حنة وهو نفسه السر الذي يعرضه المسيح علينا بإلحاح: «صلوا صلوا ولا تملوا» (لو١٨: ١)... «اسهروا وصلوا» (متى ٢٦: ٤١)، لماذا؟ لأن بعد الصلاة تكون الرؤيا وتكون اللقيا مع وجه الحبيب، وطوبى للعبد الذي يأتي سيده فيجده ساهراً في الهزيع الثاني أو الهزيع الثالث (لو١٢: ٣٨)!!

(يناير ١٩٧٣)



المسيح والتوراة
ومضادة الخلاص(٥)

العهد القديم كله يمهد لمجيء المسيح، من ابراهيم لملاخي، ليس بأقوال الأنبياء والمزامير وحسب، بل و بكافة أسفاره المتقنة بالتدبير الإلهي عبر الحوادث، الغامض منها والواضح، وعبر الأشخاص، الفاشل منهم والناجح، وعبر الحوادث، المحزن منها والمفرح، وذلك على مدى الأجيال، فالكل يشير إلى المسيا بانتظار مجيء «يوم الرب».

وهكذا فإن التاريخ المقدس يبدو رتيباً كطبقات ممتدة يعلو بعضها فوق البعض، ويمسك بعضها بالبعض، وإن كانت تزداد كثافة وإعتاماً على ممر الأجيال، بسبب ازدياد انحجاب الله وازدياد لغز الخلاص غموضاً؛ إلا أنها تنتهي فجأة بإشراقة وضّاحة بالميلاد، و يأتي المسيح، فينكشف الغطاء عن الحوادث السالفة جميعاً، و يأتي يوم الرب فيضيء التاريخ!!

° ° °

قارىء العهد القديم يصطدم بحقيقتين على مدى الأسفار يقلقانه أشد القلق بسبب إعتامها الشديد. وهو لا يجد لهما معنى أو تفسيراً: انحجاب الله الذي يزداد في الأسفار على ممر السنين، وتخلي الله الذي يبلغ في النهاية حد القطيعة والإهمال الكلي...

فإبراهيم أبو الآباء، المحسوب أنه أيضاً أبو الإيمان، بعد اختبار الله والتحدث إليه

---

(٥) كلمة «مضادة» اصطلاح يُستخدم بكثرة في اللاهوت المسيحي، وتعني «اتفاق أو تقابل النقيضين»، فـ«مضادة الخلاص» تعني اتفاق أو تقابل عدل الله مع تعدي الإنسان، وبر الله مع خطيئة الإنسان، ونعمة الحياة مع عقوبة الموت!

وسماع موعده وتصديق الوعد ــ بالرغم من ذلك كله ، لا يفلت من هذا الإحساس عينه : إحساس « **تخلي الله** »!! فيقف ابراهيم يعاتب الله بحزن وألم على هذا « التخلي » الذي ازداد في نظره حتى بلغ حد اللامعقول واللامقبول أيضاً : « ماذا تعطيني وأنا ماضٍ عقيماً ؟ ليت **اسماعيل** يعيش أمامك » (تك ١٥ : ٢) ؟

وموسى يقف يعاتب الله من جهة هذا الأمر : « التخلي » بلغة تثير الدهشة ، وكأن الله تجاوز حدود العقل والرحمة معاً « لماذا يارب يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر ... ؟ لماذا يتكلم المصريون (هنا موسى يعبّر في الحقيقة عما يجول بخاطره هو) قائلين **أخرجهم بخبث ليقتلهم** في الجبال و يفنيهم عن وجه الأرض . **إرجع** عن حموغضبك **واندم** على الشر بشعبك » (خروج ٣٢ : ١٢) .

وأيوب الذي بلغ في هذا المضمار أقصاه ، إذ أُعطي في الكتاب أن يهاجم الله مهاجمة بلغت أقسى ذروتها بسبب ما حل به من خسارة كل ماله ومرض احتواه بجملته ، الأمر الذي جعله يرى الله وقد تخلى عن كل عدله ورحمته وتجاوزهما إلى الظلم والقسوة ؟؟

ــ « لذلك قلت أن الكامل والشرير هو يفنيهما ... يسحقني كالعاصفة و يكثّر جروحي بلا سبب ؟ لا يدعني آخذ نفسي بل و يشبعني مرائر ؟ ... قلت لله لا تستذنبني ، فهمني لماذا تخاصمني ؟ أحسن عندك أن تظلم ؟ أن ترذل عمل يديك وتشرق على مشورة الأشرار ؟ (ليكن) في علمك أني لست مذنباً ، فهل لا أُنقذ من يدك ؟ هل تبتلعني ؟ إن أذنبت و يل لي ؟ وإن تبررت لا أرفع رأسي ؟ كأسد تصطادني ثم تعود أيضاً وتتجبر عليّ ؟ لماذا أخرجتني من الرحم (إذن) ؟ كُفّ عني فأتبلج قليلاً قبل أن أذهب »(١) .

ثم يقول أيوب للحكماء الذين جاءوا يعزونه : « اسكتوا عني فأتكلم أنا ، وليصبني مهما أصاب ... هوذا يقتلني ، لا أنتظر شيئاً ، فقط أزكي طريقي قدامه ... ها أنا أحسنت

(١) أيوب ٩ : ١٧و١٨ ؛ ١٠ وما بين القوسين مترجم عن النسخة السبعينية للعهد القديم .

الدعوى (الدفاع) وأعلم أني أتبرر . (و يبدأ أيوب يترافع أمام الله ويهاجم شكل المحكمة) : (هل) **تجدد** شهودك تجاهي **وتزيد** غضبك علي ؟ أمرين (شرطين) لا تفعل بي حتى لا أختفي من حضرتك (أستعفي عن قضاتك وأخرج من دائرة المحكمة) : ١ــ أبعد يدك عني ، ٢ــ لا تدع هيبتك ترعبني ، (و بعد ذلك) ادعُ أنت (أقم الدعوى) وأنا أجيب . (ولما) أتكلم أنا ، تجاوبني (أنت) !! أــ كم لي من الآثام والخطايا ؟ أعلمني ذنبي وخطيتي ! بــ لماذا تحجب وجهك وتحسبني عدواً لك ؟ (هذا لا يليق بنزاهة القاضي) ، جــ لأنك كتبت عليَّ أموراً مرة (اتهامات ثقيلة) و ورثتني آثام صباي ؟ (وهذا غير جائز من جهة العدل المنطقي) »(٢) .

وهكذا استمر أيوب في دفاعه عن نفسه ومهاجمته لعدل الله ، بأقسى ما عُرف من مرارة وجرأة وصراحة لم يبلغها أحد قط . ولكن لشديد الأسف لم يدرك العالم كله حتى الآن قيمة هذا الدفاع الرائع المنقطع النظير الذي قدمه أيوب أمام محكمة الله العليا . وقد عثر في عظمة هذا المنهج الدفاعي الرائع ، الذي بلغ الذروة في منطقه الإنساني والإلهي معاً ، كثيرون من الكتاب والمفسرين ، ولم يدركوا أن أيوب في هذا كان محامي البشرية العام يرفع قضية الإنسان برمتها مع كل مظلمته وعثرته وآلامه الخفية أمام الله كصورة نبوية لما عمله المسيح الذي وقف نفس الموقف تجاه عدل الله . وما عجز عنه أيوب في تبرئة نفسه وكل الإنسان المظلوم معه ، استكمله المسيح ببره الشخصي و بذبيحة نفسه !

أما سر آلام أيوب الخلاصية ، فلا يمكن فهمها إلا إذا أخذنا في الإعتبار تصريح الله للشيطان الحاسد والحاقد بقوله : « **هيجتني عليه بلا سبب !!** » (أيوب ٢ : ٣) ...

و بقية أسفار العهد القديم مشحونة بمواقف التخلي هذه ، بل ومواقف الإهمال وعدم المبالاة والنكوص والقسوة والظلم السافر ، تجاه الشعب ، بل وتجاه أنبياء وأبرار كثيرين ، بحسب تعبير الأنبياء .

(٢) أيوب ١٣ : ١٣ــ١٨ ؛ ١٠ : ١٧ ؛ ١٣ : ٢٠ــ٢٦ .

اسمع ما يقوله إرميا وهو يصف ما حل به من قسوة الله الذي شبهه بدب وأسد يكمن له ليفترسه ظلماً !! ، ولكنه كان يرمز أيضاً إلى ما حل بشعب إسرائيل وبأورشليم . أما بحسب التقليد الكنسي فمعروف أنه كان يرمز إلى آلام المسيح ، ولكن كل هذه التأويلات لا تنفي أن إرميا جاز بنفسه هذه المحنة فعلاً :

ــ « أنا هو الرجل الذي رأى مذلة بقضيب سخطه . قادني وسيَّرني في الظلام ولا نور . حقاً إنه يعود و يرد عليَّ يده اليوم كله . أبلى لحمي وجلدي . كسر عظامي . بنى عليَّ وأحاطني بعلقم ومشقة . أسكنني في ظلمات كموتى القدم . سيَّج عليَّ فلا أستطيع الخروج . ثقَّل سلسلتي . أيضاً حين أصرخ وأستغيث يصد صلاتي . سيَّج طرقي بحجارة منحوتة . قلب سبلي . هو لي دب كامن ، أسد في مخابىء . ميَّل طرقي ومزقني . جعلني خراباً . مد قوسه ونصبني كغرض للسهم . أدخل في كليتي نبال جعبته . صرت ضحكة لكل شعبي ، وأغنية لهم اليوم كله . أشبعني مرائر ، وأرواني أفسنتيناً . وجرش بالحصى أسناني . كبسني بالرماد . وقد أبعدتَ عن السلام نفسي . نسيت الخير . وقلت بادت ثقتي ورجائي من الرب . ذِكْرُ مذلتي وتيهاني أفسنتين وعلقم . ذكراً تذكر نفسي وتنحني فيَّ »

(مراثي إرميا ٣ : ١ ــ ٢٠) .

وحبقوق يصرخ من عدم مبالاة الله وتوقف عدله ورحمته :

ــ « حتى متى يا رب أدعو وأنت لا تسمع ؟ أصرخ إليك من الظلم وأنت لا تخلِّص ؟ لِمَ تريني إثماً ؟ و(ألا) تبصر (هذا) الجَوْر ! ، قدامي اغتصاب وظلم وخصام ، والمخاصمة ترفع نفسها . فجمدت الشريعة ، ولا يخرج الحكم بتة ، لأن الشرير يحيط بالصديق ، فلذلك يخرج الحكم معوجاً ... لماذا تنظر إلى الناهبين وتصمت حتى يبلع الشرير من هو أبر منه ؟ أتجعل الناس كسمك البحر ؟ كبهائم لا سلطان لها ؟ »

(حبقوق ١ : ٢ و٣ و٤ و١٣ و١٤) .

وهكذا على مدى العهد القديم كله نلاحظ أن الله يزداد انحجاباً عن الإنسان يوماً بعد يوم ، وذلك **بقدر ازدياد تعرُّف الإنسان** على مستواه المتردي في الخطية **وبقدر ازدياد توقعه لخلاص الله !!** وكأن إدراك انحجاب الله يزداد بالمعرفة ، والشعور بهذا الانحجاب يزداد بازدياد التقوى ، لذلك كان الأنبياء هم أكثر الأشخاص إدراكاً وإحساساً وألماً لانحجاب الله وأكثرهم شكوى في صراحة ومرارة عجيبة . لذلك لا نستغرب إذا سمعنا إشعياء ــ وهو عظيم الأنبياء ــ يقولها لله صراحة : « **حقاً أنت إله محتجب** يا إله إسرائيل **المخلِّص** » (إش ٤٥ : ١٥) .

وفي انحجاب الله بدت جميع أعماله وتصرفاته في نظر الأنبياء غريبة ، مشوبة بالإهمال والتخلي ، بل ولا تخلو من النقمة والظلم ، و بلغت في اعتبارهم إلى حد الجور والقسوة ، كما عبَّروا عن ذلك بصراخهم وشكواهم : فإشعياء يصرح بأن أعمال الله أصبحت في نظره غريبة غير مفهومة « يسخط ليفعل **فعلهُ فعلَهُ الغريب ، ويعمل عملهُ عملهُ الغريب** » (إش ٢٨ : ٢١) .

ثم يعود إشعياء فيحس بأن هذا كان تفريطاً منه تجاه عدل الله . فيلوم نفسه جداً موبخاً نفسه ، ولكن حتى هذا التوبيخ عينه لا يخلو من اعتراف بملامة الله « ويل لمن **يخاصم** جابله . وهل يقول الطين لجابله **لماذا** صنعتني هكذا ؟ » (إش ٤٥ : ٩) .

ولا يعود إشعياء يرى في الشكوى من انحجاب الله أية فائدة ، فيلتزم بالصبر المكبوت « فاصطبر للرب الساتر وجهه عن بيت يعقوب وانتظره » (إش ٨ : ١٧) .

أما على مستوى الشعب فكان هذا الانحجاب سبباً حدا بالضعفاء ــ والملوك أحياناً ــ لسؤال الأرواح والتوابع وأصحاب الجان : « وإذا قالوا لكم اطلبوا أصحاب التوابع والعرَّافين والمشقشقين والهامسين ، ألا يسأل شعبٌ إلهه ؟ أيُسأل الأموات لأجل الأحياء ؟ » (إش ٨ : ١٩) .

° ° °

أما هذا الاحتجاب المستمر مع ما تبعه من تخلي مستمر أيضاً ، فقد جعل الله يبدو

في نظر الأنبياء أنه قد تقهقر وتراجع ، إلى درجة فرط فيها إرميا النبي فتصور أن الله قد ضعف وفقد قدرته على الخلاص !! « لماذا تكون **كإنسان قد تحير؟ كجبار لا يستطيع أن يخلِّص ؟** وأنت في وسطنا يارب وقد دُعينا باسمك . لا تتركنا !! » (أر١٤ : ٩)

ولكن كل هذا الانحجاب مع كل هذا التخلي المرير الذي عاناه الشعب وأحسه الأنبياء وتوجعوا منه بمرارة وصراخ ملأ أسفاراً برمتها وصاغ مزامير عديدة كلها أنين ودموع وعتاب ، كل هذا في الحقيقة يشكل ويصور صميم منهج الخلاص في صورته النبوية على مدى أسفار العهد القديم ! **لأنه علينا أن ندرك تماماً أن الخلاص هو محصلة اصطدام وتعارض لعدل الله مع خطيئة الإنسان وعجزه !!** فالخلاص في العهد القديم لم يكن أكثر من هذا الاصطدام والتعارض الذي شكل هذه « **المضادة العظمى** ». أما حدها الأول فهو عدل الله ، وأما حدها الثاني فهو خطيئة الإنسان وتعديه المستمر. والنتيجة المباشرة لتقابل الاثنين هي خصومة مستمرة ونفور شديد ، إذ ليس من يصالح « لأنه ليس هو إنساناً مثلي فأجاوبه فنأتي جميعاً إلى المحاكمة ، ليس بيننا مُصالح يضع يده علينا كلينا » (أيوب ٩ : ٣٢ــ٣٣) .

وهكذا أصبح اقتراب الله من الإنسان خطراً جداً « **فإني لا أصعد في وسطك** لأنك شعب صلب الرقبة **لئلا أفنيك في الطريق** ، فلما سمع الشعب هذا الكلام **السوء ، ناحوا** ولم يضع أحد زينته عليه ... وكان الرب قد قال لموسى قل لبني إسرائيل أنتم شعب صلب الرقبة ، **إن صعدت لحظة واحدة في وسطكم أفنيكم** » (خر٣٣ : ٣ــ٥) .

إذن فاحتجاب الله كان حداً أساسياً لمعادلة صعبة في العهد القديم ، هي معادلة الخلاص المستحيل !! لأن اقتراب الله من الخاطىء بدون مصالحة لن يكون وراءه أي خير بل تأديب وموت وفناء « **لأن الإنسان لا يراني ويعيش !!** » (خر٣٣ : ٢٠) ، هذه إحدى آيات مضادة الخلاص قيلت لموسى نفسه وهو واقف أمام الله !! وهكذا اقتنع الشعب تماماً « فقال منوح لامرأته **نموت موتاً لأننا قد رأينا الله** »

(قضاة١٣ : ٢٢) .

° ° °

ولقد بلغت مضادة الخلاص هذه ــ بحديها : عدل الله ، وخطيئة الإنسان ، مع منهجها العملي ، أي انحجاب الله المتزايد وتخليه وقضائه العنيف المر ــ أقصى ذروتها في العهد القديم عند الكلام عن المسيا بصفته المخلِّص الآتي ! حيث جمعت النبوات بين « اقتراب الله » ، وبين « مواجهة الإنسان في خطيئته » . فخرجت صورة المسيا متناقضة أشد التناقض تحمل أقصى المجد وأقصى المهانة والمذلة معاً وفي شخص واحد !! أقصى الاقتراب الذي بلغ الاتحاد ، وأقصى الانحجاب الذي بلغ الترك والإهمال الكلي !! أقصى السيادة بمعنى الربوبية ، وأقصى التواضع بمعنى العبودية !!

وإشعياء النبي يضع هذه الصفات المتضادة هكذا :

أولاً : ما فوق البشر:

« هوذا عبدي الذي أعضده ، **مختاري** الذي سُرَّت به نفسي ، **وضعت روحي عليه** فيُخرج الحق للأمم . لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته .

« أنا الرب قد دعوتك بالبر ، فأُمسك بيدك وأحفظك وأجعلك « **عهداً** » للشعب ونوراً للأمم ، تفتح عيون العُمي لتُخرج من الحبس المأسورين في السجن الجالسين في الظلمة .

« لأنه يولد لنا ولد ونُعطى ابناً ، وتكون الرياسة على كتفه ، **ويُدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام . نموّ رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته ليثبِّتها ويعضدَّها بالحق والبر من الآن إلى الأبد** »

(إش٤٢ : ٦ــ٧ ؛ ٩ : ٦ــ٧).

ثانياً : ما دون البشر:

« كان منظره مفسداً أكثر من الرجل وصورته (مهانة) أكثر من بني آدم ، لا

صورة له ولا جمال فننظر إليه ، ولا منظر فنشتهيه ، محتقر (وأقل من بني) الناس .

إنسان آلام ، وكفء لحمل الأمراض ، لأن (وجهه) مستور عنا ، محتقر فلم نعتد به ،

أحزاننا حملها (وتألم عنا) ونحن حسبناه أنه (في محنة وعناء ومصيبة) مضروباً من الله ومذلولاً .

ظُلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه ... ضُرب من أجل ذنب شعبي ، وجُعل مع الأشرار قبره ،

على أنه لم يعمل ظلماً ولم يكن في فمه غش (وبسبب اتضاعه خسر قضيته) .

أما الرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن ... وأُحصي (من) الأثمة » .

(اشعياء ٥٣ ــ الكلام الوارد بين الأقواس مترجم عن النسخة السبعينية)

وهكذا تبلغ في المسيا مضادة الخلاص قمتها النهائية من جهة انحجاب الله وتخليه ، وفي آلام ومذلة لم يرَ إنسان قط مثيلاً لها !!

وليس في اشعياء فقط تتركز مضادة الخلاص في شخص المسيا ، بل وفي المزامير أيضاً ، حيث تجمع المزامير بين ملوكية المسيا الشاملة وسلطانه إلى أقصى الأرض بما يفوق طاقة الإنسان ، ولا تليق إلا بالله وحده « قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك تحت موطىء قدميك » ، « اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصي الأرض مُلكاً لك » (مز١١٠ :١ ، ٢ :٨) .

ثم تعود المزامير لتصف المسيا بأوصاف يلفها الحزن والظلام ، و يبلغ انحجاب الله فيها درجته القصوى :

ــ « إلهي إلهي لماذا تركتني ... أما أنا فدودة لا إنسان ، عار عند البشر ومحتقر الشعب . كل الذين يرونني يستهزئون بي و يفغرون الشفاه ويحركون الرؤوس قائلين اتكل على الرب فليُنجه لينقذه لأنه سُرَّ به ... كالماء انسكبت ، انفصلت

كل عظامي ، صار قلبي كالشمع قد ذاب وسط أحشائي ، يبست مثل شقفة قوتي ، ولصق لساني بحنكي ، وإلى تراب الموت تضعني ... ثقبوا يدي ورجلي ، وأحصوا كل عظامي ، وهم ينظرون و يتفرسون فيَّ ، يقسمون ثيابي بينهم ، وعلى لباسي يقترعون » (مز٢٢) .

وهكذا تتجمع وتتركز كل مآسي الإنسان على مدى جميع أسفار العهد القديم ، من انحجاب وتخلي وقضاء وعقاب ، بل وآلام وأحزان حتى الموت ، في شخص المسيا .

ولكن بقيت هذه النبوات بشكلها المتعارض هذا ، من مجد فائق وإذلال متناه ، مصدر دهشة وحيرة وارتباك أرهقت تفكير كل الحكماء والمفسرين وحتى الملهَمين في إسرائيل ، إلى الحد الذي أعجزهم عن الإسترسال في التفكير في هذا الأمر نهائياً ، فتجاوزوا عن هذه المضادة وقسموها إلى حديها الأساسيين ليستريحوا فجعلوا المجد من نصيب المسيا وجعلوا المهانة والتخلي من نصيب الخطاة .

وهكذا فقدوا من الأساس ، حتى ومن قبل ظهور المسيا ، القدرة على متابعة مفهوم الخلاص واستعلانه من خلال الآلام ، و بالتالي فقدوا قدرة التعرُّف على المسيا وعثروا فيه ! ...

ولكن لم يكن ذلك عن جهل في الإدراك أو عجز في الإلهام والتفسير ، ولكن يقول الكتاب أنهم سدوا آذانهم عن السماع وعيونهم عن الإبصار (رو١١ :٨) عن قصد وعناد ، فقد رفضوا مضادة الخلاص من أساسها لأنهم أحجموا عن قبول أي نوع من الضعف أو الآلام ! وفضلوا الإحتفاظ بأمجادهم وأرضهم ووطنهم بالقوة ، حتى ولو فقدوا المسيا والخلاص ورضى الله . « فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعاً وقالوا ماذا نصنع فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة إن تركناه هكذا يؤمن به الجميع فيأتي الرومانيون و يأخذون موضعنا وأمتنا » (يو١١ :٤٧و٤٨) .

وأخيراً وُلد المسيح وسط أمجاد إلهية بلغت عنان السماء بنشيد ملائكي ، ولكن في تواضع بشري بلغ من الغربة والفقر أن وُلد في مذود للبهائم !!

أما أول نبوة قيلت عن رسالته التي جاء ليحملها وهو لا يزال طفلاً على ذراعي أمه ، فكانت عن « **مضادة الخلاص** » التي وُضعت على كتفه منذ المهد ، التي سماها سمعان الشيخ بالروح « **علامة تقاوم** » : « وباركهما سمعان وقال لمريم أمه ها إن هذا قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل **ولعلامة تقاوم** » (لو٢ : ٣٤) .

وبميلاد المسيح بدأت مضادة الخلاص تأخذ مِلأها واكتمالها حيث اتحدت القوة الإلهية بالضعف البشري ، وتواجه البر المطلق مع العجز المطلق ، وتصادم العدل الإلهي مع خطيئة الإنسان التي حملها المسيح طوعاً على الصليب ! ...

وهكذا حل المسيح مشكلة الخلاص ـــ هذه المضادة الخطرة ـــ ليس بالحديث التعليمي ولا بالمعجزة الباهرة ، لأن هذا مستحيل ، ولكنه حلها ، حملها في أحشائه ، حمل الخطيئة والعدل معاً فتمزق على الصليب تمزقاً ، وانسكبت حياته ـــ بيده ـــ حتى الموت !! فأرضى العدل وبرأ الإنسان . ولكن بقي لغز الخلاص منحجباً في ظلمة القبر ثلاثة أيام ، قام بعدها المسيح من بين الأموات فأقام معه الإنسان غالباً الخطيئة والموت والهاوية ، ليعيش في بر الخلاص ونعمته بلا حاجز يفصله عن الله ، بلا مضادة ، بلا انحجاب عن الله أو خوف أو تخلٍّ ، بل في عمق « **الشركة مع الله** » يتنعم بحضرته إلى الأبد ...

وهكذا بتجسد المسيح في الميلاد ، التقى الله مع الإنسان في نموذج فريد للحب الإلهي مشخصاً في المسيح آدم الثاني ، عمانوئيل « الذي تفسيره الله معنا » (متى ١ : ٢٣) . فانتهى بهذا انحجاب الله عن الإنسان إلى الأبد « **الله ظهر في الجسد** » (١تى ٣ : ١٦) . ثم بموت المسيح وقيامته كملت مضادة الخلاص ، فانتهت أعظم مشكلة واجهت الإنسان وحيَّرت أنبياءه ، إذ لم تعد ضرورة أن يكون الله « إله محتجب » (اش ٤٥ : ١٥) ، إذ قد تم التصالح في معجزة الخلاص وصار الله بواسطة المسيح « أباً » حانياً ، وصارت قدراته المطلقة تعمل على مستوى الإنسان ومن داخله يعد شعور رؤوسنا ويحفظ حتى عصافيرنا فلا يقع واحد منها بدون إذنه !! يهتم بما نأكل وبما نلبس ، نطلب منه خبزنا يوماً بيوم ، و يعتني بغدنا الذي لم يولد بعد .

إن كل « مضادة الخلاص » بمستحيلاتها في استرضاء عدل الله التي عانت منها كل الأجيال السالفة في مرارة الإنحجاب والتخلي والتأديب المستمر ، والقضاء الذي مثَّله الناموس بأحكامه غير الشافية ، كل هذه حملها المسيح في نفسه وأكمل كل مرارتها في جسده ، فكان المسيح فعلاً كما قال سمعان الشيخ « علامة تقاوم » ، أو آية المضادة العظمى .

هكذا ظهرت مشورة الله الأزلية من نحو ارتقاء الإنسان ، ومحبته المذخرة للعالم ، في شخص يسوع المسيح ، إذ جمع فيه كل ما لله وكل ما للإنسان « فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديًّا » (كو٢ : ٩) . وهكذا « عرَّفنا بسر مشيئته حسب مسرته التي قصدها في نفسه لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض في ذاك » (أف ١ : ٩و١٠) .

في المسيح تقابلت المتضادات وتصالحت المتخالفات واتحدت المستحيلات : المجد والهوان ، البر والخطيئة ، الناموس والتعدي ، العدل والظلم (الصليب) ، القوة والضعف ، الرحمة والقسوة (آلام الصليب) ، الحضرة الإلهية والتخلي الإلهي ، التدبير الكلي والإهمال المتعمد ، الإستعلان الملموس والتخفي الغامض ، العظمة المبهرة والإخلاء المشكك !!

هذا كله احتواه المسيح بالتجسد ، وجازه في حياته بالمشيئة ، وصالحه في النهاية بآخر صورة لمضادة الخلاص أي **بالموت والقيامة** ، وذلك لحساب الإنسان إلى الأبد !... وصار المسيح بالنسبة للإنسان مصدر التحول الفائق والدائم مما هو بشري إلى ما هو إلهي ...

هذا هو سر المسيح ، بل سر حب الله للإنسان ! الذي كان مخفياً في الله في كل الدهور السالفة وأُعلن الآن ـــ ولكن في سر أيضاً !...

ـــ « إنه بإعلان عرَّفني بالسر ، كما سبقت فكتبت بالإيجاز ، الذي بحسبه حينما تقرأونه تقدرون أن تفهموا درايتي **بسر المسيح** ، الذي في أجيال أُخر لم يُعرَّف

به بنو البشر كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح ... وأنا قد أُعطيت هذه النعمة أن أبشر بين الأمم **بغنى المسيح الذي لا يُستقصى** وأنير الجميع في ما هو **شركة السر المكتوم منذ الدهور في الله خالق الجميع بيسوع المسيح ... حسب قصد الدهور الذي صنعه في المسيح يسوع ربنا »**

(أف ٣ : ٣و٤و٨و٩و١١)

وعلى ضوء ما عاناه المسيح صائراً هو بنفسه موضوع هذه المضادة ، مضادة الخلاص بكل مأساتها ، نستطيع بلا شك أن نفك قليلاً قليلاً مغزى الأحزان والآلام التي عاناها الأنبياء جميعاً ، و بالأخص رجل مثل أيوب أو ارميا الذي كان كل منها صورة نبوية للمسيح المتألم حاملاً في نفسه مضادة الخلاص بثقلها المأسوي الذي لا يشرق عليه نور ، فقد حمل عن الشعب ومن أجله آلام الهجران وصدود الله ، في عذاب نفسي داخلي أعمق ما يكون العذاب . اسمعه يقول :

— « أنا هو الرجل الذي رأى مذلة بقضيب سخطه ، قادني وسيَّرني في الظلام ولا نور ، أبلى لحمي وجلدي ، كسر عظامي ، بنى عليَّ وأحاطني بعلقم ومشقة ، أسكنني في ظلمات كموتى القدم ... »

(مراثي ٣ : ١—٦)

ولكن كم ترتفع وتتعظم أمامنا صورة هذا النبي المتألم الآن وتتكرم أحزانه في نظرنا ، باعتبارها مشاركة فعلية من جهة الإنسان في آلام المسيح الخلاصية ؟؟

كذلك ومن تراث العهد القديم المحسوب أنه جزء لا يتجزأ من عملية الخلاص العظمى باعتبارها مضادة تقوم على المأساة : المزامير المعروفة باسم « **مزامير المراثي** » (أو أناشيد الدموع) ، وهي تصور الآلام التي وضعها الله على الشعب كجماعة واحدة أو كأفراد ، لتحمل عبء نصيبها في تخلي الله وهجرانه وصدوده وتأنيبه المبرَّح سواء بالإنهزام في الحروب أو التشتيت في السبي أو بيع الشعب في الأسر كعبيد !!

هذا كله الذي كان يحسبه شارح العهد القديم أنه مجرد محنة وتأديب ، أصبح عندنا

الآن وفي مفهوم الخلاص ومأساة الصليب وتأليم إبن الله جزءً حياً متواضعاً في عملية الخلاص العظمى !...

ومما يزيد هذه الحقيقة وضوحاً ، أن الجزء الأكبر من الآلام والتخلية التي كان يطلقها الله على الشعب ، كانت دائماً من نصيب الجماعة الأكثر تعلقاً بمراحم الله والأكثر اعتماداً على حقه وعدله والأكثر قرباً منه ، بل والأكثر أمانة وإخلاصاً وتقوى !!

اسمع صراخ البار في المزمور « إلهي إلهي لماذا تركتني ، قد انعقد عني كلام خلاصي . إلهي في النهار أدعو فلا تستجيب ، في الليل أدعو فلا هدو لي ؟ ... أنا دودة لا إنسان ، عار عند البشر ومحتقر الشعب ، كل الذين يرونني يستهزئون بي يفغرون الشفاه ويحركون الرؤوس قائلين : **اتكل على الرب فليُنجه لينقذه لأنه سر به !!** »

(مز ٢٢) .

في هذا المزمور تنكشف أمامنا عينة من التراث الروحي العميق جداً في العهد القديم الذي أخفقنا في فهمه للأسف ، إذ اقتصرنا في شرحه حتى الآن على مفهوم أنه مزمور نبوءة يتنبأ به المزمور على المسيا وحسب ، دون أن نأخذ في الإعتبار واضع المزمور نفسه ، ونسينا أنه تعبير عن حقيقة عاناها إنسان قديماً هو صاحب المزمور ، بنفس المعاناة التي عاناها المسيح تماماً . فهذا المزمور قبل أن يصير نبوءة مطابقة للمسيح ، فهو حالة وقعت في العهد القديم تصور لنا مقدار النصيب الذي عاناه البار من آلام وهجران الله لتكميل خطة الخلاص الكبرى ، كجزء حي من آلام المسيح !!

وإن آية مطلع المزمور : « إلهي إلهي لماذا تركتني » (مز ٢٢) التي استخدمها المسيح نفسه ليعبِّر بها عن منتهى هجران الله له على الصليب كممثل للبشرية جمعاء ، تبين مدى قدم مأساة الخلاص في هذا المزمور ، ومدى صدق تألم واضع المزمور قديماً تألماً ماسيانياً أو مسيحياً !!

وهكذا جاء المسيح ليبلغ بهذه الآلام عينها إلى منتهاها و يكمل هجران الله للبشرية

إلى أقصاه في نفسه ، حتى يتصالح الله مع الناس نهائياً .

فمأساة الخلاص وأحزانه لم تبدأ بالمسيح ولكنه أكملها ، لأن العهد القديم برمته هو مقدمة لهذه المأساة العظمى والتمهيد النبوي للصليب !! بالفعل وليس بالكلام وحسب .

إذن ، لا عجب إن كان العهد القديم موضوعاً كله تقريباً في إطار من الآلام والشكوى ومرارة هجران الله ، حتى أصبحت صبغته السائدة للشعب هي الحزن !! والصفة الغالبة عن الله في أذهان الشعب هي أنه إله المتألمين . ولكن في ضوء استعلان آلام المسيح لا يمكن أن يُحسب هذا الحزن القديم إلا بمثابة الخطوط البدائية الأولى التي ترسم صورة الصليب من بعيد ، وتسبق وتعطي ملامح المسيا وهو حامل في جسده مأساة الخلاص !!

فالعهد القديم ، في الحقيقة ، تمثله المرأة المتوجعة التي تريد أن تلد (في سفر الرؤيا ١٢) . وأسفار العهد القديم انتهت بمخاض وألم دون أن تلد البشرية ، هكذا تصورها النبي « الأجنّة دنت إلى المولد ولا قوة على الولادة » (أش ٣٧ : ٣) .

البشرية لم تولد إلا بموت المسيح وقيامته ، حين بلغت الآلام ذروتها وانفتحت على الفرح الأبدي ، لذلك فالإنسان لم يعرف الفرح الحقيقي كل أيام حياته منذ الخليقة إلا بقيامة المسيح غالباً الموت .

العهد القديم هو إذن عهد أحزان الخلاص فقط ، أما فرح الخلاص الحقيقي الذي من السماء فلم يدخل العالم ولم يعرفه الإنسان إلا على أيدي الملائكة أولاً يوم ميلاد المسيح ، كبشرى فقط حينما قال الله « **كلمته الأولى المفرحة** » للعالم الحزين : « ها أنا أبشركم **بفرح عظيم** يكون **لجميع الشعب** أنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب » (لو ٢ : ١٠) .

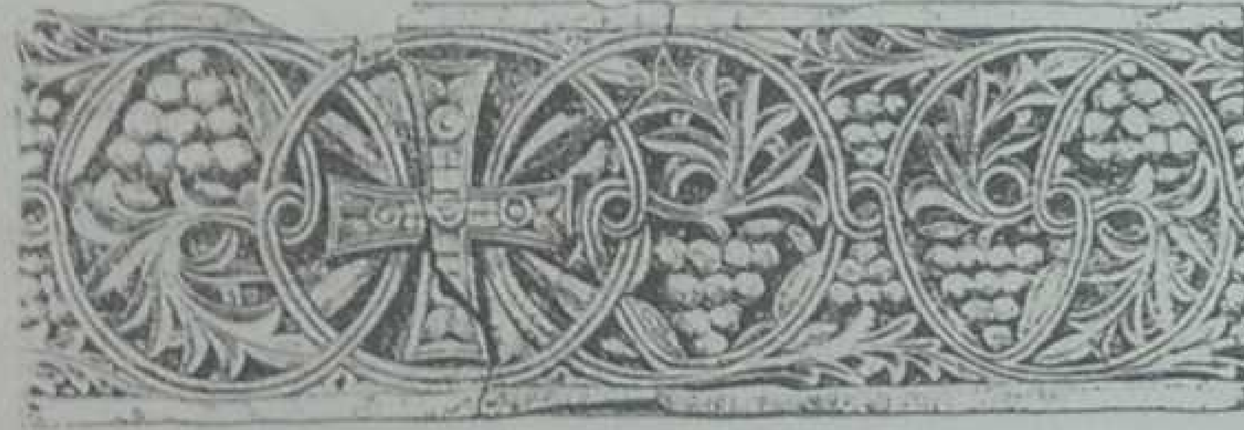
ثم نجد هذا الفرح يتعدى البشرى ليصير حقيقة حية ، تعيش وتسكن العالم

والإنسان إلى الأبد ، عند لحظة ظهور المسيح قائماً من بين الأموات « ففرح التلاميذ إذ رأوا الرب » (يو ٢٠ : ٢٠) .

« **فالقيامة** » كانت بمثابة « الكلمة الأخيرة المفرحة » التي قالها الله « فكانت » ، محققاً بها واقعاً جديداً للإنسان على الأرض ، ومشيراً بها إلى حقيقة مستقبله السعيد الذي عليه أن يحققه لنفسه منذ الآن .

فالعهد الجديد ، إذن ، بالنسبة للعهد القديم هو بمثابة الخاتمة المفرحة للحن حزين جيد التوقيع ، عتيق جداً وطويل ، ولكنه يشير في كل مقطع من مقاطعه ، ومنذ أول لحظة ، نحو هذه الخاتمة السعيدة الرائعة .

(يناير ١٩٧٤)



ميلاد المسيح
وميلاد الإنسان

وُلد المسيح من روح الله القدوس ، ومن عذراء لم تعرف رجلاً تدعى مريم ، فكان ميلاداً إلهياً ، لم يحدث له نظير قط لا من قبل ولا من بعد ! سبق أن تحدثت عن هذا الميلاد الأسفار المقدسة ، وجميع الأنبياء تنبأوا عنه بآيات كثيرة ، وكانت الحوادث كلها تتجه نحوه ، وتنتهي إليه ، حتى الزمن قيل أنه سيبلغ ملئه يوم مجيئه ، وقد كان ، فبُدىء بالتاريخ جديداً منذ ميلاده .

وهكذا لم يكن المسيح نبياً ليتنبأ عن مجيء أحد آخر ، ولا رسولاً ينتهي عند تكميل رسالته ، بل كان هو « كلمة الله » صار جسداً ، صائراً في صورة الناس آخذاً شكل العبد ! (في ٢ : ٧) ، وعاش كإنسان بين الناس ، ودَعى نفسه « إبن الإنسان » .

ولكنه كان ذا مجد إلهي رآه أخصاؤه رؤيا العيان ، مجداً فريداً « كمجد إبن وحيد للآب » (يو١ : ١٤) . وهو قال عن نفسه أن الله أبوه (يو٥ : ١٨) . والله ناداه من السماء على مسمع من تلاميذه « هذا هو إبني الحبيب له اسمعوا » (مر٩ : ١٧) .

ولكنه وضع نفسه كالعبد ، اختياراً ، باتضاع عجيب ومذهل ، حتى يرفع كل العبيد إلى درجة بنوته !! « لا أعود أسميكم عبيداً لكني قد سميتكم أحباء لأني أعلمتُكم بكل ما سمعته من أبي » (يو١٥ : ١٥) ، وأخلى نفسه قدر ما أمكنه من كل مجد ظاهر حتى يتفرغ لشركة الآلام مع الناس ، هذه الآلام التي وُلد خصيصاً لكي يحملها عنهم كاملة ، ليرفع لعنتها عن بني الإنسان ، و يتوّجها في النهاية بموت اختياري ، قبله كقضاء دين وحكم تأديب ، عن كل خطاة الأرض ، ليهبهم بموته براءة .

وهكذا لم يعد الموت للإنسان قضاء دين وحكم تأديب عن خطيئة وعن إثم وتعدٍ ، بل حكم براءة وكفارة ! ...

وقام المسيح من بين الأموات بمجد وجلال ومشيئة سبق أن أعلن عنها ، فأعطى للإنسان بالقيامة قوة الغلبة على الموت ، وطبيعة الحياة الجديدة الممتدة مع الله بعد الموت وإلى الأبد ، يستمدها الإنسان من المسيح و بروح الله منذ الآن كعربون لما هو آت . فأصبحنا ، ونحن الآن في قيامة المسيح ، لا يمنعنا الموت عن البقاء في حياة مع الله لا تزول .

هكذا احتضن المسيح العالم كله بآلامه وموته وقيامته ، فوهب الإنسان ميلاداً جديداً في ميلاده ، وآلاماً شافية بآلامه ، وموتاً محيياً بموته ، وقيامة مبررة لحياة أخرى أبدية .

أو بمعنى آخر ، فإن المسيح جعل الإنسان خليقة جديدة روحية بعد أن كان خليقة ترابية وحسب . وصارت حياة الإنسان ممتدة في الله إلى مالانهاية .

وبالتالي ، لم يعد تراب الأرض أو الجنس أو اللون أو العنصر الذي ينحدر منه الإنسان ، سبب فخر أو علة عار فيما بعد ! فالإنسان ، كل إنسان ، قد تجنس بالمسيح ، وبالتالي بالله في المسيح !!

ولم تعد المرأة من دون الرجل ، ولا العبد من دون الحر ، ولا الفقير من دون الغني ، ولا الجاهل من دون الحكيم ، لا كأنها حقوق إنسان تؤخذ بالمنطق أو تؤخذ غلاباً ... بل هي عطية الله للإنسان بميلاد المسيح ، إذ رفع البشرية فيه إلى درجة بنوته ، فصار الكل أبناء الله يدعون !! والبنون متساوون في كل شيء .

لقد وُلد الإنسان جديداً يوم ميلاد المسيح ، لميراث أبوي محفوظ له في السموات ، لفرح لن يُنزع منه ، ومجد لا يُنطق به . هوعطاء مجاني للإنسان الذي شبع شقاء عبر الدهور ، فكما كان ميلاد المسيح أعظم هبات الله للإنسان ، هكذا صار لنا هذا

الميراث معه في السماء كعطية مجانية ، كالشمس والهواء للخليقة الترابية ، فمن ذا يشتري الشمس أو من ذا يبيع الهواء ؟ هكذا الله في المسيح لا يبيع بره بثمن ، ولا قيامته ولا ميراثه في المجد ...

كل من يسأل يأخذ ، وكل من يطلب يجد ، وكل من يقرع يفتح له (يو١١ : ١٠) . بل وأكثر من ذلك ، فإنه يسبقنا إلى باب السؤال عينه : « هأنذا واقف على الباب وأقرع ، إن سمع أحد صوتي وفتح الباب أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي » (رؤ٣ : ٢٠) .

إن بنوية الله قد صارت مشاعاً على وجه الأرض كلها لكل بني الإنسان ، في ميلاد المسيح !...

* * *

البشرية لم تستوعب ميلاد المسيح بعد ، بمعناه الـ « فوق بشري » ، لأن عقلها صار لها فخاً وعثرة ، غير أنها تسير وتتحرك نحو هذا الميلاد بحركة تفوق وعيها . فالبشرية يشدها إلى أعلى صوت مبهم يقلقها من الداخل و يضطرم فيها اضطراماً ، تعبر عنه بمفهومات تنطقها دون أن تكتشف بعد مصدرها العلوي ، وتخرجها كصيحات ترتفع من كل أقطار الأرض معاً وفي نفس واحد . فالكل ينادي بضرورة وحتمية السلام ؛ سلام على مستوى العالم كله !! وحقوق الإنسان لكل إنسان !! وحرية الشعوب ، والرأي ، والتعبير ، والعبادة ، وحق تقرير المصير ، وعدم الإنحياز ، ورفع الفوارق بين الطبقات والحياة الأفضل ...

هذه ليست مجرد شعارات ، كما يظنها رجال السياسة أو الإجتماع أو الإقتصاد أو الدين ، ولكنها خصائص الإنسان الجديد التي يتعطش إليها لأنها وُهبت له لتكون جزءاً حياً من كيانه وطبيعته العليا الجديدة ، بدونها كأن الإنسان في شبه نوم يجلس في الظلمة وظلال الموت مذلاً بقيود كأنها من حديد ، حتى أشرق عليه نور الله يوم ميلاد المسيح « أنا هو نور العالم ، من يتبعني لا يمشي في الظلمة » (يو٨ : ١٢) ، لأن في

المسيح تنازل الله إلى أعماق كيان الإنسان وأضاء بحبه وقداسته كل ظلام طبيعته ، و بدد كل أحزانه ، وقطع كل قيوده وأوهامه ، وأعطاه كل ما يتناسب والحياة الأفضل ، ونعمة فوق نعمة (يو١ : ١٦) ... كل خصائص الإنسان الجديد .

وطالما شعر الإنسان أنه فاقد لهذه الصفات ، فسيظل حائراً قلقاً بل ثائراً متمرداً على كل وضع ، لا يفتأ يطلبها بإلحاح ويحطم في سبيلها كل القيود ، لأنها روحه الجديدة التي لن يستطعم للحياة بدونها أي معنى ...

وإن كانت هذه الخصائص التي ينادى بها الآن تبدو كأنها مجرد حقوق أو أصالة إنسانية أو حق وطني أو تقدم حضاري أو افتخار بشري ، إلا أنها في حقيقتها تظل تعبِّر تعبيراً خفياً عن امتداد روح الإنسان الجديدة نحو الله ، والتهيؤ المناسب للتلاقي معه على مستوى ميلاد المسيح !...

المسيح وُلد بجسد من روح الله ومن عذراء ؛ جسد إلهي هو، مقدس ، ممتد ، لا حدود له ، يشمل البشرية كلها بالتبني ؛ فقد قيل في الكتاب أن المسيح هو آدم الثاني ، رأس البشرية الجديدة ، كل من قبله واعتمد باسمه يولد له بالروح و يصير إبناً لله فيه !

المسيح ، إذن ، هو أبو البشرية الجديدة بالتبني ! لذلك يقول الكتاب أنه « أتى بأبناء كثيرين إلى المجد » (عب٢ : ١٠) . هؤلاء في حقيقتهم الروحية هم جسده الكبير الممتد ليغطي كل أجيال الدهور في السماء والأرض . يقول بولس الرسول عنهم وعنه هكذا : « ليجمع كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض في ذاك » (أف١ : ١٠) .

ولكن المسيح لم يبلغ بعد إلى ملء قامته في الإنسان !.. لأن البشرية لم تبلغ بعد ملء قامتها في المسيح . البشرية إلى الآن تنمو فيه مجرد نمو، ولكن لم تكتمل صورتها النهائية لتطابق صورة المسيح ؛ المسيح بدأ يتصور في الشعارات فقط ، وكأن البشرية « تتوحم » بصورة جنينها الجديد ، ولكنها في نفس الوقت تتقيأ ، و باستمرار، تراثها

الميت الذي عافته . فهي الآن في توتر بلغ أقصاه : حروب ، نزاعات ، مجاعات ، عداوة ، خصام ، تحزب ، تكتل ، تحدي ، حرمان ، تجويع ، فقر ، إباحية ، ثورة على التقليد والعفة والروتين والدين وعلى الله نفسه ...

لماذا هذا التقيؤ كله ؟ نعم ، لماذا هذا كله معاً وفي جيل واحد ؟ أليس هذا لأن البشرية تجوز الآن مخاضها الأخير ؟ إنها تصرخ متوجعة « فالأجنة دنت إلى المولد ولا قوة على الولادة » (أش ٣٧ : ٣) !

البشرية تصرخ بشعاراتها الجديدة وكأنها تهذي : سلام عالمي ، سلام سلام وليس سلام ! ... مؤتمرات كل يوم في كل مكان و بلا هدوء ... ما هذا ؟ البشرية تريد أن تتغير عن شكلها ولكن لا يسعفها ميراثها التقليدي ، سياسياً كان أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو حتى الديني !! لأن كل ميراثها أصبح يعوزه الروح . لقد تعفن القديم كله وأنتن ، وقارب على الإضمحلال ، وأصبح لا يشبع البشرية ولا يغني عن جوع ، وليس أمل ، في الواقع ، إلا في ميلاد جديد لبشرية جديدة تولد من الروح !!

هذه هي الحياة الفضلى ! ولا يمكن أن تكون حياة أفضل من حياة إلا بمقدار عمل الروح ، روح الله في التجديد . فالسياسة يعوزها الروح ، والإجتماع والإقتصاد والدين وكل ضوابط البشرية ، إذا لم يضبطها الله بروحه عاملاً في عمق كيان الإنسان بتجديد يشمل الفكر والضمير العالمي ، لأخوية على الأرض تستمد روحها وأصالتها من بنوية واحدة لله ؛ فسيظل الإنسان يتقيأ نفسه ... وأي شعار مهما أتقنه ونفذه ، إن هو كان خالياً من روح الإنسان الجديد ، أي من عمق معنى التبني ، فسيخرج هذا الشعار سَقْطاً ميتاً .

فالسياسة ، مهما ارتقت ، إن هي لم ترَ في جميع الأجناس والألوان والشعوب والأوطان أبناء متساوين لله الواحد ، لهم حقوق متساوية في أرض جديدة وسماء جديدة ، فهي سياسة أرضية ميتة وسَقْط ممسوخ متكرر لتقليد ترابي عافه الإنسان جداً وتقيأه ، وأصبح لا يطيق أن يسمع عنه أو يقرأ له !

والإقتصاد لن يكون هو الإقتصاد الذي يحلم به الإنسان ، بل ويمخض الآن به مخاضاً في وجع كوجع الموت عينه ، إذا هو لم يرَ في ثروات الأرض والبحار وكل خيرات الخليقة شيئاً آخر سوى أنها ميراث سمائي على المشاع ، أُعطي من الله ليتقاسمه بنو الله جميعاً بحق تساويهم في الله ، ووحدة بنوتهم له في الجسد الكبير الواحد ، الذي وهبه الله للمسيح والذي جمعه المسيح لنفسه ، ولا يزال ، من أطراف الأرض جميعاً .

والمسيحية لن تستحق إسمها إذا لم تنفتح بالروح على البشرية الجديدة التي ترى في الله أباً لكل بشر ، والمسيح جسداً لكل إنسان بلا تمييز . حيث تُرفع الحواجز العقائدية التي صاغتها يد العداوة والتعالي والتحزب والتعصب الأعمى ، تُرفع ، تُرفع جميعاً ؛ ليدخل الإنسان الجديد و يتذوق معنى التبني الحقيقي ، و يرتاح كل إنسان مع أخيه ، في حضن الله المريح ، و ينعم كل بشر بميلاد المسيح ! ...

° ° °

أما السؤال الذي يتطارحه المتباطئون في الفهم : كيف نبدأ ، فهذا يعلنه الله في المسيح ، في بيت لحم ، كيف بدأ الله وكيف بدأ المسيح بصنع الإنسان الجديد والخليقة الجديدة من مغارة مظلمة ، من مذود للبقر ، من فقر مدقع ، من غربة وتخلي عن كل معونة . ألا نقرأ في الكتاب كيف أنه لم يكن للعذراء — التي بلغت مخاضها بعد أن بلغ سفرها اليوم الثالث — مكان ولا في أي منزل ؟

ومن هنا يبدأ المسيح مسيرة التجديد و بناء جسم البشرية الكبير ! ... من هذا المكان الأقل جداً والمتناهي في التجرد والفقر بدأ المسيح المصالحة العظمى بين السماء والأرض ، بين قداسة الله الفائقة وعجز الإنسان المطلق ! ...

ولكن ، وإن كانت المغارة هكذا مظلمة ، وكان المكان هكذا وضيعاً ، ولكن نعلم كيف جلست الملائكة مع جمهور من جند السماء على حافتها الشامخة المنيرة في السماء ينشدون نشيد المجد لله في عُلاه ، الذي استطاع باتضاعه المذهل هذا أن يرفع الإنسان إلى علو الله !

وهكذا نرى المسيح كيف استطاع وهو بعد في المهد رضيعاً أن يوسع دائرة ميلاده وشمول تجسده ! انظر كيف جمع إلى نفسه في ساعاته الأولى على الأرض حكماء من فارس من خارج حدود الأوطان ؟ وجذب إليه الرعاة المساكين المتبدّين في شتاء فلسطين ليجدوا فيه راحة وعزاء ...

ومنذ ذلك الزمان والمسيح لم يكف ، بصور اتضاعه التي تركها منقوشة على صفحات قلوب محبيه ، عن أن يجذب إليه الألوف والملايين على ممر الأجيال ، ليجمع جسده الكبير الذي سيقدمه في حينه إلى الله أبيه ...

* * *

ولكن المسيح لم يولد خُلواً من عناء و بكاء وألم ، فقد كان ميلاده في شتاء ، في أشد أيام الطبيعة قسوة وإيلاماً . ولعله ظل يذكر هذا في نفسه إلى أن ذكره لتلاميذه يوماً : « صلوا لكي لا يكون هربكم في شتاء » (مر١٣ : ١٨) . وكأنما وُلد المسيح مصلوباً من الطبيعة لا يجد أين يسند جسده الضعيف الغض ، إلا على كومة من تبن خشن في مذود من طين !

وعلى نفس القياس نرى ميلاد البشرية يتم في هذه الأيام من خلال شتاء العلائق البشرية المجمدة وقسوة الإنسان على أخيه الإنسان ، من خلال عوز إلى الصدق ، وفقر في الرحمة ، وصراع عنصري محزن ، وشعور الناس بغربتها حتى في أوطانها ، ومخاض ليل طويل ، تجوزه الشعوب المظلومة والظالمة على السواء ؛ والإنسان يكافح تحت وطأة غرائزه المسيبة التي تزيد فرص التجديد ضيقاً على ضيق ووجعاً على وجع

هوذا العالم كله يدخل في شتائه الطويل يعاني هذا المخاض عينه ، وأصبح عليه أن يعي آلامه . فآلام العالم لا تأتيه جزافاً ، بل هي حتماً آلام تجديد ، وعليه أن يفهمها و يقبلها و يدرك من أين تأتي ليدرك مسبقاً ما ستؤول إليه ، فيمهد لها بخلع ذهنيته القديمة في العنصرية والطبقية والشعوبية ، و يستعد ليلبس فكر المسيح في مؤاخاة جميع الناس ، ليعم السلام حقاً على الأرض ويهتف كل لسان بمجد الله !

* * *

وفي النهاية نقول أن ميلاد المسيح حدث إلهي كبير ، تم ليعم الأرض و يشمل الأجيال جميعاً ، ومعناه كفيل لا أن يوقظ النائم عن خلاصه فحسب ، بل وأن يحيي الميت المنتن في خطاياه !!

فميلاد المسيح يشهد شهادة حية ناطقة أشد ما يكون النطق أنه هكذا أحب الله الإنسان ، أحبه حباً في ذاته ، فأخذ منه جسداً اتحد به ، واتخذه لنفسه إلى الأبد !... فميلاد المسيح هو بحد ذاته « عهد محبة » قامت ودامت بين الله والإنسان ، هو عهد قطعه الله على نفسه في بيت لحم ، في جسد أخذه ، ولن يتخلى عنه إلى الأبد ، في اتحاد مع الإنسان يفوق العقل والمنطق ، عهد مصالحة عظمى ووحدة مطلقة بين اللاهوت والناسوت !

وهكذا ، بهذا الميلاد الإلهي العذري انفتح عهد ألفة ومودة عجيبة بين الله وكل إنسان ، على مستوى شخصي كأعلى ما تكون العلاقة بين حبيب وحبيب ، أفصح عنه الآب يوماً من نحو المسيح فناداه ، وكأنما هو ينادي فيه البشرية كلها وكل إنسان : « أنت إبني الحبيب الذي به سررت » (مر١ : ١١) .

فميلاد المسيح هو عهد حب معلَن من الله تجاه كل إنسان ، كوثيقة تنازل مذهلة سجلها الله على نفسه في بيت لحم ، في شخص يسوع المسيح ، باستعداد التنازل عينه إزاء دعوة كل إنسان للحب والإتحاد !...

فميلاد المسيح ، إذن ، ليس نموذجاً محدوداً لحب وحَّد بين الله والإنسان في بيت لحم انتهى بانتهاء تاريخ الميلاد ، بل هو مجال إلهي انفتح بلا حدود على كل إنسان ولن يكف حتى يصبح « الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني ... وليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم » (يو١٧ : ٢١و٢٦) .

(يناير ١٩٧٤)

ميلاد المسيح حياتنا

مقدمة :

نحن اليوم نعيِّد للميلاد ، ولكن عيدنا ياأحبائي ليس ذكرى ولا تذكاراً . نحن اجتمعنا اليوم بصلاة وقداس لنتقابل مع الرب يسوع المسيح شخصياً في بيت لحم . نحن معه على ميعاد ، فميلاد الرب حدث كبير حي قائم في حياتنا ، لا نقرأه من كتاب كقصة كتبها كاتب الإنجيل ، بل نحن أمام حدث سمائي ، والملائكة شهود لذلك !!

لقد استعلن الله في ذلك اليوم بما لا يحتمله التاريخ ، الميلاد ياأحبائي هو التجسد ، والتجسد معناه « **الله ظهر في الجسد** » (١تي ٣ : ١٦) ، وظهور الله لا يسعه التاريخ ولا يحتويه ؛ الإنجيل هنا ، إذن ، لا يقص تاريخ ميلاد الرب يسوع ، بل يسجل حادثة سماوية وقعت في صميم التاريخ فأنهت عليه بل أكملته ، لأنه معروف بيقين في كافة النبوات أن ميلاد الرب هو إعلان ملء الزمان !!

لذلك قلت وأقول أن الميلاد تجسد ، والتجسد هو الآن حياتنا ، هو إيماننا ، هو كل رجائنا الذي نعيشه متجاوزين به كل ضعف الإنسان وكل نقص الزمان وكل قصوره ، بل وكل همومه وأتعابه ، وكأنها لا شيء . واليوم ، وبالروح ، نحن حضور معاً في صميم هذا الحدث السماوي ـــ يوم الميلاد ـــ في ملء الزمن في بيت لحم ، في استعلان التجسد .

لذلك أود لو أنبه ذهنكم أكثر ، فإن مكاننا في بيت لحم ليس مع الرعاة أو المجوس كمجرد شهود ومقدمي هدايا ، بل ولا كيوسف حارس الميلاد البتولي ، بل واجترىء ياأحبائي لأقول ولا كالعذراء القديسة الأم الوالدة ... نحن ياأحبائي بالنسبة للمسيح المولود أكثر من كل هؤلاء جميعاً ، **نحن لحمه وعظامه !!** وأنا في ذلك لا أتجاوز ما قاله بولس الرسول بالحرف الواحد : « لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه » (أف ٥ : ٣٠) .

الآن تدركون معي عمق معنى عيدنا وأهمية اجتماعنا وخطورة موقفنا من بيت لحم والمذود والميلاد والمسيح الطفل .

إذن ، لسنا بصدد ذكرى وتذكار وشرح حوادث لقصة ميلاد وتاريخ إنجيلي ، بل نحن بصدد علاقة حية بمسيح المذود ، علاقة جد خطيرة !! علاقة وجود وكيان متبادل ، المسيح مولود فأنا موجود !!

فميلاده في ذلك اليوم هو ميلادنا الأبدي ، وحياته على الأرض صارت هي بدء حياتنا التي لن تنتهي ، حياة الأبد .

أما بيت لحم فلا أبالغ إذا قلت إنها بالحقيقة **مسقط رأسنا ، لأن المسيح هو بالفعل رأسنا ؛** رأس الكنيسة بل رأس الخليقة الجديدة كلها ، آدم الثاني . فإن كانت جنة عدن قديماً هي مسقط رأس آدم أبينا الأول ، فبيت لحم جديرة بأن تكون جنة عدن الجديدة .

ياأحبائي أعود فأقول إننا إذا لم نأخذ ما يقصه علينا الإنجيل والتاريخ المقدس بهذا المأخذ الروحي الحي ، فالإنجيل قد كُتب عبثاً والكنيسة تعيِّد للتاريخ وليس لحياتنا أو لخلاصنا الأبدي . اذكروا ما كتبه الوحي الإلهي لتنبيهنا دائماً أن : « الحرف يقتل أما الروح فيحيي » (٢ كو ٣ : ٦) .

وهكذا نحن بقيادة الروح وإلهامه ، ندخل في عمق الميلاد الإلهي لنكتشف حياتنا ووجودنا وكياننا في المسيح !

فنحن اليوم لا نعيِّد لميلاد المسيح وحسب ، بل نصلي بالروح لنجدد وجودنا في هذا الميلاد ـــ بتوسل وتوبة وعبادة بالروح ـــ وحينئذ يصير عيداً حقيقياً لنا تفرح له السماء . وبقدر ما يكشف لنا الروح من أعماق أسرار ميلاد المسيح ، بقدر ما تزداد حياتنا وشهادتنا ارتباطاً بحياته مباشرة .

نسب المسيح :

الإنجيل يقدم لنا أنساب المسيح ، فالقديس متى يبدأه من « **داود وابراهيم** » : « كتاب ميلاد يسوع المسيح بن **داود بن إبراهيم** » (متى ١ : ١) . والقديس لوقا ينتهي بآدم والله « بن آدم إبن الله » (لو٣ : ٣٨) .

فماذا لنا وماذا لحياتنا من هذه السلسلة المطولة التي تبدو للقارىء وكأنها أمر يختص بيهودية المسيح و بشر يته ؟

إبن داود :

الإنجيل ينبهنا على فم القديس متى الرسول أول ما ينبهنا إلى أن هذا الطفل المولود هو « **إبن داود** » ، فهو الملك الممسوح أو المسيح الموعود « أقسم الرب لداود حقاً ولا يخلف أن من ثمرة بطنك يجلس على كرسيك » (مز١٣١ : ١١ ــ السبعينية) ، « والأمم كلها أعطيها ميراثاً لك وسلطانك إلى أقصى الأرض » (مز٢ : ٨ ــ السبعينية) . هنا أول لقب وأول وظيفة مميزة للمسيا « إبن داود » ، ثم بالتالي أول إشارة لربوبيته ، لأن « **إبن داود** » في المعنى النبوي الكبير هو « **المسيح** » وهو « **رب داود** » ، وهذا ما ألمح إليه المسيح نفسه مشيراً إلى نفسه : « وفيما كان الفريسيون مجتمعين سألهم يسوع قائلاً ماذا تظنون في **المسيح** إبن من هو؟ قالوا له **إبن داود** ، فقال لهم فكيف يدعوه داود بالروح رباً قائلاً : قال الرب لربي إجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك ، فإن كان داود يدعوه **رباً** فكيف يكون **إبنه** ؟ فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة » (مت ٢٢ : ٤) .

ومعروف تماماً أن الإسم المرادف للمسيا أي « الممسوح » في النبوات هو إبن داود ، وهذا ما كان شائعاً لدى الشعب عامة : « حينئذ أُحضر إليه مجنون أعمى وأخرس فشفاه ، حتى أن الأعمى الأخرس تكلم وأبصر فبهت كل الجموع وقالوا ألعل هذا هو **إبن داود** ؟ » (متى ١٢ : ٢٢ ــ ٢٣) . كذلك لا ننسى هتاف الأعمى : « **يا إبن داود** ارحمني » (لو١٨ : ٣٨) ، أو هتاف كل الشعب له يوم دخوله الأخير أورشليم : « أوصنا (خلصنا) **لإبن داود** . مبارك الآتي باسم الرب . أوصنا (خلصنا) في الأعالي » (متى ٢١ : ٩) .

وقد خصص الوحي الإلهي مزموراً بأكمله (مز٧٢) لإبن داود باعتباره « إبن الملك » الذي **سوف يسجد له كل الملوك ، وكل الأمم تتعبد له** ، يكون إسمه إلى الدهر قدام الشمس ، يمتد إسمه و يتباركون به ، وكل أمم الأرض يطوبونه . وهو المزمور الذي أحبته الكنيسة في تقليدها وتسبّح به دائماً في موسم الميلاد .

وهكذا ياأحبائي فإن تقديم الإنجيل لميلاد المسيح بصفته « الملكية » « إبن داود » يفتتح أمامنا أول معنى ، بل أول إحساس « **بملكوت الله** » الذي تسلمه يسوع ، ليشمل كل الأمم والشعوب : ملكوت أبدي لا يزول (دا٦ : ٢٦) .

فنحن **بميلاد المسيح** « إبن داود » صرنا « **رعية مع القديسين** » (أف٢ : ١٩) في ملكوت الله . وهكذا لقب سفر الرؤيا المسيح بـ « **ملك** القديسين » (رؤ١٥ : ٣) ، فيوم الميلاد هو لنا بدء إستعلان ملكوت الله ودخولنا فيه أو دخوله فينا ، كما قال المسيح « ملكوت الله داخلكم » (لو١٧ : ٢١) ؛ حيث ربوبية المسيح كملك أبدي على طقس ملكي صادق يكشفها الإنجيل بقصة المجوس الذين عرفوا بالحكمة سر ملوكيته ، فجاءوا وسجدوا وقدموا له هدايا ملكية .

لذلك يرتبط قول متى الرسول أنه « **إبن داود** » بقصة المجوس ارتباطاً سرياً عجيباً . وهذا يؤول في حياتنا بالضرورة إلى اكتشاف هذه العلاقة العالية التي تربطنا بمسيح المذود .

وهل حكمتنا ، أيها الأحباء ، أقل من حكمة المجوس الذين رأوا في الطفل يسوع ملكاً حقيقياً ، دفعهم ولاؤهم له أن يتجشموا رحلة الشهور في برد الشتاء ، و يقدموا هدايا الولاء والحب والتكريم لشخصيته السرية السامية ؟

إبن ابراهيم :

بميلاد المسيح تدخل الأمم في بركة ابراهيم ثم في بر إيمانه وتصير بالتالي نسلاً لإبراهيم .

هنا امتداد « لأب الإيمان » ولبركة الوعد الأول لإبراهيم ، حيث جاء **ختان**

المسيح في اليوم الثامن ليوطد الصلة بين المولود ، أي بيننا ، و بين ابراهيم أبي الختان ؛ وهكذا وُلد المسيح حسب الوعد لكي لا ينحصر الإيمان وتنحصر البركة في نسل ابراهيم .

فميلاد المسيح إيذان بامتداد البركة إلى كل الأرض « وفي **نسلك** تتبارك كل أمم الأرض » (تك ٢٦ : ٤ ؛ راجع تك ١٢ : ٢) . وهنا يهمنا أن نوضح أن كلمة « نسل » لا تفيد المواليد بل تفيد **مولوداً واحداً** معيناً « في بذرة واحدة لك » . وقد أوضح بولس الرسول هذا المعنى « **وأما المواعيد فقيلت في إبراهيم وفي نسله . لا يقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين بل كأنه عن واحد . وفي نسلك** ⲉϫⲣⲟϫ **الذي هو المسيح** » (غل ٣ : ١٦) .

و يتضح عمل المسيح المسكوني بمقتضى هذا الوعد أكثر في نهاية حياة المسيح على الأرض قبل الصليب مباشرة كما جاءت النبوة على فم رئيس الكهنة نفسه : « ولم يقل هذا من نفسه ، بل إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبأ أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة . وليس عن الأمة فقط بل **ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد** » (يو ١١ : ٥١) . هنا أتصور إبراهيم في شخص المسيح وكأنه يفتح ذراعيه ليجمع كل شعوب الأرض إلى أحضانه !!

وهكذا حينما يقول الإنجيل في كتاب ميلاد يسوع المسيح أنه **إبن إبراهيم ، فهذا بمثابة إعلان بدء إتمام كل المواعيد التي قيلت لإبراهيم من نحونا ، ومن نحو كل إنسان على وجه الأرض .** و يأتي بولس الرسول ليبرهن على صدق تمام الوعد الإلهي في شخص يسوع المسيح بقوله : « والكتاب إذ سبق فرأى أن الله بالإيمان يبرر الأمم ، سبق فبشر إبراهيم أن فيك تتبارك جميع الأمم . إذن ، **الذين من الإيمان يتباركون مع إبراهيم المؤمن** ... ليس يهودي ولا يوناني ليس عبد ولا حر ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع . **فإن كنتم للمسيح فأنتم إذن نسل إبراهيم** وحسب الموعد ورثة » (غل ٢ : ٨ ، ٢٨) . وهكذا بالإيمان والإتحاد بالمسيح صرت أنا وأنت من نسل إبراهيم .

وهكذا ينبه ذهننا القديس متى في أول آية من إنجيله ، عند قوله أن المسيح هو « **إبن ابراهيم** » ، إلى نوع الميراث الذي انفتح علينا في كل بركة ابراهيم وفي بر إيمانه بواسطة ميلاد المسيح . فالمسيح الوريث الوحيد لإبراهيم الذي جاء حسب الوعد لينقل كل بركة الله لإبراهيم وكل بركة الآباء إلى كل إنسان على وجه الأرض !

فبميلاد المسيح كملت فرحة ابراهيم لنا إذ ورثنا الوعد والعهد والبركة والبر ورضى الله ، ودخلنا في صميم خطة خلاص الله منذ البدء . وهكذا فلسنا وحدنا اليوم الذين نفرح بميلاد المسيح ، بل يكشف لنا المسيح عن شريك آخر لفرحنا بهذا اليوم ، هو ابراهيم نفسه « إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح » (يو ٨ : ٥٦) .

رأى ابراهيم يوم ميلاد المسيح يوم تحقيق وعد الله . رآه فينا ولا يزال يراه في كل من يؤمن إيمانه و يقبل المسيح الذي يولد فينا كل يوم ، أو بالحري نولد فيه ، فنمتد حتى نتصل بابراهيم بالروح والجسد ونصير نسلاً له .

إبن آدم :

وهنا يكمل لنا لوقا الإنجيلي العلاقة التي تربطنا بالمسيح في الصميم ، هنا يذكرنا الإنجيل بالخطيئة الأولى ، وعضة الحية المسمومة القاتلة ، والوعد الأول لحواء « ونسلك يسحق رأسها » (تك ٣ : ١٥) .

إذن ، فميلاد المسيح إبن آدم المنتظر جاء كإعلان لإنتهاء سلطان الحية وسلطان الخطيئة !! هذا هو **بذرة آدم** ، الفادي الذي سيسحق رأس الحية ، و ينقض أوجاع الموت ، و يفك أسرى الهاوية .

بآدم دخل الموت إلى كل إنسان ، و بالمسيح سيحيا الجميع ! لذلك فإن تشديد لوقا الإنجيلي أن نسب المسيح يمتد ليكون « **إبن آدم** » ليذكرنا — في يوم ميلاد المسيح — بالموت الذي فينا الذي ورثناه ، والمزمع أن يحمله في جسده الآدمي عنا ليحيا به كل إنسان .

أما آدم الأول يوم خُلق ، فكان نفساً حية . أما « آدم » الثاني فيوم وُلد صار نفساً محيية : الرب من السماء !!

وهكذا كما لبسنا بميلادنا من **آدم الإنسان الأول** صورة الترابي ، هكذا بتجسد المسيح « إبن الإنسان » لبسنا في يوم ميلاده صورة السماوي . لأن في اللحظة التي انحدر فيها إبن الله من السماء وتجسد ، أي لبس صورة آدم الترابي ، لبس الإنسان بالتالي صورة السمائي في شخص يسوع المسيح ابن الله .

إذن اليوم ، ياأحبائي ، هو عيد كل إنسان ، عيد كل إبن لآدم ، لأن في هذا اليوم لبس الله بالفعل صورة الإنسان ، فكرَّمها كرامة أبدية . لأن صورة آدم التي أفسدها بالخطية وعرضها للموت ، هذه لبسها المسيح اليوم فأحياها وأعطاها كل بهاء مجد الله وكرامته .

فاليوم عيد مجد البشرية وكرامتها واستعادة حياتها وبهاء صورتها في الله . وقد أُعطي لنا أن نتحول إلى صورة المسيح كما يقول بولس الرسول : « ونحن جميعاً ناظرين إلى مجد الرب بوجه مكشوف نتغيَّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح » (٢ كو٣ : ١٨) . فمولود بيت لحم هو بالحق صورة بشريتنا الجديدة في البر وقداسة الحق التي ننمو إليها كل يوم .

تقسيم الأنساب :

ولكن الذي يسترعي إنتباهنا من سرد القديس متى لأنساب المسيح ، أنه يقدمها في ثلاث أحقاب بحسب العصور ، كل حقبة مكونة من أربعة عشر جيلاً . ونحن نعتقد أن هذا التقسيم له معنى سري يشرح لنا بعض الغوامض الأخرى .

فالمعروف أن النبوات التي كانت تتعرض للزمن كانت تقسم السنين إلى أسابيع ، مثل نبوة دانيال ، فكانت السنون تحسب بأسابيع سنين . هنا يلجأ القديس متى الرسول إلى تقسيم الأجيال إلى أسابيع أجيال ، حيث كل حقبة عبارة عن أسبوعين من الأجيال ، أي أربعة عشر جيلاً . فإذا جمعنا الأجيال في الأحقاب الثلاثة نجدها ستة

أجيال ، **وهذه مماثلة تطبيقية بأسلوب سري ، لعدد أيام أو أحقاب الخليقة** ، حيث نعرف أنها تمت في ستة أيام والسابع كان سبتاً للراحة .

وهكذا اعتبر متى الرسول أن التاريخ البشري من ابراهيم إلى المسيح ، وهو الزمن المدموغ بالوعد وبتدخل عمل الله المباشر لتحقيق وعده ، هو أيضاً ستة أجيال من إبراهيم حتى المسيح . وبعد المسيح ، أو من المسيح فصاعداً يبدأ **الجيل الأخير** وهو **جيل المسيح ، جيل السبت الأبدي** الذي سيبقى بانتظار الدهر الآتي !

وهذا الأسلوب السري في فهم الأجيال والأزمان الإلهية يشرح لنا بالتالي سر قول الرب عن مواصفات الأيام الأخيرة وقرب مجيئه الثاني بقوله : « الحق أقول لكم أنه لا يمضي **هذا الجيل** حتى يكون هذا كله » (متى ٢٤ : ٣٤) .

إبن الله :

هكذا يتدرج معنا إنجيل متى ثم إنجيل لوقا في إعطائنا صورة كاملة للمسيح يوم ميلاده أو في كتاب ميلاده ، فهو يعلن المسيح أولاً كابن داود ، ثم ابن ابراهيم ، ثم ابن آدم ، ثم ابن الله .

أما الكشف عن سر بنوة المسيح لله فهذا يعلنه بولس الرسول بكلمات واضحة قاطعة في رسالته إلى العبرانيين هكذا : « الله بعدما كلم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة ، كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في إبنه » (عب ١ : ١) .

أما إعلان المسيح أنه ابن داود وابن ابراهيم وابن آدم ، فهذا كله يكشف عن مدى قرابة المسيح إلينا بل بالحري مدى قرابتنا بالمسيح ، كما سبق وقلت ، فنحن لحم من لحمه وعظم من عظامه !!

أما الإعلان عن أنه أيضاً « **إبن الله** » فهذا في الحال يقلب معنى الميلاد من مفهوم الميلاد الطبيعي للإنسان الطبيعي إلى معنى فائق للطبيعة . **فهذا إبن الله يتأنس** ، هنا تنكشف بنوة أزلية للمسيح سابقة للبنوة الزمانية الحادثة في التاريخ ، هنا الميلاد من

العذراء ومن الروح القدس تنكشف أبعاده السابقة في الأزلية ، فالميلاد البتولي الإعجازي هو في الحقيقة مدخل لسر الله الأعظم !!

إذن ، فنحن في بيت لحم أمام حدث إلهي في صورة حدث زمني « **الله ظهر في الجسد** » ، التحام مذهل بين ما هو أزلي وما هو زمني ، اتحاد فائق للعقل والوصف بين طبيعة الله غير المحدودة وغير المدركة و بين طبيعة الإنسان المحدودة والمدركة . ونتيجة هذا الإلتحام المذهل ، هو ميلاد إبن الله في صورة إبن الإنسان !

فالتجسد الذي تم بميلاد المسيح هو تقابل علني بين الله والإنسان في شخص المسيح .

أما إيمان الكنيسة بأن طبيعة المسيح المولود في بيت لحم هي طبيعة واحدة للكلمة — إبن الله — المتجسد ، فهو إيمان يضعنا الآن وفي هذا اليوم أمام حقيقة ثابتة **وهي أن الله قد تواجه معنا في شخص المسيح تواجهاً كلياً وكاملاً .**

الله أنهى كل نشاز في طبيعة الإنسان عندما وحَّدها بطبيعته الإلهية في المسيح دون أن يلغيها . الصعوبة في هذه العقيدة ليست راجعة إلى منطق لاهوتي ، بل الصعوبة الحقيقية فيها تعود إلى كونها دعوة حرجة للبشرية إلى التواجه مع الله في شخص المسيح تواجهاً كاملاً وكلياً بالرغم مما هي عليه من ضعف وخطيئة ونجاسة ، كيف ندخل دخولاً فعلياً إلى دائرة هذا الإتحاد الكامل الذي وحَّد بين الطبيعتين الإلهية والبشرية في المسيح ؟

الصعوبة والحرج والمشكلة العظمى هنا هي الإيمان من جهتنا ، كيف نؤمن بأن كل عجزنا وكل خطيئتنا وكل نجاساتنا يستطيع أن يحملها المسيح في كيانه فيلاشيها في الحال ، ولكن أليس هذا بالتالي هو سر التجسد ، بل هدفه ، بل عظمته الفائقة بكل حب الله المتركز فيه تركيزاً يفوق كل ما يتصوره الإنسان ؟

فإبن الله لم يدخل عالمنا لزيارة قصيرة أو طويلة لمواساة الإنسان أو تهذيبه ورفع معنوياته ، بل إنه دخل دخولاً لا خروج منه ، لقد تجسد ، أي لبس جسد الإنسان ،

ولن يخلعه عنه إلى الأبد . ولقد حمل بعد ذلك على الصليب وفي جسده هذا كل ضعفات الإنسان وخطاياه بلا استثناء ، ومات بها ، ليرفع سلطانها عنا و يرفعنا فوق سلطانها . لقد حمل المسيح في جسده كل « الإنسان » بأسره ، بكل ما له وما عليه ، وصالحه مع الله أبيه .

إذن نحن في الميلاد أمام مبادرة إلهية مذهلة في سخائها ، مضمونها إعلان عن شركة تمت مع الإنسان بلا تحفظ تبدأ من الصفر ، لا يعود بمقتضاها الطرف الأضعف مسئولاً عن ضعفه ، و يتعهد فيها الطرف الأقوى بخلاص مجاني بلا شروط !!

هذا هو معنى التجسد وامتداده فينا ، وهذه هي حقيقة الميلاد في بيت لحم !!

كلمة في الختام :

وإن كانت حقيقة التجسد أو الميلاد ظلت مئات السنين بهذا القدر من الأهمية والفعالية كما بشر الملاك الرعاة «فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب ، أنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب » ؛ إلا أن هذه الحقيقة الإيمانية ، للأسف الشديد ، بدأ يتقلص فعلها ونورها في العالم الآن لإزدياد الخطيئة و برودة المحبة الأخوية الصادقة بين الناس . فبدت الحياة مع الله والقرب منه عسيرة كل العسر بعد أن كان الإتحاد به على مستوى المسيح حقيقة مفرحة ، لذلك لم يتبقَّ أمام العالم إلا بقية من تحقيق وعد الله بظهور المسيح مرة أخرى بجسده الإلهي الذي أنكره عليه إنسان القرن العشرين ، حيث سيكون ظهوره بمجد عظيم ، وحينئذ ترتفع حقيقة تجسده من الإيمان إلى العيان ، و يرى مجده كل بشر .

(يناير ١٩٧٤)

مسيح التاريخ مسيح حي

« وأنتم من تقولون إني أنا
أنت هو المسيح ابن الله الحيّ »

(مت١٦ : ١٥و١٦)

كان ميلاد المسيح وموته ثم قيامته حوادث خارقة تفوق حجمها التاريخي ، وها هو أثرها المباشر على كل البشرية قد تعدى كل قياس ومنطق بشري . أما عن شخصية « يسوع » ، فيكفي أن نأخذ في الإعتبار ما انتهى إليه التلاميذ بعد قيامة المسيح ، بعد عِشرة دامت أكثر من ثلاث سنوات ، في تقريرهم الذي أعلنوه أثناء محاكمتهم ، كشهادة قاطعة أمام رؤساء شعب اليهود وشيوخهم وكتبتهم المجتمعين في أورشليم مع حنان رئيس الكهنة وقيافا هكذا : « **ليس بأحد غيره الخلاص ، لأن ليس إسم آخر تحت السماء قد أُعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص** » (أع ٤ : ٥ــ١٢) .

لذلك ينبغي أن نلتفت غاية الإلتفات عندما يروي لنا الإنجيل حياة « يسوع المسيح » . فما نقرأه في إنجيل القديس متى وإنجيل القديس لوقا وكأنه قصة عن ميلاد بشري حدث في صميم التاريخ ، يعود و يضعه لنا القديس يوحنا الرسول في معناه الإلهي الفائق للتاريخ ، **فميلاد الطفل يسوع** عند « متى » و« لوقا » هو عند « يوحنا » « **تجسد الكلمة الإله الكائن منذ البدء** » .

كذلك في موضوع الموت ، فبينما تروي الأناجيل الثلاثة قصة موت المسيح من زاوية التاريخ الفردي البشري للمسيح ، ينبري الإنجيل الرابع و يرفعها فوق مستوى التاريخ الفردي ، و يكشف فيها سر الفداء الإلهي الذي شمل البشرية بأجمعها هكذا :

ــ « فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعاً ... فقال لهم واحد منهم وهو قيافا

كان رئيساً للكهنة في تلك السنة ، أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب (إسترضاءً للرومان) ولا تهلك الأمة كلها (يستولي الرومان على إسرائيل) ، ولم يقل هذا من نفسه بل إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبأ **أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة** (اسرضاءً لله) ، وليس عن الأمة فقط ، **بل ليجمع أبناء الله المتفرقين (كل شعوب العالم) إلى واحد (المسيح)** »

(يو١١ : ٤٧ــ٥٢)

□ □ □

وهكذا نرى ونحس من صميم الأناجيل كيف يلتحم التاريخ بالأبدية !! وذلك باتفاق مذهل للعقل ...

فالتاريخ كان ولا يزال هو التاريخ ، لا يحكي إلا الماضي بحوادثه التي ماتت وانتهت ، موقَّعة على الأيام والشهور والسنين ، وكان يستحيل أن يعقل الإنسان أبداً أن يلتحم التاريخ يوماً بالأبدية ، فينتصب التاريخ هكذا ــ في شخص يسوع المسيح ــ واقفاً على رجليه حياً محيياً فعالاً شامخاً متداخلاً في عمق أعماق الله والأبدية ، حاملاً ماضي الإنسان الميت في حياة أبدية لا تزول ولا تموت !!

كان التاريخ ــ أي الزمان ــ هو الحد الذي تنتهي عنده قصة كل خليقة خُلقت فعاشت ثم ماتت ، إلى أن وُلد في ملء الزمان ، موقَّعاً على التاريخ في ساعة من يوم ، و يومٍ من شهر ، وشهرٍ من سنة ، طفلٌ يُدعى « يسوع » كُتب إسمه في سجلات التعداد الإمبراطوري كمواطن ، منذ ألفي سنة خلت . ومنذ ولادته هذه وبحسب سجلات الأناجيل بدأت تلحُّ الحوادث العلنية بإشارات صارخة أنَّ هنا وفي هذا « **الطفل** » يبدأ سرٌ جديد للإنسان !! سرٌ يمتد بتاريخ الإنسان إلى ما فوق الإنسان والزمان والمكان ، يمتد ليشمل السماء وخلائق السماء غير المنظورة يمتد في الأبدية والله !...

وهكذا يسجل لنا إنجيل القديس لوقا (٢ : ٨ــ١٤) :

— « وكان في تلك الكورة رعاة متبدّين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم . وإذا ملاك الرب وقف بهم ، ومجد الرب أضاء حولهم فخافوا خوفاً عظيماً . فقال لهم الملاك لا تخافوا ، فها أنا أبشركم **بفرح عظيم** يكون لجميع الشعب إنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود **مخلّص** هو المسيح **الرب** . وهذه لكم العلامة تجدون طفلاً مقمطاً مضجعاً في مذود . وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السمائي مسبّحين الله وقائلين :

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام
وبالناس المسرة »

كان هذا الحدث السماوي أول خرق صارخ لحدود اختصاص الإنسان وقدرته على التاريخ في مستوى الزمان ، فاقتحام الملائكة وجمهور جند السماء لمحيط رؤية وسماع الإنسان شيء لا يدخل في اختصاص التاريخ ولا اختصاص الرؤية والسماع البشريين أصلاً !! هذا تعبير واضح أن المولود فائق الوجود ، ووجوده حالما تم على المستوى البشري الأرضي في مذود بيت لحم ، اخترق في الحال الوجود الإلهي السمائي وانكشف تأثيره الفعّال في الأعالي ...

الملاك هنا يأخذ مهمّة غاية في الغرابة ، إذ يظهر كمبشر لخدمة الإنسان ، فيتولى بناءً عن أوامر صادرة إليه من الله أن ينبّه الإنسان إلى مدى أهمية « **هذا اليوم** » في تاريخ البشرية ، بصفته يوم « **فرح عظيم** » ، ستظل البشرية تستمد منه مسرّتها على كل الأرض . فيوم « **ميلاد** » المسيح هو في مضمونه الإلهي ميلاد « **مخلّص** » .

الملاك هنا يدخل ولأول مرة في تاريخ الإنسان كمسجّل أيام ، ولكنه في ذات الوقت يرفع الغطاء عن قيمة هذا الزمن المخفي في طبيعة ذلك المولود ، باعتباره ليس يوم بشر بل « يوم خلاص » و« فرح عظيم » و« مسرة بين الناس » !! فبميلاد هذا المولود « **المخلّص** » ينقضي زمان الأحزان ، و يبدأ زمان المسرة إذ ينقضي زمان عصيان الإنسان و يبدأ زمان تمجيد الله على الأرض بواسطة الناس ، كما هو في السماء بواسطة الملائكة سواءً بسواء !! وهكذا وإن بدا في بشارة الملاك بداية زمنية : « **اليوم** »،

ولكنها في حقيقتها بداية تاريخ ما بعد التاريخ ، تاريخ الخلاص الأبدي ، تاريخ الفرح الإلهي الذي سينسكب على الأرض ، ولن يُنزع من قلب الإنسان !

وهكذا فإن اقتحام الملائكة وجمهور جند السماء لعالم الإنسان هو في الحقيقة وبالتالي بداية لإقتحام الإنسان لعالم السماء والملائكة والله ، في شخص ذلك المولود الفائق لحدود الزمان والمكان . أي أن ميلاد المسيح كان بداية مصالحة عظمى بين العالمين : الله وملائكته ، والإنسان وأحزانه . بدء كشف ما في السماء واستعلان ما لا يُرى ! ...

ومن الميلاد بدأ الإنجيليون يؤرخون لحوادث المسيح ، ولكن لا يظن أحد أن الإنجيل كتاب تاريخ يُمكن أن يوضع على مستوى التحليل والتحقيق المجرّد . هنا خداع البصر الذي طالما وقع فيه المؤرخون والباحثون فعثروا في تحقيق شخصِ المسيح الذي سبق ونبّه كل إنسان أن لا يقترب إليه بغير إيمان قائلاً : « طوبى لمن لا يعثر فيَّ » (لو٧: ٢٣) . فأبدية المسيح يستحيل أن توقّع على تاريخ بشري بدون عنصر الإيمان والإلهام الذي يرتفع بالتاريخ إلى مستوى الخلود .

والحق الذي لا يحتاج إلى مزيد إيضاح ، أن الإنجيليين إنما **أرّخوا لله** وليس لإنسان !! أرّخوا لتحقيق مواعيد الله الأزلية منذ الدهور ، التي تمت في وقتها المحدّد في يسوع المسيح إبنه الذي استودعه الله أرضنا في جسد مثل جسدنا ؛ الموعود به بفم جميع الأنبياء في الأسفار المقدسة التي نقشها الروح القدس على قلوب الأولين ، وحفظها بحراسة مشددة عبر الأزمنة المتوالية حتى يوم ظهوره .

فتاريخ المسيح هو تاريخ الله لخلاص الإنسان . والمسيح بحد ذاته هو كلمة الله للإنسان ، كما عبّر عنها بولس الرسول في رسالته إلى العبرانيين : « **الله كلّمنا في إبنه** في هذه الأيام الأخيرة » (عب ١: ١) .

لذلك فإن بدت قصة حياة المسيح « المخلّص » وكأنها تاريخ موقّع على الزمن ، في حوادث يحدُّها الزمان والمكان ، إلا أنها بالحقيقة هي استعلان الله في الصميم

البشري ، استعلان السماء على الأرض ، استعلان الأبدية في ملء الزمن !

والإنجيل وإن بدا كأنه قصة كتبها أربعة من الأخصاء المتخصصين في تتبع كل ما حدث بتدقيق ، و بعضهم شهود عيان ؛ إلا أن الروح القدس الملهم للإنجيليين ، بينا كان يتركهم يصوِّرون المسيح من واقع رؤ يتهم وخبرتهم ومشاهدتهم كما رأوه ولمسوه وسمعوه ، كان في ذات الوقت يضبط بنفسه عبر نفسه كل مشاهدة وكل خبرة و يربطها بمصدرها الإلهي في إشارة خفية أو عبارة توضيحية يعلن بواسطتها سر الأبدية من خلال التاريخ ، وسر غير المنظور في المنظور، بل سر الإله في الجسد !!

وهكذا لا يخفق الإنجيل في الكشف عن شخصية المسيح الفائقة ، حتى أنه لا يصعب إطلاقاً حتى ولا على الإنسان البسيط الأمي أن يدرك بروحه شخصية المسيح المتفوقة على التاريخ والحيَّة المؤثرة ، فوق الحوادث والملابسات ، كابن الله الحي في كل سطر من سطور الإنجيل .

وهكذا استطاع الروح القدس أن ينقل خبرة الإنجيليين ومشاهدتهم عَبْر نفسه ــ أي عبر الروح القدس ــ ينقلها حية كما هي ، كما رأوها وانفعلوا بها ، كما قبلوها بفرح لا يُنطق به واستودعوها أعماق إيمانهم ، و يوحنا الرسول يفصح لنا عن صدق هذا الإحساس الذي كان يَسْري فيه أثناء كتابته للإنجيل هكذا :

ــ « الذي كان من البدء ، الذي سمعناه ، الذي رأيناه بعيوننا ، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا ، من جهة كلمة الحياة . فإن الحياة أُظهرت ، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا . الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا . وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع إبنه يسوع المسيح . ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً »

(١يو١ : ١ـ٤)

لذلك أصبح على قارىء الإنجيل أن يتمسك بالروح الذي يُملي النص ولا يتجاوز

قط عامل الروح وهو ينطلق بالتاريخ نحو الأبدية ويعبر بالمنظور إلى اللامنظور ، وإلا فسيبقى القارىء تائهاً في مضمون التاريخ يبحث عن الحي وسط الأموات !!

إذ يستحيل تماماً بحسب التقليد الشرحي للإنجيل أن يدرك الإنسان أن المسيح ربٌ إلا بالروح القدس ، كذلك فالمسيح لا يمكن أن يعلن ذاته لأحد قط إلا بواسطة الآب السماوي . وهذا يكشف لنا عن مدى الصلة العميقة الجوهرية اللانهائية بين الآب والابن والروح القدس لا من جهة كيانهم الذاتى فحسب بل ومن جهة إمكانية استعلانهم ، إذ يستحيل أن يُعلَن الله إلا ككل .

وهكذا فإن تجسد المسيح وميلاده ودخوله في صميم التاريخ الإنساني جعل الإنجيل يتنقل بين التاريخ والأبدية بسهولة وسرية فائقة للعقل ، جاعلاً الله في متناول الإدراك الإنساني بعد العزلة والغربة والانفصال بل والعداوة التي عاشها الإنسان بعيداً بعيداً جداً عن الله الواحد القدوس المطلق اللامُدرَك .

و بذلك لا يغيب عن بالنا قط أن التحام الأبدية بالتاريخ التحاماً واقعياً ملموساً ومحسوساً حياً لم يُعرف أبداً ولم يخطر على قلب إنسان قط قبل ميلاد المسيح ، إذ فيه استعلن الله شخصياً للإنسان ! ، وفيه أيضاً رُئي غير المنظور وأدرك غير المدرَك ، في صفات حية إلهية وأعمالٍ إعجازية فائقة تنطق بصدق ذلك الاستعلان .

ولكن يلزمنا أن ننبه دائماً أن كلَّ مَنْ يدخل الإنجيل على مستوى التحقيق التاريخي فقط باحثاً ومدققاً ومحللاً فيمَنْ هو المسيح ، إنما يتجاهل عنصراً أساسياً آخر في صميم مدخل الإنجيل ، فالإنجيليون كانوا يكتبون الإنجيل و يحققون تاريخه وعيونهم شاخصة نحو المسيح كرب وإله ، يرونه عبر الأيام حياً أمام عيونهم وقلوبهم ، فخرج الإنجيل من تحت أيديهم ، لا كنصوص مدققة لتاريخ أمين يحكي عن إنسان يُدعى « يسوع » آمن به الناس في ذلك الزمان ، بل على النقيض تماماً ــ إذ كانوا يحاولون جاهدين إرجاع الحقيقة الحية الواقفة أمام عيونهم وقلوبهم ــ أي حقيقة الرب يسوع المسيح ابن الله الحي الذي يملأ كيانهم ووجدانهم وإيمانهم ، يُرجعونها إلى توقيعاتها الزمنية بحسب تاريخها الذي سجلته ذاكرتهم بكل إخلاص وأمانة ، لكي يثبتوا للمؤمنين أن يسوع المسيح

الحي الذي قام من بين الأموات بمجد عظيم ورأوه وعاشروه بعد قيامته إلهاً بكل يقين ، أنه هو نفسه الذي وُلد في بيت لحم وعاش في الناصرة و بشَّر في الجليل وصُلب في أورشليم !

لذلك أصبح لزاماً على قارىء الإنجيل أن يضع هذه الحقيقة الحية نصب عينيه قبل أن يخوض الإنجيل ، و بذلك يتجلى التاريخ أمامه ، فالإنجيل كتاب إيمان قبل أن يكون كتاب تاريخ ، لذلك فالإيمان « **بشخص** » يسوع المسيح هو الذي يكشف كل أسرار الإنجيل ويحل كل مشاكله التاريخية كقصة كُتبت منذ ألفي عام ، لذلك رأينا ونرى كل يوم أن الإنجيل يُستعلن بعمقٍ ونعمة و بصيرة أكثر لبسطاء القلوب ذوي الإيمان الوثيق .

على أن الإنجيل لا يعلن الحق الذي فيه كنظرية عامة يكون على الإنسان أن يقبلها ككلٍ أو يرفضها ككل ، بل إنه يخاطب كل قلب خطاباً خاصاً وشخصياً ، فيعلن الحق لكل إنسان على قدر قامته الروحية واستعداده الإيماني وقبوله للحقيقة ، إعلاناً متصلاً متلاحقاً ينمو مع الإيمان والأيام !

و بذلك فجيد لقارىء الإنجيل أن يتقدم إلى الحقيقة المدوَّنة فيه من منظار كاتبها وروحه ، وأن لا يستقبل الكلمات مجرَّدة عن الروح الذي فيها ، وهذا ليس تصعيباً أو تعسفاً منا تجاه القارىء ، ولكنه هو سر الإنجيل نكشفه في اختصار ، فإن أطاع القارىء روح كاتب الإنجيل والتزم بتأكيدها وأخضع ذهنه للحقيقة ، فسوف تتجلى الحقيقة أمامه كما رآها الكاتب تماماً ، وحينئذ سوف يُمس بتيار الروح في الإنجيل وبمدِّه السري الذي ينطلق بعقل الإنسان وقلبه من « **الكلمة** » إلى « **شخص** » يسوع المسيح مباشرة وجهاً لوجه .

وهكذا تتم معجزة الإنجيل « **وفتح ذهنهم ليفهموا الكتب** » (لو٢٤ : ٤٥) . وحينئذ يتجلى التاريخ و يُستعلن المسيح إلهاً ببرهان الروح في القلب !

ثم امتداداً من ذلك ، أي من الإنتباه الشديد لروح كاتب الإنجيل والإنصياع الحرّ للروح القدس الذي يوجه الكلمات و يصيغها ليُدخلها في قلب القارىء كقوة لا تحتاج

لبرهان ، ننتقل إلى ضرورة الإنتباه إلى **كلمات المسيح نفسه** التي كان يقولها و يؤكد عليها بهدوء ووثوق ، فبمجرد الإنتباه القلبي لهذه الكلمات نستطيع أن نحس بشخصية المسيح نفسه . فالمسيح كان في الحقيقة **ينطق ذاته** في كل قول وكلمة !!

فحيننا نرهف الإحساس لتكراره للعلاقة التي تربطه بالله ، ندرك في الحال بشعور واثق أكيد سر بنوة المسيح الأزلية لله ، اسمعه يقول(٥) : « **أبي** الذي في السموات » ، « **أبي** السماوي يفعل » ، « ينبغي أن أكون فيما **لأبي** » ، « **أبي** يعمل حتى الآن وأنا أعمل » ، « **أبي** الذي أعطاني إياها » ، « أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من عند **أبي** » ، « أنا الكرمة الحقيقية **وأبي** الكرام » ، « يا**أبَّا** . الآب » . العلاقة هنا بين المسيح والله نحسها بلا أية صعوبة أنها أزلية وأنها فائقة لوضعه البشري وأنها موجودة قبل ميلاده في بيت لحم بكل تأكيد !!

الكلمات هنا أو هذه المنطوقات كبيرة وضخمة بحد ذاتها ، ولكنها تشير بسهولة و بلا تعقيد أن قائلها أو ناطقها أكبر وأضخم منها ، والمعنى اللاهوتي الذي تشير إليه هذه الإصطلاحات عميق وخطير ، ولكن لا يصعب على القارىء أو السامع أن يحس أن العقل الذي صاغها ونطقها أعمق وأخطر !! كذلك فإن جرأة التعبير هنا فائقة بالفعل على كل تصوّر ، ولكنها جرأة واثقة وديعة تقود المنطق إلى التسليم بلا عناء بأن المسيح هنا إنما يتكلم الحقيقة وهو يعبِّر عن نفسه بسلطان بلا تكلف !

حقاً إن المسيح المتكلم في الإنجيل إنما ينطق ذاته ، ينطق الحق ، ينطق الله !!... المسيح كلمة الله !!

هذه الحقيقة ــ أي بنوة المسيح الأزلية لله ــ كان يرسخها المسيح في أذهان تلاميذه لندرك فيها سر علاقته الشخصية بالآب ، هذا السر الذي سيكون بحد ذاته واسطة تقربنا نحن فيه إلى الله كأب لنا أيضاً !!

---

(٥) متى ١٦ : ١٧ ، متى ١٨ : ٣٥ ، لو٢ : ٤٩ ، يو٥ : ١٧ ، يو١٠ : ٢٩ ، يو١٠ : ٣٢ ، يو١٥ : ١ ، مر١٤ : ٣٦ .

ثم يعود المسيح في مواضع أخرى يؤكد على حقيقة أخرى بالغة الأهمية وهي: **استعلان ملكوت الله وارتباط ذلك بشخصه ومجيئه إلى العالم.** فكان أول خطاب كرازي للعالم نطقه المسيح هو «توبوا لأنه قد اقترب منكم ملكوت السموات (الله)» (متى ٤: ١٧)، مشيراً بذلك إلى نفسه. ثم أخذ على مدى حياته على الأرض يؤكد و يشدد على أن ملكوت الله قد بدأ، وأتى، وسيأتي، معلناً انفتاح عهد ملكوت الله للإنسان بمجيئه إلى العالم ــ مشيراً إلى أن بتجسده وميلاده ابتدأ دخول الإنسان الفعلي في دائرة ملكوت الله في شخصه، إذ لبس هو جسد الإنسان! و بالتالي دخول كل من يتحد به بالإيمان، وهذا ما أكدته الملائكة يوم ميلاده حينما هتف جمهور جند السماء: «المجد لله في الأعالي **وعلى الأرض السلام** وفي الناس المسرة» (لو ٢: ١٤)، **هنا دخول الأرض والإنسان في دائرة مجد الله وسلامه يعني دخول ملكوت الله إلى عالم الإنسان.**

هذا التأكيد ظل المسيح يشير إليه و يؤكده حتى يوم صلبوته وهو واقف أمام بيلاطس:

ــ «فقال له بيلاطس **أفأنت إذن ملك؟** أجاب يسوع أنت تقول **إني ملك، لهذا قد وُلدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم...**» (يو ١٨: ٣٧).

هذا التصريح لا ندرك خطورته وهيبته إلا إذا تذكَّرنا أنه واقف أمام بيلاطس، وأن العلة الأساسية التي سوف يأخذ بها بيلاطس في حيثيات الحكم لصلب المدعو «يسوع» هي ادعاؤه القول: «**إني ملك**» (يو ١٨: ٣٧).

كذلك لا يغيب عن بالنا المفارقة الخيالية بين تأكيده أنه ملك والصليب منصوب أمامه والجنود يستعدون لصلبه وكأس المرارة ممزوج ومهيأ!! ثم هل ننسى تعرية الظهر والسياط والضرب على الرأس والبصاق في الوجه؟ أمام كل هذا لا يزال المسيح نسمعه يصر: «إني ملك، لهذا قد وُلدتُ أنا، ولهذا قد أتيت إلى العالم!!». فالآن لنغمض أعيننا إلى لحظة ونتصور هذا المشهد من جديد، ثم نرهف السمع لنسمعه ينطق

بهذا الإعلان المهيب بصوته الواثق، وحينئذ سوف يداخلنا إحساس إيماني لا يناقَض قط أن هذا حقاً هو إبن الله وأن ملكوته ملكوت أبدي ما لن يزول، لكن ليس قطعاً من هذا الدهر ولا على الذين من هذا الدهر، وإن كان بميلاده هو دخل ملكوت الله إلى عالمنا، فبموته دخلنا نحن ملكوت الله في سماواته!!

□ □ □

والآن، عودٌ على بدء:

فمرَّة أخرى نحن في بيت لحم، في بيت متواضع استأجره يوسف بعد الوضع، والعذراء جالسة والطفل يسوع على حجرها، وهو الآن يناهز الثانية من عمره إلا قليلاً، الوقت مساء، والعتمة تخيِّم داخل البيت وخارجه في الحيّ وكل المدينة، و يوسف راقد بجوار المدفأة، وفجأة يشعُّ نور شديد كالبرق يملأ داخل البيت وخارجه. فيهبُّ يوسف مسرعاً نحو الخارج ليرى نجماً شديد اللمعان وقد وقف في السماء فوق البيت تماماً وكأنه يشير بشعاعه حيث كان الصبي، فأدرك يوسف في الحال أن في الأمر إعلاناً؛ ولم يكد يدخل ليخبر العذراء حتى سمع حركة في الزقاق وجلبة مفاجئة على الباب. فخرج. وإذا به يرى منظراً أخاذاً على ضوء النجم: قافلة من جمال مزركشة يقودها جماعة من العبيد، وعليها رجال شيوخ تبدو عليهم سيماء العظمة والغنى، أمراء من المشرق، فيحطون الرحال، والفرح والبشر يملأ وجوههم. وقد بدا عليهم الإعياء من جَرى سفر طويل مضني!...

ثم يتقدمون و يسألون يوسف: هل بالدار طفلٌ مولود ناهز السنتين أو دون؟ بشارته جاءت من السماء، أمه عذراء، وتكلم عنه الأنبياء؟ فأشار لهم يوسف وأصبعه على فمه، وأسرع وأخذهم صامتاً داخل الدار حيث كان الصبي مع أمه، ولدهشة يوسف رأى وجه الصبي مضيئاً، وكأن شعاعاً من النجم اخترق الجدار وارتسم على وجهه، وأمه غارقة في النور، وكأن السماء مفتوحة!...

فخرَّ المجوس (الحكماء) في الحال سجوداً، ووقفوا أمام الصبي ينشدون نشيداً مطرباً، بوقار يفوق الوصف، والفرح يطفح على وجوههم والدموع تسيل على لحاهم

البيضاء تشع كالنور.

ثم تقدموا نحو الصبي، كل أمير وعلى يديه هدية، سجد الأول وفتح كنوزه فإذا هي ذهب مرصوص كالذي تُرصَّع به تيجان الملوك!

وسجد الثاني وعلى يديه حُقّ بخور عطر أخذوا منه ونثروا على يدي الطفل فبدا وكأنه كاهن يحمل رسالة.

وسجد الثالث وعلى يديه صُرّة مُرٍّ، كالتي قدموها له يوم صلبوته، أو ربما هي بذاتها حفظوها له ليوم آلامه!

— — —

عجبي على هؤلاء الحكماء وعلى هداياهم، وعجبي أشدّ على الذي أرسلهم وهداهم!

— — —

ومرة أخرى نعود على ذي ختام، والروح أمامنا ينطق بغير لسان، فالذهب في أيدي المجوس! إن كان بحسب الرواية فهو لا يزيد عن كونه مالاً وغنى وتحية وهدية، أما بحسب الروح **فهو تتويج وملوكية، تُوِّج به الطفل وهو في مهده صبياً**، ليكون المسيح صادقاً دائماً أبداً. ألم نسمعه حالاً منذ سطور قليلة يقول لبيلاطس: «**إني ملك، لهذا قد وُلدتُ أنا**، ولهذا قد أتيتُ إلى العالم؟».

— — —

ثم عجبي على الإنجيل وما احتوى، فالنهاية فيه تنعكس لتضيء البداية، والبداية تلق نورها قوياً وهاجاً توصلك في يُسرٍ إلى ختام الرواية.

— — —

وهكذا يَسري الروح بين السطور والكلمات و يتنقل بين الأصحاحات،
فطوبى لمن اتَّبع الروح ليسير في النور.
لمثل هذا يُستعلن سرُّ المسيح في الإنجيل. □

(يناير ١٩٧٦)

الإيمان بالخبر والإيمان بالخبرة

الميلاد كخبر:

إن رواية الميلاد التي يرويها لنا الإنجيل في الأصحاحات الأولى(١) يرويها لتكون أساساً للإيمان بالخبر.

الميلاد كخبرة وشركة:

ولكن الذي تم في بيت لحم ينقله لنا الإنجيل في مكان آخر بصورة أعلى وأعمق وأهم جداً من مجرد الرواية أو الخبر. ففي بيت لحم تم استعلان ابن الله بصورة سرية؛ ولكن اشترك في هذا الإستعلان كل حواس الإنسان الخارجية والداخلية، بالسمع، والرؤيا العينية، والمشاهدة العقلية، واللمس باليد. كما يقول يوحنا الرسول في رسالته الأولى: «الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة **كلمة الحياة**» (١يو١:١). هنا يريد الإنجيل أن يُدخلنا في خبرة عملية مع الرب. لذلك ينقلها لنا يوحنا الرسول، ولكن ليس كخبر إنجيلي فقط، بل **كخبرة** مسلَّمة. اسمعه يقول: «الذي رأيناه وسمعناه **نخبركم به لكي يكون** لكم **أيضاً شركة معنا**» (١يو١:٣).

الأمر هنا خطير للغاية لأنه ينقلنا نقلة جديدة في مفهوم الإنجيل كخبر للإيمان. يوحنا يعلن لنا بوضوح شديد وتأكيد أن الخبر الإنجيلي يلزم أن ينتقل فينا إلى حالة شركة مساوية تماماً لحالة الشركة التي اختبرها وعاشها الرسل أنفسهم. اسمع مرة أخرى «**نخبركم به لكي يكون** لكم **أيضاً شركة معنا**»، «**أما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح**» (١يو١:٣و٤).

(١) متى ١، ٢؛ لوقا ٢.

هنا واضح الإنتقال من الخبر إلى الشركة ، ومعروف أن الخبر يكون بالكلمة ، أما الشركة فهي استعلان وحياة . ومعروف أيضاً أن الخبر ينتهي إلى إيمان وتصديق وحسب ، **أما الشركة فتنتهي إلى فرح** ، اسمعه يوضح ذلك « **ليكون فرحكم كاملاً** » .

اليوم نريد أن ننتقل من **الخبر إلى الخبرة ، من الإيمان إلى الشركة ، من التصديق إلى الفرح .**

ولكن لنبتدىء بالخبر أولاً :

ما هو الخبر الحقيقي لموضوع بيت لحم ؟ لا من جهة الرواية التاريخية بل من جهة الخبر الإيماني أي البشارة الإنجيلية ؟

هنا نرجع أيضاً ليوحنا الرسول :

في الإنجيل يقول : « والكلمة كان الله ، **والكلمة صار جسداً** » (يو ١ : ١٤) .

أما في الرسالة فيقول : « من جهة كلمة الحياة فإن **الحياة أُظهرت** وقد رأينا ونشهد **ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا** » (١يو ١ : ١) .

هذان في الحقيقة خبران ، وليسا خبراً واحداً :

الخبر الأول : الله الكلمة صار جسداً . وهذا أساس منطوق الإيمان الأرثوذكسي المعروف :

طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد μία φύσις τοῦ Θεοῦ Λόγου σεσαρκωμένη

هذا الخبر يخص **شخص الله مباشرة** « الله ظهر في الجسد » . فكلمة الله المتجسد ، أو الله الكلمة المتجسد ، هو شخص يسوع ابن الله .

الخبر الثاني : أن الحياة الأبدية التي كانت عند الآب (مخفية) ، أُظهرت لنا (طبعاً في شخص المسيح ابن الله) .

إلى الآن يا أحبائي نحن بصدد خبر نصدقه ونؤمن به وننطقه كشهادة ، أن الله ظهر

في الجسد ، وأن الحياة الأبدية أُظهرت .

والمطلوب منا في هذا المساء أن ننتقل :

أولاً : من خبر ظهور الله الكلمة جسدياً أي يسوع المسيح المولود ، **إلى الشركة معه .**

ثانياً : من مجرد خبر أن الحياة الأبدية التي كانت عند الآب أُظهرت لنا أي الكلمة المتجسد المولود في بيت لحم ، **إلى الشركة في هذه الحياة الأبدية** التي أُظهرت في حياة يسوع .

علامة صدق الإيمان بالخبر:

أما **برهان** صدق حدوث **الإيمان بالخبر، فهو « الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى »** (عب ١١ : ١) .

وعلامة صدق الشركة ، أو برهان **الحصول على الشركة حقاً** ــ أي الإنتقال من الخبر إلى الخبرة ــ فإنه يكون بحدوث « **فرح كامل** » « ليكون فرحكم كاملاً » .

أو كما أعلن الملاك صراحة عند ميلاد الرب « هاأنا أبشركم ,, **بفرح عظيم** ،، يكون لجميع الشعب إنه ولد لكم اليوم مخلّص هو المسيح الرب » (لو ٢ : ١١) .

أي أننا مدعوون من الله في هذه الليلة إلى الدخول في « **الفرح الكامل** » و« **الفرح العظيم** » ، الذي هو البرهان العملي لحياة الشركة **مع شخص الله** الكلمة المتجسد باعتباره **المخلّص** ، ومع **الحياة** الأبدية التي أُظهرت فيه ، أي **الخلاص .**

خبرتان :

صحيح أنها خبرتان : شركة مع الله الكلمة المتجسد ، **هنا شركة شخصية مع المخلّص ،**

وشركة في الحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت ،

أي شركة الخلاص .

غير منفصلتين :

ولكنها في الحقيقة خبرتان غير منفصلتين ، فالمسيح أعلن لنا بوضوح سر الحياة

الأبدية بقوله [**هذه هي « الحياة الأبدية » أن يعرفوك « أنت » الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته**] (يو١٧ : ٣) . **الحياة مصدرها الآب والإبن** ، لأن الحياة الأبدية يا أحبائي لا يمكن أن تُستعلن منفصلة عن مصدرها ، ومصدرها الآب والإبن .

المسيح يعطي الحياة :

ولكن معلوم جيداً أن المسيح جاء **ليعطي الحياة الأبدية** لنا « **إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته** » (يو١٧ : ٢) .

فهنا في بيت لحم خبرتان ، نريد أن ندخل في شركة معهما ، حسب دعوة يوحنا الرسول :

١ ـ **خبرة مع شخص يسوع** ، باعتباره الشخصي « **كلمة الحياة** » أو كلمة الله . وأبسط إحساس يمثلها « **المخلص** » .

٢ ـ **وخبرة مع الحياة الأبدية** ، كعطية يعطيها المسيح لكل من أعطاه الآب . وأبسط إحساس يمثلها « **الخلاص** » .

١ ـ خبرة المجوس سجود وعبادة :

صحيح أن بيت لحم لا تعطي إلا صورة مصغرة جداً للمخلِّص ، لأن المسيح هنا طفل ، وأين يسوع الطفل من الصليب ؟

فالمسيح استكمل صورته كمخلِّص على مدى ٣ سنوات ، بالإضافة إلى الصليب ثم القيامة .

ولكن هل نحن اليوم أقل نعمة أو أقل حكمة من المجوس الذين أتوا إليه وهم من شعب آخر ومن بلد آخر ؟ انظر وتأمل في هؤلاء الأمراء الحكماء الشيوخ وهم يسجدون أمام طفل ، و يقدمون له هدايا لا تُقدَّم إلا للملوك . لقد استقطبوا ٣٠ سنة زائداً الصليب والقيامة . في الحقيقة هم عبدوه كمخلِّص ، وسجدوا له كإله ، وقدموا له ذهباً ولباناً ومرًّا كملك وكاهن وفادي .

٢ ـ خبرة الرعاة ، فرح عظيم :

ثم صحيح أن الحياة الأبدية التي ظهرت في بيت لحم ظهرت بصورة مصغرة جداً ، لأنها لم تظهر ولم تستكمل صورتها إلا في يوم الخمسين .

ولكن هل نحن ذوو عيون أقل رؤية ، وأرواح أقل انفتاحاً من رعاة الغنم ، الذين انفتحت أعينهم في هذا اليوم للسماء المفتوحة ، فقبلوا « **بشارة الحياة الأبدية** » بفرح عظيم ، واستجابوا لدعوة الملاك ؟ حتى أنهم ذهبوا مسرعين وأخبروا ، وعادوا يمجدون الله على ما رأوه وسمعوه . لقد **قبلوا خبرة الخلاص عياناً !**

كيف ندخل إلى الخبرة الأولى :

تقول : **وكيف أدخل في شركة حية فعَّالة مع « الطفل » يسوع باعتباره المخلِّص ؟**

هذه في البداية تبدو وكأنها خبرة صعبة ، لأن الخلاص مرتبط بالصليب والدم ، فكيف نقرنها بالطفولة ؟

ولكن ألم نسمع عن القديسة تريزا الصغيرة ، التي لم يبلغ أحد **إلى علاقة مع المسيح المخلِّص في قامة طفولته مثلها** ، حتى دُعيت « **تريزا الطفل يسوع** » . ولقد أثبتت في حياتها وموتها أنها كانت على علاقة خلاصية حية وفعَّالة ومثمرة حقاً مع يسوع المصلوب في قامة طفولته !!

سوف نستمد من طفولة المسيح طفولة روحية ، ندخل بها ملكوت السموات :

ثم معلوم من وصايا الرب يسوع أنه **إن لم نرجع ونصير مثل الأطفال فلن ندخل ملكوت السموات** (متى١٨ : ٣) . والآن يبدو أن أعظم وأصعب لغز أمامنا قارب أن يكون مفهوماً ومحلولاً ، **لأنه لا وسيلة لنا إطلاقاً يمكن بها أن نصير أطفالاً لكي ندخل ملكوت السموات بحسب شرط الرب يسوع ، إلا أن نصنع علاقة وشركة**

حية مع الطفل يسوع ، لأن من طفولة المسيح سوف نستمد طفولة روحية صادقة .

وبحدوث مثل هذه الشركة البسيطة السهلة الحية الفعّالة مع المسيح سندخل ، دون أن ندري ، في سرّ الصليب والخلاص ، ثم سرّ الملكوت الذي لا تُفتح أبوابه ولا تُفَكّ ختومه إلا للأطفال .

مواجهة مع الطفل يسوع ، وقوة تخرج منه :

وهكذا ياأحبائي ستظل بيت لحم قصة للإيمان بخبر ميلاد يسوع إلى أن ندخل في علاقة وشركة حية مع الرب يسوع في قامة طفولته ، وحينئذ ستتغير صورة بيت لحم في عقولنا وقلوبنا ، لن تصبح مكان ميلاد الطفل يسوع منذ ٢٠٠٠ سنة ، بل مكان ميلاد حياة وعِشْرة جديدة لنا مع الرب في قامة طفولته ، عشرة نستمد منها قوة براءة ، وقوة طهارة ، وقوة بساطة حية وفعالة ، نداوي بها جراحاتنا المميتة التي نمت وكبرت مع الأيام والسنين ، وشاخت وقاحت مع العثرات والشهوات .

من لي **بوجه يسوع** الطفل اليوم يشرق على عقلي وعلى قلبي ، ليبدد كبريائي واعتدادي بذاتي وتعظُّمي بعلمي ومعرفتي !

من لي **بعين يسوع** الطفل اليوم ترنو إليَّ لتستقر في أعماقي ، فتُطهّر قلبي وضميري وترقّق مشاعري !

من لي **بتواضع يسوع** الطفل ووداعته ، لأستمد منها حديثي وفكري وسلوكي وعبادتي وحبي لجميع الناس !

من لي **ببراءة يسوع** الطفل و بساطته ، لأُغيّر بها كل حياتي وأجدد بها عهودي وآمالي وأخطط على هداها كل مستقبلي !

نحن مدعوون في هذا المساء المبارك أن نصنع شركة حياة مع يسوع الطفل ، شركة حقيقية نستمد منها كل مميزات وصفات طفولة الرب المباركة ، كقوة تخرج منه ، نستلمها منه يوماً بيوم ونمارسها في حضرته وبمعرفته وتوجيهه ، نستخدمها في مواجهة كل الظروف والصعاب ونداوي بها كل عيوبنا وأمراضنا النفسية لخلاصنا ، وفوق هذا كله

نسعد أنفسنا جداً بهذه الطفولة العجيبة حقاً ، والمملوءة قوة وفعالية ، لتجديد خلقتنا ، ولفتح باب الملكوت أمام وجوهنا .

ألم يسبق اشعياء النبي في القديم مبشراً بهذا الطفل الرئيس باعتباره مصدر سلام وإسعاد : « لأنه **يولد لنا ولدٌ ، ونُعطى إبناً** ، وتكون الرياسة عل كتفيه ، و يُدعى إسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام . ولنمو رياسته وللسلام لا نهاية !! » (أش ٩ : ٦) .

ما معنى هذا ؟

هذا معناه أن الله ضمن ما وهبه لنا في شخص يسوع المسيح ، وهب لنا قامة طفولته العجيبة « **يولد لنا ولد ونُعطى إبناً** » . هذه القامة سترثها بل قد ورثتها البشرية بكل غناها وكل خصبها وكل بساطتها الفعالة المؤثرة العجيبة .

ياأحبائي ، نحن اليوم ورثنا **كل غنى الطفولة الإلهية** لا لكي نتسلى بها كما تتسلى الأسرة بابن صغير يولد لها ، ثم إذ يشيخ تنسى طفولته ، بل لكي تبقى معنا هذه القامة حتى إلى منتهى شيخوختنا وشيخوخة العالم كله تجدد روح البشرية وتُخصبها من يوم إلى يوم ، **لأنها قامة إلهية فعّالة** بحد ذاتها كقامة الصليب ، كلها لطف ، ووداعة ، وحنو ، وبساطة قادرة بالفعل أن تغيّر في أعماق ميراثنا الأخلاقي والسلوكي « أمين هو الله الذي به دعيتم إلى شركة إبنه يسوع المسيح ربنا » (١ كو ١ : ٩) .

كيف ندخل إلى الخبرة الثانية :

كيف ندخل في شركة حية فعّالة مع الحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا اليوم بميلاد يسوع ؟

هنا صعوبة نود أن نزيلها أولاً ، فالحياة الأبدية هي « حياة الله » ، فكيف يمكن أن تدخل في الإنسان ؟

أولاً : ما هي الحياة الأبدية ؟

إن أبسط تعريف بماهية الحياة الأبدية في طبيعتها **تتضح لنا في قيامة ربنا يسوع المسيح من الأموات ، فحياة المسيح بعد قيامته من الأموات تعطينا صورة عن الحياة الأبدية الموجودة أو الكائنة في المسيح** وأظهرتها لنا القيامة . ولكن الحياة الأبدية لم تبدأ في المسيح من بعد القيامة ، بل إنها كانت موجودة فيه منذ الأزل ، **ولم تنقطع منه حتى بالموت** ، ولكنها ظهرت واستُعلنت علناً وجهاراً بصورة ملموسة ومنظورة ومُشاهَدة في القيامة التي قامها الرب من بين الأموات .

إذن ، فالحياة الأبدية حياة لا موت فيها ، ولا سلطان للموت عليها ، حياة غير مائتة ، يمكن أن تُنظر وتُشاهد وتُلمس وتُمارس !!

ولكن الحياة الأبدية لا يمكن أن توجد بمفردها فهي « حياة شخصية » ، لا توجد بدون شخص الله ، كما أن الحياة الأرضية أي الزمانية لا يمكن أن توجد بمعزل عن الفرد الحي سواء كان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً ؛ لأن الحياة الأبدية هي « **حياة الله** » ، هي « **حياة الآب وحياة الإبن** » معاً والروح القدس حتماً ، لأن الروح القدس هو روح الحياة .

فالحياة الأبدية ظلت مخفية في الله ، لأن الله الآب لم يره أحد قط ، إلى أن وُلد المسيح ولبس جسداً بشرياً ، واحتوت الحياة الأبدية الحياة البشرية أيضاً ، « فظهرت الحياة الأبدية » لأول مرة على الأرض بميلاد المسيح في جسد بشري .

إذن ، **أصبحت الحياة الأبدية قابلة أن توجد في جسد الإنسان !!** وهذا ما تم في بيت لحم .

والآن نعود إلى يوحنا الرسول في رسالته ونسمع كيف يدعونا للشركة في هذه الحياة الأبدية : « فإن **الحياة أُظهرت** وقد رأينا ونشهد ونخبركم **بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا** . والذي رأيناه وسمعناه نخبركم به **لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا** (في هذه الحياة) » .

والآن ما هي الشركة في هذه الحياة الأبدية ؟

ينبغي أولاً أن نفحص ماذا **كانت الحياة الأبدية في المسيح** ؟ نعود مرة أخرى ليوحنا الرسول في رسالته ، لنرى ماذا كانت الحياة الأبدية التي رأوها ولمسوها وشاهدوها في المسيح ،يقول : « وقد رأينا ونشهد **ونخبركم** بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا : **وهذا هو الخبر الذي سمعناه منه ونخبركم به أن الله نور وليس فيه ظلمة البتة** » (١يو١ : ٢و٥) .

الحياة والنور والحب ،
العالم والظلمة والبغضة :

إذن فالدعوة إلى **الشركة في الحياة الأبدية** هي عند يوحنا الرسول **دعوة للشركة في « النور »** .

هذه في الحقيقة نَقْلة غريبة على أذهاننا نوعاً ما ، لأنه **ما هي العلاقة بين الحياة الأبدية والنور؟** يعود يوحنا الرسول و يعرِّف النور مرة أخرى هكذا :

ـ « إن قلنا إن **لنا شركة معه** وسلكنا في الظلمة نكذب ولسنا نعمل الحق ، ولكن **إن سلكنا في النور كما هو في النور فلنا شركة بعضنا مع بعض** » (١يو١ : ٦و٧) . .

والسؤال أيضاً : ما علاقة الحياة الأبدية بالنور والظلمة ؟ هذه يشرحها يوحنا الرسول نفسه بوضوح أخير هكذا :

ـ « ما هو حق فيه وفيكم أن الظلمة قد مضت والنور الحقيقي الآن يضيء » (١يو٢ : ٨) .

واضح أن الظلمة هي عالم الخطية والنور هو برّ المسيح .

ـ « من قال أنه في النور وهو يبغض أخاه فهو إلى الآن في الظلمة ، من يحب أخاه يثبت في النور وليس فيه عثرة ،
وأما من يبغض أخاه فهو في الظلمة وفي الظلمة يسلك ولا يعلم أين يمضي لأن الظلمة أعمت عينيه » (١يو٢ : ٩و١١) .

هنا يربط يوحنا الرسول ربطاً محكماً بين **الحياة الأبدية ، والنور، والمحبة .**

ما معنى هذا : معناه أن **الحياة الأبدية وهي حياة الله هي نور خالص** ـــ نور لا يُدنى منه قط ـــ **نور مخفي عن هذا العالم** ، وكل معاملاته وكل أخذه وعطائه ، **لا يمكن الإقتراب منه إلا بالمحبة الخالصة .**

المحبة مدخل للنور والحياة الأبدية :

كل من يحب يدخل في نور الله ، يدخل في الحياة الأبدية ، يدخل في حياة الله ، يدخل في الشركة مع الآب والإبن . والعكس صحيح كل من يبغض يعيش في الظلمة ، بمعنى أنه يستحيل أن يدخل الحياة الأبدية أو يسلك في نور الله .

لاحظ أن المحبة ليست هي النور وليست هي الحياة الأبدية ، ولكنها مدخل للنور ومدخل للحياة . فالذي يحِبُّ ، **يدخل** في النور، ثم **يثبت** في النور، **فيعيش في الحياة الأبدية .** الحب هنا مدخل للنور والحياة .

أنا هو نور العالم :

فاليوم وُلد المسيح والحياة الأبدية أُظهرت فيه و به ، **لقد دخل النور إلى العالم ، لقد وُلدت المحبة ، لقد وُلدت القيامة ،** إن جاز هذا التعبير. لذلك نسمع المسيح يقول : « أنا هو نور العالم » (يو٨ : ١٢) . **فاليوم هو يوم نور العالم ، العالم استضاء بنور ليس من هذا العالم . وحياة الله سكنت أرض الإنسان واتحدت بطبيعة الإنسان ،** أما العالم فطبيعته مظلمة ؛ **الكذب** ظلمة ، **البغضة** ظلمة ، **الحسد** ظلمة ، **النقمة** ظلمة ، **الظلم** ظلمة ، **النجاسة** ظلمة ، وكل حركة لا توصل إلى الله ظلمة !

المسيح دخل العالم فأدخل الحياة الأبدية ونور الله إلى العالم ، كما يقول القديس يوحنا : « فيه كانت **الحياة والحياة** كانت **نور الناس** » (يو١ : ١٤) ، « النور يضيء في الظلمة » (يو١ : ٥) ، وظلمة العالم لم تفهم المسيح . أي أن كل من يعيش في ظلمة هذا الدهر لا يستطيع أن يكتشف نور الحياة الأبدية .

الآن وضحت دعوتنا في هذه الليلة أيها الأحباء ، الآن يتضح أمامنا **معنى الشركة في الحياة الأبدية التي في المسيح المولود في بيت لحم .** إذن هي شركة في حياة يسوع الطفل ، **شركة في نور الطفولة الإلهي ، شركة في الحب الإلهي** البسيط والفائق للطبع البشري .

الآب يحب الإبن :

معلوم ياأحبائي أن الآب يحب الإبن (يو٣ : ٣٥) . هكذا أعلن لنا المسيح عن سر الحب المنسكب فيه شخصياً من الآب . واليوم تنفتح أعيننا عن « **ينبوع هذا الحب الإلهي** » حب الآب للإبن ، هذا الكنز الإلهي الذي استودعه الله بكل سر الحكمة في بيت لحم ، في شخص يسوع المسيح ، لنغترف لأنفسنا منه بلا شبع وبلا كيل . نحن مدعوون في هذه الليلة بحسب رسالة يوحنا الرسول إلى هذه الشركة : « **أما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع إبنه يسوع المسيح** » (١يو١ : ٣) . هذا القول **عميق عميق** ، أعمق من كل ما نتصوره .

يوحنا الرسول يدعونا سرًّا إلى الدخول في **شركة الحب الذي يربط الآب بالإبن** ، وواضح أنه لم يذكر الروح القدس ، **لأن الروح القدس هو فعل الشركة ووسيطها ومادة الحب الإلهي ونارها .**

هدية من السماء معبأة بحب الآب للإبن :

المسيح دخل إلى عالمنا ومعه كل حب الآب !! هذا التصور حقيقي وهو كفيل بحد ذاته أن يشعلنا ناراً !!

ومن حسن حظنا أننا في هذه الليلة نتعامل مع يسوع « **الطفل** » ، فبالتالي يمكن أن نغتصب شيئاً من هذا الكنز، كنز الحياة الأبدية بكل مذخراتها الإلهية وأمجادها السماوية ، كنز النور والحب والبساطة التي تطأ ظلمة هذا الدهر وتدوس الموت والهاوية ، نغتصبه ببساطة و بلا خوف ولا حذر، فيسوع الطفل سهل المعاملة جداً .

ولكي نسهل الدخول في هذه الشركة أي شركة الحياة الأبدية « شركة الحب الإلهي » ، التي يعبّر عنها يوحنا الرسول بقوله : « شركة مع الآب ومع إبنه يسوع المسيح » ، يلزم أن نتنبه جداً أن **الله هو صاحب المبادرة ، فما علينا إلا أن نكون مستعدين للمفاجأة :** فالله هو الذي بادر بإرسال إبنه مولوداً دون سؤال منا ، والقصد الأساسي أن يعلن ذاته من تلقاء ذاته ، الله يقدم نفسه بنفسه ، يقدم حياته باستعلان مفاعيلها . الله يدعو الإنسان للشركة معه . الله صاحب المبادرة في بيت لحم ، فهي خبرة عظمى معروضة مجاناً .

ميلاد إبن الله في بيت لحم **دعوة تنازلية ، غاية في الإتضاع ، لكي يتشجع الإنسان و يدخل هذه الشركة « الشركة مع الآب والإبن » .**

ثم ألسنا نحن هنا مرة أخرى تحت بلوطات ممرا وابراهيم جالس متراخي كما يقول الكتاب : « وقت حرّ النهار » (تك١٨ : ١) ، وإذا الله يقدم نفسه لإبراهيم و يعطي وعداً بالحياة في زمانها ؟

أو ألسنا نحن هنا أيضاً أمام العليقة وموسى يسير متباطئاً خلف غنماته ، وفجأة يعلن الله عن نفسه لموسى كنار في عليقة ودعوة سر يعة للمقابلة لإستعلان سر الخلاص بكل أبعاده القر يبة والبعيدة ؟

هذا هو الله دائماً صاحب المبادرة وصاحب المفاجأة ، وطوبى لمن استعد للدعوة وهيأ نفسه لها ، فإن السيد يأتي دائماً إلى هيكله بغتة !!

فالله اليوم يدعونا بلا أي مقدمات من جهتنا لقبول شركة الحياة الأبدية معه شخصياً ، في إبنه الحبيب والوحيد يسوع المسيح ، لندخل في شركة النور والحب الإلهي الأبوي المنسكب من الآب في إبنه نأخذ منه بلا مانع وبلا حدود ،

هذا هو غنى بيت لحم الفائق المعلَن اليوم لبني السرّ ، لنا ، نحن الذين سهرنا وقلوبنا ملتهبة ننتظر حقنا من هذا الغنى المتدفق ،

فقد صار ميراثنا الثمين الأبدي . **(يناير ١٩٧٦)** □

و يدعى إسمه عمانوئيل
الذي تفسيره « الله معنا »

عندما **عجز الإنسان أن يحيا مع الله** ، إذ عجز عن حفظ الوصية وسقط في المخالفة والتعدي ، وطرح خارجاً عن حضرة الله ، **تنازل الله في ملء الدهور وجاء إلينا ليحيا معنا .**

هذا هو التجسد وهذا هو ميلاد المسيح « **عمانوئيل** » الذي تفسيره الله معنا .

من الموت والظلمة إلى الحياة والنور:

نحن نعلم أنه قد حُكم على الإنسان بالموت إزاء التعدي ، وهكذا دخل الموت إلى العالم وساد الموت وسادت الظلمة على عقل الإنسان وقلبه ، كما نعلم تماماً أنه بميلاد المسيح قد وهب الله الحياة الأبدية مرة أخرى للإنسان عوض الموت ، ودخلت الحياة الأبدية وأشرق نور الله على العالم مرة أخرى في شخص المسيح ليضيء للإنسان من داخله ، وفي عقله وقلبه ، طريق الحياة والخلود .

رحلة الآلام لبني الإنسان ٥٥٠٠ سنة :

ولكن كانت رحلة الإنسان من الحكم بالموت على آدم إلى هبة الحياة بميلاد رب الحياة ، ومن ظلمة العصيان لوصايا الله التي تردى فيها آدم رأس الجنس البشري إلى نور الطاعة التي قدمها الإبن الوحيد للآب عنا كابن الإنسان ، رحلة طويلة جداً بحسب الزمن ، وشاقة أقصى ما يكون الشقاء على مستوى المعاناة والآلام والدموع عبر الأجيال والدهور ، ولكن لم تكن هذه الرحلة المضنية كأنها بلا حدود ، بل كان طولها الزمني محسوباً لدى الله بالأيام والساعات وعمقها المأساوي كان محسوساً ومدركاً لدى الله ، بل وكان الله مشاركاً للإنسان في كل ما عاناه وتضايق به حسب إعلان الله الصريح : « في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلصهم » (إش٦٣ : ٩) .

ومضات من النور عبر ظلام الدهور:

لذلك أصبح من أنسب الأمور لبناء إيماننا الجديد وعلاقتنا الجديدة بالله ، أن نتأمل وندرس ونكرر الدراسة كل يوم في مراحل رحلة بؤس الإنسان وشقائه هذا ، عبر المراحل المتعددة التي مر بها الإنسان ، حتى استقرت به المسيرة أخيراً في بيت لحم .

بل وأصبح من المحتم لكي نستقبل خبر ميلاد المسيح في حدود حجمه الحقيقي ونمتلىء بكل ملئه الإلهي الذي يخصنا منه ، وليكون لنا الحق والقوة في إعطاء المجد الحقيقي لله مع الملائكة في الأعالي في هذا اليوم ، ويحل السلام والمسرة في كياننا الروحي كل أيام حياتنا ، علينا أن نعبر عبوراً سريعاً على مراحل هذه الرحلة الطويلة الشاقة المضنية منذ أن صدر الحكم الإلهي بالموت على آدم وكل بشر ، إلى أن صدرت البشارة بميلاد الحياة الأبدية للإنسان في شخص يسوع المسيح في بيت لحم : وإليك أيها القارىء العزيز هذه النصوص على التوالي :-

١ ــ الآن نحن في سنة ٥٥٠٠ ق . م . :

• « فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل . فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان . فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر... » (تك٣ : ٦و٧) .

• « فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت ؟ فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت . فقال : من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها . فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت .

فقال الرب الإله للمرأة : ما هذا الذي فعلتِ ؟ فقالت المرأة : الحية غرتني فأكلت .

فقال الرب الإله للحية : لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية . على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك . وأضع عداوة بينك و بين المرأة و بين نسلك ونسلها . هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه .

وقال للمرأة : تكثيراً أكثِّر أتعاب حبلك . بالوجع تلدين أولاداً . وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك .

وقال لآدم : لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا

تأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك . شوكاً وحسكاً تنبت لك ، وتأكل عشب الحقل . بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود » (تك٣ : ٩ــ١٩) .

• « فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها . فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » (تك٣ : ٢٣، ٢٤) .

هذه أيها الأحباء مأساة السقوط من النعيم ، من الحياة الأبدية والطرد من أمام وجه الله والنزول إلى مستوى التراب واللعنة والعناء والموت . هذا كان ثمن عصيان الله .

ثم جاءت أول إشارة للإنسان في شخص ابراهيم بالرجاء للخروج من ظلمة اللعنة إلى البركة ومن البعد عن الله إلى قرب منه هكذا :

° ° °

٢ ــ الآن نحن في سنة ٢٠٠٠ ق . م . :
وهو زمن دعوة إبراهيم للرحيل من أور الكلدانيين :

• « وقال الرب لابرآم : اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك . فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك . وتكون بركة . وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه . وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض » (تك١٢ : ١ــ٣) .

• « ثم أخرجه إلى خارج وقال انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها . وقال له : هكذا يكون نسلك . فآمن بالرب فحسبه له براً » (تك١٥ : ٥و٦) .

° ° °

٣ ــ الآن نحن في سنة ٧٩٠ ق . م . وهو زمن مملكة عزيا الملك :

ثم جاء من وراء الدهور أول وعد صريح بميلاد المخلص والفادي :

• « لأنه يولد لنا ولد ، ونعطَى إبناً ، وتكون الرياسة على كتفه ، و يدعى اسمه عجيباً ، مشيراً ، إلهاً قديراً ، أباً أبدياً رئيس السلام ، لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته ، ليثبتها و يعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد . غيرة رب الجنود تصنع هذا » (إش٩ : ٦و٧) .

• « ويخرج قضيب من جذع يسى و ينبت غصن من أصوله ، ويحل عليه روح الرب ، روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة ومخافة الرب . ولذته تكون في مخافة الرب فلا يقضي بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه . بل يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض ، و يضرب الأرض بقضيب فمه ويميت المنافق بنفخة شفتيه . و يكون البرُّ مِنطقة مَتْنيه ، والأمانة مِنطقة حقويه » (إش ١١ : ١ــ٥) .

• « عزُّوا عزُّوا شعبي ، يقول إلهكم . طيبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل ، أن إثمها قد عُفي عنه ، أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها .

صوتُ صارخٍ في البرية أعدوا طريق الرب . قوّموا في القفر سبيلاً لإلهنا . كل وطا يرتفع ، وكل جبل وأكمة ينخفض و يصير المعوج مستقيماً والعراقيب سهلاً . فيعلن مجد الرب و يراه كل بشر معاً لأن فم الرب تكلم » (إش ٤٠ : ١ــ٥) .

* * *

٤ ــ الآن نحن في سنة ٥ ق . م . :

ثم أخيراً وفي ملء الزمان يكمل الوعد وتعطى إشارة البدء :

• « وفي الشهر السادس أُرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل إسمها ناصرة . إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف . واسم العذراء مريم . فدخل إليها الملاك وقال : سلام لك أيتها الممتلئة نعمة . الرب معك . مباركة أنت في النساء . فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية .

فقال لها الملاك : لا تخافي يامريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله .

وها أنت ستحبلين وتلدين إبناً وتسمينه يسوع . هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى و يعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه . ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية .

فقالت مريم للملاك : كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً .

فأجاب الملاك وقال لها : الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك ، فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله » (إنجيل لوقا ١ : ٢٦ــ٣٥) .

* * *

٥ ــ الآن نحن في سنة ٤ ق . م .(٥) « بحسب التقويم الحالي »

الميلاد العجيب : من الناصرة إلى بيت لحم :

• « فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته . ليكتتب مع مريم ، امرأته المخطوبة وهي حبلى . وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد . فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعته في المذود ، إذ لم يكن لهما موضع في المنزل » (إنجيل لوقا ٢ : ٤ــ٧) .

والسماء أيضاً تعلن الخبر السار وتميط اللثام عن سر راعي الرعاة الأعظم ، سر الدهور كلها بتهليل سمائي :

• « وكان في تلك الكورة رعاة متبدين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم . وإذا ملاك الرب وقف بهم ومجد الرب أضاء حولهم فخافوا خوفاً عظيماً . فقال لهم الملاك : لا تخافوا . فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب . إنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب . وهذه لكم العلامة تجدون طفلاً مقمطاً مضجعاً في مذود . وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماوي مسبحين الله وقائلين : المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام و بالناس المسرة » (إنجيل لوقا ٢ : ٨ــ١٤) .

إعلان الخبر في الأوساط الملكية واستقبال المخلص كملك حقيقي وتقديم الهدايا الملكية :

• « ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك ، إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين : أين هو المولود ملك اليهود . فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له .

فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه . فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح ؟ فقالوا له في بيت لحم اليهودية . لأنه هكذا مكتوب بالنبي . وأنتِ يابيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا . لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبي اسرائيل .

---

(٥) بحسب التقويم الحالي كان ميلاد المسيح متقدماً أربعة سنوات .

حينئذ دعا هيرودس المجوس سراً وتحقق منهم زمان النجم الذي ظهر. ثم أرسلهم إلى بيت لحم وقال: اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبي. ومتى وجدتموه فأخبروني لكي آتي أنا أيضاً وأسجد له.

فلما سمعوا من الملك ذهبوا، وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق حيث كان الصبي. فلما رأوا النجم فرحوا فرحاً عظيماً جداً. وأتوا إلى البيت ورأوا الصبي مع مريم أمه. فخروا وسجدوا له. ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهباً ولباناً ومراً. ثم إذ أوحي إليهم في حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس انصرفوا في طريق أخرى إلى كورتهم» (إنجيل متى ٢: ١ــ١٢).

° ° °

٦ ــ الآن نحن في سنة ٩٥ ميلادية وهو زمن تدوين إنجيل يوحنا:

وأخيراً منح الله للإنسان ممثلاً في يوحنا الرسول الإلهام الإلهي الفائق لإدراك سر المسيح الأزلي، سر الخلاص «بالكلمة» الذي كان مخفياً عند الآب، وانفتاح البصيرة لتقبُّل النور الحقيقي الآتي إلى ظلمة العالم العقلية ليقهرها وليبددها، فيدخل المسيح إلى العالم عبر الإيمان كنور حقيقي ليهب الإنسان بدء الحياة، في سر لا يُدرَك، لرحلة الخلود والعودة إلى الله.

° «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله، هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان. فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس. والنور يضيء في الظلمة، والظلمة لم تدركه.

كان إنسان مرسل من الله اسمه يوحنا. هذا جاء للشهادة ليشهد للنور ليؤمن الكل بواسطته. لم يكن هو النور بل ليشهد للنور. كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم. كان في العالم، وكون العالم به، ولم يعرفه العالم. إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله. وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه. الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل، بل من الله ولدوا.

والكلمة صار جسداً وحل فينا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» (إنجيل يوحنا ١: ١ــ١٤).

من الإحساس بالهجران إلى حياة العشرة غير المنفصلة:

وهكذا انتهى في هذا اليوم الخالد، المعبَّر عنه بـ«آخر الأيام»، **كل أحزان الإنسان السالفة وشقائه على مدى الدهور كلها، الناتجة عن عمق إحساسه بهجران الله، بسبب العداوة الكائنة في صميم كيانه البشري من نحو الله من جراء ناموس الخطية الذي سكن جسد الإنسان وتملكه واستعبده، ليصنع ما لا يريد وضد كل ما هو صالح.**

ولكن يالسعادة الإنسان، فهوذا الله يأتي إلينا بنفسه. لأنه حينما خُلق الإنسان ودُعي للوجود في حضرة الله للحياة، في نوره ومجده؛ كان مهدداً بالإنطراح خارجاً حيث الظلمة والموت إن هو تعدى وصية الحياة. وهاهوذا تعدى وانطرح خارجاً وعاش في الظلمة وعايشها وذاق في البعد عن الله الموت والذل والهوان.

أما الآن فهوذا الله نفسه يأتي إلينا يعاشرنا ويتوددنا ويلبس أضعف ما فينا وهو جسدنا، لقد انعكس الوضع تماماً، لم نعد مهددين بالخروج من حضرته أبداً وبأي حال من الأحوال، فهو نفسه الذي أتى إلينا راضياً بنا ونحن في حضيض موتنا وذلنا وخطايانا، لا لكي يعيش معنا كصديق مع صديق، كما كان آدم مع الله، **بل جاء راضياً أن يحمل ثقل بشريتنا فيه، وقد اتحد بلحمنا وعظامنا، فصارمنا وصرنا منه، يحيا فينا ونحن نحيا فيه. لا نستطيع أن نخرج عنه إذ قد وُلدنا منه، وصرنا «من لحمه وعظامه» (أف ٥: ٣٠)، وارثين فيه ومعه، ولا هو يستطيع أن يتخلى عنا، فقد رفع بشريتنا معه إلى السماء، وسكب روحه القدوس في قلوبنا لكي نحيا، لا بأرواحنا فيما بعد، بل نحيا بروحه، أو بالحري بينما يحيا هو فينا هنا على الأرض يجلس بجسدنا عن يمين العظمة في الأعالي شفيعاً وضامناً لخلاصنا إلى الأبد.**

إذن فحياة الإنسان مع الله انقلبت فصارت في واقعها **حياة الله مع الإنسان**، وهذا هو الضمان العجيب الذي ضمنه لنا المسيح **بتجسده**.

كل هذا ياأحبائي عبرتُ عليه على مستوى النظر، أو بمفهوم الفكر اللاهوتي من صميم الواقع الإنجيلي، والآن علينا أن ندخل في هذا النظر الموضوعي، أو بالحري نعيش هذا الواقع الإنجيلي في حياتنا لحظة بلحظة.

فما هو معنى « الله معنا » في حياتنا اليومية ، لأنه إن لم نكن فعلاً نعيش و« الله معنا » يومياً ، إذن فما هي قيمة التجسد والميلاد ؟ علماً بأن جوهر التجسد والميلاد كما عرفنا هو « عمانوئيل » أي الله معنا ؟

خداع البصر:

« إن لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله ولا يرث الفساد عدم الفساد »

(١ كو١٥: ٥٠)

كثيراً ما نقع في خداع البصر أو خداع الفكر أنه بهذا الجسد الترابي نتصور أننا نعاين الملكوت ، فنحاول أن نطوع اللحم والدم لمتطلبات الحياة الأبدية ، فإذا كان هذا صحيحاً أو ممكناً ، فلماذا إذن الولادة الجديدة من الماء والروح التي هي الحصيلة النهائية للتجسد والفداء ؟ ولماذا أصر المسيح أنه إذا لم يولد الإنسان ميلاداً ثانياً فلن يستطيع أن يرى ملكوت الله ؟ والمولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح ؟

إذن ، فليكن معلوماً بكل يقين أن دعوتنا للحياة مع الله ، أو بالحري حياة الله معنا وفينا ، هي بالروح وليست بالجسد . الجسد تراب وإلى التراب يعود . الجسد نهايته الحتمية في القبر ولا رجاء قط في كل أعماله ، فهي في نظر الروح كخرقة مدنسة ولا رجاء قط في قوته وجماله أو صحته وجلاله . وكل اجتهاد للحفاظ على شبابه هو لهو وعبث وجهد ضائع . فالشيخوخة متربصة به ، والأمراض والخطية حليفة على طول الطريق .

ولكن بالرغم من أن الجسد مدعو للقيامة ليكون في الدهر الآتي شريكاً هو الآخر في مجد المسيح ، آخذاً بقوة القيامة صورة خالقه وبهاءه : « لأنه سيغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده » (في٣: ٢١) ؛ أقول ، و بالرغم من هذا الوعد اليقيني ، إلا أنه فيما يخص هذا الدهر فلا رجاء لنا في أجسادنا الترابية ولا طائل من ورائها ، فالقوة الإلهية والمجد والكرامة والحياة الأبدية وكل هبات الروح القدس هي للإنسان الجديد فينا الآن غير المنظور، روح الإنسان الخفي الذي خُلق لنا مجدداً في المعمودية من الماء والروح خلقاً كاملاً غير منظور، وهو نصيبنا غير الظاهر، المحفوظ لنا بنعمة الله الكلمة ، بروحه ، **لا لكي نحيا نحن بالجسد معه وحسب عن قرب مثل آدم ، بل لكي يتحد هو بنا ونحن**

نتحد به منذ الآن بالروح بسر الإيمان والكلمة ، وبسر الجسد والدم الإلهيين ، لنصير واحداً فيه .

لا أصدقاء بعد بل شركاء في جسد واحد !!

انظروا أيها الأحباء أي نعمة نحن فيها مقيمون ؟ آدم كان يحيا مع الله عن قرب ، كان له مجرد الإمتياز أن يعيش في حضرة الله يراه و يسمعه ، أما نحن الآن المولودين ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل ، أي ليس من آدم بعد ، بل المولودين من الله من الماء والروح ، المؤمنين باسمه ، فقد وهب لنا أن نأخذ روح المسيح فينا ونتحد به لنحيا ، لا نحن ، بل المسيح يحيا فينا . هذا هو غاية ميلاد المسيح ، فهذا الميلاد العجيب الذي كُني عنه بكلمة عجيبة « عمانوئيل » هو تفسيره « الله معنا » ، وهو غاية المكتوب : « والكلمة صار جسداً وحل فينا ἐν ἡμῖν ورأينا مجده » لا رؤية العين الوقتية كآدم ، بل كشركة دائمة ، رؤيا الروح بالبصيرة الجديدة حتى العمق الإلهي : « **من رآني فقد رأى الآب** » (يو١٤: ٩) ، « **أمين هو الله الذي به دعيتم إلى شركة إبنه يسوع المسيح** » (١ كو١: ٩) ، لنكون شركاء في مجده ، شركاء في مُلكه ، شركاء معه في ميراثه للآب .

إنساننا الجديد هو نصيبنا السمائي الذي لا يتدنس ولا يضمحل ، هذا الرجاء عظيم للغاية :

مرة أخرى أنبه ذهنكم أننا الآن بالإيمان عائشون ومتحدون بالروح في المسيح يسوع ، ولكن ليس عن طريق الجسد الذي بأعماله وشهواته ونزواته يسير سيراً مؤكداً إلى مصيره المحتوم في القبر، **بل نحن نعيش في المسيح ونحيا فيه متحدين بروحه القدوس بواسطة الإنسان الجديد المخلوق على صورة الله في المجد ، بسر الميلاد الجديد من الماء والروح ، هذا هو نصيبنا الإلهي الذي نعيش فيه برجاء عظيم منذ الآن على الأرض ، والمحفوظ لنا بوعد إلهي في السماء أيضاً لن يتدنس ولن يضمحل ، وليست قوة ما في السماء أو على الأرض تستطيع أن تنزعه منا .**

بنوية جديدة للإنسان في الله أقوى من بنويتنا لآدم :

يقول يوحنا الرسول مؤكداً : « أيها الأحباء **الآن نحن أولاد الله** ولم يظهر بعد ماذا سنكون ، ولكن نعلم أنه إذا أُظهر **نكون مثله** ، لأننا سنراه كما هو» (١يو٣: ٢) .

هذا القول ليوحنا الرسول هام جداً وخطير للغاية ، فهذا يدعونا بكل ثقة أن نرتكز على إيمان واثق وثيق لا يتزعزع أننا الآن أولاد الله ، كما يقول الرسول يوحنا : « أيها الأحباء **الآن نحن أولاد الله** » . هذه أول حقيقة مسيحية وأعظم هبة قد صارت لنا بتجسد ابن الله الكلمة ، أي المسيح ، وميلاده في بيت لحم . فلأنه ابن الله ولأنه أخذ منا لنفسه جسداً بشرياً كاملاً واتحد به اتحاداً أقنومياً دائماً وأبدياً ، أصبحت البشرية كلها متبنّاه في المسيح لله ، أي صار الإنسان بكل كيانه الجسدي إبناً لله في المسيح .

مرة أخرى أقول ، بتجسد ابن الله وميلاده بشرياً كإنسان وهو الله ، دخل الإنسان دخولاً حاسماً ومهيباً ، بسر لا يُنطق به ، في بنوية لله غير منفصلة وغير مائتة ، أما المعمودية ومسحة الروح القدس فهما السران اللذان يهبان هذه البنوية لله ، أي يهبان كل شخص خاص قائم بذاته طفلاً كان أو رجلاً هذه الهبة العامة العظمى ، التي صارت للإنسان عامة ، أي البنوية لله التي صارت لنا جميعاً في المسيح بتجسده .

البنوية الجديدة التي نالها الإنسان في الله ذات صفات موروثة :

ولكن مرة أخرى يفتح ذهننا يوحنا الرسول لكي ندرك أنها ليست بنوية معنوية ، كأن يقول إنسان : « أنا ابن فلان بالروح أو بالمحبة أو بالطاعة » ، بل هي بنوية « **ميراث** » ذي صفات متحدة ، كما يولد الطفل أبيض الجلد أزرق العينين من أب وأم لهما هذه الصفات ، وكما يولد الطفل أسود الجلد عريض الشفتين من أب وأم لهما هذه الصفات . **ولا يجاهد الإبن قط ليكون على شكل أبيه ، بل عليه أن يجاهد حتى لا يفقد شكل أبيه وصفاته التي ورثها منه . هكذا نحن نلنا شكل المسيح الروحي وصفاته ، وما أصبح علينا إلا أن نجاهد بكل ثقة الإيمان ومؤازرة روح المسيح أن لا نفقد ميراثنا فيه .**

اسمعوا ما يقول يوحنا الرسول : « الآن لم يظهر بعد ماذا سنكون ، ولكن نعلم أنه **إذا أُظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو** » . هذا يعني أننا الآن لا نعلم دقائق الصفات والإمكانيات والمواهب والأمجاد التي ستكون لنا عند مجيء المسيح في مجده وقيامتنا لملاقاته . **ولكن الشيء المؤكد عند يوحنا الرسول والذي يؤكده بثقة و يقين الروح القدس أننا سنكون « مثله »** . أو كما يؤكدها بولس الرسول أيضاً و بنفس القوة

واليقين : « لأنكم قد مُتُّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله ، **ومتى أُظهر المسيح حياتنا فحينئذ تُظهرون أنتم أيضاً معه في المجد** » (كو٣ : ٣و٤) .

إننا الآن حائزون على صورة المسيح وننتظر استعلانها :

هنا يؤكد الرسول أنه **بظهور المسيح ستستعلن في الحال حقيقة الميلاد الجديد الذي ظفرنا به الآن في سر ، أي بميلاد المعمودية غير المنظور من الماء والروح القدس . يوحنا الرسول يؤكد أن البنوة لله التي نتكلم عنها الآن بالإيمان والتي لا نرى شيئاً قط من ملامحها ، ستُستعلن أمجادها بصورة واضحة وحاسمة ومذهلة ، حينما نرى بأعيننا أننا مثل المسيح في المجد وفي كل شيء له عند استعلانه أي ظهوره .**

كما أخذ المسيح صورتنا في بيت لحم ، أخذنا نحن صورته في المعمودية :

ومرة أخرى حينما نعود إلى ميلاد المسيح في بيت لحم وننظر كيف نرى ابن الله صار جسداً كواحد منا ، له شكلنا تماماً وله مالنا من جسد ونفس وروح وعقل وحواس وكل شيء « ما خلا عيب الخطيئة » ، علينا في الحال أن نرفع بصيرتنا الروحية العميقة لنؤمن أننا في المعمودية **حينما نولد لله نحن أيضاً بدورنا ميلاداً روحياً سماوياً من الله بسر غير منظور، نأخذ من المسيح ابن الله من الصفات والإمكانيات والقدرات والمواهب الروحية غير المنظورة وغير البشرية بالقدر وبالجرأة وبالإعجاز التي أخذ بها ابن الله ما هو من بشريتنا !!** أي نعود ونواجه الحقيقة اللاهوتية التي طالما نرددها : « أخذ مالنا وأعطانا ماله ، فلنسبحه ونمجده ونزيده علواً » (ثيئوطوكية الجمعة) . أو كما يقول الآباء : « وصار إبناً للإنسان لكي نصير نحن أبناء الله فيه ، وصار بشراً لكي نصير نحن متألهين فيه » .

كما في بساطة وفقر مذهل أخذ شكلنا ،
هكذا أيضاً في بساطة وفقر مذهل أخذنا شكله :

ثم أعود وأكرر مرة أخرى أنه بقدر معجزة ميلاد ابن الله في بيت لحم وكيف قد صار في بشرية ضعيفة مستضعفة مثلنا في كل شيء ، ببساطة وفقر وهدوء مذهل لا يتناسب ظاهره قط مع حقيقة جوهره ، هكذا وعلى نفس المستوى من الإعجاز المذهل يتم ميلاد الإنسان من الله ، من السماء ، من فوق ، بالماء ومن الروح القدس في جرن المعمودية ، بنفس

البساطة المذهلة والفقر المذهل الذي ظاهره لا يتناسب مع حقيقة جوهره .

ميلاد كلمة الله الأزلي ميلاداً آخر في ملء الزمن ،
أعطانا نحن الترابيين ميلاداً آخر في ملء الخلود :

ثم لو استطعنا في تأمل عميق أن نضع تجسد أقنوم ابن الله ، السر المخفي والمكتوم منذ الدهور ، مولوداً على الأرض ظاهراً وملموساً في بيت لحم ، جنباً إلى جنب مع ميلادنا غير المنظور الروحي الجديد من الله من السماء في جرن المعمودية ، فماذا نرى ؟

أقول ، لو استطعنا ولو إلى لحظة أن نلمح مقدار الترابط العجيب والمدهش حقاً بين تجسد ابن الله مولوداً من عذراء ميلاداً جسدياً آخر غير ميلاده الأزلي ، وميلادنا نحن الروحي السمائي ميلاداً آخر من الماء من بطن الكنيسة ومن الروح القدس غير ميلادنا الجسدي العتيق ، لعثرنا على التبادل المدهش الذي صنعه المسيح في نفسه ، ليعطينا بميلاده الثاني الجسدي ميلادنا الجديد السمائي ، ليعتقنا من ميلادنا الآدمي الذي فسد ولم يعد يصلح للوجود والحياة مع الله ، بل ولعثرنا أيضاً وفي الحال على علة وجودنا وإيماننا الوثيق بالتجسد و بالكنيسة و بالروح القدس كمصدر جديد و باب مفتوح وطر يق حي يرفعنا رفعاً إلى الحياة الأبدية للوجود مرة أخرى مع الله ، بلا ثمن ولا فضة بلا دموع ولا تنهد ولا عرق الجبين !! أو بتعبير عملي نقول : إن ميلاد المسيح في بيت لحم هو بابنا المفتوح عَبْر طريق الجلجثة للحياة مع الله ، أو بالأحرى لحياة الله معنا .

الإتحاد الأقنومي الوثيق بين اللاهوت والناسوت في المسيح ،
ضمن لنا وجوداً وحياة أبدية مع الله بلا تهديد !

ليس كما كان آدم يحيا قديماً تحت تهديد الوصية بالحرمان والطرد والموت ، بل إنه طالما قد تم الإتحاد بين الله وجسد الإنسان في تجسد المسيح وميلاده ، وطالما أن هذا الإتحاد غير قابل للإنفصال أبداً وبأي حال من الأحوال ، هكذا ضمن المسيح بتجسده وميلاده في عالمنا ومن لحمنا ودمنا عهداً أبدياً أن نحيا مع الله أو بالحري يحيا الله معنا بلا أي تهديد ، لأنه هو هو الذي أتى إلينا متحداً بنا بروحه في شخص يسوع المسيح ، عندما عز علينا واستحال استحالة أبدية أن نذهب إليه بأجسادنا الترابية . هذا هو تفسير التجسد وقوة ميلاد المسيح « عمانوئيل » أي الله معنا !!

العودة إلى الله هي رجاء حي دائم إلى الأبد :

هذا رجاء عظيم أيها الأحباء أن نعود إلى الله ، أو بالحري يعود الله إلينا بهذا اللطف والوداعة وهذه البساطة المتناهية ، حيث تبدأ المصالحة العظمى بين الله والإنسان في بيت لحم بهذه الصورة في قامة الطفولة التي ارتضى الله أن يتراءى بها أول ما يتراءى في وسطنا ، وعلينا أن نتيقن أنها نفس الصورة المطلوب منا أن نتلاق فيها مع الله بالروح كشرط أساسي للدخول إلى ملكوت الله : « إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأطفال فلن تدخلوا ملكوت السموات » (مت١٨ : ٣) .

وتعبِّر الكنيسة عن هذه العودة كل يوم في لاهوتها الطقسي ، أثناء التبخير في رفع البخور في الكنيسة ، حينما يتجه الكاهن ناحية الغرب في الخورس الثاني — والغرب في الرمز الطقسي يشير إلى مكان الجحيم حيث نفوس الذين كانوا ينتظرون الخلاص — و يقول : « فتح باب الفردوس وردَّ آدم إلى رئاسته مرة أخرى » !

وهكذا لم تكف الكنيسة عن تذكار هذا الرجاء ، رجاء العودة الدائمة لآدم و بنيه ألفي سنة لتقرر لنا حقيقة قائمة لنعيش بها يوماً بيوم .

التجسد كحقيقة لاهوتية هي مصدر ثقة وشجاعة ، تبدد كل خوف في جهادنا :

هكذا صار التجسد إمكانية فائقة للعودة بالإنسان إلى الحضرة الإلهية ، في هدوء كهدوء الفجر عندما سمعت أول صيحة للطفل يسوع وهو في حضن أمه . ولكن كما سبق وقلنا إنها عودة بملء الحب وملء الرجاء ، بلا خوف . فالمبادرة التي أتمها الله في بيت لحم كفيلة حقاً أن تبدد الخوف ، أي خوف ، عند محاولتنا كل لحظة للدخول والترائي أمام الله بالتوبة ، لأن الله لن يندم قط على ما أقدم عليه ولن يتخلى عن الجسد الذي أخذه لنفسه .
كما نطق زكريا الكاهن وهو ممتلىء من الروح القدس — والمسيح جنين في بطن العذراء — وقال : « مبارك الرب إله إسرائيل **لأنه افتقد وصنع فداءً لشعبه ، وأقام لنا قرن خلاص** في بيت داود فتاه ، كما تكلم بفم أنبيائه القديسين الذين هم منذ الدهر **خلاص من أعدائنا ومن أيدي جميع مبغضينا** ليصنع رحمة مع آبائنا و يذكر عهده المقدس ، القَسَم الذي حلف لإبراهيم أبينا **أن يعطينا أننا بلا خوف ,, منقذين ،،** (لاحظ أن الفعل — مُنقَذين — هنا في صيغة الحال) **من أيدي أعدائنا** . نعبده بقداسة و برقدامه

جميع أيام حياتنا » (لو١ : ٦٧–٧٨) .

بالتجسد أكمل الله وعده الأول « نخلق الإنسان على صورتنا كشبهنا » :

يا أحبائي أنبه ذهنكم أن رجاء العودة إلى الله الذي نتكلم عنه ، ليس هو رجاء يختص بالمستقبل نتوسله ونتمناه بدموع وخوف ، بل هو رجاء حي بحياة المسيح الذي تجسد في لحمنا ودمنا ، وهو قائم ودائم لنا وقد تم بقيامة المسيح . لأن المسيح وُلد فينا وقام بنا ، فضَمِنَ لنا ميلاداً من الله مجاناً وحياة مع الله إلى الأبد بلا انزعاج ولا خوف كالذي أجراه في نفسه من جهتنا .

فنحن في المسيح المولود في بيت لحم قد حسبنا في الحال وإلى الأبد أنسباء بل أقرباء كأهل في بيت الله ، لأنه قد صار لنا بكراً بين أخوة وصار مشابهاً لنا في كل شيء ، و بالصليب والجسد والدم صرنا لا أقرباء وحسب بل متحدين به كأعضاء في الجسد عينه ، لنا نفس الصورة والشبه ، إن حياتنا مع الله قد صارت في الحقيقة حياة في الله ، مكتملة الصورة والشبه كقصد الله منذ البدء تماماً ، بواسطة المسيح . هذا رجاء عظيم **لا نترجاه كأنه بعيد عنا ، بل نحياه ، لأن المسيح وروح المسيح فينا وقد شكل حياتنا بالفعل لنكون على شكله ، والذي قدمه لنا الله في إبنه لن ينزعه منا قط .**

حصولنا على صورة الله ومثاله ، مجدداً ، بالإيمان بالمسيح والمعمودية ، يعطينا شجاعة وقوة لممارسة حياة القداسة :

ولكن يوحنا الرسول يرتفع مرة واحدة بهذا الرجاء القائم فينا ، ليصيره لنا قوة مستمرة وفعلاً دائماً فينا ، قوة نهزم بها الخوف ، وفعلاً نجري بواسطته تقديساً متواصلاً للحياة التي نحياها في الإيمان : يقول يوحنا الرسول في رسالته : « أيها الأحباء **الآن نحن أولاد الله** ، ولم يظهر بعد ماذا سنكون ، ولكن نعلم أنه إذا أُظهر **نكون مثله ، لأننا سنراه كما هو وكل من عنده هذا الرجاء به يطهر نفسه كما هو طاهر** » (١يو٣ : ٢–٣) . وهنا يلمِّح لنا يوحنا الرسول أن التطهير والتقديس نستمده بالصورة التي في المسيح « **كما هو طاهر** » .

نحن الآن لا نجاهد لنأخذ صورة الله بل نجاهد لنحتفظ بها :

مرة أخرى أكرر أن الإبن لا يجاهد قط ليكون على صورة أبيه ، بل ولا يستطيع ، ولكن

كل المطلوب من الإبن أن لا يشوه صورة أبيه التي فيه ، هكذا بقدر تدقيقنا في الحياة ، في السلوك ، في الكلام ، في التفكير ، **بحسب وصية المسيح في الإنجيل و بقوة الرجاء الذي لنا** ، نحتفظ بصورة المسيح التي خلقها فينا الله ، في ميلادنا السري من فوق ، ونحتفظ بكل النعمة و بالروح القدس الذي سكبه الله في قلوبنا ليعطينا كل صفات المسيح « بالرجاء خلصنا » (رو٨ : ٢٤) .

فرق عظيم وشاسع بين أن نجاهد لنكتسب فضائل لأنفسنا ، و بين أن نجاهد لنعلن عن صورة المسيح فينا وعمل النعمة والروح القدس الذي وهبه لنا . بولس الرسول يصرخ لتيموثاوس **أن « اضرم الموهبة التي فيك » (١تي ٤ : ١٤ ؛ ٢تي ١ : ٦) !! وكأن المسيح نار داخل تيموثاوس قد نعس عن النفخ فيها بالصلاة لتتقد . ليس مطلوباً منا أن نحصل على نار جديدة من السماء ولا أن نحصل على ذهن جديد وعيون جديدة لنرى الرب ، بل يؤكد لنا بولس أننا قادرون جميعاً بالنور و بالنار التي فينا أن ننظر إلى الرب بوجه مكشوف « أي بدون برقع الناموس » كما في مرآة لنتغيَّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح** (٢كو٣ : ١٨) .

هنا قوله « **كما في مرآة** » **يؤكد لنا تماماً أننا حاصلون في أنفسنا على صورة المسيح تماماً** ، ولا يحرمنا من التحول إلى هذه الصورة إلا عدم اضرام الموهبة وما يتبعها حتماً من برودة الروح ، وضعف الرؤيا ، والحجاب المظلم ، الذي يصير على أعيننا ، من جهة ضعف الإيمان والخوف وعدم التصديق وإهمال عمل الروح القدس .

يوحنا الرسول يستحثنا أن نستخدم هذا الرجاء الذي أُعطي لنا بتجسد المسيح الذي به صرنا أولاد الله ، وأننا مزمعون أن نكتشف بظهور المسيح كيف أننا صرنا مثله ، وأننا سنراه كما هو — أي في ملء مجده — بسبب الشركة التي منحها لنا معه في كل شيء حتى مجده . هذا الرجاء في نظر يوحنا الرسول ، قوة بحد ذاتها قادرة أن نستخدمها في تطهير ذواتنا من الخوف والشك وكل أعمال الظلمة الكاذبة ، **ووقوفنا في وجه كل محاولة من الشيطان لإخراجنا من دائرة هذا الرجاء** . يوحنا الرسول يؤكد أننا بهذا الرجاء نستطيع أن نطهر ذواتنا ونطهر عيوننا وإرادتنا منذ الآن ، لكي نؤهَّل أن نراه كما هو ، وهذا لا يحصل عليه إلا من صار مثله . فرق بين إنسان يحتفظ بعينيه سليمتين صحيحتين تماماً ، فيرى الوجوه

الجميلة كما هي ، وإنسان أهمل عينيه فلم تعودا تبصران الوجوه الجميلة إلا كأشباح لا جمال ولا منظر لها .

هكذا فليكن معلوماً لنا أن الله وهب لنا بواسطة المسيح كل المواهب وكل الصفات ، لكي نكون مثل المسيح في كل شيء ، ولنراه كما هو تماماً كما شاء أن يكون لنا ، لنستطيع أن نكون وارثين معه في كل ما لله أبيه . و بالتالي أن نراه كما هو ونكون معه في مجده ونرى به الآب أيضاً .

لقد سلم لنا المسيح كل هذا الرجاء بكل وضوح وثقة في الإنجيل ، لنجاهد حتى تُستعلن صورته فينا التي وهبها لنا بعمل الروح القدس ، بل وقد أضاف الله أن وهب **إنساننا الجديد هذا ، أن يتجدد للمعرفة كل يوم ، بل كل لحظة ، ليكون حسب صورة خالقه !!** (كو٣ : ١٠) .

هذه هي عطية ومحبة الآب لنا في معجزة المسيح العظمى في بيت لحم .
هذا هو سر مشاركة ابن الله لإنسانيتنا ، وهذا هو تفسير عمانوئيل الله معنا .

(يناير ١٩٧٨)



وُلد لكم اليوم

يقول الملاك للرعاة : « **إنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلِّص هو المسيح الرب** » (لو٢ : ١١) .

و يقول اشعياء النبي عن هذا الحادث عينه : « **لأنه يولد لنا ولد ونُعطى ابناً وتكون الرياسة على كتفه ويُدعى إسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام لنمو رياسته وللسلام لا نهاية ، على كرسي داود وعلى مملكته ليثبتها و يعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد** » (٩ : ٦ـ٧) .

تأملنا في العام الماضي في علاقتنا بيسوع الطفل علاقة إختبارية عشنا بها هذه السنة ، وأشهد أنها كانت ذات أثر فعال فينا وفي كل من اتصل بنا .

نريد أن نتأمل معاً في هذا العيد علاقتنا بهذا الميلاد السعيد ، لأنه كما سمعتم من الملاك ومن اشعياء النبي أن المولود هو لنا وأنه إبننا : « نعطى إبناً » فهو حادث سعيد يخصنا جداً كما يقول الملاك : « هاأنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب » (لو٢ : ١٠) .

ولكي أستوفي علاقتنا بهذا الميلاد حقها من الفرح العظيم كاختبار نعيشه ، يلزمني أن أعود بكم وأصوِّر لكم المواليد السابقة لكل العظماء السابقين ، فإبراهيم أب الآباء وُلد في يوم من الأيام في أور الكلدانيين ، وجاء الخبر إلى أبيه تارح ، وفرح تارح (ولم تفرح البشرية) ، ثم مات تارح ومات ابراهيم و بكاه ولداه اسحق واسماعيل ودفناه في مغارة المكفيلة . وكذلك كان مولد اسحق وموته ، فرح وحزن متلاحقان ، كذلك مولد يعقوب والأسباط . و يوسف وموسى أعظم قائد عرفه التاريخ سار بأمة ٢ مليون في برية قفر أربعين سنة ، و يشوع وجميع الأنبياء : فرح يوم الميلاد ، ونواح وعويل كثير يوم الممات !

كل البشرية ، كل أولاد آدم ماتوا ، ماتوا جميعاً ، وكان الحزن على موتهم أضعاف أضعاف الفرح في مولدهم ، لأن فرح الميلاد إلى يوم ، أما الحزن على الميت فإلى أيام كثيرة . و يقول الكتاب عند موت يعقوب أنه « بكى عليه المصريون سبعين يوماً » (تك ٥٠ : ٣) . هذا في مصر ثم أخذوا يعقوب إلى أرض كنعان ، وعند دفنه في مغارة المكفيلة عادوا « فناحوا هناك عليه نوحاً عظيماً وشديداً جداً » (تك ٥٠ : ١٠)...

هذا هو ميلاد يعقوب اسرائيل وهذا هو موته . وهذا هو الإنسان عامة حزنه أكثر من فرحه مائة ضعف . ولا يخلو الكتاب من نبي لعن يوم ميلاده عندما أراد الملك ورؤساء الكهنة خنق كلمة الحق في فمه التي كانت تغلي في عظامه .

ولكن من الأمور العجيبة والمفرحة جداً يا أحبائي ، أن ميلاد المسيح هذا الذي تم في آخر الأيام كنهاية لكل ميلاد ، ثبَّت كل هذه المواليد السابقة وجعلها نقطاً مضيئة في تاريخ الخلاص !! ولو لم يولد المسيح لبقيت هذه المواليد نكرة لدى العالم كله . فكل هذه المواليد التي لكافة الآباء والأنبياء والعظماء كانت تستمد وجودها وكيانها وعملها ونعمتها من هذا الميلاد الفائق . لقد وُلدوا على رجاء وماتوا على رجاء ، حتى ولد الرجاء الذي لا يموت قط ...

ولكن اليوم يبشِّرنا الملاك : « هاأنا أبشركم بفرح ، بفرح عظيم يكون لجميع الشعب . إنه وُلد لكم اليوم مخلص هو المسيح الرب » (لو٢ : ١٠ــ ١١) . إنها أول مرة في تاريخ البشرية أن يبشَّر بميلاد مخلِّص هو المسيح الرب ، ثم أول مرة يقال أنه « وُلد لنا » وفي مكان آخر « نوراً للأمم ومجداً (عهداً) لشعبك اسرائيل » .

هنا أريد أن أنبه ذهنكم وأُركز بشدة على قول الملاك واشعياء النبي « أنه وُلد لكم » ، « يولَد لنا » بمعنى أن الطفل المولود ، كونه يخصنا أو أنه بتعبير اشعياء النبي « نُعطى إبناً » ، هو من صميم كياننا ، وفي نفس الوقت هو رب ومسيح . فالمولود ينبغي أن يكون موضع فرح عظيم ، مولودنا و يبقى معنا إلى الأبد .

الصورة التي يريد أن يصورها الوحي الإلهي ، إن كان من فم الملاك أو فم اشعياء

النبي هي وكأننا جميعاً ــ أي البشرية ــ أمٌ عاقر ، أو مصابة في كل أولادها الذين تلدهم ، فإنهم يموتون ولا يعيشون ، أو كأنهم يولدون يموتوا سريعاً ، أو ربما بأقصى عمق في التعبير أن البشرية كانت تلد أمواتاً أو تلد الموت ذاته عنصر اللعنة الأولى !! فكان الفرح بميلاد الإنسان ، كل إنسان ، فرحاً عابراً أو كاذباً يكذبه نواح الموت الشديد والسواد الذي يغطي كل البيت !

ولكن جاء اليوم السعيد حقاً في عمر البشرية الذي فيه يولد لنا ولد ونُعطى إبناً من السماء يبقى لنا إلى الأبد ، وكأننا نحن ــ أي كل البشرية ــ حملنا به دون أن ندري ، ومخضنا به دون أن نشعر ، ثم وُلد بمرأى من الملائكة ميلاداً عجيباً حقاً ، اشتركت فيه السماء والأرض معاً ، « من الروح القدس والعذراء مريم معاً » ــ أو كما يقول لحن « بي چين ميسي » البديع الذي يقال رداً على قراءة السنكسار [ياللميلاد البتولي . ياللطلقات الروحانية . ياللعَجَب العُجاب . كقول الأنبياء] .

وميلاده من الروح القدس يشير بوضوح أنه ابن الله ، وأما ميلاده من عذراء لم تعرف رجلاً فيعمِّق حقيقة المولود أنه ابن البشرية جمعاء من حيث الجسد « ابن الإنسان » . هنا يتحد إعلان الملاك « وُلد لكم » مع نبوة اشعياء « يولد لنا ولد ونعطى إبناً » في تصوير مبدع للبشرية كأم عاقر انفك عقمها من السماء في شخص العذراء ، فولدت إبناً للحياة ، وهو الحياة ذاتها أتى من السماء و يعود إليها ، لا يسود عليه الموت أو التراب بل يطأه بقدميه ، لأنه هو القيامة والحياة ، يقوم ويخلِّص أسرى الموت ، والذين في القبور أنعم عليهم بالحياة الأبدية !!

لهذا ظهر الملاك وجمهور جند السماء يوم ميلاد المسيح ممجِّداً الله ومطوِّباً البشرية معاً « المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة » ، ظهر بالبشرى السعيدة « هاأنا أبشركم بفرح عظيم » . فرح عظيم حقاً لأنه لن يلغيه حزن الموت عليه ، بل ستثبته القيامة لحياة أبدية . فلم يعُد في المسيح حزن على موت ، بل صار للموت مع المسيح رجاءٌ وفرحٌ أعظم من فرح الميلاد ، بقدرما أن القيامة أعظم من ميلاد الجسد .

أنظر كيف كان يستقبل الشهداء يوم استشهادهم بالفرح والتهليل ، وكأنهم في عيد ، ثم أنظر كيف نعيّد نحن ليوم استشهادهم باعتباره يوم ميلادهم .

ميلاد المسيح نقلنا من الخوف العظيم إلى الفرح العظيم :

تقول البشارة : « وإذا ملاك الرب وقف بهم ، ومجد الرب أضاء حولهم ، فخافوا خوفاً عظيماً » (لو٢ : ٩) .

لماذا هذا الخوف ؟ لماذا يخاف رعاة بسطاء طيبون من ظهور ملاك ومن حضور مجد الله ؟

إن هذا القول لمحزن ومؤسف للنفس أشد الحزن والأسف ، هل لأن مجد الرب أضاء حولهم يخافون خوفاً عظيماً ؟ ما كان ظننا هذا !!

ولكن هذا هو ميراث الإنسان الأليم وخبرته المحزنة مع الله التي ورثها من آدم « فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت ؟ فقال له (آدم) سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت !! » (تك٣ : ٩ ، ١٠) .

هذه هي أول خبرة الخطية أي رعبة الخوف والإختباء من الله ، التي تغلغلت في أعماق ميراثه النفساني والعصبي ، الخوف من مجرد ظهور الله أو سماع صوته !! ومع الخوف تلقائية سريعة للإختباء ، هذا هو سر هروب الناس من الكنائس أو من الصلاة ، وذلك واضح كل الوضوح أنه بسبب الخطية الرابضة في أعماق اللاشعور والإحساس بعصيان أوامر الله . وهكذا صار كل عصيان لصوت القدوس يعقبه عري ، عري جسدي ونفسي . فالنفس بالخطية أي بالعصيان تنفصل عن الله وتتعرى من غطاء ستر الله المنير الذي هو الحق والقداسة والكمال ، و بالتالي أو بالضرورة تستجيب الحواس الجسدية لهذا الخوف فيظهر الجسد الترابي بعوزه ونقصه مر بوطاً بغرائزه منفصلاً عن مصدر كماله وقداسته ونوره . هذه هي أول درجة دخلها الإنسان في خبرة الخوف ، وهي الخوف المرعب من ظهور الله بسبب الشعور بالتعري الداخلي والخارجي بسبب الخطية .

أما الدرجة الثانية ، أو ما نسميه بالدينونة ، عندما نطقها الله في وجه آدم « ملعونة الأرض بسببك ، بالتعب تأكل كل أيام حياتك ، حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها » (تك٣ : ١٧) . و بعد سماع الحكم مباشرة نفذ النطق الإلهي وطُرد آدم وإمرأته من أمام وجه الله ، وقد يظن أحد أن هذا حدث لآدم فقط ، ولكن يلزم أن ندرك أن كل ما حدث لآدم صار ميراثاً للبشرية كلها في صميم كيانها النفسي والجسدي .

صدقوني ياأحبائي ، أنه لو سمع أي ولد مثل هذا الحكم من أب جسدي ، فإنه يرتعب ارتعاباً وخصوصاً إذا وجد أحد الخدام يمسك بيده ليخرجه من البيت إلى الأبد !! هذه هي رعبة الدينونة في الخوف .

أما الدرجة الثالثة ، فهي خبرة الموت وكانت أول خبرة هي رؤية آدم وحواء ثمرة الخطية والدينونة ، إبنهما هابيل واقعاً على الأرض ميتاً مقتولاً بيد أخيه قايين ، لقد حبلت حواء بالخطية فولدت موتاً . إنها أول مواجهة للإنسان تجاه حقيقة الموت . إنها رعبة فوق ما يتصور الإنسان يقول عنها القديس بولس الرسول : « فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً فيهما ، لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس ، و يعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية (عبودية الخوف من الموت) » (عب٢ : ١٤ ، ١٥) .

إن رعبة الموت مرعبة للغاية ، لأن فيها يحس الإنسان الواقف أمام الميت بفقدان كيانه هو ، مدركاً في الحال مصيره المحتوم . لذلك أصبح الإنسان عبداً ذليلاً رعديداً للموت ولأخبار الموت ولكل ما من شأنه يؤدي إلى الموت !

الآن ندرك سر ذلك « الخوف العظيم » الذي عصف بالرعاة عندما أضاء مجد الرب حولهم وسمعوا صوت الملاك !! كذلك ندرك سر أي خوف أو رعبة تنتابنا من الوقوف في حضرة الله . إنه لا يزال لم يولد لنا ولد ولم نُعط إبناً هو المخلّص ، المسيح الرب .

وهذا هو سر رعبة الرعاة يوم البشارة بسبب حضور الرب . وهنا مقارنة غاية في القوة والشمول نسمعها مرة أخرى من فم الملاك : « وكان في تلك الكورة رعاة متبدين

يحرسون حراسات الليل على رعيتهم ، وإذا ملاك الرب وقف بهم ومجد الرب أضاء حولهم ، فخافوا خوفاً عظيماً ، فقال لهم الملاك : لا تخافوا ، فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب : إنه ولد لكم اليوم مخلّص في مدينة داود هو المسيح الرب » (لو٢:٨-١١) .

واضح جداً ياأحبائي قدرة الملاك العجيبة على إدراك سر رعبة وخوف هؤلاء الرعاة . فهو إذ يدرك سبب خوفهم العظيم يسرع فيطمئنهم « لا تخافوا مني » لقد انقضى زمان الخوف والرعبة من الله ومن منظر مجد الرب عندما يضيء أمام الإنسان ، هاأنا أبشركم بفرح عظيم يكون للجميع ، لأنه وُلد لكم اليوم مَن سيخلصكم من كل أسباب الخوف العظيم . هذا المولود ، المسيح الرب سيلغي سلطان الخطية على الإنسان و يكسر عنه شوكة الموت ، و يصالح الإنسان بالله و ينهي على الدينونة ورعبتها . إفرحوا ، افرحوا فرحاً عظيماً !! لأنه وُلد لكم اليوم مخلّص .

إنها بشارة عجيبة حقاً للإنسان البائس ، إنها نطق إلهي جديد وعجيب يزيل كل الآثار المرعبة للنطق الأول باللعنة والموت والطرد الذي تغلغل في أعماق نفسية الإنسان .

ياأحبائي انتبهوا ، فالملاك ينطق هنا بفم الله ، لأن حضرة الله كائنة ومضيئة مع ظهور الملاك ، انتبهوا فالله نفسه يسلم الإنسان نطقاً جديداً عوض النطق الأول لآدم ، الله نفسه يدعونا أن عوض الخوف العظيم الذي عشناه بميراثنا الآدمي ونسجته الخطية والموت والدينونة في لحمنا ودمنا ومخنا وعظامنا ، في ظلمة مرعبة هذه الدهور كلها ، نطرحه كله الآن كأمر إلهي صدر لنا اليوم بحضرة الله ونوره العجيب ، لنفرح فرحاً عظيما لأن آدم الثاني المخلِّص المسيح الرب ولد لنا اليوم ، فنلنا بميلاده بشرية مجددة فيه ، مهيأة للعودة إلى حضن الله الأبوي .

فلا رعبة في المسيح من خطية ، ولا خوف في المسيح من دينونة ، ولا رعدة في المسيح من موت . لذلك يشدو الملاك « افرحوا فرحاً عظيماً ، قد ولد المخلّص في مدينة

داود » .

ياأحبائي ، يوجد نقطتان على الأرض تخلوان تماماً من الخطية والدينونة والموت : مغارة بيت لحم ، والجلجثة .
في الأولى وُلدت الحياة ، وفي الثانية استعلنت الحياة .

وُلد لكم اليوم مخلّص :

السؤال الذي نريد استجلاء غوامضه هو: كيف أن طفلاً مولوداً يسمَّى بل و يعيَّن وهو في المهد ، مخلّصاً ؟ هذه مضادة عقلية محيِّرة لأن الطفل يحتاج لمن يعينه ويخلّصه !!

و بالرجوع إلى نبوة اشعياء تزداد المضادة حدة ولكن يصاحبها الشرح : « لأنه يولد لنا ولد ونعطى إبناً وتكون الرياسة على كتفه و يدعى إسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام ، لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته ليثبتها و يعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد » (اش٩:٦، ٧) .

هنا المضادة تبلغ أقصى حدتها وعنفها فالولد الذي يولد كإبن لنا هو هو إله قدير، وهو هو للبشرية كلها أب أبدي . يفصح اشعياء عن هذا الإعجاز غير المدرك عقلياً بقوله : « و يدعى إسمه عجيباً » .

واضح جداً ياأحبائي من هذه النبوة ومن كل ملابسات البشارة التي نطقها الملاك بحضرة الله ومن ظروف الميلاد البتولي العجيب أن هناك حدثاً إلهياً خطيراً ، وأمامنا سر تجسد إلهي ، فالولد المولود لنا من لحمنا ودمنا هو إبن الله الإله القدير، وهو نفسه سيصير للبشرية من واقع تجسده أباً لها يحمل همّها وخلاصها إلى الأبد ، قديراً في خلاصه وفدائه لجنسنا الذي اتحد به !...

ولكن أين وكيف سر الخلاص في ميلاد المسيح ؟

الإتحاد المتبادل :

واضح ياأحبائي بحسب السر الحادث أمامنا والسابق التنبوء به أن ابن الله اتخذ جسداً طاهراً من العذراء اتحد به فصار إنساناً وهو ابن العلي ، وهو بذلك يفتح الطريق إلينا لنتحد نحن به كما اتحد هو بنا لنصير فيه و به أبناء لله مولودين من الله .

فكما وُلد المسيح ابنُ الله وصار إبن الإنسان بالإتحاد بطبيعتنا التي اتخذها من العذراء ، هكذا فتح لنا الطريق لنولد نحن أيضاً من الله بالروح القدس بالإتحاد بالمسيح .

فاتحاد الله بنا فتح الطريق لإتحادنا به . هذا هو سر تهليلنا وفرحنا في هذا العيد . لقد وُلد المسيح لنولد نحن !!

هذا هو سر الخلاص الأبدي والباب والطريق . فالإتحاد الذي أكمله الله بنا في اتضاع المذود فتح الطريق أمامنا لرجاء لا ينتهي !!

ولكن من الأمور البديهية في اللاهوت العقائدي أن اتحاد ابن الله بالطبيعة البشرية يختلف اختلافاً جوهرياً عن اتحادنا بالمسيح . فإبن الله برغم اتحاده بالطبيعة الأقل لم يفقد كإله شيئاً مما كان له قط ، ولا صار ذا طبيعتين بل طبيعة واحدة للإله الكلمة المتجسد ، إله كامل وإنسان كامل بآن واحد . أما نحن فاتحادنا بالمسيح بالإيمان في المعمودية والأسرار لا يعطينا أي امتياز قائم بذاته بدون المسيح . فسنظل بشراً إلى الأبد ، لأنه اتحاد بالمشاركة . فكل الإمتيازات التي ننالها كأبناء الله ، ننالها في المسيح بالإيمان والأسرار و بدوام الشركة في المسيح ، فإذا توقفت الشركة كعلاقة إرادة ونعمة في الصميم ، توقفت كل الإمتيازات التي للخلاص وتوقفت نعمة التبني .

فاتحادنا بالمسيح لا يصيِّرنا آلهة ولا يصيِّرنا كالمسيح في جوهر طبيعته الفائقة ، ولكن يدخلنا في سر بنوّته للآب كبشر خطاة بررهم بدمه ووحَّدهم في ذاته بنعمته وتبناهم لله .

والآن تأملوا معي في هذه المجازفة العظمى التي تحملها الله بنفسه ليصل إلى عمق ذلنا وخوفنا و بؤسنا . تأملوا في هذا الطفل العريانِ الملق في مذود بهيمة من طين على حفنة من تبن .

هذا التنازل الإلهي الهائل هو لحسابنا ، هو دخول فعلي وواقعي بالألم والمعاناة ، دخول إلى شركتنا للوصول إلى حل نهائي وأبدي وكامل لقضية بؤس الإنسان وحرمانه من الفرح والنور والسلام الإلهي . هو نزل إلينا حتى إلى طين المذود ليرفعنا من ذلنا إلى مجده . إن اتضاعه يأسرنا !!

الله لم يأتِ إلى عالمنا كملاك أو كضيف عظيم غريب يسمع شكوانا ويهبنا بركاته ، وتظل طبيعتنا عاقراً كما هي تلد للموت وتحيا للألم بلا رجاء ولا معنى .

ولكن مرة أخرى ، فلنستمع لصوت الملاك المبشر وصوت اشعياء النبي « وُلد لكم »... « يولد لنا ولد ونعطى إبناً » الله ملَّكنا ذاته ، الله استأمنًا على نفسه ، فها هوذا يبدأ معنا من أول الطريق كطفل ليعيش عيشتنا ، و يذوق ذلنا ، و يعاني أعواز لحمنا ودمنا ، ويحس بآلام خطيتنا (في جسده على الصليب) و يدفع ثمنها كله عنا ، و يعبر رعبتنا من الموت ، ثم كإله يقوم و يقيم طبيعتنا معه ، ويهزم الموت و يبدد سلطان الخطية و يرفع اللعنة و يلغي الدينونة ، و يرتفع إلى السماء و يصالحنا مع الآب ، و يعلن بدء ملكوت الله على قلوب أولاد الله .

هذا هو المعنى العظيم للفرح العظيم « يولد لكم مخلِّص » لقد بدأت عظمة الجلجثة من داخل مذود بيت لحم .

ياللسيمفونية الرائعة بين طين المذود وخشبة الصليب ، بين القماط والمسمار!!

الفقر والطهارة في ميلاد المسيح :

عسير عليَّ في هذا العيد ، عيد الميلاد البتولي ، أن لاَ أعرج على مركز البتولية في هذا التلاقي العجيب بين الله والإنسان في سر التجسد .

فاليوم يستودع الله سر تجسده لعذراء طاهرة ، مريم تفك عقم حواء الذي صار لها باللعنة ، مريم تحبل بالروح القدس عوض حواء التي حبلت بالخطية وسلمت لعنتها لكل بني جنسها كقول داود في المزمور: « بالإثم حُبل بي و بالخطية ولدتني أمي » (مز٥١:٥) .

حواء حملت وولدت إبناً لآدم ليحمل لعنة أبو يه ، واليوم حملت العذراء بروح القداسة وولدت إبن الله الذي جاء ليخلّص كل بني آدم من الخطية واللعنة والموت .

المنظر أمامنا اليوم بحسب العين البشرية هو هكذا : فتاة طاهرة ، عذراء يتيمة ، لا أهل لها ولا أصدقاء ، تأوي إلى مغارة في الجبل لأنها لم تجد مكاناً واحداً في المدينة كلها ، بعد رحلة مضنية من الناصرة إلى بيت لحم ، والوقت شتاء ، وهي في نهاية شهرها التاسع وتحس بمخاض الولادة . بمجرد وصولها إلى المغارة ، لا تجد مكاناً تضع فيه طفلها ، فوضعته في مذود للبهائم بعد أن لفته بالخرق وجلست تسبح الله وتتقبل هدايا الرعاة « زبداً وعسلاً » ، فهكذا رأى إشعياء بالنبوة : « ها العذراء تحبل وتلد إبناً وتدعو إسمه عمانوئيل زبداً وعسلاً يأكل » (اش٧ : ١٤،١٥) .

هذا ما تراه عين البشر ، أما بالرؤيا السماوية ، فهنا وفي المذود الله ظهر في الجسد ، تراءى لملائكة ، سُبّح به بالمجد ، استُعلن نوراً للأمم بنجم المجوس الهادي حتى مكان الطفل .

فإذا جمعنا رؤية البشر ورؤية السماء معاً وجدنا تقابلاً مذهلاً بين مجد الله وفقر الإنسان .

وهكذا يليق فعلاً أن يتقابل الله في مجده مع الإنسان في فقره وطهره !! وما أبدعه سراً للتقابل !! إنه سيظل قانون المقابلة مع الله إلى دهر الدهور. ففي التجرد والطهارة يُستعلن الله دائماً للإنسان !! إن بروتوكول المذود والعذراء سيظل الأصول الأساسية التي تتم فيها كل مقابلة مع الله !!

نعم ، لا يمكن ولا يجوز أن نعبر على قصة الميلاد العجيب دون أن نشدّد ونؤكد أن

أول حضن بشري حمل الله هو حضن عذراء طاهرة ! وأول مكان استقبل جسد إبن الله هو مذود للبهائم ! وتمت نبوة العذراء مريم وهي لا تزال حاملاً : « لأن القدير صنع بي عظائم وإسمه قدوس ، ورحمته إلى جيل الأجيال للذين يتقونه ، صنع قوة بذراعه ، شتت المستكبرين بفكر قلوبهم ، أنزل الأعزاء عن الكراسي ورفع المتضعين ، أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين » (لو١ : ٤٩ـــ٥٣) .

ولقد ظل المسيح نفسه ينبر بعد ذلك على الفقر والطهارة في إمكانية العبور إلى ملكوت الله مراراً ، وذلك في شرح الصعوبة البالغة على الأغنياء في دخول ملكوت الله أو في أمر الذين خصوا أنفسهم من أجل ملكوت الله .

إذن ، لم يكن مصادفة ميلاد ابن الله في مذود ، أو ائتمانه العذراء على تجسده ؛ فقد كان هذا من صميم التدبير الإلهي ، وقصده المسيح لنفسه عمداً لكي ينبه قلب الإنسان إلى مكان التلاقي !!

ليس معنى ذلك أن المسيح لا يتلاقى إلا مع الفقراء والعذارى ! ولكن كل تلاقٍ مع المسيح لابد أن ينتهي إلى ذلك !! انظر كيف تلاقى مع السامرية على بئر العالم المعطشة ، هذه الخاطئة صاحبة الخمسة أزواج ، كيف تحولت في الحال إلى شبه عذراء صهيون وانطلقت مبشرة على الجبال العالية تدعو المدينة كلها إلى توبة وإلى طهارة ؟ إنه المسيح طفل المذود الإله ابن العذراء نور العالم ، الذي يستطيع من أول مقابلة أن يبدد ظلمة العقل وسلطان الخطية والنجاسة ويهبك قداسته ، و يعيد للإنسان كل ما فقده !!

ثم انظر كيف أنه لمجرد أن وقعت عيناه على ذلك اللاوي المتمرس في فنون الصيارفة من مكسب حلال ومكسب حرام ، الغني المنغمس إلى أذنيه في الأموال والأرقام ، كيف قام في الحال وألقى بكل شيء مرة واحدة وصار من التابعين الذين يقتاتون من الصندوق ، وإنجيلياً يبشر بالطوبى للمساكين .

ياأحبائي ، أنبه ذهنكم أن السامرية لم تسعَ للمسيح للتوبة وطلب الطهارة أو البشارة ، وحقاً لو حاول كل وعاظ العالم أن يدفعوا هذه المرأة الخاطئة إلى سلوك هذا

الطريق ما فلحوا !! لأن خطية النجاسة تكبل صاحبها بقيود الظلام وتوقعه تحت عبودية الشيطان المرة . فالمسيح وحده الذي قهر الشيطان وربطه ، هو وحده الذي يستطيع ذلك وهو عالم بذُلّ الإنسان ، يسبق و ينتظره على بئر الشهوة حيث يذهب مساقاً ليستقي كل يوم .

إن المسيح بدافع من شعوره بسلطان قداسته وطهره ، له دائماً سبق المبادرة مع الخاطىء . إنه على ميعاد دائماً مع فجورنا . وعند اللحظة الحرجة من الحياة يظهر لتصفية حساب الخمسة أزواج ، ليقظة الضمير ، لفك قيود الظلام وإنارة القلب وإعادة روح الطهارة وجمال البتولية ثم البشارة !!

ما أحوج العالم كله الآن إلى مقابلة سريعة مع المسيح على مستوى المذود والعذراء !!

(يناير ١٩٧٧)



إن الحياة أُظهرت ، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا

(١يو١ : ٢)

الحياة الأبدية استُعلنت لأول مرة استعلاناً محسوساً ومشخصاً بالرؤيا واللمس ، وببرهان الروح الذي يفوق كل برهان في قيامة يسوع المسيح من الأموات ، عندما قام من القبر بعد ثلاثة أيام ، وعاش وشهده تلاميذه ، فأدركوا سمو الحياة الجديدة التي فيه وانفعلوا بها أشد انفعال ، فآمنوا به وآمنوا بالحياة الأبدية ، وبشَّروا بها .

فقيامة المسيح من بين الأموات هي بذاتها استعلان للحياة الأبدية التي هي في الله وحده ، والتي كانت فيه ، والتي لم تفارقه قط حتى الموت كبرهان لا يناقض أنه ابن الله .

— « الذي كان من البدء ، الذي سمعناه ، الذي رأيناه بعيوننا ، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة .
فإن الحياة أُظهرت ، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا .
الذي رأيناه وسمعناه ، نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا . وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع إبنه يسوع المسيح .
ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً »
(رسالة يوحنا الأولى ١ : ١ـــ٤)

من ذا الذي لا يشتاق ولا يلتهب لمعرفة وتذوق هذه الحياة الأبدية ؟

حينما وُلد المسيح في بيت لحم ، أُظهرت هذه الحياة متجسدة ، فاستُعلنت ورُئيت ولُمست الحياة الأبدية ، التي كانت عند الآب مخفية .

ولكن ما قيمة هذه الحياة الأبدية ، إن كانت قد ظهرت مرة في بيت لحم منذ ألفي سنة ، إذا نظرنا إليها كحدث تاريخي ؟ هنا ينبغي أن نصحح هذه المقولة ، فالحياة الأبدية تفوق الحدث الزمني ، و يستحيل أن تدخل الحياة الأبدية إلى عالمنا وتبقى محصورة في الحدث الزمني ، بل ولا يستطيع العالم أن يحتويها .

هنا يلزمنا جداً أن ندخل في الميلاد لا كحدث تاريخي ، بل باعتباره كشفاً واستعلاناً للحياة الأبدية مشخَّصة ومتجسدة إلهياً .

إذن ، ما هو المعنى الكبير لميلاد المسيح ؟

هنا يلزمنا أن نتأمل في الحياة الطبيعية ، ونسأل هل يمكن أن توجد حياة مجردة ؟ أي هل يمكن أن توجد حياة بدون شخص ؟ أو فرد ؟ سواء كان نباتاً معيناً ، أو حيواناً معيناً ، له صفات مميزة تميزه كعضو في عائلة ، وعائلة في جنس ، وجنس في مملكة ؟

هكذا الحياة الأبدية ، لا يمكن أن توجد بلا شخص . يستحيل أن تظهر الحياة الأبدية بدون شخص ، كامل ، معروف ، محدد الصفات والمميزات . ولكن الحياة الأبدية لا يمكن أن توجد وجوداً كاملاً وهي بلا بداية ولا نهاية إلا في الله .

فظهور الحياة الأبدية في قيامة يسوع المسيح من الأموات ، أعطتنا القناعة الإيمانية القاطعة أنها كانت فيه وأنها بدأت كظهور إلهي أو ظهور الله شخصياً ، أو كما يسمى « أقنومياً » ، حينما وُلد في بيت لحم .

هذا هو ميلاد المسيح . الميلاد هنا أعمق من الحدث التاريخي بما لا يُقاس ، فالحدث التاريخي امتد إلى العمق الإلهي . كان هذا أمراً حتمياً لكي تظهر الحياة الأبدية على مستوى وعي الإنسان ظهوراً واقعياً محسوساً بالحواس ، بالرؤيا واللمس والمشاهدة ! وهذا ما يقول عنه بولس الرسول : « **الله ظهر في الجسد** » (١تى٣:١٦) . أي أن الحياة الأبدية التي كانت عند الله وفي الله أُظهرت في جسد ، أي في شخص .

وما هو قصد الله من ظهور الحياة الأبدية متجسدة ومشخَّصة ؟

واضح أن الله منذ البدء ، منذ الخلقة الأولى ، أراد أن يجعل الإنسان يحيا إلى الأبد معه ، كخليقة تابعة ، تتنعم بكل مجد الله . لذلك فميلاد المسيح له غاية واضحة محددة ، هو إعطاء الحياة الأبدية للإنسان .

ولكن كما قلنا بالبرهان الواضح ، أنه يستحيل أن توجد حياة بدون شخص ، لذلك فتسليم الله حياته الأبدية للإنسان تحتم أن يتم في شخصه المبارك ، لأن الحياة الأبدية لا يمكن أن تسكن في إنسان بدون الله .

هذا ما أحسّه بولس الرسول واقعياً في أعماق كيانه الشخصي ، إذ أحس بالحياة الأبدية تدب في كل كيانه وكل أعضائه وكل نفسه وذهنه ، ولكنها ليست مجرد قوة ، بل أحس بشخص آخر ، شخص ابن الله نفسه يحيا فيه « أحيا ، لا أنا ، بل المسيح يحيا فيَّ » (غل٢:٢٠) . هنا بولس الرسول لا يشير إلى مجرد أفكار جديدة أو تجديد ذهني أو مجرد تغيير في أسلوب الحياة ، بل يشير إلى حالة امتلاك المسيح لحياته كلها .

إذن ، فالحياة الأبدية لا يمكن قبولها منفصلة عن المسيح بأي حال من الأحوال . لهذا لكي يشترك الإنسان في الحياة الأبدية مع الله ، كان يتحتم أن تتجسد الحياة الأبدية التي عند الله ، و يولد المسيح في شخص كامل ليهب لنا ، باتحاده بنا ، هذه الحياة الأبدية التي في الله .

كيف أعطانا الله الحياة الأبدية ؟

بمنتهى البساطة وبمنتهى الوضوح والقوة وبحسب ما اختبرته البشرية ، منذ قيامة المسيح حتى اليوم ، واضح أننا تسلمنا الحياة الأبدية بدخول الرب يسوع فينا شخصياً بالروح القدس .

الروح القدس هو روح الإبن ، وهو روح الآب ، وهو أعظم عطية تكرَّم الله بها على البشرية . فبدخول الروح القدس داخلنا نحصل في الحال على شخص يسوع المسيح ،

شخص الإبن ، ومعه كل بركات البنوة في ملء الحياة الأبدية !!

إذن ، فميلاد يسوع المسيح في عمقه الروحي هو ظهور الحياة الأبدية ومعها ميراث بنوتنا الجديدة لله ، مستعلَنة ، ومحددة في شخص ابن الله .

يقول اشعياء النبي :

— « لأنه يولد لنا ولد ونُعطى إبناً ، وتكون الرياسة على كتفه و يُدعى إسمه عجيباً ، مشيراً ، إلهاً ، قديراً ، أباً ، أبدياً ، رئيس السلام . لنمو رياسته وللسلام لا نهاية ، على كرسي داود وعلى مملكته ليثبتها و يعضدها بالحق والبر من الآن وإلى الأبد »

(أش ٩ : ٦و٧)

والآن كيف يولد **لنا** المسيح في بيت لحم ؟ لا نقول : « **كيف وُلد** » ، بل « كيف يولد **لنا ؟** » لأن « **كيف** وُلد » ، هذا يضطلع به التاريخ في التسجيلات الإنجيلية معتمداً على قدرة الإنسان في تصديق الماضي . أما « كيف يولد **لنا** » المسيح ، فهذا هو الميلاد الذي يخصنا ، كل واحد باسمه وكل واحدة باسمها ، وكأنه يولد في قلب كل منا لتؤول لنا كل بركاته بقدر امتلاكنا له . هذا هو عمل الإيمان ، والإيمان هنا شيء غير التصديق .

لأن ميلاد المسيح كما قلنا ، تم بقصد إلهي جوهري ، **هو ظهور الحياة الأبدية** ، و« الحياة الأبدية » حياة وليست نظرية . الحياة لا يؤمَن بها إيمان العقل ، بل تؤخَذ ، أو بالحري تُمنَح .

ولكن سبق أن قلنا أن الحياة الأبدية لا توجد ولا تُستعلن خلواً من شخص ، بل أُظهرت واستُعلنت في شخص ، وهي هي حياة يسوع المسيح التي لُمست ورُئيت وعاينها التلاميذ الأخصاء . وأحد التلاميذ الأخصاء يحرضنا على أن نرى معه ونشاهد ونلمس بأيدينا هذه الحياة الأبدية عينها ، ليكون لنا ملء الحياة والفرح والنور والحب .

إذن ، فلكي نأخذ الحياة الأبدية يتحتم أن نأخذ الشخص حاملها ، شخص يسوع المسيح ابن الله . هنا استعلان الحياة الأبدية هو استعلان يسوع نفسه المولود في بيت لحم .

فلكي نستوعب ميلاد يسوع المسيح ، يلزمنا حتماً أن نستوعب الحياة الأبدية ذاتها ، يلزم أن نأخذها ونعيشها مشخَّصة في الرب يسوع حاملها .

فمن ذا الذي يصبح له قوة امتلاك هذا « الميلاد » الذي تم يوماً في بيت لحم ، بكل بركاته وقوته ، إلا الذي صار على مستوى الحياة الأبدية التي تم استعلانها بميلاد يسوع المسيح في بيت لحم ، وفتح قلبه لتدخله هذه الحياة الأبدية ، مستجيباً لتحريض يوحنا الرسول في رسالته « ليكون لكم أيضاً شركة معنا . وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع إبنه يسوع المسيح » (١يو١ : ٤) .

الميلاد استعلان شخصي ، بجوار أنه حدث تاريخي :

ميلاد المسيح تاريخياً هو مفهوم عام ، حدثٌ أو قصة تاريخية عامة يقبلها العامة على مستوى التصديق العام ، الكل سواء بسواء . ولكن يوجد لميلاد المسيح قوة أو مجال آخر شخصي محض ، يُستعلن فيه لكل واحد بقدر و بصورة و بعمق يختلف من واحد لواحد على قدر قامته ، أو بالحري على قدر استعلان سر الحياة الأبدية وفعلها داخل النفس ، حيث يكون الله هو صاحب المبادرة في ذلك الإستعلان .

وهكذا فإن ميلاد يسوع المسيح سيظل حدثاً تاريخياً عاماً ، قصة يقبلها الجميع بحسب دقائق الرواية وشرحها وتأويلها ، إلى أن تنفتح بصيرة الإنسان و يتقبل منها **فعل الحياة الأبدية** ، فيُستعلن له كل سر الميلاد ، وسرُّ شخص المولود الإلهي استعلاناً شخصياً محضاً .

و يلزمنا أن نعي تماماً أنه إذا كانت الغاية النهائية لكل إنسان ، أي حقيقة النهاية في السماء لكل إنسان ، هي شخصية محضة وتختلف من واحد لواحد ، فكذلك البداية ، أي بداية التعرف والدخول في الحياة الأبدية هنا .

لذلك يلزمنا أن نعرف تماماً أن الله كما سبق وقلنا هو دائماً صاحب المبادرة في استعلان حقيقة نفسه ، على أساس أن يحب و يشاء و يريد دائماً أبداً أن يعلن نفسه لكل إنسان ، مهما كانت حالته . فالله كان صاحب المبادرة لإعلان نفسه لإبراهيم و يعقوب وموسى أثناء ما كان كل واحد منهمكاً في عمله ، فإبراهيم كان يستظل تحت بلوطات ممرا (تك١٨ : ١) ، و يعقوب كان في رحلة زواج (تك٢٨ : ١٣) ، وموسى كان يرعى غنم (خر٣ : ٦) .

بل وقصة الميلاد ذاتها نجد أن الله هو الذي يبدأ و يبادر لإعلان الرعاة عن الميلاد ، وكذلك المجوس ، ولسمعان وحنة النبية .
الله دائماً صاحب المبادرة في استعلان نفسه .

فسر الميلاد أو سر استعلان الله للبشر لم يتم أبداً على مستوى **الإستكشاف** ، الله لم يقف صامتاً وترك الإنسان **ليكتشف** حقيقة استعلان الله في شخص يسوع المسيح ، بل كان الله هو صاحب المبادرة دائماً في استعلان نفسه ، ومنذ القديم جداً وهو مستمر في استعلان نفسه على فم الأنبياء قبل هذا الحدث ذاته بآلاف السنين .

وكان الله رفيقاً جداً بالإنسان ، فقد جعل مستوى استعلان نفسه ينمو و يترقى على قدر مستوى نمو وترقي وعي الإنسان وإدراكه على مدى الزمن . فكما أن الطفل يظل يستعلن حقائق هذه الحياة على قدر نموه حتى يبلغ قمة الرجولة فيبلغ قمة وعيه الخاص ، كذلك الحياة الأبدية من جهة استعلان شخص الله .

ولكن الفارق الجوهري بين إدراك هذه الحياة الأرضية وإدراك الحياة الأبدية ، كما سبق وقلنا ، أن الأولى تعتمد على تجميع الحقائق واستقراء النتائج ، أما الثانية فتعتمد على استعلان متدرج يكون الله فيه هو صاحب المبادرة . وهذا واضح غاية الوضوح حينما نقرأ عن جاني جميز (عاموس٧ : ١٤) يقع عليه اختيار الله فجأة وتنفتح بصيرته بدون مقدمات و ينقل رسالة استعلان جديد للبشرية عن ما هي الحياة الأبدية ومن هو شخص الله ، بدون أي تمهيد أو تعليم أو عوامل سابقة . وهذا أيضاً ما رأيناه في موسى

وهو سائر وراء غنماته ، ثم يرى عليقة مشتعلة ودعوة سريعة مفاجئة لمقابلة الله لإستعلان سر الخلاص بكل طوله وعمقه !!

والحال هو نفس الحال مع زكريا الكاهن ، مع أليصابات ، مع مريم العذراء ، مع يوسف ، مع الرعاة ، مع المجوس ، مع بطرس وهو يصلح شباكه ، مع الخصي وزير كنداكة ، مع شاول وهو سائر غاضباً ينفث تهدداً وقتلاً على مختاري الله !!

إذن فاستعلان الله ينتظرنا دائماً مهما كنا وعلى أي وضع نحن فيه سواء كنا نستظل تحت شجرة مثل ابراهيم أو وراء القطيع كموسى أو داود .

ولكن كيف ومتى يأتي استعلان الله ؟

هذا يتوقف أساساً على حالة الإستعداد الداخلي ومدى وصول الإنسان إلى حافة هذا العالم الآخر: الحياة الأبدية وشخص يسوع لكي يكون مهيئاً للرؤية .

° ° °

الدعوة اليوم إلى اكتساب أبعاد جديدة ووعي جديد لحقيقة ميلاد المسيح ، فهو الباب المفتوح لإستعلان الحياة الأبدية التي أُظهرت في شخص ابن الله .

ولكن ما أضيقه باباً وما أكربه طريقاً ، فالغلاف الذي ظهرت فيه الحياة الأبدية والصورة التي ظهر فيها شخص الله مخيبة لكل منطق بشري : في مذود بهائم ؟! من يصدق أن مذود بهائم يحتوي الحياة الأبدية التي هي حياة الله !! وفتاة فقيرة منهوكة القوى تحمل في صدرها الشخص الذي يحمل حياة الله ، بكل أبعادها المطلقة في الأزلية والأبدية وما وراء السماوات .

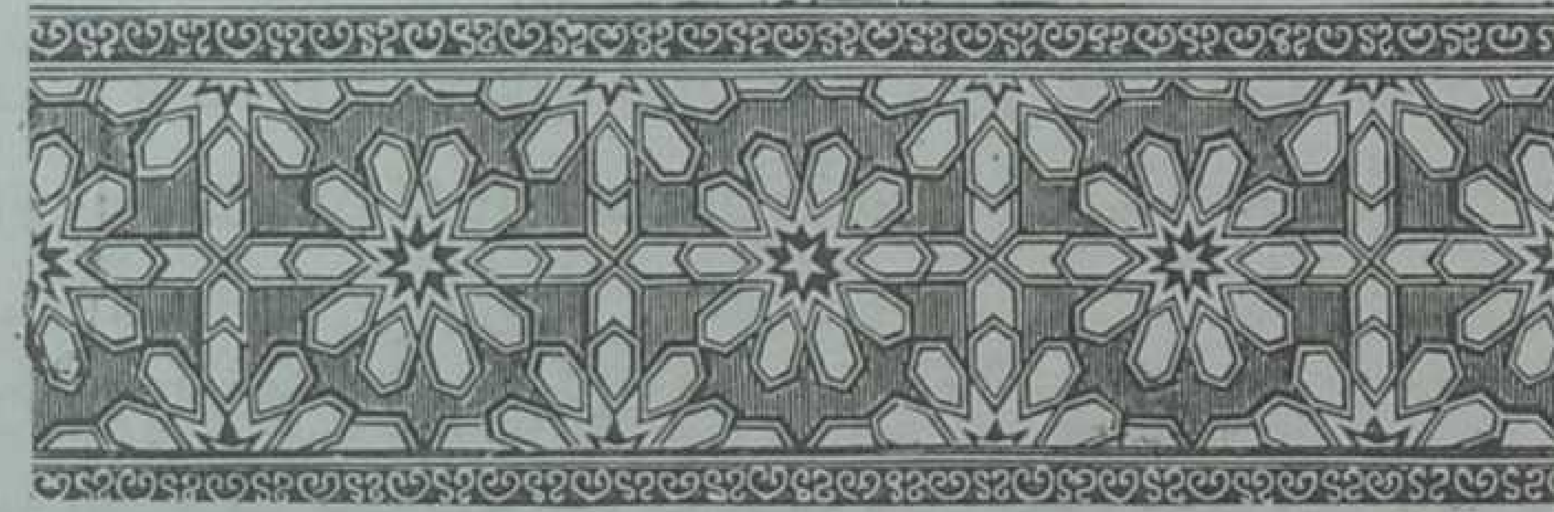
ولكن هنا نكاد نعثر على **شروط استعلان الحياة الأبدية ، والباب الذي ندخل منه إلى استعلان شخص الله** . فيبدو أنه يلزمنا اليوم أن نتخلى عن كل أصول عظمة المنطق لكي ندخل الحياة الأبدية !! يلزمنا أن نتجرد عن كل معنى لعظمة الإنسان ومواهبه لكي نواجه عظمة الله وتواضعه في شخص ابنه .

يلزمنا أن نكون على أتم استعداد لمفاجأة الإستعلان ، فالسيد الرب ، كما يقول النبي ، يظهر في هيكله بغتة والمسيح نفسه يقول أن العريس يُستعلن وسط الليل في عتمة الحياة الأرضية ، وهو لا يقرع الباب إلا بعد نهار الشقاء وأتعاب الزمن المضنية وجوع النفس .

فيا طالبي الرب ، ترجّوا المفاجأة ، وتهيأوا لها ، فاستعلانه حاضر دائماً .

و يا طالبي الرؤيا العلنية ، اسعوا بإخلاص وراء يد الله التي تلمس العين المعمية بغتة لترى ما لا يُرى .

(يناير ١٩٧٨)



الميلاد في الوجه غير المنظور

« ملكـوت الله »

مقدمة مختصرة :

العهد الجديد أو المسيحية ليست هي المقابل للعهد القديم أو اليهودية . ولكن العهد الجديد هو استعلان وتحقيق لكل وعود وأسرار العهد القديم ، ممثلة في المسيا وملكوت الله والخلاص « أقول إن يسوع المسيح قد صار خادم الختان من أجل صدق الله حتى يثبِّت مواعيد الآباء . وأما الأمم فمجدوا الله من أجل الرحمة كما هو مكتوب من أجل ذلك سأحمدك في الأمم وأرتل لإسمك . و يقول أيضاً تهللوا أيها الأمم مع شعبه . وأيضاً سبحوا الرب ياجميع الأمم وامدحوه ياجميع الشعوب . وأيضاً يقول إشعياء سيكون أصل يسى والقائم ليسود على الأمم ، عليه سيكون رجاء الأمم » (رو١٥ : ٨-١٢)

+ والكنيسة الآن في العالم وفي كل الأمم ، **هي استعلان وتحقيق آمال كل أسفار العهد القديم عن مملكة الله** ، حيث المسيح الرأس هو الذي يحكم و يدبر **مملكة الخلاص المسكونية** ، لأن كل أمل ورجاء شعب اسرائيل بكل أنبيائه وأجهزته ، كان ينتهي عند الخلاص للعالم كله الذي هو جاري الآن بواسطة الكنيسة .

كما يلاحظ أن هناك نمواً في تصوير ملكوت الله الآتى على مدى أسفار العهد القديم ، وكذلك من جهة التوضيح والتنبؤ بالمسيا .

+ لذلك في بداية استعلان ملكوت الله في أيام يوحنا المعمدان لما بدأ يكرز بالتوبة ، حدث تكتل وازدحام ، لم يسبق له مثيل في حياة كافة الأنبياء ، لأن الوعي والإحساس بقرب ظهور واستعلان الملكوت كان قد بلغ تماماً نضوجه فكان على

أشده ، وهذا الترقب والوعي نراه بوضوح في إعلان سمعان الشيخ وحنة النبية .

كما كان روح النبوة حاضراً على لسان زكريا وأليصابات و يوحنا بصورة تؤكد أن الملكوت قد صار بالفعل على الأبواب . ولكن كان يوحنا المعمدان صادقاً جداً مع نفسه وشعبه : لست أنا المسيا !!

ولا يمكن أن ننسى أنه بسبب صدق وإخلاص يوحنا المعمدان صار قبول المسيح ــ باعتباره مسيا الخلاص ــ في بدء خدمته قبولاً شاملاً ، فالجموع التي كانت ملتفة حول يوحنا المعمدان ، وحتى من أخلص تلاميذه ، تحولوا إلى المسيا . وكان يوحنا راضياً بذلك « ينبغي أن هذا يزيد وأني أنا أنقص » (يو٣ : ٣٠) .

+ لقد قبل كل الشعب المسيح بصفته **الملك** الآتى باسم الرب من نسل داود ، ليعلن بدء مملكة المسيا المعروف أنها **تدوم إلى الأبد . لذلك لما توانى هو في إعلان نفسه ، لم يتوانوا هم عن أن يحملوه ليجعلوه ملكاً بالقوة !!** ولكنه جاز في وسطهم ، لأن فهمهم للخلاص ولمُلك الله جاء ناقصاً وخاطئاً .

+ كل هذا يوضح مدى تغلغل عقيدة وإيمان ملكوت الله القادم عند كل الشعب ، حتى الأمميين منهم ، لأن للشعب دائماً حساسية مرهفة جداً من نحو عمل الله : « صوت الله من صوت الشعب » .

+ كما يلاحظ في تاريخ اسرائيل أن هناك ترابطاً قوياً بين أزمنة الأحزان والسبي وتأديبات الله المُرة ، و بين تألق الرجاء بمجيء المسيا : للخلاص . لأن من الذي يشتهي الخلاص إلا الذي يحس بمرارة السبي سواء كان بالجسد أو الفكر أو الروح ؟!!

+ لذلك لم يؤثر ما عاناه شعب الله بمرور الزمن نحو ١٨ قرناً من المآسي والآلام والمحن والإضطهادات ، فهي لم تطفىء الرجاء بمجيء المسيا في قلب الأجيال ، وترقُّب استعلان الله في شخص الملك الآتى باسم الرب الذي **سيصنع الخلاص** علانية !!

ونظرة سريعة إلى سفر المزامير عامة وخاصة في مزمور « الرب قد ملك فلتتهلل الشعوب (الأرض) » ، « الرب قد ملك فلترتعد الشعوب » تكشف مدى حرارة

الإنتظار ومحاولة رؤيا الملك القادم من خلال العتمة ، عتمة الأزمنة والحوادث .

+ وليس المزامير فقط ، بل كل النبوات لم تكف عن الإشارة إلى ملكوت الله وإلى المسيا الآتى ، ليحكم الأرض كلها بالعدل والبر . يجمع الشعوب تحت رايته ، و يضم المفديين إلى حظيرته ، والكل يسبحه ويخدمه .

ثم كلما انحرفت أخلاق الشعب وفسدت الضمائر وانقلبت الأعمدة ، أي الرؤساء ، وساءت الظروف ؛ ازداد الرجاء جداً بمجيء الملك الذي يصحح انهيار أخلاق الشعوب ، و يشفي ضربة المرض التي أصابت الشعب من جهة انحلاله الخلقي .

وتزداد النبوات إيضاحاً في بعض المواضع لتصور الله أنه هو الذي سيملك بنفسه و يضرب الأمم العاصية بعصي غضبه و يبيد المنافق بنفخة شفتيه ! و يصير الله **أباً أبدياً** للمفديين الذين يعفى عنهم ، **و يُدعى رئيساً للسلام** على الأرض !!

+ ثم يأتي المسيا و يعمل كل الأعمال المنصوص عنها . وهذا يسجله الإنجيل ، لما أرسل يوحنا تلاميذه يسألونه هل أنت الآتى أم ننتظر آخر ، أي : هل أنت الفادي والمخلِّص والشافي الذي سيملك على إسرائيل و يُخضع كل الأمم والشعوب ؟

فكان رد المسيح إذهبوا وقولوا له : إن كل الأعمال المنصوص عنها في النبوات أن المسيا الآتى سيعملها ، ها هي معمولة أمامكم : « العمي يبصرون والعرج يمشون والبرص يُطهَّرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يُبشَّرون . **وطوبى لمن لا يعثر فيَّ** » (مت١١ : ١٥) ، أي : طوبى لمن يقبل المسيح أنه هو هو ملك البر الآتى ، **« قد وجدنا الذي قال عنه موسى والناموس وكتب الأنبياء ، يسوع الناصري إبن يوسف »** (يو١ : ٤٥) .

+ لذلك فإن ملكوت الله بمعناه الروحي في العهد الجديد هو ميراث ثمين جداً استلمناه من الأنبياء ، بل هو الرجاء الغالي لكل الأجيال التي ماتت على هذا الرجاء !!

لقد كان ملكوت الله المزمع أن يعلنه و يباشره المسيا الآتى هو أعمق وأغلى أمل عند الجميع ، لا الأنبياء وحسب ، بل وكل الربيين والمعلمين وكل الشعب ، وعلى

أساس ملكوت الله الآتي ، كانت تُشرح الأسئلة و يُرد على كل استفسار: « وقالت المرأة (السامرية) : أنا أعلم أن مسيا الذي يقال له المسيح يأتي . فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء » (يو ٤ : ٢٥) .

الوجه المنظور للميلاد :

لقد اعتدنا أن نركز تأملاتنا السابقة عن الميلاد ، فيما تم على مستوى الرؤيا والتاريخ ، فالكلمة صار جسداً ورأينا مجده ، والحياة أُظهرت ، ورأيناها بعيوننا ولمسناها بأيدينا ، والله ظهر في الجسد .

والرعاة أخذوا من السماء إشارة مسموعة وتصريحاً للزيارة ليروا الآية في المغارة طفلاً مقمطاً ومضجعاً في المذود بإعلان رسمي أنه هو الذي يخلّص شعبه من خطاياهم ، والمجوس جاءوا من سفر بعيد للغاية ، يرشدهم نجم سمائي تحركه القوة العلوية ، لكي تأتي الشهادة لمخلّص العالم من خارج إسرائيل ، عندما أخفق الرؤساء والربيون في المعرفة والشهادة لمخلصهم .

الوجه غير المنظور لميلاد المسيح
خلاصٌ ومُلكٌ أبدي :

ولكن اليوم نريد أن نتأمل فيما حدث في يوم ميلاد المسيح من الوجه الآخر غير المنظور، والذي تبَرهن على مسرح التاريخ والزمن بقوة فائقة ، كما تبرهن لدى الرسل والقديسين والكنيسة كلها ، أن المولود هو بالفعل الملك الآتي ، المخلّص ، والفادي ، الحامل « لمفتاح » بيت داود الذي يغلق ولا أحد يفتح ، و يفتح ولا أحد يغلق ، الذي هو ملكوت أبدي ما لن يزول ، كما رآه دانيال النبي (سفر دانيال ٦ : ٢٦) .

هذا الوجه الآخر قد حدث بميلاد المسيح ، **إذ تمّ في المسيح وعد الله ببدء أزمنة الخلاص ، واستعلان ملكوت الله على الأرض الذي يسوسه و يدبره** ، الذي طالما تكلم عنه الأنبياء بلا ملل ؛ أما **الخلاص** فشهد له جمهور جند السماء « **يولد لكم اليوم مخلّص** » . وأما « **المُلك** الأبدي » فشهد له المجوس « **أين المولود ملك**

اليهود ، قد جئنا لنسجد له » .

إذن نستطيع أن نتحقق في الوجه غير المنظور ليوم الميلاد : سقوط عروش وقيام عروش ، وانتهاء أزمنة وابتداء أزمنة ، كما قالت العذراء القديسة مريم في تسبحتها الخالدة : « **أنزل الأعزاء عن الكراسي ورفع المتضعين** » ، « **صنع قوة بذراعه** » (**لو ١ : ٥١ و٥٢**) . وكما صرح ملاك البشارة بكل وضوح وجلاء « هذا يكون عظيماً وابن العلي يُدعى ، و يعطيه الرب الإله **كرسي داود أبيه و يملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لمُلكه نهاية** » (لو ١ : ٣٢ و٣٣) .

عجيب أيها الأحباء ، أن يُعلَن ملكوت المسيح الخلاصي ، والمسيح في البطن قبل ميلاده ، بهذا التأكيد المتعدد الجهات من ملاك البشارة مسبقاً ، ثم من العذراء وهي في بدء حملها ، ثم من زكريا الكاهن وأليصابات .

ثم يتأكد مرة أخرى في يوم ميلاده ، من الملائكة وجمهور جند السماء والمجوس الذين تحملوا مشقة السفر الطويل ، لكي يروا ملك اليهود و يسجدوا له و يقدموا هدايا تعبّر عن يقين إيمانهم بملكوته .

تركيز المسيح المتواصل على حقيقة الملكوت :

إذن ، فالوجه الآخر لميلاد المسيح الطفل وهو مقمط ومضجع في مذود ، هو هذا **الملكوت المعلَن من السماء ومن الملائكة والحكماء** ، الذي وُلد المسيح ليفتتحه و يدبره لحساب الإنسان .

فالمسيح وُلد وعلى كتفه مفتاح بيت داود ، كقول ملاك البشارة للعذراء : « و يعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه . ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية » (لو ١ : ٣٣) .

لذلك يلزم أن نثبت ذهننا على هذا الوجه الآخر، لأنه محور الميلاد وجوهره الذي إذا دققنا في قراءتنا للإنجيل ، وجدنا أن هذا الوجه الآخر يظل هو الأقوى والفعّال على مدى الإنجيل وكل الأسفار.

فلم يركز المسيح في أقواله وأمثاله في شيء أو على شيء ، كما ركز على ملكوت الله !! بل وكان ملكوت الله موضوع بداية كرازة المسيح « من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز و يقول توبوا لأنه قد **اقترب ملكوت السموات** » (مت ٤ : ١٧) .

ولو تذكرون حوادث الإنجيل ، نجد أن في ختام تعاليم المسيح بعد القيامة ، وعلى مدى الأربعين يوماً التي كان يظهر فيها لتلاميذه ، كان المسيح « **يتكلم معهم عن الأمور المختصة بملكوت الله** » (أع ١ : ٣) . وأظنكم تذكرون جيداً على مدى الإنجيل **أمثال المسيح عن ملكوت الله** ، التي حاول الرب فيها أن يشرح و يصف ملكوت الله الذي لا يُشرح ولا يوصف ــ بكافة أنواع الأمثال والأوصاف .

ومن اهتمام الرب بتقديم هذه الأمثال المتعددة الأوصاف للملكوت ، يتضح أمامنا خطورة مفهوم الملكوت كما يراه المسيح ، فلم يكن مثلٌ واحد قادراً أن يصف ملكوت الله ، بل ولا كل هذه الأمثال معاً كانت كافية ، وإلا ما اضطر المسيح أن يخصص أربعين يوماً وهو في ملء القيامة والتجلي ليشرح و يتكلم أيضاً ، فيما يخص ملكوت الله بعد ثلاث سنوات ونصف من الكلام والتعليم المتواصل عن الملكوت بأمثال وعلانية !!

فملكوت الله بعد كل ما قيل في الإنجيل وكل الشروحات ، يظل جديداً باستمرار يحتاج إلى تكميل ، حيث بعد كل كلام تنتهي الكلمات وكل معانيها وتبقى حقيقة الملكوت كما هي ، حياة لا توصف بل و يلزم أن تُعاش !! لذلك فمهما تكلمنا عن الملكوت ، نجد الكلمات في النهاية قد تضاءلت ، و بقى الملكوت حاجة تحتاجها النفس أكثر جداً مما يحتاجها الفكر أو التصور.

سر الميلاد القائم في تجسد كلمة الله ،
هو الشرح الوحيد لحقيقة ملكوت الله :

وكما أن المسيح ، في ميلاده من العذراء ، هو في شكله الخارجي مجرد إنسان عادي تحيط به أحداث كبيرة وحسب ، كما رآه الكثيرون ، ولا يزالون ، إذ يرون في المسيح

مجرد إنسان عظيم وُلد من عذراء في قداسة و بإعجاز غير مفهوم ؛ حيث ينتهي هذا الإعجاز بالعقل إلى ما ينتهي إليه أي لغز غير قابل للحل ، هكذا تماماً و بالحرف الواحد كان المسيح يطرح أمثاله عن الملكوت ، فيراها البعض مجرد أمثال تحوي ألغازاً حكيمة وحسب ، ثم يعود المسيح إلى أخصائه ليكشف لهم علانية سرَّ الأمثال التي كان يقولها عن الملكوت كألغاز !!

+ « فسأله تلاميذه قائلين ما عسى أن يكون هذا المثل ؟ فقال قد أعطي **أن تعرفوا أسرار ملكوت الله ، وأما الباقين فبأمثال حتى إنهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يفهمون** » (لوق ٨ : ٩-١٠).

المسيح وأمثاله عن الملكوت :

وهكذا كان المسيح في ميلاده وصليبه وقيامته ، كأحد الأمثال التي كان يقولها عن ملكوت الله ، فالمسيح المولود من العذراء لا يظهر منه إلاّ مجرد حكمة أو لغز، أما لذوي العيون التي ترى والآذان التي تسمع فيرون فيه الوجه الآخر للميلاد « الله ظهر في الجسد » ، حيث ينكشف في هذا المولود سر السماء وسر قوة الله وسلطانه ومجده ورسم جوهره !!

والعجيب أن الله لم يحرم المتشككين من نموذج مبكِّت لغبائهم . وهو نموذج جاء مبكراً جداً في شهادته لسرِّ المسيح الذي لا يُستقصى ، هذا النموذج هو المجوس الذين جاءوا من المشرق من بعيد جداً **ليسجدوا للطفل الملك المولود في بيت لحم !!**

لقد كان المجوس في ملء الوعي من رؤية الوجه الآخر للميلاد ، لقد انفتحت عيونهم فرأوا نجمه في السماء ، وانفتحت آذانهم فسمعوا السرَّ وفهموا كل شيء ، وأطاعوا الرؤيا ، ولم يعاندوا الصوت !...

هذا هو المسيح المولود في بيت لحم ، **سرٌّ مخفي وهو منظور!!** تستطيع أن تكتفي به في وجهه المنظور كقصة أو مجرد حكمة أو لغز، هذا إذا اكتفيت به كمسيح التاريخ

وكرواية من روايات الإنجيل ، فإذا انفتحت العين والأذن صار المسيح وصار ميلاد المسيح في وجهه غير المنظور ، لا تسعه الكتب ولا يسعه عقل الإنسان ، لأنه يصير مثل السر الكائن في أمثاله عن الملكوت ، مصدر رؤيا لشبع لا ينتهي ، ومصدر فهم وحكمة تتجاوز كل المدركات ، **فهو حبة الحنطة ، كما قال عن نفسه ، وكما قال ــ في مثله ــ عن الملكوت سواء بسواء ، فيها سرُّ الموت والقيامة ، وفيها سرُّ الجوع والشبع !!**

لذلك حينما انشغل المسيح كل الانشغال بشرح ملكوت الله ، فهو إنما كان يعلن نفسه و يفسر ميلاده !!

فلو استطعنا أن نرجع إلى أمثال المسيح كلها ونتعمقها بالروح لاستطعنا أن نعرف الكثير عن سر المسيح نفسه !! وحينما أرسل الرب تلاميذه للكرازة ، وضح من إرساليته لهم مدى الصلة القائمة بين الملكوت والمسيح : « إذهبوا اكرزوا **ببشارة الملكوت** » ، « **أنتم شهود لي** » ، « الذي يقبلكم يقبلني والذي يقبلني يقبل الذي أرسلني » (لو١٠ : ٣ ؛ ٢٤ : ٤٨ ؛ مت١٠ : ٤٠) .

هنا يضع المسيح نفسه « **محور الكرازة بالملكوت** » . صحيح أن الملكوت هو « **ملكوت أبي** » ، ولكن « **أنا هو الطريق** » ، « **ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي** » (يو١٤ : ٦) ، « **كل من ينكر الابن ليس له الآب أيضاً** » (**١ يو٢ : ٣٣**) .

المسيح الطفل المولود ، يكشف عن أسرار الملكوت :

ــ **صحيح أن ملكوت الله « قوة »** ، ولكن المسيح المولود في بيت لحم ، يكشف لنا عن **الوجه** المضيء الهادىء الوديع جداً لهذه القوة .

ــ صحيح أن **ملكوت الله نظام وترتيب وقانون** ، ولكن المسيح المولود في بيت لحم يكشف عن صفة **القلب المحب** العطوف المتواضع والمضحي الذي أُعطي أن يفجر طاقات هذا النظام والترتيب والقانون !!

ــ صحيح أن ملكوت الله بحسب الفكر والمنطق **سيادة عظمى ، وسلطان إلهي فائق ، وتدبير سمائي ، وإرادة علوية** . ولكن الذي حدث في بيت لحم يكشف لنا أن ملكوت الله برهبته ومخافته وسموه الفائق ، لم يعد غريباً عن جنسنا ولا بعيداً عن رؤيتنا ولا صعباً لأسماعنا ، فالمعجزة الأبدية تمت ، والآية الخارجة عن كل منطق بشري كملت وأعلنتها السماء أن « وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلِّص هو المسيح الرب ، وهذه لكم العلامة (آية) **تجدون طفلاً** مقمطاً مضجعاً في مذود » (لو٢ : ١١) .

فالمسيح الطفل الصغير المولود في المذود يكشف لنا عن الوجه الآخر للملكوت ، كيف أنه في ملء البساطة والوداعة واللطف الإلهي الفائق ، تَقرَّر نظام الخلاص في هذا الملكوت !!

بساطة المسيح المولود و بساطة الملكوت :

هنا نلاحظ أن استعلان الملكوت « كقوة ونظام وتدبير وسيادة » في شخص المسيح الوديع في صورته ، وهو مولود في بيت لحم ، يقرِّب لنا الإحساس بالملكوت جداً للغاية ، وهو نفس الاصطلاح الذي شدد عليه المسيح تماماً « **قد اقترب منكم ملكوت الله** » (لو١٠ : ٩) « الرب قريب » (في٤ : ٥) .

وفي الحقيقة ، لو انتبهنا إلى أن **قامة الطفولة** التي أمامنا الآن في بيت لحم هي قامة بسيطة غاية البساطة يمكن اغتصابها بالحب ، كما يحتضن الإنسان أي طفل ويقبِّله ، هكذا أراد الرب أن يصف **قرب و بساطة ملكوت السموات منا** . بل هكذا تحقق لنا قرب هذا الملكوت في بساطته المتناهية ، ومفهوم إمكانية اغتصابه بميلاد المسيح **في مذود سهل الاقتحام** ، وليس في قصور الملوك خلف الحواجز والأبواب والخدم والأسياد !!

وفي الحقيقة أرى أن كل الذين ذاقوا الموهبة السماوية ، وصاروا شركاء الروح القدس ، وذاقوا كلمة الله الصالحة وقوات الدهر الآتي ــ كما يقول القديس بولس الرسول (عب٦ : ٤ و٥) ــ يدركون الآن جداً صدق هذا الكلام ويدركون بأية مجانية

صارت هذه العطية السماوية وصار اغتصابها وسهولة اقتنائها ، كما يقول الكتاب : « ملكوت السموات يُغصب والغاصبون يختطفونه » (مت ١١ : ١٤) . فلا فارق بين سهولة أن يحتضن الإنسان طفلاً رضيعاً في حضنه و بين أن يقتني الروح القدس في قلبه !!

الملكوت والمسيح بين يدينا :

فالآن أدعوكم أن تنظروا معي جيداً ومليًا في عيني يسوع الطفل المقمط المضجع في المذود ، لأن في عينيه سترون الوجه الآخر للميلاد ، سترون الملكوت بكل عمقه وعلوه ، ننظره فينظر إلينا في بساطة وقبول فائق ، إحملوا يسوع الطفل على ذراعكم لكي تدركوا وتتحققوا من خفة الملكوت بكل حمله ونيره !!

ولكن لكي تثقوا أن ملكوت الله حقاً مشخَّص في المسيح يسوع ، إسمعوا الرب نفسه وهو يجمع بين الملكوت (الإنجيل) ونفسه حينما يتكلم عن المتنسكين الذين تركوا كل شيء « **من أجلي ومن أجل الإنجيل** » (مر ١٠ : ٢٩) ، ومعروف طبعاً أن الإنجيل هو بشارة الملكوت !!

هذه الحقيقة التي تربط بين الملكوت والمسيح كانت حاضرة جداً في ذهن التلاميذ ، فيكتبها القديس لوقا البشير بوضوح هكذا : « ولما صدقوا فيلبس وهو يبشر **بالأمور المختصة بملكوت الله وباسم يسوع اعتمدوا رجالاً ونساءً** » (أع ٨ : ١٢) .

الملكوت المنظور والملكوت غير المنظور:

لقد ألمح الرب إلى هذه الحقيقة بصورة غاية في العمق ، عندما قال لتلاميذه : « ها ملكوت الله داخلكم » (لو ١٧ : ٢١) ، وعندما قال للقديس بطرس الرسول : « **أعطيك مفاتيح ملكوت السموات** » (مت ١٦ : ١٩) ، وكان يشير بذلك إلى الاعتراف الذي نطقه « **أنت هو المسيح ابن الله الحي** » . فالإيمان بالمسيح هو مفتاح الملكوت بحسب النبوات « مفتاح بيت مملكة داود » (إش ٢٢ : ٢٢ ؛ رؤ ٣ : ٧) .

ولكن كثيراً ما التبست حقيقة الملكوت غير المنظورة على الكثيرين ، مثل النساء البسطاء اللاتي كنَّ يخدمنه ، فأم ولديّ زبدي انتهزت فرصة مواتية ، وتقدمت بطلب إلى الرب أن يجلس ولداها عن يمين و يسار الرب في ملكوته !

هذا الإحساس بالملكوت الآتي ، أو استعلان الرب في ملكوته بغتة لم يكن غريباً عن الجو الذي كان يعيشه كلُّ من كان حول المسيح ، **فقوة المسيح كانت هي هي استعلان ملكوت الله** . لذلك فالملكوت ظل يقترب من ذهنهم بعد كل معجزة حتى صار في صميم إحساسهم ، حتى قالوا بأنه وشيك الوقوع ، وتحمسوا له ، لدرجة الترقب الشديد بل والتوتر أحياناً « وكانوا يظنون أن ملكوت الله عتيد أن يظهر في الحال » (لو ١٩ : ١١) . فأخذ المسيح يعلِّمهم بالمثل أنه لا يزال أمامه رحلة طويلة للعودة بعد زمان كثير ليُستعلن الملكوت بالوجه المنظور : « إنسان شريف الجنس ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه مُلكاً و يرجع » (لو ١٩ : ١٢) .

وكان هذا الشعور بقرب الخلاص وظهور ملكوت الله باستعلان ملكوت المسيح المنظور ، كان مسيطراً أيضاً على كل التلاميذ والجموع في أيام المسيح الأخيرة على الأرض ، حتى أن الجموع كلها هتفت له قبل الصليب بأسبوع « **أوصنا مبارك الآتي باسم الرب . مباركة مملكة أبينا داود الآتية** باسم الرب ، أوصنا **في الأعالي** » (مر ١١ : ٩ ، ١٠)

ملكوت الله يأتي بقوة :

ولكن كان ميعاد هذا الهتاف متقدماً ٥٧ يوماً تماماً ، لأن ما حدث في يوم الخمسين بحلول الروح القدس بقوة من السماء ، كان تحقيقاً لمجيء الملكوت ، ولكن بصورته شبه المنظورة أيضاً ، حيث تم الخلاص من الأعالي ، واستُعلن المسيح مُخلِّصاً وفادياً ، وصار ملكوت الله حقيقة داخلية تملأ كيان التلاميذ وتنطق في أفواههم بكل لسان لكل أمة مدعوة للخلاص !

لأن تحقيق مجيء الملكوت بقوة الروح القدس يوم الخمسين هو نفسه الذي ألمح إليه

الرب عندما قال: « **هنا قوم لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله آتياً بقوة** » (مت١٦: ٢٨)

ولكن بصورة أخرى أعمق وأسبق، رأينا الملائكة يعلنون عن ظهور هذا الملكوت عينه في لحظة ميلاد المسيح في بيت لحم بنفس نشيد أطفال يوم أحد الخوص، حينما هتفت الملائكة مع جمهور جند السماء: « **المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة** » (لو٢: ١٤)، حيث ربطت الملائكة بين ملكوت الله في السماء وظهوره على الأرض بآن واحد.

وهذا الهتاف هو المرادف السري لنشيد الأطفال « **أوصنا لإبن داود، مبارك الآتي باسم الرب، أوصنا في الأعالي، مباركة مملكة أبينا داود الآتية باسم الرب** » (مت٢١: ٩، مر١١: ١٠).

تسبحة الملائكة أنشودة لاهوتية:

هنا يهمنا جداً ياأحبائي أن نستشف قصد الملائكة من الربط بين **مجد الله في الأعالي، والسلام، والمسرة على الأرض !!**

أليست هذه هي حقيقة التجسد؟ والسر المخفي للوجه الآخر لميلاد المسيح في مذود البهائم؟ فالتحام السماء بالأرض وغير المنظور بالمنظور والله بالإنسان، هو حقيقة الميلاد! وهي نفسها حقيقة استعلان ملكوت **الله في الناس** و بين البشر! عمانوئيل الذي تفسيره **الله معنا**.

لهذا، فإن نشيد الملائكة ليس مقطوعة موسيقية أو ترنيمة مفرحة، بل هو استعلان لاهوتي وكشف حقيقة سرّ المسيح إنما بطريقة ملائكية أي بالتسبيح !!

فبالرغم من **تجسد الكلمة** ابن الله الوحيد، أي « **تأنسه** »، أو بتعبير القديس بولس الرسول: « حلّ فيه كل ملء اللاهوت جسدياً » (كو٢: ٩) و« الله ظهر في الجسد » (١تى٣: ١٦)، أقول بالرغم من ذلك ندرك من تسبحة الملائكة أن هذا

الإتحاد لم يلغ كيان السماء أو كيان الأرض، بل ظل المجد لله في الأعالي، وفي نفس الوقت ولنفس السبب حلّ ملء السلام والمسرة في الناس !!

فالإتحاد الذي تم في شخص المسيح لم يلغ شيئاً، بل أضاف مجداً لله في السماء، بسبب اتضاعه وتنازله، كما أضاف للإنسان سلاماً وسروراً بسبب الحب والفداء والخلاص الذي أتى به إلى أرض الشقاء والأحزان. هذا هو قصد الملكوت واستعلانه ليكون للإنسان على الأرض **كل مشيئة الله ومسرة إرادته التي في السماء**، وهذا هو جوهر الصلاة التي علّمها الرب لتلاميذه ليهذُّوا بها كلما صلوا « **ليأتِ ملكوتك. لتكن مشيئتك. كما في السماء كذلك على الأرض** » (مت٦: ١٠).

فالمسيح لأنه ربط في نفسه مشيئة الآب بمشيئة البشر، ليجعل منها مشيئته الخاصة الواحدة، استطاع أن يهبنا هذه النعمة العظمى أن نصير فيه قادرين أن نكمل مشيئة الله في حياتنا على الأرض، وأن نستقبل في أعماقنا باستمرار بواسطة سرّ الجسد والدم، وعلى قدر ما نصلي، ملكوت الله الذي نطلبه ليأتي دائماً !!

فإذا عدنا الآن إلي تسبحة الملائكة « المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة »، استطعنا أن نرى فيها وعداً أكيداً بتحقيق صلاة « أبانا الذي في السموات »، التي نقولها كل حين، إنما **في المسيح يسوع ربنا !! لأنه كما من أجل ميلاد المسيح في بيت لحم صار تهليل الملائكة وإعلانهم أنه قد صار المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة، هكذا في سر تجسد المسيح نطلب** بثقة « **ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك. كما في السماء كذلك على الأرض** » !!

هنا، المسيح في الإثنين هو سرُّ هذا الإرتباط الفائق بين السماء والأرض، بين الله والبشر.

ثم مرة أخيرة، فلننظر إلى المسيح الطفل المولود في المذود، ولنتأمل مدى بساطة واتضاع دخوله إلى عالمنا، لأنه بهذه البساطة عينها وبهذا الإتضاع عينه نستطيع أن نقتحم الوجه الآخر من هذا الميلاد المذهل لنرى الله، نقتحم سر مشيئة الله وسر ملكوته الذي صار في متناول أيدينا، مثل هذا الطفل الوديع الراقد في المذود. □

(يناير ١٩٧٩)

ميلاد المسيح في عالم الإنسان

كما كان العالم يتهيأ لميلاد المسيح منذ أن أخطأ الإنسان نحو الله؛ كذلك لا يزال كل إنسان في العالم مهيأً ومعداً لقبول المسيح في كل مرة يخطىء لله، فالمسيح جاء ليعدّل مسار الإنسان نحو الله بصفة دائمة ومستمرة؛ فالإنسان دائماً يخطىء اتجاهه، والمسيح موجود الآن ليصحح الخطأ ويعيد للإنسان صحة العلاقة التي تشده بالله ويحقق له بالفعل إحساس التعديل، ويؤمّن له الهدف النهائي ببرهان وجوده الإلهي داخل أعماق الشعور.

ولكن بقدر ما كان العالم ينمو في الاستعداد لقبول ميلاد المسيح، كان ينمو أيضاً في عدم الاستعداد للإيمان إذ كان العالم ولا يزال، فيه عناصر التحدي لله ممثَّلة في رئيسه المهيمن على شهوات الإنسان وطموحه الذاتي والذي يمد عقل الإنسان بإغراءات التطلع إلى حرية وسلطان ووجود من دون الله و بعيداً عن وصاياه ونواميسه...؛ وكذلك أيضاً كل إنسان في حد ذاته مهما بلغ من الخضوع والإيمان بالله لا تزال تنمو فيه مع الزمن وحركة العالم عناصر مجرمة لنزوات وطموح ذاتي وإغراءات التطلع نفسها إلى التحرر الخاطىء ووجود بخس بعيداً عن وصايا الله المقدسة!! غير أن ميلاد المسيح في العالم يقطع دائماً خط الرجعة على طغيان عبقرية الإنسان المنحرفة إذ لا يزال يوجد مَنْ يبكت العالم على انحرافه وطغيانه. وكذلك ميلاد الإنسان في المسيح يقطع دائماً خط الرجعة على طغيان وعتوّ شهوات الإنسان وطموحه الذاتي ويذلل طبعه الوحشي مبكّتاً ضمير الإنسان بغير هوادة على كل قول وكل عمل لا يتلاءم وجدّة الحياة التي أفاضها الروح القدس على إنسان الله.

إن المسيح لم يولد في العالم ليوجد في العالم لأنه ليس أصلاً من العالم، بل وُلد للعالم ليوجد العالم فيه، فالمسيح لا يمكن أن نراه في العالم أو مع العالم أي أننا عبثاً نحاول التعرف عليه أو الإحساس به أو الخضوع له أو مجرد الإيمان به ونحن نعيش في جو العالم وفكره ومسراته وطموحه أو ونحن نعايشه ونمالئه ونتودد له... ولكن عندما نخرج من جو

العالم ونتحرر من فكره ومسراته وطموحه، وفي اللحظة التي نضحي فيها بالتودد له أو بمالأته ونحن متجهون بأعماقنا لله حينئذ نجد المسيح ونتعرف عليه ونحسه بقوة فائقة وبمواهب وعطايا غامرة تعوّض لنا عن كل خسارة فرضها العالم علينا جزاء تحديه.

وحينما يدخل الإنسان مجال المسيح هناك يجد العالم الجديد الذي وُلد له المسيح يملك على كرسيه إلى الأبد المعبَّر عنه بملكوت الله؛ عالم الإنسان المبرَّر والخاضع لله، عالم القديسين وأرواح الملائكة، عالم الكنيسة الحية والجسد السري والنور الأبدي!

وكذلك أيضاً كل إنسان يؤمن بالمسيح ويعتمد له أي ينصبغ به فإن المسيح لا يستعلن له مولوداً بعيداً عنه هناك في بيت لحم أو حتى في بيت القلب، فهذا إن تخيَّله الإنسان فهو لن يكون جوهر الاستعلان الحق؛ بل هو استعلان التاريخ الذي هو صورة الحق، أما الاستعلان الجوهري لميلاد المسيح بالنسبة للإنسان فإنما يتم على وجه التحقيق بميلاد الإنسان في المسيح لله! فنحن بواسطة الإيمان والانصباغ السري الروحي بالمسيح نأخذ سر الميلاد الإلهي من الله أو على حد تعبير الكتاب: أما الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، مولودين لا من دم ولا من مشيئة رجل ولا من مشيئة جسد بل من الله يولدون!!!

إذاً فنحن مدعوون لرؤية ميلاد المسيح في ميلادنا نحن من الله ميلاداً بسلطان إلهي لا يعتمد على قوة ذاتية من عندنا بأي نوع إلا بقوة الإيمان العامل بالمحبة، كما لا يتأثر بخطيئة ما موروثة في الجسد؛ بل يتعدى كل خطيئة بغسل دم المسيح الفائق في الرحمة واللطف والإشفاق على ضعف الإنسان!!

لذلك كان من واقع الحال أن كل من يعيش ميلاده الجديد في المسيح يعيش في رؤية بيت لحم بصورتها السمائية كما رآها الملائكة فلا يهدأ ليل نهار من التسبيح بمجد الله في العلا، والتعمق في سلام المسيح على الأرض، واستجلاء مسرة الله وسط أتعاب هذا الدهر!!

(يناير ١٩٨٠)

واجبات البنين

أ ـ «لأني أعطيتكم مثالاً»:

المسيح صار قلب العالم النابض بحبه العجيب، إذ بعد أن أكمل لنا واجبات المحبة مات فدية من أجلنا ومن أجل كل خطاة الأرض بلا تفريق بين جنس أو لون؛ ولكن الفداء الذي أكمله المسيح بموته كان بالأساس عمل **الابن**، ثمرة حبٍ وطاعةٍ: حبٍ للبشرية وطاعةٍ للآب السمائي.

وهكذا من خلال حب الناس وطاعة الله في شخص المسيح كمل فداء العالم وخلص الإنسان الخاطىء من لعنة الدينونة والموت. وبهذا حدد لنا المسيح طريق حياتنا معه وطريق العمل في مجال خدمة الفداء والخلاص للآخرين، فصار خارج هذا الحب وهذه الطاعة لله ـ كبنين ـ في المسيح لا يتم لنا خلاص ولا يستطيع أحد أن يقترب من خدمة الفداء أو البشارة بالخلاص للناس!

والآب السمائي في مقابل هذه الطاعة على استعداد أن يضع فينا كل ثقته كأب ويعمل فينا كل مشيئته كما صنع مع المسيح، إن تقدمنا بروح البنين هذه ـ في المسيح ـ وأفرزنا أنفسنا للطاعة باستعداد الموت لخدمة الفداء الذي أكمله المسيح للعالم، والخلاص الذي خصَّ به كل خطاة الأرض بلا تفريق لتكميل تأسيس ملكوت الله.

العبد ليس له أن يعرف أسرار سيده، ولا أن يستقصي عن أعماق مشيئته، لذلك فواجبات العبد لا ترقى قط إلى مستوى واجبات البنين. أما المسيح فاستأمنًا لنعرف أسرار ملكوت الله وكل ما عند الآب كأبناء وكأحباء له، ولكن على قدر هذه الثقة وهذا الحب تزداد المسئوليات «أنتم أحبائي **إن فعلتم ما أُوصيكم به**، لا أعود أسميكم عبيداً لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، لكني قد سمَّيتكم أحباء لأني

أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي» (يو١٥: ١٤و١٥)، «قد أُعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السموات» (مت١٣: ١١).

لقد صرنا أبناء الله حسب وعد الله الحي، لأننا قبلنا المسيح ابناً وحيداً للآب فادياً ومخلصاً للعالم، والروح القدس يشهد بقوة لبنوتنا كلما دخلنا أكثر في طاعة الله مكملين واجبات طاعة البنين من خلال عمل الابن الوحيد، أي حمل الصليب والسير وراءه حسب وصيته الخاصة، متمثلين به كل يوم متذكرين كيف جلس على الأرض قبل موته ـ وهو الابن الوحيد ـ يغسل أرجل تلاميذه ويُنشِّفها بيديه ـ كعبد للناس ـ ليقدِّمهم إلى سر الخلاص ـ جسده ودمه ـ حتى يكون هذا معياراً أبدياً لسلوكنا تجاه كل من نسعى لخلاصه: قبلةً في الوجه وانحناءةً حتى إلى القدمين.

هذه هي المضادة العظمى التي حملها المسيح في نفسه وسلَّمها لنا لتكون منهاج حياة ومعيار سلوك، وقد التقطها بولس الرسول بحكمة فائقة واستنارة عالية وقدَّمها لنا هكذا: «فإننا **لسنا نكرز بأنفسنا** بل بالمسيح يسوع رباً **ولكن بأنفسنا عبيداً لكم** من أجل يسوع» (٢كو٤: ٥).

هذا هو سر الإنجيل والصليب أيها الأحباء، هذا هو سر الخدمة الأعظم الذي يكمن فيه التصالح الإلهي بين مجد البنوة لله وانسحاق العبودية للناس من أجل خلاص الناس! هكذا صنع المسيح وهكذا عاش بولس الرسول وهكذا كان يكرز: «فإني إذ كنت حرًّا من الجميع **استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين**» (١كو٩: ١٩)، انظروا كيف يصالح المسيح بين روح البنوة لله وروح العبودية للناس ليصنع منهما معاً خلاصاً عجيباً!!

ب ـ «لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً» (يو٥: ١٩)

«أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً» (يو٥: ٣٠)

«ولستُ أفعل شيئاً من نفسي» (يو٨: ٢٨)

هذه هي الصفة المميزة لطاعة البنوة الحاملة للصليب المنبثقة أصلاً من الحب

الأبوي الفائق، ولقد شرحها لنا المسيح هكذا: «**لهذا يحبني أبي لأني أضع نفسي...**» (يو١٠: ١٧)، ويكمل شرحها بولس الرسول هكذا: «وأطاع حتى الموت موت الصليب» (في٢: ٨).

إن الطاعة التي قدمها المسيح للآب عملياً حتى إلى الآلام والموت على الصليب كانت نابعة أصلاً و بالأساس من العلاقة الجوهرية التي تربط الابن بالآب، لذلك كانت كاملة ومطلقة. ولكن ظهورها على المستوى العلني و بصورة آلام وموت على الصليب صارت سبباً أصيلاً أيضاً لننال بواسطتها ومن خلال تمثلنا بها ــ روح هذه الطاعة الشديدة والكاملة التي تختبر بالآلام والصليب اليومي الذي يقدمه العالم لنا ــ وننال معها نصيباً يومياً من هذه الثقة والحب والعطف الأبوي الذي للمسيح في الآب. وهكذا على قدر التصاقنا بالمسيح وتمثلنا به وحبنا له نستمد منه روح هذه الطاعة الكبرى للآب التي تتكامل لنا من خلال صليب المسيح بقوة الصلاة ومؤازرة النعمة كعطية حب مجانية من الآب.

ولكن من خلال المعاناة اليومية التي قد تكون على مستوى الصلب فعلاً وسكب النفس حتى إلى حدود الموت تكون الطاعة عملاً صعباً جداً وخصوصاً في بداية الحياة مع الله، لأن الإنسان يكون قد توطَّد على صنع مشيئته الخاصة و وضع لنفسه آمالاً عريضة لحياة هنيَّة ومريحة حسب مشيئة الجسد!

هنا يعود المسيح يصوِّر لنا واجبات طاعة الابن للآب أنها لا تحتمل قط أن ينحاز الإنسان إلى مشيئة نفسه ولا إلى لحظة واحدة، وإلاَّ يسقط من مشيئة الابن التي هي عينها مشيئة الصليب؛ بل مشيئة الخلاص!! «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً» (يو٥: ٣٠).

فإذا علمنا أن الالتزام بطاعة الله الآب كبنين ــ متمثلين بالمسيح ــ وجحد مشيئة الذات خصوصاً في مواجهة المعاناة واحتمال الآلام والحرمان يعطي لله الآب الفرصة الكاملة أن يسكب حبه الأبوي ورضاه في المقابل، ومع حبه يكون الاحتمال بل

الرضى بل الفرح بالواقع المعاكس. فإنه فوق هذا تكون أذن الله صاغية لكل صلاة باستعداد الاستجابة والمعونة لكل ما هو لخلاص الإنسان! «**لست أفعل شيئاً من نفسي بل أتكلم بهذا كما علمني أبي، والذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الآب وحدي لأني في كل حين أفعل ما يرضيه**» (يو٨: ٢٨و٢٩).

فإن كانت واجبات البنين كما علَّمنا المسيح تقوم على أساس التسليم الكلي لمشيئة الله الآب وعدم صنع مشيئة الذات، فالثمن المقابل كبير جداً وثمين جداً لا يُقاس إزاء التضحيات التي يستلزمها التسليم الكلي لمشيئة الله. لأن اكتساب وجود الله مع الإنسان كأب «**هو معي**» وعدم ترك الإنسان وحيداً في مقابل أزمات الحياة «**ولم يتركني وحدي**»، هو في الموازنة يستطيع أن يلغي كل رعبة التضحيات والخوف من الموت كإنسان يتهدده الخطر وهو في حضن الحياة ذاتها، وهكذا لا تعود الطاعة مستثقلة بل وتنتقل من مستوى مجرد واجب البنين إلى سبب وعلة انسكاب حب الآب ورضاه ووجوده الفعلي لمساندة الإنسان على الطريق الضيق إلى الدرجة التي يصبح فيها الإنسان غير راغب بالمرة بل وعاجزاً تماماً عن مخالفة مشيئة الله حتى ولو إلى حدود الموت «أنا **لا أقدر** أن أفعل من نفسي شيئاً». وهنا يكتشف الإنسان بنفسه سر الالتحام الفائق بالحب و بالروح بين مشيئته ومشيئة الله!! وهنا يدرك في أعماقه ومن خلال قبوله لأقسى المعاناة في حياته سر عمل الروح القدس، وكيف ينقل لنا خبرة المسيح بل صفات المسيح بل صورة حية من علاقة الحب السرية الفائقة التي تربط الآب بالابن «**ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم**» (يو١٧: ٢٦). وكأنما بالطاعة ندخل في غنى سر الوحدة الفائقة التي للمسيح مع الله.

وهكذا فإن سر «**طاعة المسيح لله الآب**»، وإن كانت تحمل لنا كبنين لله أقسى صورة من التخلي للدخول في أصعب تجربة يمكن أن يعانيها إنسان بالآلام والتشهير والفضيحة والظلم والنقمة حتى الموت على الصليب من جهة، فالجهة المقابلة أن هذه الطاعة عينها تحمل لنا مساندة دائمة وحباً فائقاً ورفقة عملية من الآب على الطريق إلى استعلان المجد المخفي خلف عار الصليب.

وهكذا يسلمنا المسيح كابن لله بالنهاية و بروحه القدوس، مشيئة الطاعة الكاملة التي يكمن فيها **الصليب والمجد معاً، التخلي والرفقة معاً**، لنعبر بها **كل محن الحياة منتصرين لحساب خلاصنا.**

ولكن الذي لا يلتزم بواجبات البنين في طاعة الله **بكل المشيئة** فهو منحاز لمشيئة نفسه ولا يستطيع أن يحمل الصليب حسناً و بالتالي لا يستطيع أن يعلّم الآخرين مشيئة الله ولا يستطيع أن يقودهم في طريق الصليب. وهنا ينحرف الإنسان حتماً إلى تزكية ذاته ومجد نفسه «**إن شاء أحد أن يعمل مشيئتهُ (الله الآب)** ـ يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي، من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه» (يو٧: ١٧و١٨). هنا يضع المسيح المسئولية أيضاً على كل من يسمع التعليم أو الإرشاد، أن يفحص هذا التعليم هل هو من الله أم لا، وذلك إذا كان الإنسان يطلب حقاً أن **يعمل مشيئة الله** «إن شاء أحد أن يعمل مشيئته (أي مشيئة الله الآب) يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي». فالناس إذا لم يكونوا قد التزموا بطاعة الله بإخلاص لاتّباع مشيئته فإنهم لا يستطيعون أن يقبلوا التعليم الصحيح ولا يستطيعون ـ للأسف الشديد ـ أن يفرّقوا بين التعليم الصحيح الذي من الله لتمجيد الله، والتعليم المزيّف الذي من النفس الذي يُقدم لهم بدافع تمجيد الذات، والمسيح هنا يوضّح ويحذّر «أنا أتيت باسم أبي ولستم تقبلونني، **إن أتى آخر باسم نفسه فذلك تقبلونه! كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض؟**» (يو٥: ٤٣و٤٤)، «**من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه**» (يو٧: ١٨).

جـ ـ «بدوني لا تستطيعون أن تعملوا شيئاً»:

هذا معناه أن طاعتنا لله بدون المسيح أمر مستحيل، لأن الطاعة المخلصة هي طاعة حب وانتماء تنتهي باتحاد، وهذه هي طاعة بنين وليست طاعة عبيد؛ ونحن بدون المسيح غرباء عن بنوية الله بلا رجاء للاتصال بالله، ومهما حاولنا أن نقدم طاعتنا لله بأعظم أعمال الرحمة والبذل والصلاة لا نبلغ إلاَّ إلى حدود **«العبد البطّال»: «كذلك أنتم أيضاً متى فعلتم كل ما أُمرتم به فقولوا إننا عبيد بطّالون لأننا إنما عملنا ما كان يجب علينا»** (لو١٧: ١٠).

وما السبب في ذلك؟ السبب يقوله الرب: إن العبد **يفعل ما يُؤمَر به** «**فهل لذلك العبد فضل لأنه فعل ما أُمر به؟ لا أظن**» (لو١٧: ٩). أما الابن الحائز على روح التبني في المسيح فإنه يعمل بمنتهى الحب كل مشيئة الله دون أن يُؤمَر بشيء!! وهو يعلم كل مشيئة الله لأنه حائز على روح الله الذي يفحص كل شيء حتى أعماق الله!! «لا أعود أسميكم عبيداً لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، لكني قد سمَّيتكم أحباء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي» (يو١٥: ١٥).

هذا هو سر البنوة الهائل المخفي في المسيح الذي بقبولنا للمسيح ينتقل إلينا بالروح القدس كحالة تبنِّي «الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله» (يو١: ١٢). وحينئذ لا نعود نعمل الأعمال تحت الاضطرار والتهديد كعبيد كغرباء عن الله؛ بل كأبناء نعمل وصايا الله بدالة البنين عن حب وثقة. «**أنتم أحبائي إن فعلتم ما أُوصيكم به**» (يو١٥: ١٤)، «**إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي**» (يو١٥: ١٠)، «**الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني**» (يو١٦: ٢٧).

هذه هي واجبات البنين التي هي بعينها الطريق لميراث القديسين مع المسيح في الله، وهذه هي غاية حياتنا التي هي بعينها غاية تجسد ابن الله ومجيئه إلى عالمنا ليعطينا «أن نصير أبناء الله».

(يناير ١٩٨٠)

أتى المسيح إلينا، فكيف نأتي إليه (١)

«إن كان أحد يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً...» (لو١٤: ٢٦)

إنجيل قداس هذا الصباح ينصبُّ على علاقتنا بالمسيح وكيفية مجيئنا إليه.

في الحقيقة، يا أحبائي، أننا في صوم الميلاد نعيش في إحساس مجيء المسيح إلينا، لهذا فإن الهدف الأول لصوم الميلاد هو تهيئة روح الإنسان لاستقبال المسيح أو المجيء إليه. ولكن كيف نستقبله إذا لم نكن على مستوى التقدم نحوه؟ وإنجيل اليوم يرينا كيف نأتي إلى المسيح الذي أتى إلينا، وذلك في صورة شروط حتمية ينبغي أن نلتزم بها من جهة التخلي عن عواطف الجسد لكي نقبل ما هو للروح. وهذه تبدو لأول وهلة أنها صعبة، ولكن الذي قال هذا هو الذي أخلى ذاته أولاً من «مجد» ألوهيته المنظور لكي يأخذ صورة عبد مُهان محتملاً الآلام حتى إلى الصليب!!

في البداية أود أن أضع أمامكم فكرة صغيرة عن صوم الميلاد في التقليد الكنسي. فصوم الميلاد يختلف عن الصوم الأربعيني المقدس، أو صوم الفصح، إختلافاً جوهرياً، لأن صوم الميلاد صوم تسبيح وفرح استعداداً لمجيء المسيح؛ أما الصوم الكبير فهو صوم توبة وتجرد بالدرجة الأولى. بمعنى أنه شركة في صوم المسيح على جبل التجربة، وشركة في آلامه، وينتهي بأسبوع الآلام وأحزان الصليب؛ لذلك تليق به التقشفات والدموع والصوم والإماتة الشديدة، كما يليق به أيضاً الصمت والسكون الداخلي أساساً. أما

---

(١) عظة أُلقيت على الرهبان في دير القديس أنبا مقار في الأحد الأول من صوم الميلاد، ديسمبر ١٩٨١.

صوم الميلاد، فهو صوم فرح وتسبيح وتهليل وشكر، وإنه إن كان كلا الصومين يُحسبان نسكاً، إلا أن نسك صوم الميلاد يختلف عما في ذهن العامة عن النسك.

فالنسك ليس معناه التقشف وحسب، وإنما يُقصد به ـ بالدرجة الأولى ـ الاستعداد للاقتراب بالروح إلى الله، وذلك بأعمال إما جسدية أو ذهنية أو قلبية. فإنسان يسهر الليل كله منكباً على قراءة الإنجيل يُحسب ناسكاً. وإنسان يتأمل أعمال الله وإحساناته الساعات الطوال صامتاً في مكانه، فهذا أيضاً يُحسب ناسكاً. وإنسان يترنم في قلبه للرب، كما يقول الكتاب: «مترنمين في قلوبكم للرب» (كو٣: ١٦)، بالفرح والتهليل والتمجيد الذي لا يُنطق به، هذا أيضاً ناسك. وهكذا، فالقراءة والتأمل والترنيم القلبي (بالروح) أعمال نسكية لا تقل في أثرها على الروح عن الصوم والزهد والتقشف.

فالنسك، إذاً، في مفهومه وجوهره الحقيقي هو عِشرة واقتراب إلى الله للحياة معه بالروح، سواء كان الجسد يشترك في هذا النسك بالصوم والزهد والتجرد والسهر وقرع الصدر والسجود المتواصل على قدر الإمكان، أو تنفرد به الروح في التسبيح والفرح والتهليل مع الشكر، فهذا كله نسك والواحد منها مكمل للآخر.

وصوم الميلاد ينتمي إلى نسك بالروح أكثر منه نسكاً بالجسد، أما الصوم الكبير فتنصبُّ فيه أعمال النسك على الجسد تؤازره فيه ألوان من الصمت والتجرد وأحاسيس التوبة الحزينة. لذلك تشدِّد الكنيسة على أن يكون الصوم الأربعيني المقدسة صوماً نسكياً كاملاً، يشترك فيه الجسد بالصوم والصمت والسهر وقرع الصدر والانضباط في كل أهواء الجسد وشهوات النفس «أقمع جسدي وأستعبده» (١ كو٩: ٢٧).

كما أنه معروف عن صوم الميلاد أنه وُضع متأخراً(٢)، فلم يكن معروفاً مثلاً أيام البابا أثناسيوس الرسولي، وقد كان هذا الصوم لا يزيد عن اليوم الواحد الذي يسمى الآن البرامون أي يوم ما قبل الميلاد. ولكن الكنيسة وضعت بعد ذلك الأربعين يوماً

---

(٢) انظر صفحة ١٠٧ و١٠٨.

تشبهاً بالصوم الفصحي، تكريماً لميلاد الرب يسوع؛ والكنيسة الأولى حينما كانت تضع شيئاً إنما كانت تضعه بإلهام الروح القدس لمنفعة المؤمنين. فهو صوم قانوني، ولكنه يتميز أساساً بالتسبيح والشكر الكثير المتواصل و بألحان الفرح بمجيء المسيح.

والآن أود أن أركِّز قليلاً على ما عمله المسيح بميلاده فيما يختص بحياتنا أو فيما يختص بمجيئنا إليه. فالله أرسل ابنه إلى العالم جهاراً، منظوراً وملموساً، بعد إخلاء فائق، حتى يمكن أن يتراءى أمامنا فندركه بسر عقلي يفوق المنظور والمحسوس؛ لكي نأتي نحن إليه بهذه العلانية ولكن من خلال هذا السر الفائق عينه أي في مضمون الإخلاء الذي يتحتم أن نجوزه، لكي نتراءى أمامه. لذلك يقول المسيح بكل صراحة وعلانية: «إن كان أحد يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (لو١٤: ٢٦).

أما قبل مجيء المسيح ابن الله وظهوره بالجسد، فكان من العسير جداً على الإنسان أن يقترب من الله. فالله حق مطلق غير متجزىء، ووجود مطلق غير محدود، وقدرة مطلقة ونور مطلق، وحب مطلق ليس فيه تغيير ولا حركة ولا زمان، ولكنه ضابط لكل حركة وتغيير وزمان. فكيف يدركه الإنسان، والإنسان محدود في كل شيء وواقع تحت الحركة والتغيير والزمان؟ والله إذ كان يعلم هذا ويشفق على ذهن الإنسان المحدود والكليل، أعطاه بعضاً من كلماته ووصاياه التي تعكس شيئاً من ذلك الحق والنور والحب والوجود، لكي إذا ما أكملها الإنسان أحس بالله ولو من على بُعد. لذلك كان على الإنسان في سابق الأزمان أن يأتي مئات وألوفاً من الوصايا والنواميس المتعددة لكي يشعر بالقربى من الله ولو على بُعد. ولكن وفي النهاية أحس الإنسان أن هذه كلها لا تُشبع ضمير الإنسان كما يقول إشعياء النبي: «حقاً أنت إلهٌ محتجب يا إله إسرائيل المخلِّص» (إش٤٥: ١٥)، أو كما يقول القديس بولس الرسول: «... تُقدَّم قرابين وذبائح لا يمكن من جهة الضمير أن تكمِّل الذي يخدم» (عب٩: ٩).

لهذا أرسل الله ابنه إلى العالم حاملاً كل ملء اللاهوت جسدياً، فظهر الله للبشر، أي جاء هو وحلَّ بيننا.

وهكذا بمجيء المسيح إلى العالم مولوداً في بيت لحم، دُعي الله «عمانوئيل» في شخص المسيح، أي «الله معنا». وبهذا صار المسيح الجوهر الإلهي المعلَن والمدرَك لجوهر الله غير المعلَن وغير المدرَك، وصار المسيح للإنسان كفاية كل الكفاية عوض كل الناموس والوصايا وكل الكلمات والنبوات، لأن فيه و به استُعلن الله للإنسان استعلاناً كلياً وكاملاً ونهائياً: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤: ٩).

لذلك يقول بولس الرسول، وهو أشد من تمسك بالناموس والوصايا، يقول بعد ما تعرَّف على المسيح وآمن به: «لكن ما كان لي ربحاً (الناموس والوصايا) فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة، بل إني أحسب كل شيء أيضاً (عضوية السنهدريم ومركز الفريسية المرموق) خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي الذي من أجله خسرت كل الأشياء (إذ لا يمكن الجمع بين المسيح والناموس) وأنا أحسبها نفاية لكي **أربح المسيح وأُوجَد فيه** وليس لي بري الذي من الناموس بل الذي بإيمان المسيح، البر الذي من الله بالإيمان» (في٣: ٧-٩).

إذاً، فقد صار المسيح عوض الناموس والوصايا والفرائض، بل والوحيد، وليس اسم آخر تحت السماء يستطيع أن يعلن لنا الله ويُقرِّبنا إليه و يوجِدنا فيه!!!

فنظرتنا لميلاد المسيح على مستوى التجسد الإلهي في هذا الصوم هي في الحقيقة فتح القلب والذهن للإحساس بالله الذي جاء إلينا في إخلاء منقطع النظير. فالمطلق صار محدوداً، وغير الزمني صار تحت الزمن، وذلك كله لكي نراه ونعرفه ونحبه تماماً كما يرانا ويعرفنا ويحبنا.

لذلك فميلاد المسيح ليس حادثة زمنية، ولكنه اقتحام الأبدي للزمن لتغطية عجزه وقصوره. فقد اقتحم المسيح الزمن ليلاشي كل أخطائه ويكمل أعوازه منذ أن بدأ الزمن وحتى إلى نهاية الدهور. والمسيح كلمة الحياة لم يُلغِ الزمن، ولكنه ألغى أخطر مفاعيله وهو الموت، إذ بقيامته من الموت أدخل إلى الإنسان عنصر القيامة، فصار الزمن بالنسبة للإنسان المسيحي حركة تَجَلٍّ، يرى من خلال أتعس ساعاته نور الأبدية وأفراحها. فإننا الآن إذا ما وقفنا نصلي بالروح والحق فإننا ندخل إلى حركة الوعي بالحياة

الأبدية، وإذا قرأنا الإنجيل بحضرة المسيح فإننا ننفتح على ملكوت الله. وهكذا أصبح الزمن في المسيح واسطة متكررة للتجلي، وطريقاً حياً مفرحاً للدخول فيما وراء الحاضر المعتم، الشيء الذي تعذَّب من أجله الفلاسفة والحكماء كثيراً وفي كل العصور وهم يلهثون وراء هذه الرؤيا ولو بإطلالة قصيرة تكشف لهم عما وراء بؤس الحاضر الزمني.

كل هذا كشفه المسيح بمجيئه وأنهاه، لأنه استعلن الله والحق والأبدية بميلاده في داخل الزمن، ثم ارتقى بكل ما هو زمني وارتفع به إلى السماء. فأصبح وجوده معنا على الأرض بهذه الصورة الدائمة وكأننا قد صرنا في حالة تجلٍّ. أليس هو نفسه الحياة الأبدية، وبه صار ملكوت الله داخل الزمني: «ها ملكوت الله داخلكم» (لو١٧: ٢١)؟ والإنسان الذي كان ابناً للموت صار صاحباً للحياة الأبدية!! فحينما يقف الإنسان بروح المسيح للصلاة، فإنه يمتد مخترقاً الحاضر الزمني إلى ما وراء الزمن، فيتخلَّص في ومضة من ربقة حركة الزمن والتغيير، بكل ما تحمله من معاناة ومآسي، ليدخل إلى السعة الأبدية بلا قيود، ويحس بالله والحب والفرح والوجود اللانهائي ويتنعَّم بسبق التذوُّق لما سيكون.

فميلاد المسيح، في الحقيقة، ارتقى بجوهر الزمن — إن صحَّ القول أن للزمن جوهراً — كما ارتقى أيضاً بجوهر الوجود المادي، إن كان للوجود المادي أي جوهر. غير أن المسيح لم يُلغ شيئاً ولكن كل شيء تجلَّى فيه، بمعنى أنه امتد به من حيِّز المحدود إلى المطلق، ومن ربقة الزمن إلى الخلود، ومن بؤس حركة التغيير التي تعمل دائماً لحساب الموت بالنهاية، إلى ملء الحق والكمال والحياة.

أليس عجباً أن يصبح في مقدور الإنسان أن يوقف حركة الزمن في أية لحظة، ليخرج بإرادته في خفة الروح وعمق الصلاة ليطل من خلال حركة الحب الإلهي إطلالة يرى فيها الأبدية ويسعد عن قرب بوجه الله؟! ثم أليست هذه هي الحياة الأبدية عينها التي دُعينا إليها، وهي هي ملكوت الله الذي نطلبه وهو داخلنا؟ فمجيء المسيح إلى العالم أعطانا فرصاً جديدة ومستمرة للخروج من ربقة الزمن وضيقاته وأتعابه، لنجد راحتنا الحقيقية فيه. فالعجب كل العجب من الإنسان الذي نال المسيح ثم يعود

فيشكو من انحصار الزمن أو من ربقة أتعابه وآلامه. أليس المسيح هو حقاً و بالحقيقة راحتنا العظمى بل سعادتنا التي تتحدى كل مآسي هذا الزمان؟

تحضرني الآن قصة سمعتها منذ فجر شبابي عن صبي عمره ١٢ سنة، أصيب في ركبته وهو يلعب الكرة، وتورم مكان الإصابة ثم تحولت الأورام إلى سرطان، ولم يكن له وقتها علاج يُذكر. فلما تيقنت الأم أن ابنها قادم على الموت لا محالة، وكانت أمًّا تدرك معنى الإيمان بالمسيح وفاعليته، قرَّرت أن تمهد للصبي وتعده لرحلته السعيدة إلى السماء. فبدأت تلقنه معنى ربح الموت مع المسيح ويقينية السعادة الأبدية في السماء، أما هو فكان يسألها عن كل شيء وكانت هي بدورها تجيب بكل صدق وحب وإيمان، حتى صار يسألها بشغف كل يوم عن موعد انتقاله إلى السماء، وكأنه ذاهب إلى العيد. وكان الصبي قبل أن يدرك الشركة مع المسيح في الموت يصرخ من آلامه صراخاً مروعاً يقلق البيت كله، وكان يُحزن قلوب كل من يراه. أما بعد ما عرف المسيح وأنه سينتقل إلى السماء قريباً ليصير معه وليدخل إلى فرحه الأبدي، وأحس بالمسيح و بقربه؛ ابتدأ يصلي كما علَّمته أمه وابتدأ يعد نفسه للانتقال. وهكذا ابتدأ هذا الصبي الصغير يختبر الخروج من تحت ربقة الزمن ومن تحت سطوة آلامه المبرحة ليدخل حقاً في مجال سلام الروح والحياة الأبدية، وصار وجه الولد مبتهجاً دائماً بفرح حقيقي، فكانت أمه تسأله عما يفرحه، فكان يجيبها قائلاً إنه يحس بالمسيح يناديه.

هذه قصة من آلاف القصص، وهي تعني أن آلام الحياة — وأوضحها آلام المرض، ولو أنها ليست أشدها — هذه الآلام يمكن أن تفقد سطوتها وتتلاشى إذا ما انفتح القلب للمسيح وأحس بقربه، إذ تأتلف روح الإنسان بالمسيح وترتاح فيه، فيفقد الزمن ثقل وجوده وسطوة حركة تغييره، فيدخل الإنسان في مجال الروح و يقترب من الله ويغشى هدوء الأبدية، والله معروف عنه أنه «الذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران» (يع١: ١٧).

ويقص علينا كتاب بستان الرهبان عن القديس أرسانيوس الذي كان يقف للصلاة والشمس خلفه في الغروب وإذا بها تشرق أمام وجهه في الصباح دون أن يحس

بالاثنتي عشرة ساعة التي وقفها في الصلاة، لأن روحه دخلت مجال اللازمني. هذه طبعاً إحدى خبرات الحياة النسكية البسيطة، فالإنسان في بداية وقفاته في الصلاة يشعر بالتعب والملل ويحاول أن يستند على الحائط أو يثني ركبته، فإذا لم يجهد نفسه أن يقتحم حاجز الملل ويصلب نفسه في الصلاة فلن يدخل في أسرارها العجيبة حقاً. وهذه أبسط أسرار الحياة مع المسيح، فالصلاة مفتوحة لكل إنسان حتى ولو كان مبتدئاً في الإيمان.

دخول المسيح إلى العالم، إذاً، كان لكي يعطي الإنسان فرصة الاقتراب منه، الاقتراب الذي ينتهي بالالتحام حين يثبت الإنسان في المسيح والمسيح يثبت فيه، حسب الوصية: «اثبتوا فيَّ وأنا فيكم» (يو١٥: ٤)، وما قاله بولس الرسول أيضاً: «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» (غل٢: ٢٠). هنا الحياة الزمنية ابتُلعت في المسيح وسادت الروح على الجسد؛ علماً بأن القديس بولس الرسول عانى من الآلام ما لا حصر له، لكنه كان في نشوة الروح لا يحسبها شيئاً مقابل المجد الذي تيقن أن سيُستعلن فيه: «فبكل سرور أفتخر بالحري في ضعفاتي لكي تحلَّ عليَّ قوة المسيح. لذلك أُسَرُّ بالضعفات والشتائم والضرورات والاضطهادات والضيقات لأجل المسيح» (٢كو١٢: ٩و١٠)، «إن خفة ضيقتنا الوقتية تنشىء لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً» (٢كو٤: ١٧). فكل ألم في المسيح يقابله مجد بالروح، هذه هي المعادلة المطروحة أمام كل إنسان للاختيار. فإما يعيش الإنسان بعيداً عن المسيح مغلوباً تحت وطأة هذا الزمان، وإما مع المسيح يحيا في ملء الخلاص الأبدي. فالمسيح جاء إلى العالم واقتحم الزمن ليعطينا الغلبة على الجسد والعالم: «ثقوا أنا قد غلبت العالم» (يو١٦: ٣٣).

□

فإن كنا اليوم نعد نفوسنا بالصوم لكي نستقبل الميلاد الحقيقي للمسيح فينا، فأتمنى جداً أن نبدأ من الآن لكي نعيش سر الميلاد. فالمسيح جاء إلى العالم لكي نجيء نحن إليه، ولكنه جاء إلينا بعد أن أكمل إخلاء ذاته إخلاءً؛ آخذاً صورة عبد مهان وهو على نفس المستوى يدعونا إلى إخلاء مشابه: «إن كان أحد يأتي إليَّ ولا يبغض

أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (لو١٤: ٢٦).

هذا الإخلاء، أو هذا التجريد، أو هذه الإماتة، هي سر التحول الأعظم من الزمني إلى اللازمني، ومن الموت إلى الحياة، ومن الحياة تحت ربقة الجسد إلى النصرة فوق العالم والدخول إلى سر الوجود الأعظم.

ولكن كل ما قلته حتى الآن عن مجيء المسيح إلى العالم وما ترتب على هذا المجيء من اقتحام الزمن ورفع آثار التغيير التي تعمل لحساب الموت بالنهاية، فهذه كلها سلبيات؛ فإذا كانت السلبيات لها كل هذا الجمال، فما بالك إذا ما تحدثنا عن الإيجابيات التي ترتبت على ظهور ابن الله بالجسد؟! وأولها أنه عرَّفنا بالآب الذي لم يكن ممكناً فيما سبق لأي إنسان أن يتعرف عليه، سواء كانوا آباءً أو رسلاً أو أنبياءَ أو أيَّ بشر منذ بدء الخليقة. ولكن بميلاد الابن استُعلن الآب لرسله وأنبيائه بالروح بواسطة المسيح: «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو١: ١٩). فسِرُّ الآب، أي حقيقة الله كآب، هو سر مخفي عن كل من لم يستعلن حقيقة الابن الذي بواسطته صرنا نقول إن الله هو أبونا، أو ندعو الله أبانا! الأمر الذي يستحيل على كل ذي جسد، فالله لا يُقترب منه: «ساكناً في نور لا يُدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه» (١تى٦: ١٦).

ولكن الله صار أباً لنا بمجيء المسيح، فبميلاد الابن قبلنا سر الآب واستُعلن لنا سر الثالوث الذي هو عمق أعماق الله، أي استعلان فعالية الحب الأبوي والحب البنوي وروح التقديس في الله من نحونا. فبمجرد أن ندرك الثالوث بالإيمان ندخل في أسرار حب الله المنسكب على الخليقة كأب، بواسطة الابن، في تقديس الروح. وهذا هو غاية الإدراك ومنتهى المعرفة، إذ أن الله بإعلانه سر فعالية الحب والتقديس القائم فيه، أي في الثالوث، للبشر يكون قد ابتدأ يكشف للإنسان أعماق نفسه من نحونا، التي تتلخص في الحب والتقديس. وهذا شيء يذهل العقل و يفوق كل استحقاق.

هذا كله نلناه بميلاد المسيح، و بغير ميلاد المسيح ما كان ممكناً لله أن يكشف حبه

الأبوي للإنسان، ولا كان باستطاعة أي إنسان أن ينال التبني بدون الابن، ولتعذر التقديس بدون الروح القدس ولاستحال الاقتراب كلية من الله. إذ كيف يصير الله لنا أباً دون أن نصير له أبناء أولاً؟ ثم كيف نصير لله أبناءً دون أن نأخذ حق التبني لله بواسطة دالة ابن الله نفسه؟ ولكن كيف نستحق أن نكون أبناءً في الابن إذا لم نتقدس أولاً بالروح القدس؟ هذه هي فعالية الثالوث الإلهي فينا، أو هذا هو منتهى استعلان الله لنا. فالثالوث هو سر حياتنا الجديدة في الله... وكان ميلاد المسيح هو الكشف الأعظم لسر الله في ذاته من نحونا.

هذه هي أولى الإيجابيات: سر معرفة الله كأب. فقد كنا بدون المسيح يتامى بلا أب، عبيداً وبلا إله في العالم. أما اليوم، وبسبب المسيح، أصبح الروح القدس نفسه يصرخ داخلنا مخاطباً الله بفمنا: «يا أبا الآب». فقد صرنا في المسيح أبناءً لله ومقدَّسين بالروح.

هناك أمر آخر عجيب جداً قد صار لنا بميلاد المسيح، وهو ما عبَّر عنه الرب يسوع بقوله: «**كما أحبني الآب** كذلك أحببتكم أنا» (يو١٥: ٩)!! إلى هذا الحد يتطابق ويتساوى حب الآب للابن بحب الابن لنا! هذا أمر مذهل حقاً، بل كشف آخر عميق وخطير لسر الحب القائم في الثالوث من نحونا. فحب الآب المنسكب في الابن صار لنا بالروح القدس الذي سكبه الله علينا ليسكن فينا: «لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا.» (رو٥: ٥)

من يقدر أن يتصور هذا، أن الله ــ الذي هو نور لا يُقترب منه لا بالعقل ولا بالتصور ــ قد صار حبه الآن يتدفق في قلب الإنسان بمقدار حبه للابن! إن العلاقة التي تربط الآب بالابن التي كانت سر الأسرار، السر المخيف والعميق، الذي لا يقدر الإنسان أن يسبر غوره، هذا يقول الرب عنه أنه صار في متناول الأطفال: «أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال. نعم أيها الآب لأن هكذا صارت المسرة أمامك. كل شيء قد دُفع إليَّ من أبي. وليس أحد يعرف الابن إلا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن

له» (مت١١: ٢٥ـ٢٧). فسر حب الآب للابن سر لا يمكن للإنسان أن يبلغه لا بالفهم ولا بالتصور، ولكن حالما يقبل الإنسان المسيح وينفتح قلبه بالإيمان ويحل الروح القدس، لا يصير بعد سراً، بل دفقة حب أبوي مع فرح لا يُنطق به ومجيد. فمحبة الله الآب للابن هي التي تنسكب في قلوبنا بالروح القدس الذي يمنحه الله لنا.

فمجيء المسيح إلى العالم، بهذه الكيفية، يكون قد كشف للإنسان أعظم أسرار الله، أي سر الثالوث، بل وأعطانا أعظم ما في هذه الأسرار وهي محبة الله الخاصة جداً للابن: هذا هو قصد ابن الله الوحيد الذي أعلنه بل طلبه لنا من الآب جهاراً ليلة آلامه: «**ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به** وأكون أنا فيهم» (يو١٧: ٢٦)، «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه» (يو١: ١٢).

(ديسمبر ١٩٨١)



اليوم ... وُلد لكم مخلِّص(١)

«قال لهم الملاك: لا تخافوا، فها أنا أُبشِّركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب، إنه وُلد لكم **اليوم** في مدينة داود مخلِّص هو المسيح الرب» (لو٢: ١٠و١١).

اليوم:

يتهيأ للفكر ــ لأول وهلة ــ أن قصد الملاك من كلمة «اليوم» هو الأربع والعشرون ساعة، ولكن السماء، في الحقيقة، لا تعتني أبداً بتحديد أزمنة بأيام وساعات، بل هو تعبير عن استعلان غير الزمني داخل الزمن. فالله الذي لا يُحدُّ وجوده أو عمله بالأيام دخل دائرة الزمن والحركة. هنا كسرٌ للحاجز الذي يفصل الزمني عن اللازمني من جهة الوعي البشري فقط. فالحاجز هو حاجز الرؤيا والإدراك والوعي، إذ ابتدأ الإنسان يَعي ما هو فوق الوعي، فيَحس ويَرى ويَسمع ويُدرِكُ الله الذي لم يكن يُدْرَكُ بالوعي الإنساني قط.

وكان الأنبياء قديماً يعبِّرون عن «هذا اليوم» بقولهم: «في ذلك اليوم». وقد شدَّد ملاخي النبي بصفته آخر الأنبياء عن «ذلك اليوم» (ملا ٣: ٢و١٧؛ ٤: ١و٥) في مواضع عدة من نُبوَّته، لأنه أصبح أقرب لهذا اليوم من جميع الأنبياء الذين سلفوه. وقد استشهدت الأناجيل برؤيته لهذا اليوم: «هأنذا أرسل ملاكي(٢) فيهيىء الطريق أمامي، ويأتي **بغتة** إلى هيكله السيد (الرب: **Κύριος**) الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تُسرُّون به («أردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة» ــ يو٥: ٣٥)، هوذا يأتي قال

---

(١) ملخص عظة الميلاد عام ١٩٨٣، أُلقيت بدير القديس أنبا مقار.

(٢) وهذا هو سر رسم صورة يوحنا المعمدان بأجنحة.

رب الجنود. ومن يحتمل يوم مجيئه **ومن يثبت عند ظهوره؟**» (ملا ٣: ١و٢)

هنا «**اليوم**» بمفهومه الزمني يصفه النبي: «لأنه مثل نار الممحِّص»، فالنار تعبِّر عن الاستعلان المفاجىء لطبيعة الله في الزمن في العالم: «جئتُ لألقي ناراً على الأرض» (لو١٢: ٤٩).

أما كلمة «**بغتة**» فهي لا تُقاس بالزمن أيضاً، ولكنها تعبير عن مفاجأة الشعور والوعي عند استعلان اللازمني (الله)، حيث يُصاب الوعي بصدمة، إما تضيئه إذا كان مُعَدًّا ومستعداً، وإما تحرقه إذا كان معانداً رافضاً: «**ومن يحتمل يوم مجيئه ومن يثبت عند ظهوره**»؟

+ «فهوذا يأتي اليوم المتَّقد (يوم الرب) كالتنُّور. وكلُّ المستكبرين وكل فاعلي الشر يكونون قشاً ويحرقهم اليوم الآتي...» (ملا ٤: ١).
+ «ولكم أيها المتَّقون اسمي، تُشرق شمس البر (نور) والشفاء في أجنحتها» (ملا ٤: ٢).

فيوم مجيء الرب: «إنه وُلد لكم **اليوم... مخلِّص**» لا ينقطع استمراره لأنه مرتبط بديمومة الرب نفسه و بعمله المستمر «الخلاص»، كفعل **هنا**، وكنتيجةٍ **هناك**. وعلى هذا اليوم الممتد عَبْر الخلاص ينفرش الفرح بقوة كقوة لهيب النار: «ها أنا أُبشِّركم بفرح **عظيم** يكون **لجميع** الشعب» (لو٢: ١٠). فالفرح **عظيم!** فأن يستوعبه **جميع** الشعب فهذا يوضح مدى العمق والارتفاع والامتداد لهذا اليوم، فهو «**يوم الخلاص الأبدي**».

ويقابله في الإنجيل اليوم الآخر أو الآخرة، الذي يوازيه في الديمومة وفي العمق والامتداد، وفي استعلان عمل الله ــ إنما على مستوى غضب الله ــ داخل الزمن، حيث الحروب (الجمع هنا يفيد التنوع وليس مجرد الكثرة) هي حرب الجسد وحرب الأيديولوجيات وحرب العداوة العنصرية وحرب القوات الخفية المفسدة. وحيث الأوبئة هي أوبئة الأمراض والأخلاق والجنس والمخدرات. والمجاعات: مجاعة إلى الخبز

وبجماعة إلى الطهارة وبجماعة إلى الكلمة وبجماعة إلى المحبة وبجماعة إلى السلام. وزلازل تصدع الأرض والأبنية والتقاليد والأفكار والثقة ... إلخ.

لذلك، فاليوم الآخر ممتد عبر عصور منهارة، وليس محدداً بفترة زمنية. وهو لا يأتى فجأة بالمفهوم الزمني، أي بوقف عقارب الساعة لكي تعلن بدايته؛ ولكن هذا اليوم يقتحم مسار الزمن من مواضع عدة حيث يُستعلن غضب الله في انهيار نظم الحضارة المجنونة الكاذبة من جوانبها الشامخة، وحيث تنهار أيديولوجيات وتُفتضَحُ نُظم، ويكتشف الإنسان فداحة الضريبة التي فرضها على نفسه بابتعاده عن وصية الله. ولكن لن تكون هناك رجعة لأن الإنجيل يقول إن هذه الحروب لابد أن تأتى وتمتد وتكمل.

ولكن يمتاز يوم مجيء الرب واستعلان حضرته في هيكله، أعني به يوم ميلاده الذي يمتد حتى الصليب والقيامة ويتجاوزه حتى إلى حضوره في مجيئه الثاني ـــ يمتاز هذا اليوم عن اليوم الآخر بأنه يوم الخلاص الذي يكمل بالمجيء الثاني للرب و باستعلان مجده الأبدي، أما اليوم الآخر فيكمل بالدينونة الأبدية. ولكن كلاً من هذين اليومين يضرب جذوره في أعماق الزمن ويتجاوزه إلى الأبدية.

وُلد لكم اليوم:

يوم الميلاد هذا، الذي كان في ليلة حالكة الظلام، صار فجر العالم الجديد الذي أشرقت فيه شمس البر التي لا تغيب، فهو:

أولاً: اليوم الفاصل بين
الزمن الذي يصنعه الإنسان، والزمن الذي صنعه الرب:

فهو اليوم الذي قيل عنه في المزمور: «هذا هو اليوم الذي **صنعه الرب**، نبتهج ونفرح فيه» (مز١١٨: ٢٤)، وهو الذي ترتل له الكنيسة بالفرح والتهليل في لحنها المعروف: [هلليلويا فاي بابي إهوؤو]، فهو يوم صنعه الرب للبشرية لخلاصها، هو يوم غير جميع أيام الإنسان، يوم عزيز ومعتز، يخسف جميع الأيام ويلغيها، ليس إلغاءً

يجعلها بلا زمن وبلا عمر، ولكنه يلغي كل همومها وآلامها وأوجاعها وقصورها وخطاياها وتعدياتها. فهو ليس يوماً زمنياً يحمل آثار الماضي بذِلّته وزَلاّته ولا أوهام المستقبل غير اليقيني، ولكنه يوم ضاربٌ جذورَه في أعماق الأبدية، في الخلود، في الله، كل ما فيه حق وفرح ونعمة وسرور وامتداد ولا موت، فيه انفتحت الأبدية على الزمن فصار هذا اليوم.

وفي الخبرة الروحية الدخول في هذا اليوم هو بدء تجلٍّ، يتغير ويتجدد فيه كل شيء، فهو يوم غسيل البشرية وتجديدها الأبدي، اليوم الذي ظهر فيه مخلِّصنا الصالح في عالم الموت والفناء، عالم الدموع والتنهد والبكاء. هو يومٌ وُضع تاجاً على رأس جميع الأيام. وفي أيِّ يوم من أيام حياتنا نحزن ونكتئب، علينا فقط أن نرفع قلوبنا وعيوننا إلى هذا اليوم، فتُغسل كل همومنا وأحزاننا وآلامنا وندخل في الفرح الأبدي وبهجة الخلاص التي بلا حدود، يوم فرح عظيم يكون لجميع الشعب.

ثانياً: وهو اليوم الفاصل بين
العهد القديم والعهد الجديد:

وقد عبَّر الرب يسوع نفسه عن هذا الفصل بين القديم والجديد بقوله: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء... وأما أنا فأقول لكم...» (مت ٥). ولكنه ليس فصلاً بقصد الإلغاء وإنما للتكميل: «ما جئت لأنقض بل لأكمِّل» (مت٥: ١٧). فهو فصل بغرض الوصل، الفصل بين عهدين على مستوى حياة أخفقت وحياة أشرقت، أما الوصل فهو التكميل: «قيل للقدماء لا تقتل... أما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم» (مت٥: ٢١و٢٢). فالوصل هنا جاء بعمل شفاء وتطبيب لجراح البشرية، أعطاها قوة وقدرة ونعمة أن يكون في إمكان الإنسان التافه ابن الغضب ألاّ يغضب.

وفي هذا تحقيق لنبوة إرميا النبي القائلة: «ها أيام تأتى يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً. ليس كالعهد الذي قطعتُه مع آبائهم يوم أمسكتُهم بيدهم لأُخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي فرفضتهم، يقول الرب،

بل هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام، يقول الرب، أجعلُ شرائعي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم، وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً، ولا يعلِّمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب، لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم يقول الرب، لأني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد» (إر٣١: ٣١—٣٤).

ثالثاً: وهو اليوم الفاصل بين ماضٍ حُسب ميتاً كتاريخ، وبين حاضر دائم لا يموت، لأنه يمتُّ إلى الأبدية:

فهو اقتحام من اللازمني في الزمن، طعَّم الزمن بالخلود. إذ أخذ جسدنا المحدود ووحَّده بلاهوته فصار غير محدود! وهكذا رفع عن المحدود محدوديته، وأزال كل عوائق الاتحاد بالله.

وهذه هي شهادة يوحنا الحبيب في رسالته الأولى: «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة؛ فإن الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا. الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا. أما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح. ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً» (١يو١: ١—٤).

وفي التسبحة في ثيئوتوكية الأربعاء نُسبِّح مع الكنيسة قائلين:

[غير المبتدىء ابتدأ، وغير الزمني صار زمنياً،
غير المدرَك لمسوه وغير المرئي رأوه] — كتاب التسبحة السنوية.

في هذا اليوم اقتحم الرب الزمن الميت وعالم الإنسان بتاريخه الحقير، ليمحو منه كل صفحاته السوداء ويُعيده إلينا مرة أخرى حاضراً دائماً ضارباً أعماقه في الماضي حتى آدم، حتى قلب الله، وضارباً جذوره في المستقبل المبهم ليجعله مستقبلاً خاضعاً للوعي البشري وخاضعاً للرؤية والمشاهدة.

في هذا اليوم صار جسدنا الميت قابلاً أن يحمل الروح القدس، وأن يصير هيكلاً لله، وقابلاً أن يأخذ تجديداً يمحو منه كل صفاته الوراثية التي أخذها من آدم، إذ يولد ولادة جديدة من الله فيصير ابناً لله.

رابعاً: وهو اليوم الفاصل بين السر المخفي منذ الدهور الذي لم يُعرَّف به بنو البشر (أف٣: ٥)، وبين استعلان هذا السر:

لأن السر هو يسوع المسيح، فهوذا بولس الرسول يقول لأهل أفسس: «إنه بإعلان عرَّفني بالسر. كما سبقتُ فكتبتُ بالإيجاز، الذي بحسبه حينما تقرأونه تقدرون أن تفهموا درايتي بسر المسيح، الذي في أجيال أُخر لم يُعرَّف به بنو البشر كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح: أن الأمم شركاء في الميراث والجسد...» (أف٣: ٣—٦)

هذا هو الجسد المقصود الذي صار الأمم شركاءَ فيه، الجسد المولود في بيت لحم، الذي استطاع أن يكشف لنا سر الله المكتوم منذ البدء منذ الخليقة، إذ كشف لنا حب الله للبشرية وقدرته على تخليصها من ذنوبها وآثامها وآلامها بشيء لا يمكن أن يتصوره عقل بشري! بجسدٍ نأخذه ونأكله ويحتل كل كياننا الفكري والجسدي والروحي.

فهو يوم فاصل بين الجهل بمحبة الله وحنوِّه ورحمته، وبين استعلان هذه المحبة استعلاناً ليس على مستوى الفكر والإدراك، بل استعلان واقعي عملي مأخوذ ومأكول ومشروب.

فلكي لا يبقى إنسان جاهلاً بحب الله ومراحمه الأبدية وتحننه وقُرْبه العجيب للإنسان، لم يقترب إلينا بفكر أو بعمل محدود يفصله عنا شيء زمني أو مادي، بل صارت القُربى اتحاداً بجسدنا، بلحمنا وعظمنا لكي يُؤهَّل الإنسان لهذا الجسد عينه فيأكله بالسِّرِّ. لأن سِرَّ الله لا يكفي أبداً أن نعيه حسياً؛ بل أن نأخذه روحياً في قلوبنا بالإيمان. فنحن حينما نأكل القربانة من على المذبح نأخذ جسد المسيح الكلي، جسده الذي اتحد بلاهوته، مثلما قال القديس إيرينيئوس عندما كان يحاجج رجلاً يهودياً:

[نحن الذين أكلنا الإفخارستيا كيف يمكن أن لا نقوم في القيامة ونحن قد أكلنا القيامة ؟]

خامساً: وهو اليوم الفاصل بين الظلمة والنور:

عبَّر عن ذلك إشعياء النبي في العهد القديم بقوله:

+ «الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً، الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور» (إش ٩: ٢، مت ٤: ١٦).

ثم جاء زكريا الكاهن أبو يوحنا المعمدان فأضاف إلى نبوة إشعياء قوله:

+ «بأحشاءِ رحمةِ إلهنا التي بها افتقدنا المُشرَق من العلاء، ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت لكي يهدي أقدامنا في طريق السلام» (لو١: ٧٨و٧٩).

ولما حمل سمعان الشيخ الرب يسوع على ذراعيه بارك الله قائلاً:

+ «الآن تُطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام، لأن عيني قد أبصرتا **خلاصك**، الذي أعددته قدام وجه جميع الشعوب، **نورَ** إعلانٍ للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل» (لو٢: ٢٩ـ٣٢).

أما يوحنا الرسول فيصف دخول هذا النور إلى العالم بقوله:

+ «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس، والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه ... كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم» (يو١: ٤و٥و٩).

يصف القديس يوحنا الإنسان حينما كان حياً بالله يعيش في نور هذه الحياة، بغرائز مهذبة كما خلقها الله. ثم لما خالف الله علَّم غرائزه التوحش بانحرافه واندفاعه وراءها، حتى أصبحت هذه الغرائز كوحوش ضارية تعيش في جُبٍّ مظلم يخيم عليها الموت، إلى أن أشرق عليها النور ثانية ليعيد إليها الحياة.

والنور هنا في الحقيقة يُؤخذ على محملين: محمل ذاتى، ومحمل موضوعي. ففرقٌ بين

أن أعيش في النور وأن أعيش مع النور.

فالنور العادي هو شيء موضوعي يمثل المعرفة ويمثل الطهارة والانسجام والاستقامة، فهو عالم النور الذي نعيش فيه، أما النور نفسه الذي هو المسيح نور العالم وأبو الأنوار فهو النور الذاتى، النور نفسه الذي يسلِّم لنا هذه الأشياء فيصير لنا النور. ففرقٌ بين أن أمشي في النور، وهذا من واجب الإنسان: «النور معكم زماناً قليلاً بعد. فسيروا ما دام لكم النور» (يو١٢: ٣٥)، وبين أن آخذ النور فأصير نوراً، وهذه عطية الله وهِبَة الله لنا بالمسيح: «أنتم نور العالم» (مت٥: ١٤)، «فليضيء نوركم هكذا قدام الناس» (مت٥: ١٦)، «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» (غل٢: ٢٠).

فإشراقة النور على الجالسين في الظلمة ليست نوراً محيطاً، ولا هي معرفة مجرد معرفة، بل هي إشراق ذاتى، إشراق الله كنور أبدي يشرق على الجالسين في الظلمة وظلال الموت، فيرفع عنهم الظلمة ويرفع عنهم الموت ويعطيهم الفرح والسرور والبهجة.

قبل هذا اليوم العظيم كان للشيطان مجال وعالم ووجود داخل الإنسان، وهذا ما نسميه عالم الظلمة: «من يُبغض أخاه فهو في الظلمة وفي الظلمة يسلك، ولا يعلم أين يمضي لأن الظلمة أعمت عينيه» (١يو٢: ١١)، أي أن البغضة والعداوة أعمت حواس الإنسان الروحية، وأعمت وسائل الرؤية ووسائل المعرفة لديه وبالتالي الحب، وأفقدت وسائل الإبصار الإلهية التي فينا أي المقدرة على رؤية الله، وهكذا يصير الإنسان في ظلمة ولا يعلم أين يمضي ويفقد أعضاء الإحساس بالله وأعضاء الحب التي خلقها فينا الله.

ولكن اليوم أشرق المسيح، النور الذي أضاء في الظلمة والذي لم تدركه الظلمة، لكي يعيد البصر لحواسنا التي أعمتها الظلمة.

سادساً: وهو اليوم الفاصل بين الخوف والحزن والبكاء والتنهد في أغلال الخطية وبين الفرح العظيم بالخلاص:

+ «قال لهم الملاك: لا تخافوا، فها أنا أُبشِّركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب،

إنه وُلد لكم اليوم ... مخلِّص هو المسيح الرب» (لو٢: ١٠و١١).

في العهد القديم كان ظهور الملاك لأي إنسان دائماً يُرْعِب ويخيف، فيقول له الملاك: لا تخف. وكان لما ينكشف الستار قليلاً للأنبياء فيرون شيئاً من الله يرتعبون ويقعون على وجوههم. حدث ذلك لدانيال الرجل المحبوب الذي وصف حاله قائلاً: «رأيت هذه الرؤيا العظيمة ولم تبقَ فيَّ قوة، ونضارتي تحوَّلت فيَّ إلى فسادٍ ولم أضبط قوةً... ولما سمعت صوت كلامه كنت مُسبَّخاً على وجهي ووجهي إلى الأرض. وإذا بيد لمستني وأقامتني مرتجفاً على ركبتي وعلى كفَّيْ يديَّ... فقال لي لا تخف يا دانيال... وأنا سمعتُ وما فهمتُ» (دا١٠: ٨ــ١٢؛ ١٢: ٨).

هذا هو ما حدث في العهد القديم ... ولم يستطع دانيال الرجل المحبوب أن يفهم شيئاً من الرؤيا. أما اليوم في العهد الجديد فقد قال الملاك للرعاة: «لا تخافوا، فها أنا أبشِّركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب إنه وُلد لكم اليوم... مخلص هو المسيح الرب».

لما ظهر لهم الملاك «خافوا خوفاً عظيماً»، لذلك قال لهم الملاك: «لا تخافوا»، وهذا أمر طبيعي، فكل إنسان يقترب من الله لابد أن يشعر بالخوف. في حضرة الله تنكشف الضمائر والقلوب، ويرتد الإنسان إلى ماضيه وخطاياه فيرتعب. إشعياء النبي حدث له ذلك حينما انكشف له مجد الله: «رأيتُ السيد جالساً على كرسي عالٍ ومرتفع، وأذياله تملأ الهيكل (,, ومجده يملأ الهيكل ،، ــ بحسب السبعينية)... فقلت: ويل لي إني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين، وأنا ساكنٌ بين شعب نجس الشفتين لأن عينيَّ قد رأتا الملك رب الجنود. فطار إليَّ واحد من السَّرافيم و بيده جمرةٌ قد أخذها بملقط من على المذبح ومسَّ بها فَمِي وقال إن هذه قد مسَّت شفتيك فانتُزع إثمك وكُفِّر عن خطيتك» (إش٦: ١ــ٧).

لابد أن نترجم ما حدث لإشعياء النبي بأنه رؤية حقيقية سليمة بالنسبة لحياتنا وسلوكنا في حضرة الله. في حضرة الله، مَنْ لا يخافُ فهو لم يرَ شيئاً، ومَنْ لا يرتعبُ فمعناه أنه لم يقترب ...

وأما في حضرة المسيح وفي رؤية الخلاص الدائم، وفي انفجار هذا النور الذي أشرق لنا من العلاء بأحشاء رحمة إلهنا، فقد تحول الخوف العظيم إلى فرح عظيم جداً، فرح «لا يُنزع منكم» (راجع يو١٦: ٢٢).

فاليوم، يا أحبائي، وُلد لنا: الحد الفاصل أو الحد الواصل ما بين رعبة الخوف وما بين شدة الفرح. هذه هي إحدى الوجبات التي نتناولها كل يوم من على مائدة الرب، فيها نحوِّل الرِّعبة إلى قُربَى، ونحوِّل الخوف إلى فرح عظيم! هذه وجبة يجب أن نتعلم كيف نأكلها! فحينما يرجع الإنسان إلى نفسه ويرى خطاياه و يقرع صدره، لابد أن تنفتح عيناه على المسيح ليستمد منه الخلاص والقوة والفرح.

ولكن إن كان إنسان يفرح دون أن يكون عنده المخافة، ففرَحُه هذا مزيَّف. إنسان يتهلل ويدَّعي أنه خَلُص وهو ما زال غارقاً في خطاياه، فهو كذاب. ولكن الفرح نفرح به ونتهلل حينما نشعر أن عنصر التحويل قائم فينا، يحوِّل الخوف إلى فرح، والضعف إلى قوة، والخطية إلى برٍّ. وهل هذا ممكن؟ نعم، وبكل تأكيد: «حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً» (رو٥: ٢٠). وكيف يكون هذا؟! لأنه كلما ازدادت الخطية، وكلما شعرتُ بازديادها جداً، وعرفتُ مَنْ أنت وآبن من أنت، وأنك آبن التراب وآبن الأموات وآبن الخطية؛ تستغيث فتأخذ وتنال النعمة والقوة والفرح بالمغفرة.

سابعاً: وهو اليوم الفاصل بين الغضب الإلهي الذي أغلق على الجميع في العصيان (التعدي) وبين الرحمة الإلهية، لكي يرحم الجميع:

فقد أغلق الله على الجميع في العصيان بواسطة الوصية والناموس: «لأن جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة، لأنه مكتوبٌ: ملعونٌ كلُّ مَنْ لا يثبت في جميع ما هو مكتوب في كتاب الناموس ليعمل به» (غل٣: ١٠).

هذا هو الناموس، هذا هو الحرف الذي يقتل؛ أما الروح، فإن قلت: «أنا أخطى الخطاة»، يقول لك: «اليوم تكون معي في الفردوس». هذا اللص الذي لم يصُم ولم يُصلِّ ولم يسجد ولم يُسبِّح ولم يحفظ الإنجيل ولا المزامير... ولكنه صرخ من كل قلبه

قائلاً: «اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك»، قال له: «اليوم تكون معي في الفردوس...» (راجع لو٢٣: ٣٩–٤٣)!!

هذه هي الصرخة التي تستطيع أن تنقل أخطى الخطاة إلى برّ الله! وعوض الحزن والكآبة والتنهد يجعلك تعيش في حضن الآب بنور أبدي نور القديسين، هنا وهناك.

فالغضب الإلهي لم يكن ظلماً، ولكنه كان وصايا وقانوناً وضعه الله حتى إن كلّ من يعمل به يحيا به ومن لا يعمل به موتاً يموت... ولكن: «الجميع زاغوا وفسدوا معاً، ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد» (رو٣: ١٢). حتى الأنبياء!؟ نعم، الجميع زاغوا... وليس من يعمل الصلاح! أغلق على الجميع في العصيان لكي يرحم الجميع، لكي يرى الإنسان معدنه الحقيقي ويعرف من هو بالنسبة للقانون الإلهي و بالنسبة لعدل الله.

فهذا هو اليوم الفاصل بين الغضب الإلهي والرحمة الكلية، الغضب الذي هو نصيب الجميع، كل من يخطىء، والرحمة الكلية التي هي نصيب كل من يصرخ!!

هذا ما عرفته السيدة العذراء القديسة مريم فصرخت قائلة:

+ «تعظم نفسي الرب، وتبتهج روحي **بالله مخلصي**، لأنه نظر إلى اتضاع أَمَتِه. فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني. **لأن القدير صنع بي عظائم وآسمه قدوس ورحمته إلى جيل الأجيال للذين يتقونه...**» (لو١: ٤٦–٥٠)

لقد رأت العذراء هذه الرحمة غير المحدودة فنطقت بهذه التسبحة: «القدير صنع بي عظائم»، أو صنع بنا عظائم بواسطتها، لقد عرفت هي بالعظائم التي في بطنها وتكلمت عنها وهو ما زال في بطنها.

ثامناً: وهو اليوم الفاصل بين
الغُربة الكلية عن الله والمَعِيَّة الكلية مع الله:

+ «وأنتم الذين كنتم قبلاً أجنبيين وأعداءً في الفكر في الأعمال الشريرة، قد

صالحكم الآن في جسم بشريته...» (كو١: ٢١و٢٢)

+ «كنتم قبلاً أجنبيين»، والآن، وُلد لكم «عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا» (مت١: ٢٣)! غُرْبة كلية عن الله، والآن مَعِيَّة كلية مع الله!
+ «وأعداءً في الفكر في الأعمال الشريرة»: «محبة العالم عداوة لله» (يع٤: ٤) و«اهتمام الجسد هو عداوة لله» (رو٨: ٧). فكل من يعمل الشر يغيظ قلب الله: «أغاظوني بأباطيلهم» (تث٣٢: ٢١)، وهكذا يدخل في حالة عداوة مع الله.

واحتمل الله كل هذه العداوة لأجيال طويلة إلى أن وُلد رئيس السلام: «يولد لنا ولد، ونُعطى آبناً، وتكون الرياسة على كتفه، ويُدعى آسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام» (إش٩: ٦).

لاحظوا كيف تمت المصالحة: «وأنتم الذين كنتم قبلاً أجنبيين وأعداءً في الفكر في الأعمال الشريرة **قد صالحكم الآن في جسم بشريته...**» (كو١: ٢١و٢٢). المصالحة تمت في جسم بشريته، يعني في جسم المولود في يوم الميلاد. لذلك فيوم الميلاد يوم فاصل بين الغُربة الكلية والقُربى الكلية «الاتحاد».

فالمصالحة تمت بتجسده في يوم ميلاده، تمت المصالحة للجميع بلا استثناء، وهي لا تحتاج من الإنسان إلا أن يؤمن بيسوع المسيح لتتم المصالحة الكلية وتنتفي العداوة وشبه العداوة، وتصير المعيَّة الكلية حتى إلى الاتحاد، إلى ملء قامة الله، إلى ملء الله.

لذلك دُعي آسم المسيح «عمانوئيل» الذي تفسيره «الله معنا» (متى ١: ٢٣). هذا هو آسم المصالحة، آسم المعيَّة الكلية مع الله وموضوعها الكلي! الله معنا معيَّة الوجود الكامل، إلى الاتحاد غير المنظور وغير المنفصل.

تاسعاً: وهو اليوم الفاصل بين ما هو تحت حكم الموت
بسبب الذنوب والخطايا وبين الخلاص بسبب ميلاد المخلِّص:

+ «وأنتم إذ كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا التي سلكتم فيها قبلاً حسب دهر هذا

العالم ... الله الذي هو غنيٌّ في الرحمة من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها، ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح» (أف ٢: ١—٥).

+ «وإذ كنتم أمواتاً في الخطايا وغَلَف جسدكم أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا» (كو٢: ١٣).

كنا أمواتاً، فأحْيَانا ... لأن «اليوم وُلد لكم مخلِّص»، لأنه لما ظهر المخلِّص بالجسد ظهر الخلاص طبعاً ... والخلاص من الموت هو الحياة، وهذا مطابق تماماً لقول يوحنا الرسول: «فإن الحياة أُظهرت» (١يو١: ٢)، فالحياة الأبدية التي كانت عند الآب أُظهرت لنا!

فالخلاص معناه الحياة الأبدية، وهذا هو اليوم الفاصل بين الموت والحياة، الموت بمفهوم الخطية والحياة بمفهوم الخلاص. وميلاد الرب يشمل أساساً مفهوم الخلاص: «فستلد آبناً وتدعو آسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم» (مت١: ٢١)، فاسمه يعبِّر عن وظيفته وعمله القادم: «لأنه يخلِّص شعبه من خطاياهم»، و «ليس بأحد غيره الخلاص. لأن ليس آسم آخر تحت السماء قد أُعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص» (أع٤: ١٢).

فاسم يسوع هو آسم الخلاص، وكل من يدعو باسم الرب يخلص؛ لأن الاسم يعبِّر عن الحضرة، ومن ينادي باسم الله يدخل في حضرة الله؛ وكل من ينادي باسم يسوع ينال الحضرة الإلهية وينال الخلاص.

والبيوم يوم ميلاد المخلِّص هو اليوم الفاصل
بين حكم الموت بسبب الذنوب والخطايا،
و بين الخلاص الأبدي والحياة الأبدية
التي أُظهرت لنا.

(يناير ١٩٨٣)

«الله يخلِّصنا» ... «الله معنا»

نقرأ من إنجيل متى ١: ٢٠ — ٢٣:
«... إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم قائلاً: «يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك. لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس. فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع، لأنه **يخلِّص** شعبه من خطاياهم، وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل: هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعون اسمه عمانوئيل. الذي تفسيره **الله معنا**».

هكذا ابتدأت حياة الرب يسوع باستعلان عمله الشخصي بالنسبة لنا «يخلِّص شعبه من خطاياهم».

لهذا نجد إنجيل القديس مرقس يصمم أن يبدأ استعلان المسيح من نهر الأردن وهو بدء استعلان الخلاص.

وكلمة «يسوع» **Joshua** هي **«الله يخلِّص»**، وهكذا صار اسم الرب هو **موضوع عمله**، وعمله يربط رباطاً محكماً بين الله وبيننا **الله «يخلِّص»**. أي أن الرب يسوع هو واسطة الخلاص بين الله وبيننا. وإمعاناً في توضيح اسم الرب يسوع الذي هو هو موضوع عمله، عاد إنجيل متى وفسّره على ضوء نبوة إشعياء: «ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره **الله معنا**».

ثم إذ نقرأ من إنجيل متى ٢٨: ١٨—٢٠:
«فتقدم يسوع وكلّمهم قائلاً: دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم **وعمّدوهم** باسم الآب والابن والروح القدس. **وعلّموهم**

أن يحفظوا جميع **ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر.** آمين».

وهنا في آخر رواية إنجيل متى يكشف الوحي مرة أخرى و بصورة واضحة ومختصرة وجامعة، كيفية الخلاص الذي سيكمله الرب يسوع:

أولاً: بواسطة **السر**: «عمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس».

ثانياً: بواسطة **تعلم الوصية** على أساس التلمذة الشخصية للرب يسوع، أي أن يأخذوا الوصية دائماً من فمه: «علّموهم أن يحفظوا جميع **ما أوصيتكم به**»، أي يحفظوها بالروح.

ثم بتأكيد أن المسيح نفسه هو الذي سيعمد وهو الذي سيعلم و يتضح ذلك من قوله لهم: «وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر».

الخلاص بالتطهير:

على قارىء الإنجيل أن يلتفت إلى مضمون التعليم السري الذي يقوم عليه الإنجيل. فالقديس متى يهتم بأن يذكر أن التعليم ابتدأ من **فوق الجبل** إشارة إلى ناموس موسى الذي نزل على الجبل رمز التقرب من السماء. وذلك كتعبير سرّي بأن وصايا المسيح هي الناموس الجديد المنحدر من فوق لتكميل ما ابتدأه موسى.

كذلك يهتم القديس متى بأن يضع وصية العماد قبل حفظ الوصية، لأن العماد هو بمثابة فتح العينين الروحيتين والذهن لمعرفة الله. فكما أن الله أمر موسى بأن يغتسل الشعب قبل أن يقترب من الجبل لسماع صوت الله وتعاليمه، هكذا اهتم الإنجيل أن يضع الاغتسال بالمعمودية الذي هو مفهوم الاستنارة بالميلاد الجديد من الماء والروح قبل التعمق في فهم الوصية وحفظها. أي أن سر الاغتسال والتطهير يتحتم أن يسبق الكلمة؛ كما أن الاغتسال والتطهير يتحتم أن يسبق التقدم للاتحاد بالجسد والدم، كما أوضح السيد المسيح ذلك في إنجيل يوحنا.

أما العلاقة السرية القوية بين الناموس القديم والجديد فيهتم بها الرب يسوع بصورة

ملحّة في إنجيل متى؛ فنقرأ ما نطق به السيد المسيح في متى ٥: ١٧—٤٨:

«لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمّل».

وهكذا بدأ المسيح يوضح التجديد الحاصل لكل وصية لتلائم الحياة الجديدة بالروح.

«قد سمعتم أنه قيل **للقدماء** لا تقتل ... وأما أنا فأقول لكم (للشعب الجديد بالروح) ...»

وهكذا يستمر المسيح في جميع وصاياه مكملاً ومجدداً ما عتق وشاخ من الوصايا التي كانت تناسب الشعب القديم العائش بالجسد الذي كان معتمداً على الخيرات المادية. أما تكميل المسيح للوصايا فيُظهر بوضوح عامل الروح لتجديد الإنسان من الداخل على مستوى الروح والضمير، والهادف إلى ميراث الحياة الأبدية وليس التخوم الأرضية.

ومعروف أن الشعب القديم أخفق في حفظ الوصية وأن آذانه ثقلت عن سماع صوت الله وكلمته صارت غير مفهومة، ولعل ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى أن الشعب انحل انحلالاً خلقياً مريعاً، ولم يعد على مستوى الطهارة، لا الطهارة الجسدية ولا الروحية، التي تؤهله لتكريم الله. فوصية الرب بالاغتسال قبل الاقتراب إلى الجبل المقدس الذي وقف الرب عليه في سيناء لم يحافظ عليه الشعب حتى على مستوى الجسد — وهي التي جاءت بعد ذلك على صورة نواميس للاغتسال والتطهير لكل شيء — ولذلك صارت كلمة الرب محتقرة عند الشعب بل والرؤساء، كما وبّخهم الأنبياء على مدى الأسفار.

هنا نجد المسيح يأخذ مبادرة عجيبة، أولاً في نفسه، إذ يتبنى الشعب كله في نفسه ويجوز عنه المعمودية للتطهير والتقديس بمقتضى الجسد الذي اتخذه لنفسه من العذراء، فاعتمد المسيح مغتسلاً عن الشعب كله وهنا نسمعه بكل وضوح يقول في هذا: «لأجلهم أقدس أنا ذاتي.» (يو١٧: ١٩)

ونلاحظ أيضاً أن المسيح يبادر بالعماد بنفسه أي بالاغتسال والتطهير والتقديس **عن الشعب** قبل أن يبدأ في التعليم مباشرة، وذلك ليعطي لكلمته سلطان الروح والنفاذ لدى الآذان الثقيلة وليهزّ القلوب الميّتة والضمائر المستهينة. وهذا الأثر حدث بالفعل ونسمعه من أفواه الشعب بوضوح: «**فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بهتت الجموع من تعليمه، لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة**» (مت٧: ٢٨و٢٩).

إذاً هنا الوصية ليست فقط من نوع جديد وعلى مستوى الروح والضمير، بل وأصبح لها سلطان قاهر على القلوب، لأن علاقة الرب يسوع بسامعيه بدأت بعد العماد تأخذ وضعاً جديداً وليس كما كان يتكلم موسى ولا كما يتكلم الكتبة، كمن يعلنون كلمة الله بفمهم وحسب، بل هنا المسيح قد تبنّى الشعب واغتسل وتطهر وتقدس نيابة عن الخطاة الذين يخاطبهم، فأصبحت قلوبهم قريبة منه دون أن يدروا ومفتوحةً لسلطان كلمته تهزّها، إما رعباً أو فرحاً، على قدر استعداد القلب للطاعة؛ لأن المسيح اقترب اقتراباً داخلياً من الشعب.

هنا نلمح أن سرّ المسيح الفعال في العهد الجديد يعمل من خلال المعمودية سواء التي جازها المسيح عنا أو التي نجوزها نحن معه: «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غل٣: ٢٧)، إذ أصبحت الوصايا ليست مجرد نصائح وأوامر وتوصيات تقف عند مجرد السماع عند الأذن، بل أصبح لها سلطانُ النفاذ إلى القلوب وتحريك الضمائر بسِرّ قوة الروح القادر أن يخترق الآذان المسدودة والقلوب الميتة لتقيمها للحياة بقوة واقتدار حتى ولو كانت في القبور:

+ «الحق الحق أقول لكم إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية (هنا الحياة والروح تنفذ إلى القلب من خلال سماع كلمات المسيح) ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة. الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع (حتى) الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون ... لا تتعجبوا من هذا، فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته،

فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يو٥: ٢٤-٢٩). (ومثل ليعازر واضح أمام عيوننا).

واضح أن وصايا المسيح للخلاص في العهد الجديد أصبحت تحمل قوة في ذاتها وفي المسيح وفي السامع، قوة روحية تخترق بها الآذان والقلوب والضمائر وتقيم الإنسان من موت الخطيئة بقوة فائقة **لحياة جديدة، وكأنها بميلاد جديد.**

هذا هو أول مفعول للاقتراب الداخلي الفعلي المتبادل بين المسيح والخطاة، وهو هو الذي عبّر عنه النبي إشعياء قديماً باسم «عمانوئيل»، وأكّده القديس متى في إنجيله أن اسمه ليس فقط يدعى «يسوع» أي المخلِّص فحسب، بل أيضاً يُدعى عمانوئيل أي «الله **معنا**» أو «فينا» وهو نفسه ينهي إنجيله بتقرير هذه الحقيقة: «وها أنا **معكم** كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت٢٨: ٢٠).

فالخلاص الذي دخل العالم بميلاد المسيح والذي يعمل في قلوب الخطاة للحياة حتى اليوم هو قوة سرية في الكلمة والوصية، قوة نفاذة تخرج من المسيح للسامع، وتغشي عقله الخاطىء وقلبه، وتوقظ ضميره، وتحيي موته لتربطه بالله. والمسيح حتى هذه الساعة يطلب آذاناً مفتوحة: «**مَنْ له أذنان للسمع فليسمع**» (متى١١: ١٥).

فطوبى للأذن التي تنفتح للوصية مبكراً قبل أن تشيخ، وطوبى للقلب الذي يحفظ كلمة الخلاص بغنى، لأن علاقة سرية عجيبة وقوية وفعالة للحياة تبدأ تعمل فيه لتربطه بالمسيح بشوق لا يُقهر وإخلاص لا يغلبه الموت: «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر». طبعاً هذه المعيَّة قائمة بالإنجيل، أي بتكميل الوصية، ومن داخل الكلمة الحية المحيية التي تنير الذهن والقلب والحياة، وبفعل السر غير المدرَك يتم فيه تنازل الله بالسر وبالكلمة ليكون معنا حسب النبوة في تسمية المسيح «عمانوئيل»، إنه عقد زيجة لا ينفصل **!!**

ولكن لكي يتم التقابل الفعلي بين قوة الكلمة والوصية المقدسة وبين الآذان والقلوب الخاطئة، لم يكتفِ المسيح بأن يعتمد عن الشعب، بل أعاد الوصية الأولى

القديمة عينها بأن يغتسل الشعب ويتطهر قبل اقترابه إلى الله وسماعه الكلمة كما في القديم، فأوصى بالمعمودية بسلطان إلهي فائق: «دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض». هنا المسيح يبدو ملكاً حقيقياً يقيم رعاياه ويختمهم، وهنا تحقيق مدهش لوعد الملاك للعذراء: «... ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه. ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية» (لو١: ٣٢و٣٣). ولكن هنا الاغتسال لا يتم من الخارج بل من الداخل وبالروح وباسم الآب والابن والروح القدس، حتى تتم خلقة جديدة للخاطىء وتنفتح العيون وتستنير الأذهان لتكون على مستوى قداسة الكلمة، وبالتالي تكون على مستوى سلطانها في التقديس والتطهير.

لذلك فالكنيسة منذ عصر الرسل تُسمِّي المعمودية بسِرّ الاستنارة، وهي موهبة متعلقة تعلقاً مباشراً بالكلمة والفهم ورؤية الله بالروح لإدراك الحياة الأبدية وقبول الميراث السماوي.

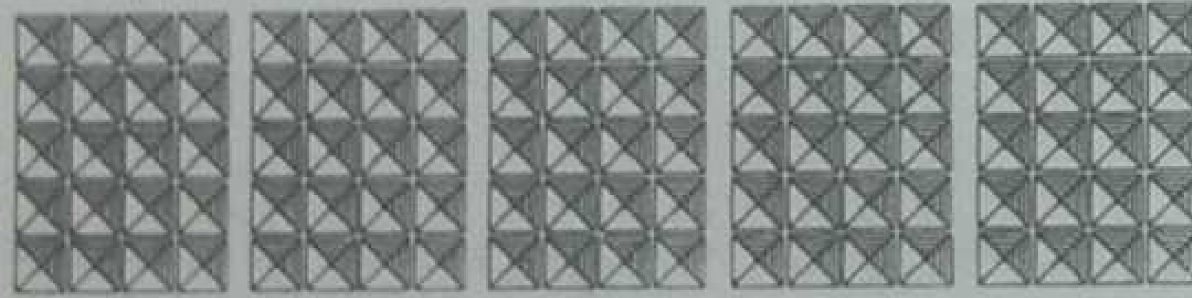
فالخلاص الذي استعلنه الملاك من السماء للعالم في ميلاد الرب يسوع وفي شخص المسيح المخلِّص هو الذي قاد المسيح للمعمودية عن الشعب لإعطاء الكلمة المخلِّصة سلطان الروح الفعَّال في القلوب؛ وهو الذي جعل المسيح يعطي أمر العماد للشعب كآخر وصية حتى يظل الشعب على مستوى قوة الكلمة للخلاص بحضور المسيح الدائم إلى الأبد. فكل مرة نقرأ الإنجيل نغترف من معمودية المسيح الشخصية ونستعيد اغتسالنا بالروح، لننال الاستنارة ونوثِّق صلتنا بالمسيح، «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غل٣: ٢٧)، وهكذا صار التمسك بالكلمة وبسِرّ المسيح هو هو ضمان الكلمة: **«وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر»**.

الخلاص بالغفران: مزيد من القوة للكلمة أي الوصية في العهد الجديد ليكون فيها قدرة على مغفرة الخطايا:

لكي يكون المسيح هو المخلِّص، ولكي ترق كلمة المسيح ــ أي الوصية في العهد الجديد ــ إلى مستوى الخلاص الفعلي من الخطية، تحتم أن ينضح المسيح على الخاطىء بالدم، ليس مثل العهد القديم القائم على الرمز الذي كان ينضح عليه بدم خرافٍ

وعجول مذبوحة تعبيراً عن استبدال موت حيوان عوض موت الخاطىء (عب٩: ١٥ــ٢٦)، بل هنا بعد ما أكمل المسيح كل كلامه وتعاليمه ذُبح على الصليب ليصبح الإنجيل والكلمة والوصية وكل تعاليمه حاملة لدمٍ قادر فعلاً على الفداء والتبرير. فنحن حينما نقرأ كلمة المسيح الآن نعتبرها خارجة من فم المسيح المذبوح على الصليب حاملةً دمه الفادي، أي تحمل قوة الموت عن الخطية وقوة القيامة من الموت معاً، وهذه هي قوة الفداء والتبرير القائمة الآن في الإنجيل والتي ننالها من المسيح المخلِّص والفادي شخصياً. وكل مرة نسمع الإنجيل ننصبغ بدم المسيح بسِرٍّ لا يُنطق به.

(١٩٨٤)



عيد الختان

الزمن بين الميلاد والقيامة

الميلاد :

يقول سفر المزامير واصفاً بدء ذلك اليوم : « قبل كوكب الصبح ولدتك » (مز ١١٠ : ٣ ــ حسب الترجمة القبطية).

ثم يرد القديس يوحنا الإنجيلي : « النور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه » (يو ١ : ٥)، شارحاً بذلك ما جاء في المزمور إنما بتوضيح . فالمزمور يلمِّح أنه جاء لينهي ظلمة الليل ويعطي للجالسين في الظلمة وظلال الموت إشارة أول النور لفجر حياة جديدة، والقديس يوحنا يؤكد أن نور هذا الفجر لن تغشاه ظلمة فيما بعد، أي سيكون بلا ليل حيث تنتهي صورة الزمن بمفهومه القديم : « وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً واحداً » (تك ١ : ٥)، لينبثق من صميمه (أي من صميم الزمن) فجر ليوم بلا ليل ولا نهاية، بلا زمن ؛ إنما دون أن تلغي هذه الولادة الزمن فلا تزال بعد الأيام والشهور والسنين، ويوم الرب هذا قائم دائم يعطي الزمن كله ماضيه وحاضره ومستقبله ويستر سرعة تعاقبه ويشير إلى مصير زواله.

القيامة :

القيامة لا تتجدد كل سنة ؛ بل هي قائمة عبر كل السنين والدهور لأنها حالة فائقة للمسيح لا تتغير، ارتفع بها المسيح فوق أعلى السموات ليفيض على الدوام من حياته ليملأ الكل من هذه الحياة.

لقد اخترق المسيح جدار الزمن. ففي فجر الأحد والظلام باقٍ انبثق للبشرية خارج الأسبوع يوم جديد لن تغرب شمسه إلى الأبد. لقد فتح المسيح من داخل الزمن باباً على الحياة الأبدية لن يغلق في وجه الإنسان، لنعيش عربونه كل يوم أحد، وندعوه يوم الرب. ويوم الرب هو يوم ملكه، وملكه ليس انقضاء، وحينما نشترك معه في جسده ودمه بعد أن نعترف بموته وقيامته نملك معه.

(أكتوبر ١٩٨٥)

الختــان

(أ) معنى الكلمة : περιτέμνω

١ ــ جاءت هذه الكلمة في الأدب اليوناني القديم بمعنى « **يقطع دائرياً** » أو « **يحز دائرياً للقطع** ». واستخدمت في معنى « **تقليم العنب** ». ولعل مثل الرب عندما شبه نفسه بالكرمة ونحن الأغصان ، وأن الآب يقلم الأغصان لتأتى بثمر أكثر ، إشارة غير مباشرة إلى الختان الروحي .

٢ ــ و يشير « استرابو » (الحكيم اليوناني الشهير) إلى الختان بوضوح بصفته عادة يهودية مأخوذة من مصر . ولكن هذا أمر غير صحيح ، وذلك بمقارنة الأصحاح الخامس من يشوع القائل أن ختان من تبق من شعب إسرائيل قبل عبور الأردن كان يومئذ **لرفع عار مصر** عن الشعب .

(ب) الختان في العهد القديم :

١ ــ أصل الطقس : (تكوين ١٧) : « وقال الله لإبراهيم : وأما أنت فتحفظ عهدي . أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم . هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني و بينكم و بين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر. فتختنون في لحم غرلتكم . فيكون علامة عهد بيني و بينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كلُّ ذكرٍ في أجيالكم . وَليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك . يختن ختاناً وليد بيتك والمبتاع بفضتك . فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً . وأما الذكر الأغلف الذي لا يُختتن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها . إنه قد نكث عهدي » (تك١٧ : ٩-١٤) .

و بذلك فالختان كان بمثابة أول علامة عهد شخصي على مستوى العلاقة الداخلية

غير المنظورة بين الله و بين كل فرد في شعب الله . وسمي « عهد الختان » (أع ٧ : ٨) .

ولكن نجد العهد القديم يستخدم الختان ليس للإنسان فحسب ، بل وللشجر أيضاً حاسباً أن الشجرة المغروسة جديداً تعتبر « غلفاء » أي غير مختونة (غير مقدسة) معنوياً لمدة ثلاث سنوات ، حيث يعتبر كل ثمرها « أغلف » أي نجساً لا يؤكل ، بل يطرح . وفي السنة الرابعة تحسب الشجرة مقدسة بعلما يقدم كل طرحها للرب كتقدمة شكر ، و بعد ذلك في السنة الخامسة تحسب حلالاً على الإنسان ومقدسة :

« ومتى دخلتم الأرض وغرستم كل شجرة للطعام تحسبون ثمرها غرلتها . ثلاث سنين تكون لكم غلفاء . لا يؤكل منها . وفي السنة الرابعة يكون كل ثمرها قدساً لتمجيد الرب . وفي السنة الخامسة تأكلون ثمرها . لتزيد لكم غلتها . أنا الرب إلهكم » (لا ١٩ : ٢٣ ــ ٢٥) .

والمعنى هنا ينصب على تحويل الشجرة من غرس أرضي (شيطاني) عليه اللعنة الأولى ، إلى غرس سماوي (مقدس) حلت عليه البركة . وكأنها عملية جحد للشيطان تماماً كالذي يحتمه الطقس في المعمودية ، تنتقل به الخليقة من معسكر الشيطان إلى معسكر الله .

وهذا يتضح أكثر في قصة موسى وزوجته صفورة وابنها البكر الذي ختنته في الطريق إلى مصر لتمنع عنه الهلاك ، وكان دم ختانته على رجليه (القائمتين) علامة على **التصاقه بالرب** « فانفك عنه ، حينئذ قالت : عريس دم من أجل الختان » (خر ٤ : ٢٦) .

والملاحظ أن كلمة « ختانة » في اللغة السامية (الآرامية) القديمة تفيد معنى « قطع الغلفة » ، أو معنى « العريس » ، وقد استعملت كذلك منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد باعتبار أن الختانة هي علامة أو طقس الزواج . وقد انحدرت هذه المرادفة إلى اللغة العربية فـ« الختن » هو « العريس » ، ولكن بمفهوم العريس الطاهر ، أي الذي انفك عنه الشيطان بقطع غلفة النجاسة .

وفي أواخر العصر اليهودي اقتصرت الختانة الجسدية على مفهوم الدخول في شعب الله (كشعب اختاره الله وتزوجه لنفسه كابن بكر) ، وقد اقترنت الختانة بأخذ الاسم الجديد الذي يلزم أن يكون مطابقاً لإسم أحد أفراد أسرته إمعاناً في تبعية الطفل لشعب الله .

وكان هذا الطقس ، على العموم ، في غاية الأهمية بالنسبة لليهودي المخلص لشعبه وإلهه ، لدرجة أنه كان يهون جداً على الإنسان اليهودي أن يستشهد في سبيل تكميل ختانته لأن موت اليهودي بدون ختانة معناه الحرمان الأبدي من ميراث شعب الله .

٢ ــ دخول طقس الختان في شريعة موسى مرتبطاً بالفصح :

وقال الرب لموسى وهرون هذه فريضة الفصح : كل ابن غريب لا يأكل منه ، ولكن كل عبد مبتاع بالفضة تختنه ثم يأكل منه . النزيل والأجير لا يأكلان منه .

وهنا ابتدأ الختان يأخذ صورة طقسية محضة ويتزحزح قليلاً قليلاً في التقليد اليهودي من وضعه الأصيل كعلامة عهد خاصة بين الله وكل فرد على المستوى الروحي والإيماني بحسب الترتيب الذي وضعه الله مع إبراهيم ، حيث إبراهيم هو مركز إيمان وليس مركز طقس في الكتاب المقدس بعهديه .

٣ ــ الخطأ الذي وقع فيه التقليد اليهودي بخصوص أصل الختان ومستواه الروحي :

واضح من المنازعات التي حدثت في بداية البشارة بالإنجيل بين الأمم غير المختونين ، أن الفكر اليهودي كان قد تزحزح تماماً عن مفهوم الختان الروحي ومصدره الأصيل ، وهو إبراهيم ، إذ ظنوا أن مجرد العلامة في اللحم هي الختان ، وأنه من وضع موسى وليس إبراهيم « وانحدر قوم من اليهودية وجعلوا يعلّمون الإخوة أنه **إن لم تختتنوا حسب عادة موسى** لا يمكنكم أن تخلصوا » (أع ١٥ : ١) . « وقد أخبروا عنك أنك

تعلّم جميع اليهود الذين بين الأمم الارتداد عن موسى قائلاً أن لا يختنوا أولادهم ولا يسلكوا حسب العوايد » (أع ٢١ : ٢١) .

الرب يسوع يصحح وضع الختان أنه من إبراهيم وليس من موسى :

واضح جداً أن الرب يسوع لمح من حياة اليهود وتفكيرهم وتمسكهم بطقس الختان أنهم كانوا قد انحرفوا انحرافاً أكيداً عن معناه ومصدره الأصلي ، لذلك نجده يصحح هذا التقليد بقوله : « أجاب يسوع وقال لهم : عملاً واحداً عملت فتتعجبون جميعاً (شفاء مريض بيت حسدا ــ مريض الـ٣٨ سنة) ، لهذا أعطاكم موسى الختان ، **ليس أنه من موسى بل من الآباء (إبراهيم)** ، ففي السبت تختنون الإنسان ، فإن كان الإنسان يقبل الختان (طقس إبراهيمي ثم موسوي) في السبت (والسبت طقس أهم إذ قد رتبه الله نفسه) لئلا ينقض ناموس موسى ، أفتسخطون عليّ لأني **شفيت إنساناً كله** في السبت ؟ لا تحكموا حسب الظاهر ! » (يو ٧ : ٢١ ــ ٢٤) .

وهنا يشير الرب إشارة في غاية الوضوح والعمق أن الختان الذي كان علامة خارجية لارتباط روحي داخلي بين الله والإنسان عند الآباء صار عند الأجيال المتأخرة ، وخصوصاً من بعد موسى ، مجرد علامة خارجية خوفاً من نقض ناموس موسى وليس لاقتراب روحي أو قلبي إلى الله : كعهد علاقة إلهية والتصاق .

وشفاء الرب لمريض الثماني والثلاثين سنة بـ« كلمة » يعبّر عنه الرب : « لأني شفيت إنساناً كله » . وهنا يجعل الرب **كلمته** الشافية شفاءً كلياً أعلى من مستوى الختان ، أي باعتبار الختان شفاءً جزئياً بالنسبة للشفاء الكلي الذي صنعه الرب مع المريض المزمن لأنه غفر خطاياه وشفاه ، أي شفاه روحياً أولاً ثم جسدياً !! في حين أن الختان كان يفيد الشفاء الجسدي وحسب .

وهكذا تكشف لنا هذه الآيات عن قيمة الختان في نظر المسيح بالنسبة للعمل الخلاصي الذي نزل من السماء ليكمله لنا . فالختان في مضمونه الكلي على مدى العهد القديم كان في نظر الرب علامة ارتباط بين الإنسان والله ، عجز الإنسان أن يتمم

شروطها الروحية الداخلية ، فانحصرت في حدودها الجسدية فقط ، و بذلك فقدت عملها الشفائي الكلي أو الخلاصي . وهكذا ظل مريض الثماني والثلاثين سنة مطروحاً عاجزاً مع أنه مختتن !! وكان مفروضاً أن اختتانه يُدخله ضمن وعد الله الذي يضمن له الشفاء ، أو ربما يضمن له عدم المرض أصلاً وذلك إن كان يطيع أوامره ووصاياه .

المعنى الروحي العميق للختان في العهد القديم :

غُلْفة الشفتين :

لم يكن الختان يقتصر فقط في معناه العميق على أعضاء التذكير في الإنسان ، فنحن نسمع موسى يقول لله : « كيف يسمعني فرعون وأنا **أغلف الشفتين** (أي غير مختون الشفتين) » (خر ٦ : ١٢ و٣٠) .

وهنا « **غلفة** » الشفتين تفيد نجاسة الفم ، و بالتالي ضعف الفم واللسان عن النطق بأقوال الله المقدسة ، فتأتى الكلمات ضعيفة أو ملعثمة أو خاطئة !! وهذا يحققه أشعياء النبي بوضوح : « فقلت و يل لي إني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين ، وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين ، لأن عينيَّ قد رأتا الملك رب الجنود . فطار إليَّ واحد من السيرافيم و بيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح ومسَّ بها فمي وقال : إن هذه قد مست شفتيك فانتُزع إثمك وكُفِّر عن خطيئتك » (أش ٦ : ٥ ــ ٧) .

غُلْفة الآذان :

ونسمع إرميا النبي يقول لله : « من أكلمهم وأنذرهم فيسمعوا . ها **إن أذنهم غلفاء** (غير مختونة) فلا يقدرون أن يصغوا . إن كلمة الرب صارت لهم عاراً لا يُسرون بها » (إر ٦ : ١٠) .

غُلْفة القلوب :

كذلك أرميا النبي يربط بين طهارة القلب ورضاء الله ربطاً شديداً في تعبير ختانة القلب ورفع نجاساته .

« اختتنوا للرب وانزعوا غُرَل قلوبكم يارجال يهوذا وسكان أورشليم لئلا يخرج كنار غيظي » (أر ٤ : ٤) .

و يلاحظ هنا أن أرميا النبي يضيف الختانة لحساب الله « **اختتنوا للرب** » . وهنا تعمَّق أكثر في المعنى اللاهوتى للختانة كعمل إلهي أو طقس روحي صرف ، فهو إن كان يُجرى في لحم الجسد فهو يمتد إلى القلب والضمير و يوطد الصلة بالله !!

وإدراك صلة الختانة في اللحم بالطاعة لله يشدد عليه موسى منذ البدء « فاختتنوا غرلة قلوبكم ولا تصلِّبوا رقابكم » (تث ١٠ : ١٦) .

و يعود موسى أيضاً و يكشف عن معنى سري تصوفي عميق للغاية للختان القلبي كعمل روحي يتم في الخفاء بجرح القلب نفسه جرح محبة أبدي : « ويختن الرب إلهك قلبك وقلب نسلك لكي تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك فتحيا » (تث ٣٠ : ٦) . وهذا يفيد رفع كل أهواء وشهوات وتعلقات القلب بكل شيء في الدنيا فيصير القلب كله للرب !!

ونسمع أيضاً من الشهيد اسطفانوس أحد الشمامسة السبعة ، وهو ينقل لنا صورة عن مفهوم الختان في العهد القديم الذي ورثه الأتقياء المختارون الذين قبلوا الروح القدس والإيمان بالمسيح ، وذلك عند قوله « ياقساة الرقاب **وغير المختونين بالقلوب والآذان .** أنتم دائماً تقاومون الروح القدس » (أع ٧ : ٥١) .

وهكذا يتضح أمامنا مقدار عمق معنى الختانة الروحي في العهد القديم . فالختان فهموه أنه ليس مجرد علامة في لحم أعضاء التذكير بقطع غلفة الذكر ، بل يتعدى ذلك إلى الشفاه والآذان والقلوب . فأعضاء الإنسان كلها ذات غلفة ، أي ذات غطاء جلدي يمنعها من الإحساس والإستجابة ، وتحتاج إلى ختانة !!

فالشفاه الغلفاء لا تستطيع أن تبشر باسم الله وقوته وكلمته ، حيث الغلفة هنا تفيد النجاسة . موسى كان يحس بأن شفتيه كانتا غلفاوتين . اشعياء النبي كذلك ، من هنا

كان الإحساس العميق بالحاجة إلى التطهير بالدم أو بالنار...

وكذلك الأذن الغلفاء ، يصفها أرميا النبي بأنها لا تستطيع أن تصغي إلى كلمة الرب ولا أن تحترمها إذ تصير كلمة الرب وكأنها عار، تتحاشى سماعه ، وإذا سمعتها لا تسرُّ بها !!

أما الشهيد اسطفانوس فيكشف لنا عن مفهوم القلب الأغلف غير المختون بأنه يقاوم الروح القدس ، أي روح القداسة والطهارة ، وأن هناك علاقة حتمية بين القلب الأغلف والأذن الغلفاء : فغلفة القلب تنشىء غلفة الأذن ، وغلفة الأذن تنشىء غلفة القلب .

أما الغلفة فهي ترمز إلى الغلاف اللحمي ، الذي يجعل القلب والأذن والشفاه حساسة للشهوة واللذة والنجاسة والإنفعال بالغرائز اللحمية الحيوانية ، فتنصدّ عن كل ما هو طاهر ومقدس وروحي ! ...

إذن ، فكان معروفاً لدى الروحيين في العهد القديم أن طقس الختان كان عملاً روحياً يشير إلى قطع شهوة النجاسة بمفهومها المتسع ، ليس من عضو الذكر فحسب ، بل ومن القلب والأذن والشفاه ومن الإنسان كله ، حتى يتطهر و يكون قريباً من الله متهيئاً لسماع كلمته والنطق بها والشهادة لها . وأخيراً يكون مستعداً للتعرف على المسيح نفسه عند مجيئه وظهوره باعتباره « كلمة الله » القدوس .

والله اختار عضو الذكر ليجري عليه الختان كعلامة عهد بين الله وابراهيم ونسله ، حتى ينتبه الإنسان أن عهد الله منذ البدء يقوم على الطهارة ، ظاهرياً في اللحم وداخلياً في القلب وفي الأذن وفي الشفاه ، تمهيداً لحلول كلمته وروح قدسه في هيكلنا .

فالإختتان في العهد القديم هو تماماً عملية تكريس كامل لله بكل الأعضاء ، داخلياً وخارجياً !! ليصير الإنسان على مستوى عهد الله وقداسة الله « سر أمامي وكن كاملاً » (تك ١٧ : ١) ، أو كما وضعها العهد الجديد على فم المسيح « كونوا أنتم

كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل » (مت ٥ : ٤٨) . ولذلك اعتُبر المسيح أنه خادم الختان !! لأنه الوحيد الذي تمم الختان على أعلى وأكمل مستواه ، الروحي والجسدي معاً ، بأن كان مقدّساً أو مكرّساً جسده ونفسه لله كلياً من أجلنا : « من أجلهم أقدس أنا ذاتي » (يو ١٧ : ١٩) .

وكان كذلك حتى يمكن أن يكمل الله فيه كل وعد الختان وعهده لنا ، فيظهر فيه صدق وعد الله للإنسان منذ ابراهيم !! « وأقول إن يسوع المسيح قد صار خادم الختان من أجل صدق الله حتى يثبّت مواعيد الآباء » (رو ١٥ : ٨) .

وهكذا قبل ابراهيم الختان ليكون أباً لكل من يؤمن بالله و يدخل عهده و يصير من أهل بيت الله ، وليس كالغريب أو النزيل . ولكن لم يستطع أحد أن يحقق عهد الختان هذا و يثبت أهليته لله . و بقي صدق الله معلقاً من حيث وعده بقبول الإنسان ليكون من أهل بيته حتى مجيء المسيح ، لأنه حتى ولا موسى نفسه استطاع ذلك ، إذ قيل عنه أنه « كان أميناً في كل بيته كخادم ... أما المسيح فكابن » (عب ٣ : ٥ و ٦) .

توارث الختان ثم توقفه :

كان في تأسيس عهد الختان الذي صنعه الله مع ابراهيم ما يشير بوضوح إلى أعماق سر الختان من جهة هدفه الروحي ، وذلك حينما جعله يشمل ختانة الأطفال المولودين : « ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم ، وليد البيت ، والمبتاع بفضة ، من كل ابن غريب ليس من نسلك ... في ذلك اليوم عينه ختن ابراهيم واسماعيل ابنه وكل رجال بيته وِلدان البيت والمبتاعين بالفضة من ابن الغريب خُتنوا معه » (تك ١٧ : ١٢ و ٢٦ و ٢٧) .

هنا يتجه الختان إلى الأثر أو المعنى الروحي الذي يتجاوز العلامة الخارجية ، فهو ميراث يرثه الصغير ابن الثمانية الأيام بمقتضى إيمان أبيه ، مجاناً ؛ فينضم إلى شعب الله و يرث كل مواعيد الآباء و بركتهم ، حتى ولو كان ابناً لعبد مشترى بالفضة غريباً عن رعوية اسرائيل ، طالما كان هذا العبد أميناً لصاحب البيت وأميناً لإله اسرائيل

ببرهان طاعة وصايا الله وأوامره .

وهكذا بمقدار ما للخطية من أثر توارثي ، صار لبر الإيمان من أثر توارثي كذلك ، وذلك بواسطة الختان الذي هو في حقيقته **ختم مجاني لميراث بر الإيمان الذي ناله ابراهيم بسخاء الله وجوده** . كما يحدد بولس الرسول في رسالته إلى أهل رومية : « وأخذ علامة الختان ختماً لبر الإيمان **الذي كان وهو في الغرلة** ، ليكون أباً لجميع الذين يؤمنون **وهم في الغرلة** ، كي يحسب لهم أيضاً البر » (رو ٤ : ١١) .

كذلك بالرغم من أن تكميل طقس الختان في لحم الغرلة كان يعطي الطفل المولود ابن ثمانية أيام كل حقوق الرعوية في شعب اسرائيل ، إلا أن هذه الحقوق تتوقف كلها إلى أن يثبت المختون طاعته لوصايا الله عند بلوغه السن الذي يطالب فيه بتكميل الوصايا . وهذا نراه متركزاً بشدة في وصية الله لإبراهيم كشرط أساسي في تكميل كل بنود عهد الختان : « سر أمامي وكن كاملاً فأجعل عهدي بيني و بينك » (تك ١٧ : ١) .

إذن ، فكانت الطاعة لوصايا الله هي التي تجعل عهد الختان قائم المفعول دائم الأثر . وهكذا كان مفهوم الختان في العهد القديم ، روحياً بمقدار ما كان لمفهوم الطاعة لوصايا الله !...

وهكذا نرى أن عهد الختان كان يورِّث بالإيمان و يثبِّت بالطاعة :

— « اختتنوا للرب وانزعوا غرل قلوبكم يارجال يهوذا وسكان أورشليم لئلا يخرج كنار غيظي ، فيحرق وليس من يطفىء ، بسبب شر أعمالكم » (أر ٤ : ٤) .

— « فإن الختان ينفع إن عملت بالناموس . ولكن إن كنت متعدياً الناموس فقد صار ختانك غرلة » (رو ٢ : ٢٥) .

ومن هنا يصبح الختان عديم المنفعة تماماً إزاء العجز عن تكميل الناموس . فإن كان قد بلغ العجز عن تكميل الناموس في نهاية العهد القديم إلى أقصى حالاته وعمَّ

كل الشعب بلا استثناء : « الجميع زاغوا وفسدوا معاً . ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد » (رو٣ : ١٢) ، يكون بذلك قد بلغ عهد الختان إلى حالة عديمة الفعل والأثر وتوقف نهائياً : « ها أيام تأتي يقول الرب وأعاقب كل مختون وأغلف » (إر٩ : ٢٥) . وقد تم تهديد الله هذا بالحرف الواحد .

فنقرأ في السفر الأول للمكابيين في نهاية أيام حكم الملوك السلوقيين ، و بالذات في أيام الملك أنطيوخس الرابع (١٧٥ —١٦٣ ق . م) ، أنه صدر حكم بمنع ختانة اليهود ، وكان أن الأم التي تختن ولدها تقتل : « والنساء اللواتي كن يختن أولادهن أماتوهن حسب الأمر... وكان على إسرائيل غضب عظيم جداً » (١ مكابيين ١ : ٦٠) .

وهكذا وضحت مشيئة الله أن ينزع من إسرائيل في أواخر الأيام الختم ، أو علامة الختان التي هي علامة تبعية الشعب لله ، وحل بدلها الغضب واللعنة في الحال والتبعية لملك الأمم ، إشارة إلى زوال مُلك الله عنهم .

ولكن أهمية الختان ظلت عند اليهود أقوى من الموت حتى وفي أعصب أوقات اضطهادهم . وكان يهون عليهم الاستشهاد في سبيل تكميلها ، لأن الختان كان في صُلب الإيمان بمثابة ختم يلازم اليهودي بعد الموت ، فهو ختم فداء وحياة لما بعد الموت . فالأغلف في حياته هكذا يكون في موته : « كلهم قتْلى ، ساقطون ، بالسيف الذين هبطوا غُلْفاً إلى الأرض السفلى » (حز٣٢ : ٢٤) .

ختان المسيح في اليوم الثامن :

يقول بولس الرسول أن المسيح وُلد « تحت الناموس » (غل٤ : ٤) لكي يكمل حرفية الناموس لأجلنا و يفتدينا من لعنته ، حيث الإشارة هنا تتضمن الخضوع لعملية الختان في اليوم الثامن ، كما كان يأمر بها الناموس ، حيث أخذ أيضاً اسمه الذي كان قد تسمى به سابقاً .

أما بخصوص تتميم ختان اللحم والتدقيق في تكميل ذلك في اليوم الثامن بحسب

الناموس ، في ظاهره لا يعطي أية قيمة عملية ، ولكن إذ يحمل هذا بالنسبة للمسيح بالذات أبعاداً روحية وسرية عميقة ، لذلك ينبغي جداً الإنتباه إلى دقائق هذه الأمور لما تحوي من استعلان للحق الإلهي .

وفي هذا يقول القديس كيرلس الكبير عمود الدين :

[لأن في اليوم الثامن (أي يوم الأحد) قام المسيح من الأموات وأعطانا الختان الروحي ، وذلك بمقتضى ما أمر به الرسل القديسون : « اذهبوا تلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس » (مت٢٨ : ١٩) ، ونحن نؤكد هنا أن **الختان الروحي يتم أساساً في المعمودية** ، حيث يجعلنا المسيح شركاء أيضاً في الروح القدس](١)

و يبدو أن البابا كيرلس الكبير هنا ينقل لنا تقليداً رسولياً ردده من قبله الشهيد يوستين في محاوراته مع تريفو:

[إن الوصية بطقس الختان التي تأمر بأن يعتمد الأطفال في اليوم الثامن ، كانت رمزاً أو مثالاً للختان الحقيقي للخلاص من الخطية والشر ، بواسطة قيامة الرب يسوع المسيح من الأموات في اليوم الأول من الأسبوع (الأحد) ، الذي بالرغم من بقائه معتبراً الأول لكل الأيام إلا أنه يدعى الثامن (لأنه أتى بعد السبت بحدث جديد فأكمل بعد مرور الأسبوع بسبعة أيامه عملاً لم يدخل أصلاً في حدود الأيام السبعة خصوصاً في أيام الخلقة القديمة)](٢)

و يعود القديس كيرلس الكبير و يشرح كيف يختننا المسيح بالروح القدس ، بقوله :

[وعن هذا أيضاً ، فإن يشوع القديم ، الذي كان قائداً بعد موسى ، هو مثال فإنه أولاً قاد بني إسرائيل عبر الأردن ثم في الحال توقف وختنهم بسكاكين من

(1) St. Cyril of Alex., on Luke, 2:27.

(2) Justin Mart., Dial with Trypho.

صوان ؛ هكذا نحن بعد أن نعبر الأردن (أي المعمودية) يختتننا المسيح بقوة الروح القدس لا مطهراً الجسد ، ولكن قاطعاً بالأحرى النجاسة أو الفساد الذي في أنفسنا](٣)

ثم يعود القديس كيرلس و يكشف عن مدى ارتباط خلاصنا بختانة المسيح في اليوم الثامن معتبراً أن المسيح اختتن لنا ونحن اختتنا فيه ؛ فتم لنا بختانة المسيح وفي ختانة المسيح ، الخلاص !

[في اليوم الثامن ، إذن ، اختُتن المسيح وتقبّل اسمه (يدعى اسمه يسوع أي المخلص) . لأنه عندئذ ، أي بهذا ، خلصنا **بواسطته وفيه** . كما قيل : « و به أيضاً خُتنتم ختاناً غير مصنوع بيد ، بخلع جسم خطايا البشرية ، **بختان المسيح ، مدفونين معه** في المعمودية التي فيها أُقمتم أيضاً معه » (كو٢ : ١١و١٢) . أي أنه كما كان موت المسيح من أجلنا وكانت قيامته ، كذلك كانت ختانته](٤)

انتهاء عهد الختان :

وبتأسيس المعمودية التي يتم فيها الختان الروحي للإنسان ، حيث يخلع جسد الخطية ، و يلبس الجديد بالروح القدس ، و يتم الختم الإلهي لتبعية الله بالإتحاد بالمسيح ؛ انتهى عهد ختان اللحم .

وفي ذلك يقول القديس كيرلس الكبير أيضاً :

[ولكن بعد ختانة المسيح انتهى هذا الطقس إلى الأبد ، وذلك بدخول المعمودية التي كان طقس الختان يرمز لها . لأن بسبب المعمودية لا نعود نمارس طقس الختان بعد . لأن الختان حسب ما يبدو لي كان يخدم ثلاث غايات :

(3) St. Cyril of Alex., op. cit.

(4) Ibid.

الأولى : تخصيص نسل إبراهيم بعلامة أو بختم لتمييزهم عن بقية الشعوب الأخرى جميعاً .

الثانية : أن الختان كان يحمل صورة نعمة وفعالية المعمودية الإلهية حيث كان يحسب قديماً أن المختون هو عضو في شعب الله بهذا الختم ، هكذا أيضاً كل من يعتمد الآن يكون قد حصل في داخله على المسيح الختم ، و بذلك يكتب ضمن شعب الله المختار .

أما **الغاية الثالثة : فهي** تفيد رمزياً أن الشخص المؤمن قد تأسس في النعمة قاطعاً أولاً بأول كل الشهوات الجسدية وإماتة كل الأوجاع بعمل الإيمان الجراحي أي القاطع ، وليس بقطع اللحم ، إنما بالنسك المجتهد و بتطهير القلب مختتناً بالروح وليس بالحرف ، الذي مدحه لا يحتاج ، كما يقول بولس الرسول ، إلى حكم بشري وإنما يعتمد على شهادة من فوق](٥) .

وهكذا نجد أن العماد حل محل الختان بصورة أكمل وأشمل و بأثر روحي عميق وفعّال . فبالمعمودية ، كما يقول بولس الرسول ، خلعنا جسم الخطية بأكمله وليس جزءاً منه ، ولبسنا المسيح وصرنا فيه و به خليقة جديدة كميلاد ثانٍ من السماء ، وأصبحنا رعية مع القديسين ، أهلاً وأحباء في بيت الله ، وملوكاً وكهنة مع المسيح لله !...

ولكن لا ينبغي أن يتوه عن بالنا قط أن كل بركات المعمودية بحدودها الباهرة اللانهائية ، إنما هي امتداد « **للختان** » عبر المسيح ! فالختان ــ كما رأينا ــ سبق أن تصور فيه كل أسرار الحاضر ؛ من أجل ذلك لم يحجم المسيح عن أن يخدم هذا السر في صورته الرمزية بحسب الوعد الأول ، ليمنحنا الانفتاح اللانهائي على بركاته الأولى والأخيرة « وأقول إن يسوع المسيح قد صار خادم الختان من أجل صدق الله حتى يثبّت المواعيد التي أعطيت للآباء » (رو١٥ : ٨) .

و بولس الرسول يرى أن الإنسان الجديد العابد بالروح والمتحد بالمسيح هو الآن بحد

(5) Ibid.

ذاته « **ختان كامل** » أو « أوج الختان » في أعلى مفهوم روحي له « لأننا نحن **الختان** ، العابدين الله بالروح والمفتخرين في المسيح يسوع وغير المتكلين فيه على الجسد » (في ٣ : ٣ — ترجمة حرفية) .

عيد الختان

أما بخصوص زمن التعييد لهذه المناسبة المقدسة ، فالمعروف أنه كان مرتبطاً بعيد الميلاد ارتباطاً جوهرياً ، بحيث لم توافق الكنيسة منذ البدء على أن تخصص له عيداً منفصلاً عن الميلاد . وزمن عيد الميلاد لم تحدده الكنائس كلها في زمن واحد .

فمعروف أن **كنيسة روما** في الغرب كانت تمارس عيد الميلاد ، وربما عيد الختان منذ زمن بعيد ، كما يقول **العلامة ترتليانس** ، إذ عثر علماؤها في القرون الأولى على أرشيف الحوادث المدنية التي حوت ذكر حوادث الإكتتاب أيام أوغسطس قيصر ، وفيها إسم يسوع ونسبه وميعاد ميلاده وخلافه ، والتي منها استدلت الكنيسة على ميعاد ميلاد المخلّص ، و بالتالي حددت زمن عيد الميلاد والختان :

[أو كيف يُسمح للمسيح أن يدخل إلى المجمع إذا كان غير معروف سابقاً أو كان ظهوره مفاجئاً ولا يُعرف من أي سبط هو ومن أي بلد ومن هي عائلته ؟ وأخيراً تسجيله في الإكتتاب الذي عمله أوغسطس قيصر ، وهو الشاهد الصادق على ميلاد الرب ، المحفوظ في أرشيف روما . كذلك و بكل تأكيد كان هناك شهود يتذكرون إن كان قد اختتن على أيديهم أم لا حتى يسمح له بالدخول إلى أماكنهم المقدسة](٦)

(6) Tertul., Contra Marcionism, Lib. 4, C. 7.

و يؤكد هذه الحقيقة **القديس يوحنا ذهبي الفم** في عظته التي ألقاها في ٢٥ ديسمبر سنة ٣٧٦م ، حيث يعلن فيها ضمناً بدء ممارسة كنيسة أنطاكية لعيد الميلاد منفرداً عن عيد الغطاس ، اعتماداً على مراسلات جرت له مع كنيسة روما التي كانت قد سبقت أنطاكية في تحديد زمن العيد بوقت كثير. يقول القديس يوحنا ذهبي الفم :

[والحقيقة أنه لم يمضِ حتى الآن سوى عشر سنوات منذ أن تعرفنا بوضوح على هذا اليوم (يوم الميلاد ٢٥ ديسمبر) . و بالرغم من ذلك ، ها هوذا قد ازدهر هذا اليوم وانتشر بسبب غيرتكم وكأنه قد تسلم لنا منذ البدء . وهكذا لا يخطىء الإنسان لو هو قال إن هذا العيد جديد وقديم معاً ، جديد لأننا هوذا قد عرفناه حديثاً ، وقديم لأنه هكذا اكتسب مساواة مع الأعياد القديمة ...

وهذا اليوم كان معروفاً منذ البدء عند رجال الغرب ، غير أنه وصلنا أخيراً منذ مدة وجيزة فقط ... (وهنا يبدأ يوحنا يقص قصة الأرشيف المدني في روما كمصدر تعرف منه رجال الكنيسة على هذا اليوم)... ومن هؤلاء الذين كانت لديهم معلومات دقيقة عن الموضوع في روما قد تسلمنا بدورنا تحديد هذا اليوم ، لأن قاطني هذه المدينة كانوا متمسكين بهذا اليوم منذ البدء ، ومن التقليد القديم ، وهم الذين أرسلوا لنا هذه المعلومات] .

أما في كنيسة مصر ، فنستقي تحديد بدء عيد الميلاد (ومعه عيد الختان) من مصادر متعددة ، وأهمها الآتى :

أولاً : الدسقولية (أي تعاليم الرسل) وهي من مدونات القرن الثالث :

١٨ : [ياإخوتنا تحفظوا في **يوم الأعياد** التي هي عيد ميلاد الرب ، وأكملوه في اليوم الخامس والعشرين من الشهر التاسع الذي للعبرانيين ، الذي هو اليوم التاسع والعشرون في الشهر الرابع الذي للمصريين . ومن بعد هذا الإبيفانيا ، فليكن عندكم جليلاً لأن فيه بدأ الرب أن يظهر لاهوتيته في معموديته في الأردن من يوحنا . واعملوه في اليوم السادس من الشهر العاشر الذي للعبرانيين الذي هو

الحادي عشر من الشهر الخامس الذي للمصريين . وليتقرب في الميلاد والغطاس ليلاً لا لكراهية الصوم بل لتمجيد العيد] .

و يلاحظ هنا أنه ذكر كلمة « **يوم الأعياد** » ، مما يفيد أنه في يوم واحد كان يقام عيد للميلاد والغطاس معاً . كذلك فإن تشابه العيدين في طقسهما المسائي يوحي بذلك .

ثانياً : القديس أثناسيوس الرسولي :

و ينقل عنه العالم كوتيليـيه من إحدى مخطوطاته التي لم يُذكر اسمها قول أثناسيوس :

[لأن ربنا يسوع المسيح وُلد من العذراء القديسة مريم في بيت لحم في ٢٩ من شهر كيهك ، بحسب المصريين ، في الساعة السابعة ، الموافق الثامن من يناير] (٧)

ثالثاً : من كلمندس الإسكندري ، حيث يبدو كلمندس متردداً في قبوله :

[والأمر العجيب أنه توجد جماعات حددت بالفعل سنة ميلاد الرب وأيضاً اليوم الذي وُلد فيه المخلِّص وهي السنة الثامنة والعشرون لأوغسطس قيصر ، في اليوم الخامس والعشرين في الشهر التاسع (٨) (ديسمبر) (الموافق ٢٨ كيهك) .

كذلك نعلم أن أتباع باسيليدس يعيدون أيضاً ليوم عماده ، ويمضون الليل كله ساهرين في القراءات ، و يقولون إن عماد الرب كان في السنة الخامسة عشرة لسلطنة طيباريوس قيصر ، في اليوم الخامس عشر من شهر طوبة] (٩)

---

(7) Coetelier, Intr. op. cit., p. 197.

(٨) يلاحظ أن كلمندس وضع رقم الشهر العبراني بدل القبطي . وقد قام العلامة أدلر بتصحيح هذا

(9) Stromata, Lib. I. C. 21.

وهكذا تأتينا هذه الأخبار المبكرة جداً بخصوص تعييد العيدين : الميلاد والغطاس ، كل بمفرده في مصر ، ولكن ليس مؤكداً إن كان هذا من قبل الكنيسة الرسمية الأرثوذكسية الجامعة . ولكن الإشارة هنا إلى أن تعييد العماد بمفرده كان لبعض الجماعات المنشقة مثل باسيليدس .

رابعاً : عن كاسيان : سنة ٣٦٠ — ٤٥٠ م :

ثم يعود كاسيان و يؤكد لنا أن الكنيسة في مصر كلها كانت لا تزال في أيامه تعيد لعيد الميلاد والغطاس معاً في عيد الإبيفانيا ، حيث تأتي كلمة « الإبيفانيا » بصيغة الجمع ، أي تشمل عدة ظهورات :

(أ) الظهور في الجسد « الله ظهر في الجسد » .

(ب) ظهور النجم للمجوس ، وهو إشارة إلى استعلان الله للأمم .

(جـ) استعلان بنوته لله في العماد بصوت السماء .

(د) استعلان لاهوته بمعجزة قانا الجليل .

[وفي إقليم مصر ، هذه العادة قديمة بالتقليد حيث يراعى أنه بعد عبور « الإبيفانيا » التي يعتبرها الكهنة في هذا الإقليم الزمن الخاص بمعمودية الرب ، وأيضاً ميلاده بالجسد ، وهكذا يعيدون لكلا التذكارين أي لكلا « السرين » ، ولا يعيدونهما منفصلين كما هو في أقاليم الغرب . ولكن في عيد واحد في هذا اليوم] (١٠)

ونفس هذه الحقائق يسجلها إبيفانيوس أسقف قبرص .

والمعروف لدى العلماء أن أول من عيَّد « الإبيفانيا » للميلاد والغطاس معاً هي كنيسة الإسكندرية منذ العصر الرسولي ، و يقال أن هذا تقليد مسلَّم للكنيسة من القديس يعقوب أخي الرب . ومنها انتقلت إلى روما والغرب . وهناك حدث في الربع الأخير من القرن الرابع ، انفصال العيدين ، وعيَّدت كنائس الغرب للميلاد في

---

(10) Cassian, X, 2nd Confer. of Ab. Isaak.

٢٥ ديسمبر. ومن الأمور الطريفة أن في عيد الغطاس عند الغرب، لا تزال الكنيسة هناك تحتفظ بتذكار زيارة المجوس!!(١١).

كذلك من الأمور الطريفة أن الغرب احتفظ باسم عيد « الإبيفانيا » في نطقه اليوناني، أما الميلاد فبنطقه اللاتيني؛ مما يفيد أن عيد الإبيفانيا مأخوذ بطقسه واسمه من الشرق، أما التعييد للميلاد منفرداً عن الغطاس فهو من ترتيب الغرب.

خامساً: البابا الإسكندري تيموثاوس الأول (٣٧٨–٣٨٤م):

يسجل لنا المؤرخ جناديوس في كتابه عن التاريخ الكنسي، أن البابا الإسكندري تيموثاوس هذا ألف كتاباً على ميلاد ربنا بحسب الجسد. و يظن المؤرخ أنه كُتب أو قُرِىء في عيد الإبيفانيا(١٢).

ومن هذه الإشارة يبدو واضحاً أن كنيسة الإسكندرية كانت تعيِّد للميلاد متميزاً عن الغطاس، ولو أن ذلك كان في يوم واحد وعيداً واحداً، وكانا يسميان معاً بالإبيفانيا. و يعتبر هذا الكتاب الذي ألفه تيموثاوس بابا الإسكندرية الثاني والعشرون عن الميلاد أول مؤلف كنسي عن الميلاد قاطبة.

وهكذا كما ابتدأ الميلاد يأخذ مجاله المتميز كعيد قائم بذاته منذ القرن الثاني في مصر، هكذا ابتدأ عيد الختان يأخذ وضوحه المتميز معه جيلاً بعد جيل؛
لأن الكنيسة بدأت تهتم بتسجيل كل حوادث الإنجيل مبكراً جداً، فنحن نقرأ للقديس مار أفرآم السرياني (الذي تنيح سنة ٣٧٣م) تحديده أيضاً لعيد البشارة هكذا: [لأن في العاشر من مارس كان الحبل به وفي السادس من يناير كان ميلاده](١٣).

(11) a. Ibid., Note p. 401.
b. Schaff, Hist. of Chr. Chur., vol. I, pp. 128, 129.

(12) Gennad., Ecc. Hist., N.&P.N.F., series II, vol. III, p. 395.

(13) Ephrem Syrus, (Assemani Bib. or. II 163).

سادساً: البابا كيرلس الكبير عمود الدين (٤١٢–٤٤٤م)، والأسقف بولس من « أميسا »:

مذكور في تسجيلات مجمع أفسس سنة ٤٣١م، أن الأسقف بولس من أميسا ألقى عظة في حضور البابا كيرلس الكبير الإسكندري عن ميلاد ربنا يسوع المسيح، حدد فيها ميلاد المسيح باليوم التاسع والعشرين من شهر كيهك (الذي كان يوافق ٢٥ ديسمبر)(١٤).

وعنوان العظة كالآتي: [عظة لبولس أسقف أميسا ألقاها في اليوم التاسع والعشرين لشهر كيهك في الكنيسة العظمى بالإسكندرية بحضرة المطوب كيرلس على ميلاد ربنا ومخلصنا يسوع المسيح].

ومن هذه العظة يتضح أن عيد الميلاد كان له وجود مستقل عن عيد الغطاس في زمن كيرلس الكبير! وكان قد تحدد له يوم معين خلاف يوم الإبيفانيا.

ولكن المعروف أن هذا تم بحذر شديد، لأن التقليد المألوف الجاري في الكنيسة كان يعتبر أن عيدي الميلاد والغطاس يكوّنان مفهوماً واحداً « لطبيعة الله الكلمة المتجسد ».

كذلك فمجرد تقسيم العيدين يُعتبر تقسيماً لمفهوم طبيعة المسيح، الأمر الذي أثار حفيظة شعب القسطنطينية عندما أجرى غريغوريوس النزينزي (اللاهوتي) هذا التقسيم وجعل الميلاد منفصلاً عن الغطاس، فهاج الشعب محتجاً معتبراً ذلك إساءة لمفهوم لاهوت المسيح.

تحديد عيد الختان:

ومن الأمور الثابتة في الكنيسة أن الإشارة إلى عيد الختان كانت قديمة في

(14) Conc. Ephes: Pars, iii, C. 31, Labbé iii, 1095; Dict. of Chr. Antiq. I, 360.

الكنيسة ، وكانت تستتر تحت كلمة « الأوكتاف » Octave أي « الثامن » ، وهو اليوم الثامن من بعد الميلاد ، أي الموافق للختان . وقد اختير هذا الإصطلاح تحشماً واحتراماً لجلال المختتَن .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الكنيسة كانت تعتبر الختان مكملاً للميلاد ، فلا يصح أن يُعيَّد للختان عيداً منفصلاً عن الميلاد ، فأضافت « اليوم الثامن » أي « الأوكتاف » إلى عيد الميلاد بالرغم من إقامة تذكاره في يوم آخر غير يوم الميلاد .

وهذا الأمر سبق أن لاحظناه أيضاً في تمسك الكنيسة بالجمع بين عيدي الميلاد والغطاس معاً ، باعتبارهما يكونان مفهوماً واحداً لمسيح واحد مولود في بيت لحم وفي الأزلية ، بحيث لا يمكن فصل ميلاده في بيت لحم عن ميلاده الأزلي .

وقد ظل هذا الإصطلاح « الأوكتاف » معمولاً به في الكنيسة مدة طويلة ، حيث بدأ قليلاً قليلاً يأخذ إسمه الطقسي « عيد الختان » بوضوح . ومن قراءات اليوم الثامن من بعد الميلاد ، تظهر الفصول الخاصة بختانة المسيح ، وذلك في أقدم القطمارسات .

أما أقدم وثيقة في الكنيسة بلغت إلى علمنا حتى الآن ، فهي تحمل عظة عن « عيد الختان » ، وهي من أعمال « زينو » أسقف ڤيرونا من القرن الرابع [١٥] ، قيلت في « أوكتاف » الميلاد ، أي في اليوم الثامن من الميلاد .

(يناير ١٩٧٤)

---

(15) Lib. I, tract 13, p. 99. ed. Ballerini.

عيد دخول السيد المسيح
إلى أرض مصر

الهــروب إلى مصــر

هذه الحادثة الفريدة في حياة الرب يسوع ، نبوية بالدرجة الأولى كما يقدمها الإنجيل حسب القديس متى الرسول . وتعييد الكنيسة لها الآن هومحدد بتاريخ ٢٤ بشنس .

ولكن أصل التذكار والتعييد لهذه الحادثة ، كان بحسب التقليد القديم للكنيسة في الأحد الأول بعد عيد الميلاد ، حيث يأتي فصل الإنجيل ، أي إنجيل الهروب إلى مصر ـ مكملاً لإنجيل المجوس وملتزماً به ، لأن الوحي الإلهي إذ ينبه المجوس في الحلم أن لا يعودوا من الطريق التي أتوا منها ، حتى يتفادوا المرور بهيرودس الحاقد على الطفل ليقتله لكي لا يعرف مكان ولادته ولا عنوان بيته وهوية أهله ، يعود الوحي أيضاً مباشرة في الإنجيل و يذكر كيف نبه يوسف في الحلم حتى يقوم و يأخذ الصبي وأمه ويهرب إلى أرض مصر من وجه هيرودس المزمع أن يقتله .

هكذا أصبح انجيل المجوس مرتبطاً بإنجيل الهرب إلى مصر مباشرة ، مع أنه ربما كان بينها مسافة زمنية . فالتقليد القديم أخذ بتسلسل القراءة مرتبطاً بالفكر اللاهوتي ، فعيَّد للهرب من مصر مباشرة بعد ميلاده .

ولكن عاد التقليد وأقام التعييد للهروب إلى مصر بحسب التوقيع الزمني ، خصوصاً بعد أن فصل التعييد للميلاد عن التعييد للعماد على أساس التوقيع الزمني بدل أن كان على أساس الفكر اللاهوتي .

الأساس النبوي الذي يوضح حادث الهروب إلى مصر:

من سياق الحديث في قصة الهروب إلى مصر ومن واقع مراحل هذه الحادثة الفريدة في حياة الرب ، نكتشف مقدار التطابق مع النبوات الذي يورده القديس متى الرسول .

حيث نخرج من هذه الحادثة بحقيقة غاية في الوضوح والأهمية ، وهي أن حياة الرب في مراحلها الدقيقة ، هي بحد ذاتها آية ، كأي معجزة عملها الرب . فإن كان القديس يوحنا الرسول اهتم جداً أن يركز على أقوال الرب ومعجزاته ليكشفها كآيات تنطق بألوهية المسيح ، وتحصر الفكر والضمير والإحساس جميعاً في دائرة الإيمان بهذا ، نجد القديس متى الرسول يهتم جداً بحياة الرب وحركاته ويركز عليها الأضواء النبوية بشدة وإحكام من كافة الزوايا ، ليوضح حقيقة واحدة غاية في الأهمية ، وهي أن المسيح هو منتهى النبوات جميعاً والغاية التي تنتهي عندها كافة أسفار العهد القديم بكل قصصه وحوادثه ! ...

° ° °

« **قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى أرض مصر وكن هناك حتى أقول لك . لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه** . وكان هناك إلى وفاة هيرودس ... فلما مات هيرودس ، إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلاً قم وخذ الصبي **وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي** » (مت ٢ : ١٣ ـ ٢٠) .

هنا يركز القديس متى على كل كلمة ، حتى الأسلوب نفسه ينقله بوضعه النبوي .

أما المصدر الذي يشير إليه متى الرسول هنا ، فهو نفس الأمر الذي حدث لموسى سابقاً يصوره و ينقله الوحي بألفاظه ، لعله يثير فينا الإحساس الروحي لفهم قصد الله وتدبيره :

(سفر الخروج ٢ : ١٥ ؛ ٣ : ٢ ؛ ٤ : ١٩ و ٢٠) :

« فسمع فرعون هذا الأمر **فطلب أن يقتل موسى . فهرب موسى من وجه فرعون** وسكن في أرض مديان ... وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة ... وقال الرب لموسى في مديان : اذهب ارجع إلى مصر لأنه **قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون** نفسك . وأخذ موسى عصا الله في يده » . وهنا كلمة « العصا » سنعود إليها .

إذن ، فهنا يريد الوحي الإلهي عموماً أن ينبه ذهننا إلى عدة أمور :

١ ـ تأسيس الصلة الرمزية بين موسى والمسيح من جهة رسالة الخلاص ، حيث يأتي المسيح ليكملها في جوهرها وكمالها . وهذه الصلة ستظل تلاحقنا في كل أصحاح من جهة الفصح والعبور والمن والماء والأربعين يوماً والكلمات العشر وخيمة الشهادة ... إلخ . وهذه كلها تؤكد نبوية كافة المراحل التي عبرت فيها حياة المسيح وتنقلاته .

٢ ـ مصر وفرعون مصدر العبودية المرة والظلم والقتل ، ينتقل ليكون أورشليم وملك أورشليم ، وهنا يريد الوحي أن يجعلنا نضع أصبعنا على الحالة التعسة التي انتهت إليها مدينة السلام وملك ساليم !! تمهيداً لتحويل ذهننا من السلام الذي يمنحه العالم وملوك العالم ، إلى سلام الله الذي يفوق العقل .

٣ ـ ولا يفوتنا هنا أن ننبه الذهن أيضاً أن القديس متى يستخدم هنا الاصطلاحات التي وردت سابقاً بوضعها النبوي ، فينقلها كما جاءت قديماً دون الإشارة إلى ذلك إلا نادراً ، أي حينما يقول : « ليتم ما قيل بالنبي » ، فمثلاً نجده يستخدم صيغة الجمع : « قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي » (مت ٢ : ٢٠) ، مع أن الذي كان يطلب نفس يسوع هو هيرودس بمفرده ، ولكن القديس متى ينقل ما كتب في سفر الخروج : « قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك » (خر ٤ : ١٩) .

٤ ـ كذلك نجد القديس متى يستخدم اصطلاح « انصرف » أو « هرب » كما جاء في قصة موسى كما هو ἀναχωρεῖν : « فهرب موسى من وجه فرعون » ἀναχωρεῖν ، وهي كلمة تفيد الاعتزال عن الناس أو الجماعة أو المكان ، وقد استخدمه متى الرسول بعد ذلك في إنجيله بصفة متكررة « انصرف إلى نواحي الجليل » (مت ٢ : ٢٢) ، « ولما سمع يسوع أن يوحنا أُسلم انصرف إلى الجليل » (٤ : ١٢) ، « وتشاوروا عليه لكي يقتلوه فعلم يسوع وانصرف من هناك » (١٢ : ١٥) ، « فأرسل وقطع رأس يوحنا ... ورفعوا الجسد ودفنوه ... فلما سمع يسوع **انصرف** من هناك » (١٤ : ١٣) ، « (بعد محاورات عقيمة من الكتبة والفريسيين) ... ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا » (١٥ : ٢١) .

ونلاحظ أن هذه الكلمة ἀναχωρεῖν تأتي دائماً للانتقال من مجال خطر إلى مجال آمن ، أو من مكان فيه تهديد إلى مكان سلام ، أو من وسط جماعة غير مؤمنة إلى مكان أكثر استعداداً للإيمان .

وهي أيضاً نفس الكلمة التي استخدمت كاصطلاح للتعبير عن الراهب anachorite . ولذلك فهي هنا ذات أهمية بالنسبة لنا لتعطينا فكرة واضحة عن منهجنا الرهباني كله باعتباره انتقالاً وانصرافاً دائماً عما هو غير ملائم إلى ما هو ملائم لحياتنا وسلامنا وإيماننا ...

مراحل القصة :

أولاً : « خذ الصبي وأمه واهرب إلى أرض مصر . فقام ليلاً » !!

الآن وعلى ضوء ما تعلمناه من القديس متى نستطيع بكل سهولة أن نكتشف في هذه الجملة البسيطة أعماقاً نبوية لا حدود لها :

فها نحن ، من جديد ، أمام يوسف والقمح (خبز الحياة) ومصر !! ، بل وعندما تمعن القدرة الإلهية في الحبك النبوي جعلت يوسف ابن يعقوب (تك٤٧ : ٧) !! وهكذا بالضرورة نعود إلى قصة يوسف بن يعقوب المدعو بالصدّيق !!! ونزوله إلى مصر في قافلة ، مُباعاً من إخوته ، ثم موضوع القمح الذي التصق باسم يوسف في مصر ، الذي أنقذ يعقوب إسرائيل وكل بنيه من الهلاك بالجوع !... وتغرب إسرائيل قديماً ٤٠٠ سنة في مصر ثم الخروج والعودة !!

والآن يقدم لنا الوحي الإلهي على فم القديس متى نفس الصورة محققة ومستعلنة على مستوى جوهري إلهي سماوي !! فهذا يوسف ، وأيضاً ابن يعقوب (مت ١ : ١٦) ، وأيضاً مدعو بالصدّيق (مت ١ : ١٩) ، ومعه يسوع الذي عرفناه خبز الحياة (يو ٦ : ٤٨) ، الذي يحتوي كل أهراء قمح السماء ، الذي يعطي الشبع لخمسة آلاف رجل من خمس خبزات وحسب ، بل يعطي الشبع من لحمه ودمه لحياة العالم كله !! و يرد الموت عن الجائعين لا إلى سبع سنين بل إلى أبد الآبدين ، ثم التغرب في مصر !!

صحيح أن متى الرسول لا يشير صراحة إلى ذلك ، ولكن أصابع الوحي تضغط على الكلمات فيخرج صوت الوحي مبدعاً ومبهراً لكل ذي أذن للسمع وعين للنظر !!

خذ هذا السؤال فقط : هل يمكن أن نتجاهل أوصاف وألقاب يوسف ؟ فكلاهما ابن يعقوب ، كلاهما بار ، كلاهما صاحب أحلام ، كلاهما مطيع لله أقصى طاعة ، كلاهما قاده الله بنفسه بيد ملاكه في نفس الطريق إلى مصر !! وكما استبق الله يوسف من الموت وساقه الله قدام أخوته وحفظه في مصر ليرد الهلاك عن يعقوب اسرائيل بل وعن مصر والأقطار المحيطة ، هكذا جاءت الإشارة واضحة لنزول يوسف أيضاً ومعه خبز الحياة — المسيح — هارباً إلى مصر ليحتفظ بأهراء قمح الحياة في أمان مصر إلى أن تحين الساعة ليوزع طعام الحياة على العالم كله !! وتغرب هناك أيضاً ، لكي من الأسماء والحركات والبلاد يستيقظ إحساسنا النبوي لندرك رسالة المسيح وعمل الله وقصده الخفي من هذه التحركات النبوية في حياة الرب .

هيرودس قاتل الأطفال :

ومرة أخرى يعطي القديس متى الإشارة من بعيد بخصوص هيرودس وقتل الأطفال من ابن سنتين فما دون ، ليستيقظ وعينا الروحي حتى تختزل السنون ونعود بالفكر إلى فرعون (رمسيس الثاني من ١٣٠٠ — ١٢٠٠ ق . م . تقريباً) الذي أمر بقتل أطفال بني إسرائيل خنقاً أو إغراقهم في البحر الذكور فقط τοὺς παῖδας وليس τά τέκνα ، ثم نجاة موسى .

هيرودس : من جنس أدومي (أدوم = عيسو) . تزوج امرأة « هاسمونية » يهودية ، وزين الهيكل ، ولكنه ظل مكروهاً لأنه أدومي . وقد أفسد الروح اليهودية ونجس العبادة وزيفها ومالأ الرومان . وتعين **ملكاً على اليهود** بلقب **« ملك اليهود »** لأول مرة سنة ٤٠ ق . م . — ٤ ق . م . وقد شاركه في هذا اللقب لثاني مرة ابنه حينما كان ملكاً على الجليل .

وبسبب هذا اللقب دخلته الغيرة والحقد عندما سمع المجوس يقولون « أين المولود

ملك اليهود » (مت ٢ : ٢) !! وهذه هي نفس أحقاد فرعون التي دعته ليقتل ذكور الأطفال ، وذلك خوفاً من نمو الشعب اليهودي وتسلطه !! وكان هيرودس هو آخر مرحلة من ليل وظلام العصور الأخيرة ، فكان آخر ملك مزيف على اسرائيل ، أشرق من بعده ملكوت الله .

هنا يضعنا القديس متى أمام المزمور: « قام الملوك وتآمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه : قالوا لنقطع أغلالهما (مثنى) ولنطرح عنا نيرهما (بكسر نير ملوكية المسيح)... الساكن في السموات يضحك بهم والرب يستهزىء بهم بسخطه و برجزه يقلقهم » (مز ٢ : ١-٥) .

وقد تم ذلك بالحرف الواحد ، إذ أن هيرودس يصيبه بعد حادثة قتل أطفال بيت لحم ما حاق بفرعون بعدما قتل أطفال بني اسرائيل : قلق هستيري ، كما هو معروف في التاريخ ، يودي بحياته بعد أن يقتل جدة زوجته وأخاها وزوجته نفسها مريمن وأمها ألكسندرا ثم اثنين من أولاده . انظروا إلى أي حال بلغت أورشليم مدينة السلام وما بلغ إليه ملك ساليم !!

الأطفال الأبرياء المقتولون :

لو استطعنا بشيء من التأمل واختزلنا الزمن ، وجمعنا الصليب إلى حضن المسيح المولود ، لرأينا المسيح نفسه مقتولاً معهم !!

موت الأطفال هنا موت مظفر ، موت كهنوتي ، جزء من السر الإلهي . يكوِّن هالة ولو صغيرة حول صليب ربنا يسوع ، لأن موت الأبرياء ، إن كانوا حقاً أبرياء ، حتى من الرجال والنساء ، من كل جنس أو لون أو دين ، مع كل آلامهم ، هو موت وألم كهنوتي ، يُضاف إلى آلام المسيح وموته !! بولس الرسول اعتبر آلامه الخاصة هي تكميل لآلام الرب ، فكم تكون آلام أطفال بيت لحم وموتهم ؟

أي شرف أن يموت هؤلاء الأطفال ليحيا المسيح حتى يكمل فداءهم !! فيقوموا و يعيشوا معه إلى الأبد .

ولكن متى الرسول مهتم أكثر بالتطابق النبوي ، فموت أطفال بيت لحم يرفعه مرة أخرى ليضعه مع جميع الأبرياء الذين ماتوا وأُسروا في تاريخ اسرائيل ، ويركِّز بالأكثر على الذين استُشهدوا سابقاً في بيت لحم وما حواليها أيام غزو الأشوريين أو في أسر بابل ، حينما كان عويل الأمهات في بيت لحم يُسمع في الرامة (على بعد ١٢ كيلومتراً) .

وهنا يأتي متى الرسول بوصف إرميا النبي (إرميا ٣ : ١٥) لبكاء الثكالى والأرامل في بيت لحم ، عندما كن ينظرن صفوف الأسرى مربوطين من أعناقهم يمرون في طريق الرامة المتجه شرقاً نحو عبر الأردن ، إلى بابل حيث السبي الطويل والموت في المنفى !! ولم يجد إرميا النبي ما يعبِّر به عن مجموع عويل وبكاء النساء في بيت لحم مرات ومرات ، ثم هذه المرة عند مذبحة أطفال بيت لحم ، أروع من أن يجمع كل ذلك في شخصية راحيل محبوبة إسرائيل المدفونة في طريق بيت لحم ، وكأنها في قبرها تبكي مع أمهات بيت لحم ، أو تبكي عوضاً عنهن جميعاً !!

لقد طارت في الحال أرواح هؤلاء الأطفال واجتمعت لتكون جوقة مرنمة حول الطفل يسوع وهو على صدر أمه في رحلته الطويلة الشاقة إلى مصر ، عبر سيناء الجريحة !!

ولكن سفر الرؤيا ، بتعبير الكنيسة ، جعلهم أيضاً بثيابهم البيض جوقة شرف يحيطون بعرش الحمل القائم كأنه مذبوح !! (رؤ ٥ : ٦ ؛ ٦ : ١١) .

العودة :

وتأتي باصطلاحاتها وألفاظها متطابقة مع قصة موسى وظهور الله له في مديان يأمره بالعودة « قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي » ، « قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك » .

هنا ينبهنا القديس متى إلى أن عودة الرب من مصر كانت رهناً بموت هيرودس آخر ملك (كاذب) على أورشليم . والذي من بعده لم يقم ملك على أورشليم حتى هذا

اليوم . لأن الرب ملك كرسي داود بالفعل ، وإنما على المستوى السري غير المنظور . فأورشليم الروحية مكللة ومعظمة بالمسيح الملك الحقيقي ، منذ أن رجع من مصر بعد موت هيرودس حتى هذا اليوم وإلى الأبد . ولكنها ستظل متغربة في الأرض عن ملكها « مدوسة من الأمم » (لو٢١ : ٢٤) ، حتى يدخل ملء الأمم ، وحينئذ يُنزع عارها و يُستعلن الآتي في مجد منظور .

* * *

ثانياً : الدعوة : « قم وخذ الصبي وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل » :

وهنا يصمم القديس متى على أن يزيد التطابق النبوي إلى أقصاه ، فيرى في هذه الدعوة تحقيقاً إلهياً لما حدث يوماً بالرمز والمثال ، حينما قال الرب لموسى : « وتقول لفرعون هكذا يقول الرب : **إسرائيل إبني البكر** ، أطلق إبني ليعبدني » (خر٤ : ٢٢و٢٣) . وهذا ما عبَّر عنه هوشع النبي كوسيط مبدع وقف بين الرمز والحقيقة ، يأخذ من هذا و يوضح من ذاك ، دون أن يدري ما يقوله ! :

« لما كان إسرائيل غلاماً أحببته ، ومن مصر دعوت إبني » (هو١١ : ١) .

و يلاحظ هنا أن إلحاح متى الرسول على لقب المسيح « **البكر** » هو أيضاً مرادف نبوي للتعبير عن شخصية المسيح « إسرائيل إبني البكر » . فالمسيح في حياته كلها كان تعبيراً عن « أمة » بأكملها ، بل عن البشرية كلها « هل تمخض بلاد في يوم واحد أو تولد أمة دفعة واحدة » (أش٦٦ : ٨) .

* * *

ثالثاً : « يدعى ناصرياً »

ترك يوسف اليهودية بسبب أرخيلاوس ، لأنه ورث أباه وكان مثله في القسوة والنقمة ، والتجأ إلى الجليل حيث المجال لسلام أكثر ، وسكن الناصرة ودعي « ناصرياً » .

كلمة « ناصرة » تأتي في الأصل العبري من إسم فرع الشجرة أو الغصن ، ولكن ليس بمعنى الأغصان الملازمة لحياة الشجرة من أولها ، بل غصن ثانوي ضعيف ينبت جانبياً من قرب الجذر ، وإسمه بالعربية مرادف تماماً للإسم العبري « نسر » . وهو في العبري « نتسر » أو « نتزر » .

فالناصرة كانت بلدة ضعيفة ثانوية جداً أخذت اسمها من كونها بلدة ليست ذات شأن ، لذلك سخر نثنائيل من فيلبس لما قال له أن المسيا من الناصرة فقال له : « أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح » (يو١ : ٤٦) .

فاللقب الذي ارتضى أن يتخذه المسيح لنفسه بحسب النبوة ، هو لقب يفيد الضعف والإتضاع « و يدعى ناصرياً » . وهذا اللقب هو نفس اللقب الذي دعي به تلاميذه ، وهو تعبير عن المسكنة .

وهكذا لم يختر المسيح المذود مسقطاً لرأسه فقط ، بل اختار الناصرة أحقر المدن ليعيش فيها ثلاثين سنة من حياته !!!

ولكن أي فخر للناصرة التي صارت لقباً لشعوب برمتها ، ولأعظم ملوك الأرض طرا . وهكذا نصيب كل ما هو حقير وكل ما هو مزدرى به وكل تافه وكل مسكين ، إن هو صار من نصيب الرب !! ألم يصر المذود والصليب وجماعة صيادي السمك كلهم إلى هذا المجد عينه !!

أما النبوة التي يشير إليها متى الرسول في هذا الشأن فهي واردة في إشعياء النبي : « ويخرج قضيب من جذع يسى **وينبت غصن من أصوله** » (إش١١ : ١) .

وقبلها مباشرة يصف إشعياء كيف أن الرب سيقطع أولاً الأغصان كلها فلا يبقى إلا أصل الساق وحدها ، ثم ينبت من هذا الأصل « **عبدي الغصن** » (زكريا ٣ : ٨) ، « هوذا السيد رب الجنود يقضب الأغصان برعب (بقسوة — أي من أصلها) والمرتفعو القامة يُقطعون والمتشامخون ينخفضون » (إش ١٠ : ٣٣) .

أما إرميا النبي فيوضح هذا الإسم أو هذا اللقب و يقصره على المسيح شخصياً هكذا: « ها أيام تأتى ، يقول الرب ، وأقيم لداود **غصن بر** فيملك و ينجح و يُجري حقاً وعدلاً في الأرض » (إر٢٣: ٥).

أما زكريا فيجعل إسمه وليس لقبه فقط هو الغصن ، و بذلك يكون أقرب من أنبأ باسم الرب ولقبه أنه يدعى « ناصرياً »:

« هوذا الرجل **الغصن إسمه** ، ومن مكانه ينبت ، **و يبني هيكل الرب ، فهو يبني هيكل الرب** وهو يحمل الجلال ويجلس و يتسلط على كرسيه ، و يكون كاهناً على كرسيه » (زك٦: ١٢و١٣).

و يلاحظ أن في هذه النبوة ينكشف مصدر القول النبوي الذي قاله المسيح عن نفسه: « **انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه** » (يو٢: ١٩).

كذلك لا يفوتنا هنا أن نذكر أن المسيح **« الغصن » أو « الناصري »** قال أيضاً: « كل غصن فيَّ لا يأتي بثمر يقطعه وكل ما يأتي بثمر ينقيه ليأتي بثمر أكثر» (يو١٥: ١). وفي هذا التعبير العبري الإنجيلي بحسب أسلوب القديس متى الرسول ، تُقرأ هكذا: « كل ناصري فيَّ » !! أي كل « نتسر فيَّ » !!

و بنظرة خاطفة نستطيع أن نوجز رؤية القديس متى الإلهامية لهروب المسيح إلى مصر ، أنه جزء لا يتجزأ من صميم تحقيق واستعلان شخصية المسيا ، باعتبار أنه **« إسرائيل الجديد »** فكما أن شعب إسرائيل تبناه الله **أولاً** « إسرائيل إبني البكر » ، ثم **ثانياً** بتيه أدخله في ضيق الغربة ، ثم **ثالثاً** أعاده إلى ميراثه ومملكته الزمانية ، هكذا يكشف لنا متى الرسول عن خط هذه المسيرة عينها و بنفس الخطوات في حياة المسيح.

(يناير ١٩٧٤)

عيد الغطاس

بمناسبة معمودية يوحنا والدخول في الصوم الأربعيني

توبوا ...

« من له أذنان للسمع فليسمَع »

لقد مهَّد يوحنا المعمدان ، بالتوبة ، الطريق لمعرفة المسيح وظهوره !!

بدون توبة عن الخطية ، وندم على حياة الإستهتار ، وعودة القلب إلى مخافة الله ؛ يتعذَّر استعلان معرفة المسيح و ينحجب ظهوره الإلهي عن النفس !... « وأنا لم أكن أعرفه **لكن ليُظهر لإسرائيل لذلك جئت أعمد بالماء** ...

... وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله » (يو١ : ٣١، ٣٤) .

إذن فكانت معمودية يوحنا بالماء للتوبة ، ضرورة مطلقة حتى يُستعلن المسيح !...

ولا تزال التوبة في كل حين وحتى هذه الساعة هي الطريق الوحيد الذي يوصلنا إلى التعرف على شخصية المسيح . فمن خلال ضغطة الحزن على الخطية والإحساس بالندم القاتل ، نستكشف رحمة يسوع وقيمة دمه وقدرة لاهوته على الإقامة من الموت والهاوية !!...

إذا لم نقف على خطر الخطيئة العاملة فينا ونحس في أعماقنا بسر الإثم ، لن نقف يوماً على قيمة الدم الإلهي ، ولن نحس أبداً بسر الفداء !! وإن كنا لا نفحص ضمائرنا ونلومها وننازع أنفسنا عن قبائح حياتنا الداخلية ونديناها ، ونكتشف في أخطائنا وشهواتنا وعيوبنا ونجاساتنا حقيقة أنفسنا ، فلن نشعر بأي حاجة إلى المسيح ، ولن نجد ضرورة ملحة للتعرف عليه ، و يظل لاهوته مجرد موضوع للإيمان يزداد و يتناقص بمقدار البرهان الفكري ، أما الدم المسفوك على الصليب فيبدو وكأنه بلا داعٍ ، أو كأنه لازمة من لوازم قصة الصليب وحسب !!...

° ° °

ولكن يالجلال الرب للقلب التائب !! و يالقوة الدم للضمير الذي يئن من ثقل الخطية !!

حينما تبلغ النفس إلى حقيقة ذاتها بعد أن تكون قد واجهت خطيتها بشجاعة وصمود دون تهرب أو اعتذار أو عطف كاذب ... فحينئذ لا ترى مفراً من السقوط تحت خشبة الصليب !! ..ولا تعود ترى في يسوع موضوعاً فكرياً للإيمان ، بل حقيقة حياة من الموت وخلاص من الهاوية .

« من آمن بي ولو مات فسيحيا ... » (يو١١ : ٢٥) !! « من آمن واعتمد خلص » (مر١٦ : ١٦) !!

سؤال : وماذا يحتاج الإنسان الخاطىء ليقبل الإيمان بالمسيح ، فيقبل الحياة والخلاص ؟؟

الجواب : لا شيء !! فقط لا يعاند الصوت الداخلي ، ولا يقاوم الدعوة !!

« الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة **وهي الآن** حين يسمع الأموات (بالخطيئة) صوت ابن الله والسامعون يحيون » !! (يو٥ : ٢٥) .

° ° °

بداية سيرة الخاطىء مع الله ، كبداية ميت في القبر...

ليس عليه واجبات ، لأن ليس له حقوق في شيء ! « ليس في الموت من يذكرك ولا في الجحيم من يعترف لك » (مز٦ : ٥)...

إن الخاطىء الذي غرَّته الخطيئة وقتلته يبدو وكأنه بلا نفس ، بلا قوة على العمل ، بلا حركة في الروح ، بلا أذن للسمع ؛ من أجل هذا جاء ابن الله ، كلمة الله الحية ، وأرسل صوته بالإنجيل ليزرع بكلمته أذناً جديدة في النفس الميتة لتسمع الإيمان وتعيه... وحين يسمع الخاطىء صوت ابن الله يحيا و يقوم من بين الأموات !!...

° ° °

الخاطىء انسان في عُرف الروح ميت !... ولكن لا توجد خليقة مدللة ومحبوبة

لدى الله قط مثل هذا الميت المنتن بالخطيئة !!... فقد كان معروفاً عن المسيح أنه : « محب للعشارين والخطاة » (مت ١١ : ١٩) !!

فكل خليقة في الوجود ، إن في السماء أو على الأرض ، عليها أن تتحرك وتجهد وتثابر لتحيا ، إلا الخاطىء ، فلا يطالَب من الله أن يتحرك إلى شيء أو يجهد من أجل شيء أو يثابر على شيء ، إلا أن يقبل فقط صوت الله الحنون ولا يرفض دعوة حبه ! « والسامعون يحيون » !!...

صوت الله قوة ليست محيية فقط بل **وجاذبة أيضاً** ، تستطيع أن **تجذب النفس** من أعماق الموت والهاوية وتقيمها من قبر الشهوات وتفكها وتدفعها . هذه الأمور يستحيل على النفس أن تؤديها من ذاتها ، بل و يستحيل عليها حتى أن تتشارك فيها ولا بشيء من الجهد ، ولكنها مطالَبة فقط أن لا ترفضها ...

« لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إن لم **يجتذبه الآب** » (يو٦ : ٤٤)

« ... ومن يُقبل إليَّ لا أخرجه خارجاً » (يو٦ : ٣٧) .

° ° °

وفي اللحظة التي يتقبل فيها الخاطىء صوت الله تنزرع في نفسه الميتة أذن روحية ، « يوقظ كل صباح ، **يوقظ لي أذناً** لأسمع كالمتعلمين ، السيد الرب **فتح لي أذناً** وأنا لم أعاند ، إلى الوراء لم أرتد » (إش ٥٠ : ٤ و ٥) .

وحينما تتفاعل الأذن الروحية مع هذا الصوت بنجاح ، فالروح ينسكب في النفس خالقاً قلباً جديداً روحياً للإنسان من صنع الله ، يبدأ في الحال ينبض بالإيمان والولاء للذي فداه من الموت وخلصه . وحينئذ يأخذ الإنسان قوة على التحرك نحو الله والإجتهاد لإرضائه والمثابرة على حبه ...

هنا تبدأ سيرة جديدة للخاطىء تجاه الله الذي دعاه ، واجتذبه من موت الخطيئة وفداه ، وطهره من نجاساته وأحياه بدم يسوع المسيح وقوة قيامته من الأموات ؛ هنا

يصبح الخاطىء مطالباً ــ بعد أن ذاق ذلة الموت وتذوق مجد الحياة ــ أن لا يعود يسير بقدميه في طريق الموت !... وأن يبغض الطرق الخادعة المؤدية إلى الهلاك ! ... و يبغض الإثم !...

و بقدر ما طهره الله ــ بر يسوع المسيح ــ من نجاسات الخطيئة القاتلة ، أصبح مطالباً أن يسعى في أثر القداسة للحياة مع الله بقوة الله . « نظير القدوس الذي دعاكم كونوا أنتم أيضاً قديسين » (١بط ١ : ١٥) !!

بل وأصبح من صميم سيرة الخاطىء المطهر بالدم الإلهي أن يُسر و يفرح ويخبر بفضل الذي دعاه من الظلمة إلى نوره العجيب (١بط ٢ : ٩) !!

فإن كانت بغضة الخطيئة القاتلة هي من صميم فعل الندامة والتوبة ، فالفرح ببر المسيح وفعل دمه الماحي للذنوب والخطايا هو نور التوبة وبهجتها ، الذي يحفظ الخاطىء من النظر إلى الوراء و يؤمّنه ضد رعبة الموت الوهمية ...

وهكذا يصبح الخاطىء ــ بعد أن يحصل على قوة التوبة بفرح بر المسيح ــ قادراً أن ينطلق باستمرار من تعقب الظلمة له ومخاوفها ، و يواجه نور الحاضر ورجاء المستقبل ؛ « الذي أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته » (كو ١ : ١٣) ، و يصارع ضد شرور هذا الزمان بلا خوف ، مستتراً في المسيح ومتشبثاً بدعوته حسب إرادته و بقوة دمه ... « الذي بذل نفسه لأجل خطايانا لينقذنا من العالم الحاضر الشرير حسب إرادة الله وأبينا » (غل ١ : ٥) .

• • •

الخاطىء يسعى بتوبته لميراث الملكوت ، **ولا يملك إلا قوة الدعوة** التي حظي بها ، كبرهان اختيار ونعمة ، تحوي في داخلها سر الدم الإلهي القادر أن يغسل و يطهر و يقدس إلى التمام ، وحتى النهاية ، بدون نقص أو عجز أو ملل من جهة الله !!

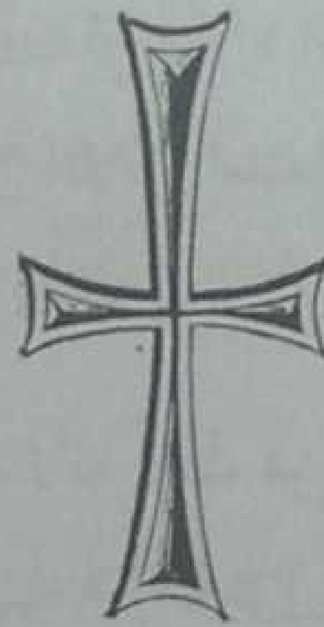
• • •

ولكن كل خطيئة يقترفها الإنسان بعد ذلك عن وعي وإرادة و يكررها بعدم مخافة و بلا ندم وتوبة ، قادرة أن تصيب الأذن الروحية بالصمم والقلب الجديد بالتلف ؛ فلا يعود صوت الله يسمع بقوته المحيية المغذية ، ولا يعود القلب ينبض بالإيمان الحي ، ولا تعود النفس قادرة على التحرك أو الإجتهاد أو المثابرة كما ينبغي ... وحينئذ تدب في النفس شيخوخة روحية مبكرة تنذر بالخوف والخطر !! « وإن ارتد لا تسر به نفسي » (عب ١٠ : ١٢) .

• • •

كلمة الله لا تحيي مرة ، بل تحيي مرات ومرات لا تحصى و بلا عدد ، وصوت الله قوة لا تقيم من الموت فقط بل تقيم من الهاو ية ، ولكن لابد أن يعرف الإنسان من أين سقط !!... ولابد أن يحصر خطيئته ، ولابد أن يتوب عنها باكياً نادماً في التراب حتى ولو كان ملكاً !!... ولابد أن يطرح نفسه تحت توبيخ الكلمة وانتهارها مهما كان عظيماً ، كمريض مدنف على الموت يسلم جسده لسلاح طبيب جراح . فالخطيئة سرطان الروح إذا استؤصلت مبكراً تنجو النفس ، وإذا استهين بها توغلت واستشرت وخربت ؛ فهي لا تعيش إلا بموت الإنسان !... « فأذكر من أين سقطت وتب واعمل الأعمال الأولى ، وإلا فإني آتيك عن قريب وأزحزح منارتك من مكانها إن لم تتب » (رؤ ٢ : ٥) .

(فبراير ١٩٦٨)



على الأردن
تأملات في الغطاس

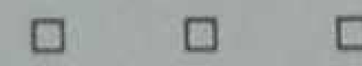
ثلاثة استقرارات علوية حلت على يسوع المسيح أثناء حياته على الأرض تمثل ثلاث أحقاب في إرساليته العظمى لخلاص العالم .

الأول : استقرار النجم « ووقف فوق حيث كان الصبي » (متى ٢ : ٩) معلناً عن دخول النور الحقيقي إلى العالم ، وهكذا كان لائقاً جداً أن يخدم النور خالقه حينما استُعلن في جسد إنسان ...

الثاني : استقرار الروح القدس عليه بهيئة جسمية مثل حمامة ، معلناً بدء عمل الإبن في تأسيس خليقة جديدة روحانية في الإنسان من داخل الطبيعة البشرية وفي صميمها ، فكان لابد من استعلان الروح القدس كشريك مع الإبن في هذه الخليقة الجديدة . كما اشترك الآب أيضاً بالصوت الأبوي المعلن من السماء في نفس اللحظة .

الثالث : استقرار المجد الإلهي عليه بنور رؤيوي فائق يوم التجلي جعل وجهه وهيأته متغيرتين ، حتى ثيابه تحولت إلى بياض لامع . ثم انحصر المجد عنه ، معلناً بدء دخوله في مرحلة الإخلاء الأخيرة والمريرة التي بلغت ذروتها بعار الصليب . فكان من اللائق استعلان مجده قبل آلامه حتى تستعلن حرية فديته وألوهية مشيئته في بذله ! ...

« وقد كنا **معاينين عظمته** ، لأنه **أخذ من الله الآب كرامة ومجداً** إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسنى : هذا هو إبني الحبيب الذي أنا سررت به » (٢بط ٢ : ١٦و١٧) .



شهادة يوحنا عن المسيح « النور الحقيقي » :

لقد تفتح الوعي الإلهي في المسيح مبكراً جداً وهو في الثانية عشرة من عمره ، عندما أدركت روحه لأول مرة كنه رسالته : « ينبغي أن أكون فيما لأبي » (لو٢ : ٤٩) ! ... وذلك عندما أحس في كيانه العميق اللانهائي بولادته التي قبل الدهور ، وبحضن الآب الذي يستمد منه وجوده الدائم في الله ، وخروجه المؤقت لهذا العالم ! ...

وظلت نفسه الوديعة منحصرة فيما هو لأبيه — منذ ذلك الحين — يعمل هادئاً كنجار في الجليل منتظراً ذاك الذي سيتقدم أمامه ، يوحنا المعمدان ، بروح إيليا وقوته ليهيىء بصرامته في قفر العالم والقلوب طريقاً ممهداً بالتوبة ، يُهبط المرتفعات العاليات من ذوي النفوس الفريسية بتبكيته ، ويرفع الواطئات المنسحقات من العشارين والخطاة بدعاء المغفرة ، ويصيِّر المعوجات والعراقيب والنفوس الخبيثة واضحة سهلة بقوة صراحته وكشفه .

نعم كان يلزم أن ذلك النبي ذا الصوت الصارخ الذي يزلزل البراري ، أن يسبق المسيح الوديع الهادىء الذي لا يصرخ ولا يصيح ولا يُسمع في الشوارع صوته (مت١٢ : ١٩) ! ...

ولكن كان لابد أن ينتظر من عمر الاثني عشر إلى عمر الثلاثين ، لأن ما يبدو طبيعياً ، كان في نظر الله ضرورياً من أجل نضج الوعاء الذي سيحمل أثقال البشرية كلها ... ، ومع أنه كان يعمل في هذه الأثناء ويأكل من عمل يديه — كما هو مفروض على كل ذي بشر — إلا أنه كان له في قلبه توق نحو عمل آخر وطعام آخر يود لو يغتذي منه سريعاً حتى منتهى الملء « طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله » (يو٤ : ٣٤) .

وما أن ترامى إلى أسماعه يوماً وهو في الجليل خبر قيام يوحنا يكرز بالتوبة وينادي باقتراب ملكوت الله ، حتى أدرك أن ساعة العالم البطيئة قد تقابلت مع مشيئته المستعدة

منذ الدهور[1] !

كان يوحنا يمثل النبوة الفعالة والمتكلمة معاً ، ولكن كلامه كان كدوي الرعد الذي يسبق المطر « صوتُ صارخ في البر ية » . وكان يتقدم بروح إيليا : يغسل ذبيحة إسرائيل مرات كثيرة بتطهير التوبة إعداداً لنزول نار السماء كما فعل إيليا قديماً : « أنا أعمدكم بماء للتوبة ، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني ... ، هو سيعمدكم بالروح القدس ونار » (متى ٣ : ١١) .

فكان يوحنا نبي الرؤ يا الواقعة ، ذا العين المطهَّرة القادرة أن تكتشف « النور الذي يضيء في الظلمة » (يو ١ : ٥) .

يوحنا كان هو « مصباح النبوة المنير » (راجع يو ٥ : ٢٥) المبهج — « نبي وأفضل من نبي » (مت ١١ : ٩)[2] — الذي اشتعل بز يت الحق ساعة واحدة وأضاء الضمائر بالتوبة ثم انطفأ ، الذي على ضوئه سارت النفوس الساهرة المستعدة حتى انفجر النهار وأشرقت شمس البر التي تضيء القلوب وتشفي الضمائر إلى الأبد (٢ بط ١ : ١٩) .

يوحنا « كان إنساناً مرسلاً من الله ... ليشهد للنور » (يو ١ : ٧ و ٨) !!

ولم يشهد لنفسه قط ، حيث هنا كلمة « الشهادة » ، في أصلها اليوناني ، تعني إعلاناً عن آخر وإظهاره بالإيمان والحق على مستوى الإستشهاد . كل الأنبياء الذين سبقوا يوحنا **استُخدموا** من الله للشهادة ، ولكن يوحنا تميز عن جميعهم أنه « مرسَل من الله للشهادة فقط . فقد وُلد يوحنا وعاش في البر ية ، ليشهد و يعلن هذا النور

---

(١) لقد تحقق العلماء أن يوحنا المعمدان بدأ إعلان خدمته الجهار ية في أغسطس سنة ٧٧٩ من تار يخ تأسيس روما ، وهي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيبار يوس ، وكانت هذه السنة سنة سبتية (أي العام السابع) ، أي السنة التي فيها تستر يح الأرض من الزراعة وتُفك الرهون والديون و يُحرر العبيد ، مما سهل انتشار الخبر وتسارع كل الشعب للعماد . كما تحقق كثير من العلماء أن المسيح بدأ خدمته الجهار ية في بدء سنة ٧٨٠ من تار يخ تأسيس روما ، وهي توافق السنة الثلاثين من عمره المبارك .

(٢) لاحظ شهادة المسيح عن يوحنا « نبي وأفضل من نبي » ، وشهادة يوحنا عن نفسه أنه ليس حتى مجرد نبي « أنا صوتُ صارخ » ، « وغير مستحق أن أحل حذاء المسيا » (وهذا من عمل العبيد) !

و يسير حتى يضع يده عليه !!

يوحنا كان نبي الرؤيا الداخلية ، والشاهد للنور داخل الضمائر ، وكان عمله يختص بإعداد القلوب لرؤية هذا النور الحقيقي والتعرف عليه بالتوبة الحقيقية وغسل الضمير !! ، شهادة يوحنا لم تكن بإعداد الذهن بتفسير الوصايا والنبوات السابقة ولكن كانت بإعداد القلب من الداخل لاكتشاف النور كحق وحياة !!

وشهادة الذهن بالمحاجاة مقصورة دائماً على ذوي المعرفة والذكاء ، أما شهادة القلب بالتوبة فهي عامة لكل بشر !! لذلك فإن شهادة يوحنا للمسيح كنور حقيقي للعالم كله جاءت مطابقة لهذا النور في عموميته الكلية وفي خصوصيته القلبية بصورة رائعة منقطعة النظير ! « لا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً » (مت ٣ : ٩) !...

لذلك كانت النفوس البسيطة التي اعترفت بخطيئتها وتابت على يدي النبي المبكت ، تمثل يقظة ضمير العالم من الظلمة وظلال الموت وانفتاح بصيرة الإنسان الطيب للتعرف على النور بلا عناء !

والذين اعتمدوا أقروا ، بدموع ، معترفين بخطاياهم مترجين الملكوت الذي كان منتهى شهوة الأتقياء !! ، فأدركوه بابتهاج وبساطة قلب ، لذلك قال لهم المسيح يوماً : « طوبى لعيونكم لأنها تبصر ولآذانكم لأنها تسمع . فإني الحق أقول لكم إن أنبياءَ وأبراراً كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا ، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا » (مت ١٣ : ١٦) .

« وجميع الشعب إذ سمعوا ، والعشارون ، برروا الله معتمدين بمعمودية يوحنا ، وأما الفريسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه !! » (لو ٧ : ٢٩ و ٣٠) .

وهكذا دائماً ، فالمتعظمون ببرهم وذكاء تفكيرهم يرفضون مشورة الله من جهة خلاص أنفسهم في كل جيل ، محتقرين دعوة التوبة وإحناء الرأس !...

لم يكن تلهف الفريسيين على بدء استعلان ملكوت الله عن طريق التوبة ، لا من

الفكر ولا من القلب ، بل بدعوة مسلحة وتنظيم ملهم وإشارة سرية لبدء حرب الخلاص ، حيث يكون المسيا قائداً وسيفه على فخذه يصرع الأعداء بنفخ البوق ، واسم الله يخرج من أفواه الكهنة لتحطيم أسوار المدن والحصون !!

لقد عاد الوفد الكبير (كهنة ولاو يون) المرسَل من قبل دوائر السلطات الدينية نائباً عن الهيكل والسنهدريم ، بعد أن استجوب يوحنا عن كنه رسالته ومعناها وسلطانها وإشاراتها ، وهم ثقيلو القلوب بسبب ما سمعوه « في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه » (يو١ : ٢٦) ، « النور أضاء في الظلمة والظلمة لم تدركه » (يو١ : ٥) ، « ... أحب الناس الظلمة أكثر من النور » (٣ : ١٩) !!

ويا لخيبة الأغنياء وشيوخ الشعب لما ذهبوا مسرعين ليستطلعوا خبر قيام الملكوت الجديد ، ليطمئنوا ويحجزوا الدور الرئيسي فيه فسمعوا يوحنا ينادي : « من له ثوبان فليعط من ليس له ، ومن له طعام فليفعل هكذا » (لو٣ : ١١) !! ...



غايات عماد المسيح على يد يوحنا

كان يوحنا يومئذ يعمد في بيت عبرة ، عبر الأردن على بعد ثلاثين ميلاً من الناصرة ، وكانت قد بدأت بواكير الشتاء حينما جاء يسوع أيضاً ليعتمد من يوحنا .

لم يكن يوحنا يعرفه ، ولكنه كان قد سمع عنه كثيراً وكان قد استعد في أعماقه لرؤياه ، وما أن ظهر يسوع أمامه حتى أُخذ بمنظره ، فحار ووقف مبهوتاً صامتاً متأملاً ، لقد نفذت نظرات المسيح إلى أعماق نفسه بحلاوة ورهبة ، فسمات الهيبة والجلال وقد غطتها مسحة من البساطة والطهر الفائق جعلت يوحنا يدرك في الحال أنه أمام المسيا ولا شك ! وفي الحال خانته صرامته وجفوته وانخفضت عيناه الناريتان ، وذاك الذي وبخ ملوكاً وعنَّف الفريسيين والعظماء ، وقف إلى لحظة مذهولاً وقد أصابته الخشية ودخلته الرهبة من الواقف أمامه !! ولما استرد نفسه تقدم منحنياً ! ... والذي انحنت أمامه كل الهامات والرؤوس ، انحنى هو ساجداً أمام ذاك الذي تنبعث منه هذه القوة القاهرة !

لقد أدرك يوحنا خطورة الموقف وعلم أنه قادم على تجربة فوق طاقته ، إذ رأى من عيني الرب رغبة في العماد !! فاجتهد بكل إخلاص أن يعتفي من الطلب ! ... وإذ أصر الرب في تواضعه محاولاً النزول إلى الماء ، أسرع يوحنا في توسل وخشية « ولكن يوحنا منعه » (مت٣ : ١٤) . لقد أدرك يوحنا استحالة توافق معموديته مع ذاك الذي يعمد بالروح القدس ونار الله !! لقد ذابت نفس يوحنا فيه من اتضاع الرب ، وانحنى الناسك الناري ، ربيب البراري ، أمام نسيم لطف إبن الله ! ...

كان يوحنا المعمدان ملك النساك ونبي الأطهار والمطهرين الذي تقبل اعترافات كل الأتقياء وبقي شامخاً في طهره فوق كل المستويات « لم يقم بين المولودين من النساء أعظم منه » (مت١١ : ١١) ، ولكن أمام المسيا وقف مكشوف النفس عارياً يطلب غطاءً يستتر به ، و يلح على الإعتراف والتوبة لنفسه !! « أنا **محتاج** أن اعتمد منك وأنت تأتي إليَّ ؟ » (مت٣ : ١٤) .

لقد صمم يوحنا أن يرفض عماد المسيح على أساس أن معموديته للتوبة ومغفرة الخطايا ، ولكن المسيح صمم على العماد من يد يوحنا على أنه أمر لائق لا تمام بر الله لا بر التوبة الذي يكون من الخطيئة : « اسمح الآن لأنه هكذا **يليق بنا أن نكمل كل بر** » (مت٣ : ١٥) . وليلاحظ القارىء أن المسيح يتكلم بصيغة الجمع ، لينال يوحنا معه أيضاً بر الطاعة بقبوله أمر الرب ! ...



وفي الحقيقة اجتهد الشراح منذ العصور الأولى لإعطاء تفاسير معقولة لتعليل عماد الرب يسوع المسيح من يد يوحنا ، ونحن نجمعها باختصار كالآتي :

١ — لقد اعتمد المسيح بصفته ممثلاً لجنس البشر الخاطىء ، فهو اعتمد تائباً نيابة عنهم .

٢ — المسيح بما أنه حمل خطايا آخرين لزم له أن يعتمد و يتوب !

٣ — ليشارك شعبه متضامناً معهم .

٤ ــ ليفصل نفسه عن خطايا شعب إسرائيل .
٥ ــ علامة خضوعه للموت (الغطس في الماء) من أجل خطيئة الإنسان .
٦ ــ ليكرم معمودية يوحنا و يزكيها .
٧ ــ ليظهر نفسه للشعب .
٨ ــ ليظهر خضوعه وتكميله للناموس .
٩ ــ ليبدأ رسالته .
١٠ ــ ليكرس نفسه رسمياً أو طقسياً للخدمة .
١١ ــ لينال تأهيلاً روحياً سماوياً للخدمة .
١٢ ــ ليقدس الماء في الأردن رمزاً لتقديسه لسر المعمودية .

ولكن في هذه التعاليل المعقولة والمقبولة جميعاً توجد نقطتان تجانبان الصواب ، تتخللانها كلها تقريباً حتى تكاد تلغيانها !!

الأولى : أنها تفرض أن معمودية يوحنا للتوبة فقط .

الثانية : تجعل للمسيح غاية بعيدة دفعته للذهاب والعماد .

ولكن من رواية الإنجيل ومن كلام يوحنا نفسه تظهر المعمودية التي عمد بها يوحنا ، أنها ذات غايات أخرى أكثر من التوبة فقط .

فهي إعداد لقبول العهد الجديد : « لا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً » (مت٣:٩)، « وبأشياء أخر كثيرة كان يعظ الشعب ويبشرهم » (لو٣:١٨) ؛ أو بلغة إشعياء النبي كما اقتبسها لوقا الرسول : « ويبصر كل بشر خلاص الله » (لو٣:٦). فمعمودية يوحنا كانت ، بهذا المعنى ، بدء استعلان بر الله ، وانسكاب بركات السماء على كل بشر، ورؤية الخلاص عن قرب .

والمسيح لما أتى إلى معمودية يوحنا لم يأتِ إليها من وجهة نظر الاعتراف والتوبة والاغتسال من الخطيئة ، بل جاءها باعتبارها براً معلَناً من السماء لكل من يقبلها « معمودية يوحنا من السماء كانت أم من الناس ؟ » (لو٢٠:٤) ، فالخاطىء المنسحق إذ يعتبرها من السماء يتبرر بها كفعل توبة واغتسال ، والبار إذ يعتبرها من السماء

بإطاعتها يحقق بره ويكمله . لذلك ، فبمنتهى الوضوح والاختصار، يعلن المسيح معنى معموديته وغايتها « ينبغي أن نكمل كل بر» .

ولكن من جهة أخرى نجد أن يوحنا يعلن عن قصد آخر لمعموديته : « وأنا لم أكن أعرفه ، لكن **ليُظهَر لإسرائيل** ، **لذلك جئت أعمد بالماء** » (يو١:٣١) .

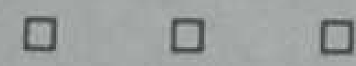
إذن فمعمودية يوحنا كانت في غاية الأهمية والضرورة ، ليس بالنسبة للمسيح ولكن بالنسبة لشعب إسرائيل ، حتى إذا تطهر الشعب وتبرر بالتوبة يؤهَّل لمعرفة المسيح وظهوره .

أما من جهة يوحنا نفسه فيقول : « وأنا لم أكن أعرفه لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي **الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو** الذي يعمد بالروح القدس . وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله » (يو١:٣٣) . وبهذا يكون عماد المسيح هو الواسطة التي تحقق بها يوحنا من أن المسيح هو المسيا الذي سيعمد بالروح القدس ، الذي ينبغي أن يسلم له يوحنا كل الشهادة بل كل المجد أيضاً « ينبغي أن ذاك يزيد وأني أنا أنقص » (يو٣:٣٠) .

ــ ومن هذا يتبين أن معمودية يوحنا بالتوبة كانت ضرورة حتمية للشعب حتى إذا تطهر يُستعلن له المسيح .

ــ وأن عماد المسيح كان **ضرورة قصوى** بالنسبة ليوحنا ليتعرف على المسيح بواسطة الروح القدس الذي سيستقر عليه في هذه اللحظة ، حتى إذا تحقق منه يسلمه الرسالة .

ــ أما المسيح فلم يكن العماد بالنسبة له ضرورة وإنما كان « **يليق به** » ! « لتكميل كل بر» .



إذن فالمسيح بمجيئه إلى الأردن ليعتمد من يوحنا لم تكن له أهداف بعيدة ملحة ، ولا كان يبحث من وراء العماد عن معانٍ لاهوتية محبوكة . وإنما كان يدفعه اتضاعه

وخضوعه لدعوة سماوية لائقة « معمودية يوحنا من أين كانت ، من السماء أم من الناس ؟ » (مت ٢١ : ٢٥) ، لأنه كان لا يزال محصوراً منذ صبوته المبكرة منذ أن كان ابن إثنتي عشرة سنة في شعور غامر بأنه ينبغي أن يكون دائماً فيما لأبيه « يسمع ويجيب » !! ولقد سبق فوجد في طاعته « لأبويه » وخضوعه لهما تكميلاً ضمنياً لبر الناموس القائل بذلك .

وعلى هذا النمط فهو لم يتقدم للعماد بأي شعور بالخطيئة ولا بأي إحساس بالإحتياج للتطهير أو الإعتراف ، لا عن نفسه ولا عن غيره ، فبشريته التي يمثل بها البشرية كلها كانت طاهرة كالشمس وبلا أدنى عيب ، ولاهوته كان في غنى كامل ومطلق عن أي زيادة أو تكميل ...

فالذي دفعه للعماد هو مزيد من الإخلاء لا رغبة في الإمتلاء ، حيث كل إخلاء لاهوتي هو بر بحسب الناسوت !! ويوحنا يشير إلى هذا الإخلاء أو هذا الإتضاع : « أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليَّ » (مت ٣ : ١٤) ؟ والمسيح يوافق على هذه الإشارة بالإيجاب وبمزيد من الإتضاع والإخلاء : « **اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل** كل بر » (مت ٣ : ١٥) !! ، وضوح ما بعده وضوح لسر الإخلاء العجيب !! ...

كان يسوع ينمو في صبوته وشبابه في النعمة(٣) لدى الله والناس بقدر نموه الجسدي . وبعماده من تحت يد يوحنا أكمل المسيح في الحقيقة كل نعمة وكل بر الخضوع والطاعة للناس وللدعوة السمائية . وما جاء يوحنا يعمد في الواقع — حسب تصريحه — إلا لكي يعلن للعالم خضوع المسيح للدعوة السمائية وإظهار بره لإسرائيل ، فكانت معمودية يوحنا ، بصورة سرية ، عبارة عن نداء سماوي ، أحسه يسوع فعلاً وعلمه أنه صوت الآب فاستجاب له بكل خضوع ومسرة وأحنى رأسه له من تحت يد

(٣) لم تكن النعمة ناقصة في المسيح أبداً وبأي حال من الأحوال ، ولكن إذ أخلى ذاته ولبس جسد الإنسان ، دخل بإرادته تحت حاجة النمو وعوز السنين لإظهار الملء الذي فيه .

يوحنا في اتضاع بلغ الذروة ، فما كان من السماء إلا أن كشفت كل هذا مرة واحدة في علانية واضحة ، إذ انشقت السماء (وكان انشقاقها كانشقاق حجاب الهيكل كرد فعل لإنسحاق الإبن على الأرض وإعلان علوي عن وجود الإبن في حضن الآب) ، وانحدر الروح القدس بهيئة علنية لا كنار للتطهير ولا كريح للملء ولكن كحمامة تكشف عن وداعة روح المسيح وتشهد لمزاج رسالته ، وصوت الآب يعلن عن بنوة المسيح للآب كما يعلن عن مسرة الآب بكمال بر المسيح وخضوعه وطاعته ...

إن كل هذا الذي حدث بعد خروج المسيح من الماء على الأردن ، هو في الحقيقة صورة علنية مسموعة ومنظورة لحالة المسيح الداخلية ! فيما انكشفت السماء كموطن المسيح الأصلي ، وظهر روح الله مؤتلفاً بالمسيح الوديع المتضع ومستقراً عليه ، وأُعلنت صلة المسيح بالله ، وتقررت مسرة الآب برسالة الإبن وبداية عمله ! ...

صلاة المسيح بعد خروجه من الماء

— « وإذ كان يصلي انفتحت السماء » (لو ٣ : ٢١) .

هنا نحن أمام حقيقة لاهوتية ، سنحاول أن نقترب منها لكي نتعرف على معنى صلاة المسيح أمام الآب .

إن كل إنسان يعاني من انفصال كلي بين ذاته وبين أي موضوع آخر خارج عن ذاته ، لذلك كان على الإنسان أن يتقبل معرفة المواضيع كشيء خارج عن نفسه يفحصها ويفهمها قليلاً قليلاً ، وبقدر ما يفهمها يقترب إليها وتقترب إليه . فمثلاً ، حينما يُعرض على الإنسان موضوع النجوم والأقمار أو أنواع أجناس البشر التي لم يرها أو طبائع النباتات التي تنمو في القطب الشمالي أو موضوع الملائكة أو الله ، فإنه يبدأ خالي الذهن عنها وتكون هذه المواضيع بعيدة عنه بعداً شاسعاً أو كاملاً وبقدر ما يتعلم عنها ويفهمها ويتصورها بقدر ما تصير قريبة منه وكأنه يعيش معها ...

ولكن في المسيح ليس الأمر كذلك لأن في طبيعته الواحدة يجتمع كل ملء اللاهوت والناسوت ، فالذات والموضوع عند المسيح ليسا في انفصال وبالأخص جداً

في أمور الله وأعماله . فالمسيح كان يدرك الأمور في ذاته لا في ذاتها ، فبقدر ما كان ينمو في الجسد والفكر ومعرفة ذاته كان ينمو في معرفة الأمور ، و بالأخص في معرفة علاقته الجوهرية بالآب !! ... المسيح بدأ بإدراك هذه العلاقة وهو في سن الثانية عشرة « ينبغي أن أكون فيما لأبي » (لو٢ : ٤٩) ، وظل بعد ذلك ينمو في إدراك هذه العلاقة حتى استوضحها نهائياً و بصورة كاملة عند كمال نموه الجسدي « أنا في الآب والآب فيَّ » (يو١٤ : ١٠) ، « أنا والآب واحد » (يو١٠ : ٣٠) ، « أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك » (يو١٧ : ٢١) .

حينما يقف أي إنسان ويصلي لله فهو إنما يكون أمام آخر كلي ، فهو يحتاج إلى خروج عن ذاته حتى يدخل في مجال الله . هذا الخروج عن الذات ضرورة حتمية ، لكون ذات الإنسان خارجة عن الله بسبب أنها باستمرار متشبثة بأخطاء وخطايا ومحبة الجسد والعالم ، لذلك أصبحت ذات الإنسان عائقاً تعيق روح الإنسان عن الا تصال بالله باعتبار الله روحاً خالصاً ، لذلك نسمع في الإنجيل أن الله طالب الساجدين له بالروح والحق ، « الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا » (يو٤ : ٢٤) .

المسيح غير ذلك تماماً ، فذات المسيح التي تعبِّر عن ملء بشريته ولاهوته في وحدة واتحاد كلي كانت نقية كل النقاء ، لذلك فهي لم تكن قط منفصلة عن الآب ، وحينما كان يقف المسيح ليصلي بذاته للآب كانت صلاته بمثابة الدخول في الأحضان وارتياح المشيئة على المشيئة كاتفاق المثيل على المثيل .

المسيح لم يكن في حاجة للصلاة لكي يأخذ شيئاً (جوهرياً) أو ليزداد في شيء (جوهري) ، ولكن ليستوضح المزيد من مشيئة الآب ، ليعمل في كل حين ما يرضيه (يو٨ : ٢٩) ، ليس لأن المسيح كان ناقصاً في ذاته أو مشيئته بل كابن كان عليه أن ينفذ دائماً مشيئة الآب : « لتكن لا إرادتي بل إرادتك » (لو٢٢ : ٤٢) . فكان عليه دائماً أن يستطلع هذه المشيئة بالصلاة ! « طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله » (يو٤ : ٣٤) ، وذلك ليس بأن يخرج عن ذاته كأن الآب خارج عنه بل بأن

يتعرف على مشيئة الآب التي فيه التي تجسد ليكملها ؛ فهو لم يكن ينمو إلا في معرفتها أما جوهرها فداخله ، وجوهرها واحد في الآب والإبن !...

لذلك كانت صلاة المسيح (٥) استطلاعاً وامتداداً ــ بآن واحد ــ لوحدة المشيئة واتحادها بين المسيح والآب . لذلك بعد الصلاة مباشرة ، وكرد لها ، نسمع الآب بمنتهى الوضوح يقول : « بك سررت » !!...

وكانت شهادة الآب من السماء للمسيح ذات فعلين ومسموعين بآن واحد :

الأول : شهادة لإسرائيل عن المسيح ، تسلمها يوحنا كنائب وسمعها هكذا : « هذا هو إبني الحبيب الذي به سررت » ، وهذه يسجلها متى الرسول (مت٣ : ١٧) .

والثاني : شهادة للمسيح نفسه : « أنت إبني الحبيب بك سررت » ، وهذه يسجلها لوقا الرسول بمفرده (لو٣ : ٢٢) .

فكانت هذه الشهادة المزدوجة آخر إعلان تلقاه المسيح في حياته الداخلية عن مشيئة الآب من نحو عمله ورسالته ، مزوداً بعلامة ظاهرية وهي ظهور الروح القدس مؤازراً ومؤيداً له من الخارج كما من الداخل . وفي نفس الوقت كانت هذه الشهادة عينها وهذه العلامة الظاهرية لحلول الروح القدس عليه ، أول إعلان لإسرائيل عن ظهور المسيا ومسحه بالروح القدس من السماء لبداية رسالته !...

هذه كانت العلامة التي ظل يترقبها يوحنا بفارغ الصبر ليسلم لصاحبها الرسالة بأكملها ، لأن يوحنا كان يعلم أن رسالته ستقف حتماً عند حد المناداة بالتوبة وذلك تمهيداً للطريق أمام من سيفتح أبواب الملكوت ؛ فبظهور المسيا تنتهي رسالته و ينضم إلى آبائه ، ولكن يكفيه فرحاً أن رأى وسمع صوت « العريس » وعند هذا الحد يقف ولا يتعداه .

---

(٥) يوجد تلميح نبوي عن كلمات هذه الصلاة وكنهها مؤيد في الرسالة للعبرانيين ، فداود النبي يقول عن هذه الصلاة : « **ها أنذا جئت** ، ... أن أفعل مشيئتك ياإلهي سررت . وشريعتك في وسط أحشائي » (مز٤٠ : ٧و٨ ؛ عب١٠ : ٧) .

ياللعجب النبوة ، و ياللشدة حبك الوحي المقدس و ياللروعة التوراة مع الإنجيل !!

أما العروس أي « الكنيسة » فهي ليست ليوحنا ، لأن يوحنا صديق العريس وحسب !... لذلك كان الأصغر وهو في ملكوت السموات ، أعظم من العظيم الذي رأى الملكوت وهو خارجه !!

لذلك نجد أن يوحنا تقبل الصوت الذي من السماء وعلامة الروح القدس التي كان ينتظرها بمثابة إشارة لبلوغ رسالته إلى منتهاها ، ثم تقهقرها بسرعة لتفسح المجال أمام المسيح ليبدأ ملكوت الله الذي لن يكون له نهاية « ينبغي أن ذاك يزيد وأني أنا أنقص » (يو٣ : ٣٠) .

ولقد فهم يوحنا شهادة الآب من السماء للمسيح ونزول الروح القدس عليه ، فهماً صحيحاً ودقيقاً يعتبر غاية في العمق ، إذ نسمعه يعلق على هذه الشهادة ــ بأقوال جاءت في (يو٣ : ٢٧ــ٣٦) ــ هكذا :

١ ــ « الآب يحب الإبن **وقد دفع كل شيء في يده** » (يو٣ : ٣٥) ، وهذا تعليقاً على سماعه قول الآب « هذا هو إبني الحبيب الذي به سررت » ، إذ فهم يوحنا أن مسرة الله بابنه تعني أن الآب سلّمه كل شيء !...

٢ ــ ثم يقول يوحنا المعمدان : « لأن الذي **أرسله** الله يتكلم بكلام الله . لأنه ليس بكيل يعطي الله الروح » (يو٣ : ٣٤) . وهذا تعليقاً على رؤيته الروح القدس حالاً عليه ، إذ فهم يوحنا أن حلول الروح القدس على المسيح كان بمثابة المسحة للرسالة ،

وأن هذا الحلول ليس كمياً ولا زمنيا « ليس بكيل يعطي الله الروح ... » ،

وأن هذا الحلول يعني أيضاً بدء رسالة المسيح لتعليم وكشف أسرار الملكوت : « يتكلم بكلام الله » .

٣ ــ ثم يقول يوحنا المعمدان : « الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع ... الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع » (يو٣ : ٣١و٣٣) مبيناً بهذا القول القاطع فهمه وإيمانه بلاهوت المسيح الأزلي وأنه لم يبدأ من على الأردن ، ولا اعتبر المسحة التي تقبلها المسيح

بعد العماد بنزول الروح عليه أن بدايتها زمنية كما ظن بعض الناس حسب مظهرها .

ثم ينتهي يوحنا ويختم شهادته للمسيح بعمق ما بعده عمق : « ومن قبل شهادته (أي شهادة المسيح) فقد ختم أن الله صادق !... الذي يؤمن بالإبن له حياة أبدية والذي لا يؤمن بالإبن فلن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله » (يو٣ : ٣٣ــ٣٦) !!

٤ ــ « هذا هو حمل الله » (يو١ : ٢٩) .

لقد رآه يوحنا بوداعته منحنياً تحت يده مثل حمل الصباح والمساء الذي يساق كل يوم للذبح . إن ناسك البراري كان أقدر من يتأمل في خروف الفصح بكل ذكرياته ومواعيده ! لقد اخترقت عينا ذلك النبي كثافة الزمن ، ورأت الحمل ممسوكاً بيد الكهنة ومقدّماً فدية عن شعوب العالم !!

هذه الشهادة العالية والعميقة التي شهد بها يوحنا المعمدان للمسيح تُعتبر ذات وزن عال ، وبالأخص إذا علمنا أن الذي سجلها هو يوحنا الحبيب تلميذ حضن يسوع وتلميذ يوحنا المعمدان ــ بآن واحد !!...

لقد دخل المسيح ماء المعمودية بوداعة من يريد أن يكمل كل بر ، وخرج من ماء المعمودية وعلى كتفيه نير الكرازة ببشارة الملكوت وفي يده قضيب المُلك على هيئة صليب !!

(فبراير ١٩٦٨)



الإبيفانيا
عيد الظهور الإلهي أو عيد الأنوار

عيد الغطاس ، المدعو بـ« الإبيفانيا » أي « الظهور الإلهي » ، هو أحد الأعياد السيدية الكبرى . وهو الثالث في الأهمية بعد القيامة والميلاد .

وكانت معظم الكنائس حتى قرب نهاية القرن الرابع تعيِّد لميلاد المسيح وعماده معاً عيداً واحداً يسمى « الإبيفانيا » ، باعتبار أن الميلاد والعماد يؤديان مضموناً واحداً هو : ظهور أو استعلان لاهوت المسيح للعالم . فالميلاد أظهر الإبن متجسداً ، والعماد أظهر الثالوث ... ولكن رأت الكنيسة فيما بعد ضرورة فصل العيدين تدعيماً لكل منهما على حدة ، واختص عيد عماد المسيح (الغطاس) بتسمية « الإبيفانيا » .

وقد عاصر القديس يوحنا ذهبي الفم ابتداء فصل العيدين رسمياً وتحديد طقس كل منهما . ففي إحدى عظاته التي ألقاها عام ٣٨٦ ليلة عيد الميلاد يذكر أن العيدين كانا إلى سنين قليلة خلت ــ في أيامه ــ تعيدهما الكنيسة معاً ، ثم اختص بعد ذلك عيد الغطاس باسم الإبيفانيا دون الميلاد ، حيث ذكر القديس يوحنا ذهبي الفم سبب ذلك بقوله إن الرب في الغطاس استُعلن للجميع في حين أنه في ميلاده ظل مخفياً عن الجميع [1] .

إن الكنيسة الأولى وإن كانت لم تذكر الميلاد بالإسم ، إلا أنها كانت تحسبه من صميم الإبيفانيا أي « الظهور الإلهي » ، وكانت تعيِّد له مع الغطاس [2] . والدليل العملي الملموس على ذلك أن عيد الإبيفانيا أي عيد الظهور الإلهي لا يزال في الطقس الغربي حتى اليوم يشمل التعييد لحادثة من حوادث الميلاد وهي مجيء المجوس وتقديم

---

(1) Orat. xv.

(2) Dict. of Chr. Antiq., vol. I, p. 617.

هداياهم للمسيح المولود ، باعتبار أن ذلك استعلاناً للاهوت المسيح . كذلك فإن عيد عماد الرب أي « الغطاس » ظل يُعتبر ويُسمى بعيد الإبيفانيا « **الثانية** » لدى بعض الآباء اللاهوتيين العظام مثل غريغوريوس النزينزي [3] ، باعتبار أن **الإبيفانيا الأولى** هي الميلاد نفسه . ويشهد كاسيان (٣٥٠ ــ ٤٣٥) أن المعمودية والميلاد كان يُحتفل بها في مصر في يوم واحد .

وفي عظة للقديس غريغوريوس النزينزي ألقاها في عيد الغطاس لسنة ٣٨١م يتبين بوضوح أن الإبيفانيا ، أي عيد الغطاس ، له طقس في الكنيسة مستقل عن عيد الميلاد ، وأنه في ذلك التاريخ كان قد أصبح هناك طقس خاص بعيد الميلاد غير عيد الغطاس .

وتوجد إشارات متفرقة كثيرة تفيد أن كنائس كثيرة ــ وبالأخص مصر ــ كانت تعيِّد للغطاس منذ زمن بعيد . فتوجد إشارة في الدسقولية أي تعليم الرسل تقول :

[ليكن جليلاً عندكم عيد الإبيفانيا لأن فيه بدأ الرب أن يُظهر لاهوته في المعمودية في الأردن من يوحنا ، وتعملونه في الحادي عشر من طوبة]

(باب ١٨ / عربي) .

كما توجد إشارات في سجلات الإمبراطور ثيئودوسيوس الكبير تفيد توقف أعمال دور المحاكم والاحتفالات العامة ودور التمثيل والملاهي كعطلة رسمية للدولة يومي الميلاد والغطاس [4] . كما يوجد وصف شيق لاحتفالات عيد الغطاس في مذكرات الحاجة « سيلفيا إيثيريا » الإسبانية كما شاهدته في كنائس أورشليم .

كما أنه توجد في قصة أعمال القديس الشهيد فيلبس أسقف هيراكليا ــ الذي استشهد في زمن دقلديانوس سنة ٣٠٤م ــ ذكر لعيد الإبيفانيا أي الظهور . كما توجد إشارة في إحدى عظات القديس غريغوريوس النزينزي عن كيفية احتفال القديس

---

(3) Nazianz., Orat. by Rufinus, p. 249.

(4) Cod. 1., 3, tit. 12. Cited by Birming., op. cit.

باسيليوس أسقف قيصرية بعيد الغطاس(٥) . كما توجد إشارة في أحد أقوال القديس أغسطينوس يعيب فيها على الدوناتيين امتناعهم عن التعييد للغطاس مع الكنيسة كطقس الشرقيين .

أهمية عيد الغطاس للكنائس المسيحية :

وكان لعيد الغطاس أهمية طقسية كبيرة بالنسبة للكنيسة عامة ولمصر بنوع خاص ، لأن في هذا العيد كان قد أُلقي على عاتق بابا الإسكندرية الإعلان عن ميعاد بدء موسم الصوم الكبير وموعد البصخة وعيد القيامة على أسس فلكية دقيقة ، وكانت تأخذ به كافة كنائس العالم . والمعروف تاريخياً بصورة قاطعة أن أول من اضطلع بهذه المهمة كان القديس ديونيسيوس بابا الإسكندرية (٢٤٨ــ٢٦٥م) ، وذلك حسب تحقيق المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصري(٦) . وقد حافظ على هذا التقليد كافة البابوات من بعده ، وبالأخص القديس أثناسيوس ، الذي ارتفع بهذه المهمة الطقسية في خطاباته إلى المستوى الروحي ، فكانت خطاباته الفصحية (تصدر بعد عيد الغطاس مباشرة) مليئة بالوعظ والتعليم والحكمة والحرارة الروحية . أما أول رسالة فصحية للقديس أثناسيوس فكانت في عيد الغطاس لسنة ٣٢٩م . وقد وصل إلى أيدينا سبع عشرة رسالة فصحية له كاملة تماماً باللغتين العربية والسريانية ، غير ثلاث رسائل للبابا ثاوفيلس ، وغيرها للقديس كيرلس الكبير .

وتعتبر هذه الخطابات ــ التي كانت تصدر بعد عيد الغطاس مباشرة ــ بمثابة تنبيه روحي مبكر لإيقاظ وعي الشعب لأهمية التوبة والإستبشار بقرب موسم الصوم المبارك ، وكان لها رنة فرح لدى كافة الرهبان في براري مصر . و يقول الطوباني كاسيان الناسك سنة (٣٥٠ــ٤٣٥) في كتابه ، كشاهد عيان :

[إنها عادة قديمة في مصر أن يقوم أسقف الإسكندرية بمجرد انقضاء عيد الإبيفانيا (الغطاس) بإرسال خطابات دورية إلى عموم كنائس مصر وأديرتها

(5) Orat. XLiii, 52.

(6) Euseb., Hist. Eccl., 7, 20.

يحدد فيها بدء الصوم وعيد القيامة]

أما عيد الغطاس بحد ذاته فقد كان موضع تكريم بالغ بالنسبة لكثير من آباء الكنيسة العظام ، فلدينا رسائل بليغة وكثيرة في هذا العيد للقديسين غريغوريوس النزينزي و باسيليوس الكبير وغريغوريوس النيسي و يوحنا ذهبي الفم .

والتسمية الغالبة لهذا العيد عند الآباء هي « عيد الأنوار » . يقول القديس غريغوريوس النزينزي في العظة (٣٩) :

[هذا اليوم المقدس هو عيد الأنوار ، نعيده بالإحتفال لأن فيه اعتمد المسيح « النور الحقيقي الذي ينير لكل إنسان آتٍ إلى العالم »]

وعلى نمطه يدعوه غريغوريوس النيسي في العظة (٤) :

[يوم الأنوار الذي فيه اعتمد الرب] .

ولا تزال الكنيسة حتى اليوم ترمز إلى مفهوم الأنوار الإلهية في عيد الغطاس بالشموع الكثيرة المضيئة التي تستخدمها في الإحتفال بالطقس وفي البيوت أيضاً ، إذ يتبارى الجميع في إيقاد الشموع ، وذلك تعبيراً عن النور الإلهي الذي دخل إلى العالم في ذلك اليوم ، أي يوم عماد الرب ، الذي مُسح فيه الرب يسوع لبدء الخدمة العلنية لينير على الجالسين في ظلمة الخطية وظلال الموت .

وقد طغت عادة إيقاد الشموع في هذا العيد ، لدرجة أنه أصبح يسمى في بعض كنائس الغرب بعيد الشموع **Candlemas day** .

ولإقتران الظهور الإلهي بمياه الأردن اعتبرت الكنيسة أن هذا العيد بمثابة تقديس للمياه ، فاتخذت الكنيسة من هذه المناسبة فرصة لإجراء سر العماد . وكانت الكنيسة قد وضعت ثلاثة مواسم لإجراء سر العماد بالنسبة للموعوظين وهي : **يوم السبت الكبير** السابق لليلة الفصح و يُعتبر أهمها جميعاً ، يليها **يوم الخمسين** الذي حل فيه الروح القدس على التلاميذ ، ثم **عيد الغطاس** . وفي ذلك يقول القديس غريغوريوس النزينزي :

[فالواحد يقول (بالنسبة للعماد) : إني أنتظر حتى عيد الغطاس ، والآخر يقول : لا بل إني أكرم عيد القيامة أكثر ، وثالث يقول : بل سأبقى إلى أن يحين يوم الخمسين].

ويظهر هذا أيضاً من قول القديس أثناسيوس :

[وأيضاً نؤمن بمعمودية واحدة ، الميلاد الجديد بالروح القدس الذي يجعل الإنسان جديداً ، الميلاد الذي أظهره لنا مخلصنا من غير بطن عند ظهوره للعالم على مياه الأردن].

(أثناسيوس في خطاب إلى قسطنطيوس).

وقد امتدت فكرة تقديس الماء في هذا العيد إلى عامة الشعب فاعتبروا أن الماء المصلَّى عليه في لقان(٧) الكنيسة له قوة الشفاء والتقديس . والقديس يوحنا ذهبي الفم يقول في ذلك :

[وفي هذه المناسبة التي لذكرى عماد المخلِّص التي فيها قدَّس طبيعة الماء ، اعتاد الشعب عند انصرافه بعد منتصف الليل أن يأخذ معه من الكنيسة جزءاً من المياه المقدسة ، وكانوا يحتفظون به . وقد لوحظ أن المياه تبقى صافية نقية لمدة سنة أو سنتين أو ثلاث سنين](٨).

أما في طقس الكنيسة ، في أثناء صلاة القداس على الماء الذي يسبق قداس القرابين يقول الكاهن مشيراً إلى الماء بالصليب :

[قدِّس هذا الماء وامنحه نعمة الأردن].

[ليكن ينبوعاً للبركة ، وموهبة طاهرة ، ليحل من الخطايا ويطرد الأمراض].

---

(٧) اللقان هو الوعاء الفخاري الذي اعتادت الكنيسة عمل صلاة قداس الماء عليه يوم عيد الغطاس . وفي بعض الكنائس والأديرة كان يتسع لعدد كبير من الأشخاص ينزلون إليه ويغطسون فيه ليلة عيد الغطاس تبركاً بالماء الذي تقدس بالصلاة .

(8) Hom. 24, de Bap. Christ.

وتشير بعض الكتب إلى أنه كانت عادة الكنائس قديماً الاحتفاظ بكمية من مياه نهر الأردن تضاف على اللقان أو المغطس أثناء صلاة القداس التي تُتلى على الماء في ذلك العيد .

□

كل مرة تعيِّد الكنيسة للظهور الإلهي (الغطاس) تطرح أمامنا فرصة عظيمة لقبول حقائق كثيرة . **فأولاً** تهيىء لنا الاشتراك الفعلي في استعلان لاهوت المسيح كما ظهر في الأردن ، حتى يظهر في فكرنا وسلوكنا كاستنارة وانفتاح بصيرة روحانية لمعرفة الحياة الأبدية . **وثانياً** ، تعدُّنا ، و بالأخص الخدام ، لقبول تجديد مسحة الخدمة كشركة في مسحة الرب يسوع التي تقبَّلها من الأعالي لبدء الخدمة الجهارية . **وثالثاً** ، تمنح مجاناً حق الاغتسال بالماء المقدس لقبول تطهير الجسد والضمير من دنس الخطيئة حتى إن كثيرين يحتفظون بهذا الماء طول العام للاغتسال منه عقب كل اعتراف ، برشم الجبهة والحواس والقلب(٩).

(فبراير ١٩٧٠)

---

(٩) هناك طقس في الكنيسة كان يحتِّم على كل من تنجس جسده أن لا يُسمح له بالتناول إلا بعد أن يُجري عليه الكاهن صلاة خاصة تسمى « أوشية القدر » ، وذلك بأن تُملأ قدر من الفخار الجديد بالماء يضاف إليه قليل من ماء اللقان وتوضع تحت المذبح وتحضر صلاة القداس وتسلَّم للمعترف ليغسل بها جسده كله بعد أن يصلي الكاهن على رأسه .

نيقوديموس والميلاد الجديد(*)

مقدمة:

إنجيل القديس يوحنا إنجيل سرائري، أي يتكلم بالسر، فهو يقدم الأخبار السارة عن طريق القصة، والقصة على مستوى السر. فإذا انتبه القارىء إلى هذه الحقيقة، استطاع أن يأكل ويشرب ويرتوي من كلام إنجيل يوحنا الشهي. وكمثل لذلك: فإن كل الأناجيل الثلاثة تبدأ بالتوبة (ولكن توبة عن طريق التعليم):

متى ٣: «وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية قائلاً: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات».
«أنا أعمدكم بماء للتوبة ولكن الذي يأتي بعدي ... سيعمدكم بالروح القدس ونار» (مت٣: ١و٢و١١).

مرقس ١: «وبعد ما أُسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (مر١: ١٤و١٥).

لوقا ٣: «فجاء (يوحنا) إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا ... اصنعوا أثماراً تليق بالتوبة» (لو٣: ٣و٨).

وماذا في إنجيل يوحنا؟

هو هو نفس ما جاء في بداية الأناجيل الثلاثة: التوبة ـــ وماء المعمودية ـــ

(*) ملخص عظة على إنجيل قداس الجمعة السادسة من الصوم الأربعيني المقدس عام ١٩٧٣، أُلقيت بكنيسة القديس أنبا مقار بديره ببرية شيهيت.

والروح القدس وملكوت الله، ولكن في قصة وحوار مع **نيقوديموس** حيث يقدم المسيح سر الخلاص ودخول الملكوت عن طريق ـــ لا التعليم ولا المعرفة ـــ بل بالميلاد الجديد، بالممارسة السرية الطقسية الخالصة. بدون كلام أو تعليق أو أي تفسير لاهوتي!!

+ «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» (يو٣: ٥) = **كرازة سرائرية = بشارة لفاعلية السر الإلهي.**

الأناجيل الثلاثة تشرح الخلاص على مستوى الكلمة والفهم والمعرفة، وإنجيل يوحنا يشرح الخلاص على مستوى السر، أي الفعل الإلهي غير المنظور.

نيقوديموس:

فريسي معلم للناموس ـــ إذاً، فكل تعليمه مبني على الاتكال على الناموس والمعرفة الحرفية:

١ ـــ جاء يحمل في قلبه وعقله اعتقاداً بأن المسيح معلم ـــ ربما اعتبره أقل منه، إذ أتاه «ليلاً» (يو٣: ٢).

٢ ـــ إنه وإن كان المسيح معلّماً من الله ـــ وليس على يد الربيين ـــ إلاّ أن تعليمه لا بد أن يكون امتداداً للقديم.

٣ ـــ إن الآيات التي كان يصنعها المسيح مجرد برهان على أن تعليمه تعليم صحيح.

وهكذا وضع نيقوديموس المسيح على مستواه هو، فأغلق على نفسه الرؤيا.

لكن المسيح يصحح فكر نيقوديموس على أساس أن المسيح جاء لا لكي يصحح أفكاراً أو تعاليم، ولكن ليخلق من جديد. لذلك فالمسيح هنا لا يعرض نفسه ولا يفرض شخصه الإلهي على نيقوديموس الذي يمثل ذوي البصائر العمياء، فهو مُتعام «لا يرى» «ليلاً»! المسيح لم يتكلم عن نفسه ولا عن رسالته، لأن نيقوديوس أعمى مُتعامٍ، وهذا يكشفه المسيح بصورة سريعة عميقة بقوله لنيقوديوس: «إن كان أحد لا يولد من فوق **لا يقدر أن يرى ملكوت الله!!**» (يو٣: ٣) ملكوت الله الذي جاء

المسيح ليعلنه ــ ليس للفريسيين ولكن للمولودين من الله. أنت لا ترى ملكوتي، لأنك رفضت معمودية يوحنا ورفضت بالتالي عمل الروح المكمل.

المسيح لم يستطع أن يعالج عمى نيقوديموس، لأنه كان متعالياً بعلمه «**نحن نعلم** أنك...». وكأنه حكم وقرر مَنْ هو المسيح بمقتضى علمه. المسيح لم يمنع عن نيقوديموس الحق، ولكن بدون ربط هذا الحق بنفسه!! فالمسيح أعلن عن حتمية الميلاد الجديد من **الماء والروح**، ولكن بدون الإعلان عن نفسه. ولكن الميلاد من الماء والروح مستمد من موت المسيح وقيامته (المعمودية موت وحياة)(١).

ويعترض نيقوديموس على الميلاد الجديد، كيف يمكن للإنسان أن يولد وهو شيخ؟ أيدخل بطن أمه ثانية ويولد؟ (يو٣:) ذلك لأنه يتمسك بالماضي، ويعيش في العتيق راضياً، ولا يرجو إلاّ امتداداً للقديم. وفي اعتقاده أن الجسد كالروح لا يمكن التخلص من ماضيها.

لاحظ قوله: هل يستطيع «إنسان وهو شيخ» أن يدخل بطن أمه ويولد؟
إنسان عتيق

لا يصح أن ننظر إلى نيقوديموس نظرة الازدراء. لأن هذه الشخصية في الواقع يمثلها هذا الجيل اليوم، الجيل المتحفظ المتشكك، جيل يريد أن يعيش بعقله، جيل لا يقبل إلاّ العلم. لاحظ كلمة «العلم» في هذه الآية: «**يا معلم نعلم** أنك أتيت من الله **معلماً...**» (يو٣: ٢) كل نظرته للمسيح أنه معلم مثله تماماً.

رسالة اليوم هي رسالة جديدة علينا تماماً. لا يمكننا أن **ندخل** المسيح عن طريق العقل والمعرفة ... هل أنت في الكنيسة اليوم تطلب مزيداً من إدراك ومزيداً من علم ديني؟

(١) يلاحظ في إنجيل قداس الجمعة السابقة على إنجيل نيقوديموس قول المسيح: «**إن لم تؤمنوا إني أنا هو** تموتون في خطاياكم». إذاً، فالمسيح هو **أساس الميلاد الجديد**. وأساس الخلاص والتوبة والحياة الأبدية.

أما رد المسيح على سؤال نيقوديموس فلم يكن رداً على كلامه إطلاقاً، قال له: «إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله» (يو٣: ٣). هذا هو المسيح، المسيح لا يرد على سؤالنا العقلي، لكنه يرد علينا في الحياة العملية على قلبنا ونياتنا. نحن آتون لا لنستزيد معرفتنا ... بل نحن مدعوون أن نعيش حياة جديدة برمتها ليست للأرض ولا من الأرض بل حياة من فوق «تولدون من فوق».

السيد المسيح:

يصحح إيمان نيقوديموس بجملته، معلناً أن الميلاد الجديد لا يخص هذا الدهر، كأن المقصود أن يولد الإنسان مرة أخرى بالجسد، ولكنه يخص الحياة الأخرى (الدهر الآخر ــ ملكوت الله)، لذلك يتم من الله، بقوة الله، قوة لميلاد جديد من فوق.

+ هذا الميلاد الجديد بالرغم من أنه بجملته من فوق، إلاّ أنه يتم من خلال عنصر منظور، ومحسوس (غسل وموت)، وعنصر غير منظور ولا محسوس (روح وحياة) ــ «من الماء والروح».

ميلاد من ماء (عنصر محسوس لأنه واقع الآن على كيان الإنسان المحسوس)، ومن الروح (لأنه واقع على عنصر غير محسوس وهو الروح) يؤهله ويدخله ويرفعه إلى عالم آخر.

+ هذا التغيير ليست له آثار محسوسة لأنه لا يخص نظام هذا العالم المادي، فهو لا يأتي من العالم الحاضر، لذلك لا نحسه بمقتضى قوانين وإمكانيات العالم الحاضر. ولكنه يأتي من الله من فوق، بمواهب جديدة. لذلك تظهر **نتائجه** بصورة ساطعة فيما يختص بالحياة الأخرى، ويحسها الإنسان الروحي بيقين: (فرح، عزاء، صبر، رجاء، تجرد). فهو يرى ملكوت الله، بل يدخله. وبدون هذا الميلاد الجديد بمواهبه السمائية الجديدة لا يستطيع أحد أن يرى (أي يمارس علاقة)، أو يدخل (أي يستوطن) الملكوت.

نيقوديموس:

ــ «كيف يمكن أن يكون هذا»؟ (يو٣: ٩)

مرة أخرى، إن الميلاد الجديد للملكوت والحياة الأخرى ليسا معرفة أو علماً. والمواهب الطبيعية الجسدية لا تصلح بالمرة لإدراك ملكوت الله، ولكنه خبرة وممارسة وحياة بالفعل.

المسيح:

ـ «نتكلم ... ونشهد بما رأينا» (يو٣: ١١) (يقصد المسيح والتلاميذ وما رأوه وقت العماد، والروح النازل من السماء).

«رأى» هنا بمعنى «مارَسَ وفعل»، أي يرى الحياة ويرى الموت ويرى الملكوت. وليس مَنْ رأى كمَنْ سمع. **فالمعرفة وحدها يستحيل أن تصلح للشهادة.**

والمسيح لم يتجسد ولم يتألم ويُصلب ويموت ويقوم من بين الأموات ليملأ الكنيسة معلمين وأنبياء ووعاظاً، ولكن ليخلق الإنسان الجديد، ليجعل الكنيسة كلها إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً!!

الفريسيون رفضوا معمودية يوحنا، رفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم، و بالتالي رفضوا ملكوت الله ونعمه، لأنهم لم يريدوا أن يصيروا **مثل الأطفال**، أي يولدوا من جديد لحياة جديدة، بصفات وأخلاق جديدة: «**إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات**» (مت١٨: ٣). هنا إشارة واضحة إلى المعمودية، وفي نفس الفصل (متى١٨) يشير المسيح إلى خلع البشرية العتيقة التي شاخت في الخطيئة والسلوك بحسب الجسد وأهوائه.

الميلاد الجديد أخذناه في المعمودية، ولكن المشكلة العظمى كيف نعيش هذا الميلاد الجديد؟ كيف نحيا بروح الله القدوس!!

+ نحن بصدد الميلاد الجديد، الميلاد الثاني، الميلاد بالروح من الروح، نحن المولودين من الله.

+ ولكننا الآن في الصوم المقدس، فما علاقة إنجيل الميلاد الجديد بالصوم؟ هنا

الكنيسة إذ تقدم لنا فصل هذا الإنجيل ـ وقد قاربنا نهاية الصوم ـ تفترض أننا بلغنا بالصوم إلى استعلان هذه الحالة (الميلاد الجديد) في كياننا الروحي. ليس أن الصوم يعطينا الميلاد الثاني بل هو يستعلنه فينا فقط، لأن الميلاد الثاني أو الميلاد بالروح قد تم فينا يوم العماد.

السؤال الآن: هل نحن عند حسن ظن الكنيسة، أي هل أدركنا بالصوم المقدس حالة أو فعل استعلان إنساننا الجديد؟ وكيف نكتشف أننا على مستوى الإنسان الجديد، أو أننا في حالة الميلاد الجديد؟

الجواب في آية واحدة قاطعة فيها كل الرد: «لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله» (رو٨: ١٤).

أي إن الذين لهم قدرة عملية على أن ينقادوا لفكر الروح القدس وعمل الروح بسهولة، **فهؤلاء بلغوا فعلاً الميلاد الروحي.**

أمثلة:

إنسان يلح عليه **فكر الصلاة كثيراً**، فيستجيب بفرح وفي الحال و بدون تردد و بدون ملل.

إنسان يلح عليه **إحساس جارف** بضرورة **الاتضاع** في كل موقف. فيستجيب بفرح وسهولة: «غير مهتمين بالأمور العالية بل منقادين إلى المتضعين» (رو١٢: ١٦).

إنسان يلح عليه **إحساس داخلي بإنكار الذات** والهروب من مواقف المجد والكرامة والمديح، أو من الشهرة أو الغنى أو الرئاسة.

في كل هذه الأمثلة وغيرها تعتبر الاستجابة السريعة المذعنة والمسرورة حالة **انقياد بالروح**. وهنا لا ننسى أن المسيح **اقتيد بالروح** ليجرَّب من إبليس، فاستجاب.

كلنا ولدنا بالروح حقاً، ولكن منا مَنْ بلغ قامة ملء المسيح في الإيمان وفي الحكمة والتصرف، ومنا مَنْ إنسانه الجديد صغير جداً وما يقدر حتى أن يتنفس!

+ المولود من فوق يطلب ما هو فوق: «فإن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله» (كو٣: ١).

+ «لا تهتموا ...» (مت٦: ٢٥و٣١و٣٤).

إن كنتم أولادي فلا تهتموا بشيء بل: «اطلبوا أولاً ملكوت الله و برَّه وهذه كلها تزاد لكم» (مت٦: ٣٣)، كأولاد مولودين للملكوت، اطلبوا ما هو باقٍ للأبد...

من اهتماماتك تعرف من أين أنت مولود: «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح» (يو٣: ٦).

الروح الداخلي يلح علينا من جهة الصلاة أو الصوم أو الصدقة أو قراءة الإنجيل ...إلخ. من النخس الداخلي فيك يظهر حقاً إن كنت مولوداً من الروح أو غير مولود.

كل واحد يعمل أعمال أبيه المولود منه: «لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني ... الذي من الله يسمع كلام الله» (يو٨: ٤١و٤٧). نحن مولودون من الروح القدس. وكل شهوة أبيك ومطالبه لك أن تنفذها. أبوك هو إما الجسد والشهوات، وإما الروح القدس: «أميتوا أعضاءكم التي على الأرض...» (كو٣: ٥).

في نهاية الصوم تقدم لنا الكنيسة إنجيل الميلاد الجديد لتنبهنا أنه ينبغي أن نكون على مستوى الميلاد الجديد، أي أن نكون منقادين بالروح القدس. وأن نكون منقادين بالروح القدس معناه أننا نكون في حالة استعداد بفرح لكل أعمال الروح القدس.

ثم لإيضاح هذه النتيجة أكثر نقول: إن أية صعوبة في الاستجابة لأفكار وأعمال الروح القدس معناها أن الولادة متعسرة، وأن الإنسان الجديد في حالة ضعف، فإذا استحالت الاستجابة والاذعان لعمل الروح القدس (كأن ترفض الصلاة أو الاتضاع أو الإهانة ...إلخ) فهذا معناه أن الإنسان الجديد **بدون عمل**. أما إذا كانت النفس تكره الإنجيل أو لا ترتاح إليه أو لا تفهم كلمات الرب، فهذا معناه أن الإنسان الجديد **بدون رؤيا**.

وهنا نأتي إلى جوهر الموضوع: لماذا لا نحصل على إنسان جديد في حالة صحية وحيوية و بصيرة؟

+ لكي نولد من فوق يتحتم أن نموت عما هو أسفل: هذا هو قانون الميلاد الجديد من فوق.

١ — «إن كان إنساننا الخارج يفنى (الإماتة)، فالداخل يتجدد يوماً فيوماً» (٢كو٤: ١٦).

٢ — «إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمُت فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت (فهي تولد من جديد) تأتي بثمر كثير» (يو١٢: ٢٤).

٣ — «ولا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة بل امتلئوا بالروح» (أف٥: ١٨). كيف نمتلىء إلاَّ بأن نفرغ خطايانا أولاً؟ الأمر هنا يجعل الامتلاء الروحي داخلاً ضمن الإرادة!!

+ لا يمكن أن نحتفظ بالعتيق ونولد من جديد — يستحيل أن نلبس الجديد فوق العتيق. هذا قانون روحي قاطع. أن أعظم وأخطر عائق ضد الميلاد الجديد، أو على وجه الأصح، ضد صحة الإنسان الجديد وفاعليته هو أننا — كما يقول المسيح — نمنع حبة الحنطة عن أن تموت ونفضل أن نحتفظ بجسمها وكيانها.

٤ — أو كما يقول بولس الرسول: «أننا ... نئن مثقلين، إذ لسنا نريد أن نخلعها (خيمتنا أي الإنسان العتيق / الجسد) بل أن نلبس فوقها لكي يُبتلع المائت من الحياة» (٢كو٥: ٢).

المسيح يضع أمام نيقوديموس حقيقة لا تقبل النقاش والجدل: «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح» (يو٣: ٦)، و بولس الرسول يصف هذه الحقيقة عينها في موضع آخر هكذا: «الجسد يشتهي ضد الروح والروح ضد الجسد» (غل٥: ١٧). إذاً يستحيل الجمع بين الاثنين.

+ إذا كان الإنسان عائشاً حسب أهواء وشهوات الجسد، فيستحيل عليه أن يعيش بالروح ويحيا فيما لله عاملاً أعمال الله. و بولس الرسول يقطع في هذا بوضوح:

+ «الذين هم حسب الجسد فبما للجسد يهتمون، ولكن الذين حسب الروح فبما للروح،

— اهتمام الجسد هو موت، ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام.

— لأن اهتمام الجسد هو عداوة لله، إذ ليس الجسد خاضعاً لناموس الله، لأنه أيضاً لا يستطيع،

— فالذين هم في الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله ...

— لأنه إن عشتم حسب الجسد فستموتون، ولكن إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون» (رو٨: ٥—٨و١٣).

إذاً، فالإنسان إما أن يكون له هوى جسدي أو هوى روحي، أما الجمع بين الاثنين فينشىء حياة مزيفة، **لها صورة التقوى ولكنها فاقدة قوتها.**

ثم يتبادر سؤال: وماذا إذا ضعف الجسد أو مرض أو مات نتيجة الضبط والقمع والإماتة؟ هنا الوعد الإلهي أيضاً يأتي واضحاً: «الذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم» (رو٨: ١١).

لذلك، في جرأة و وضوح يقول بولس الرسول: «أقمع جسدي وأستعبده حتى بعد ما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضاً (بالرغم من الميلاد الجديد)» (١ كو٩: ٢٧).

+ كثيرون من أولاد الله و بالأخص خدام إنجيله المقدس يتوقون لقوة المسحة في الخدمة: «لأن هذه المسحة تعلمكم كل شيء» (راجع ١يو٢: ٢٧)، وكثيرون يتشوقون لمعرفة الحق؛ المعرفة التي تحرر الإنسان: «وتعرفون الحق والحق يحرركم» (يو٨: ٣٢)، ولبرهان الروح والقوة في الخدمة. ولكن للأسف يقف بهم الأمر إلى حد

السؤال والطلبة والاشتياق فقط، **وذلك لأنهم يعيشون حسب الجسد**. أما الروح فريض وممزق ومطفأ بسبب طغيان طبيعة الجسد وغرائزه وانفعالاته التي تؤذي الروح وتعوقها عن الرؤيا. والعلاج حاسم وقاطع:

+ «أميتوا أعضاءكم التي على الأرض!! الزنا، النجاسة، الهوى، الشهوة الردية، الطمع» (كو٣: ٥)،

+ «اطرحوا عنكم أنتم أيضاً الكل: الغضب، السخط، الخبث، التجديف، الكلام القبيح من أفواهكم» (كو٣: ٨)،

+ «لا تكذبوا بعضكم على بعض، إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله ولبستم الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه» (كو٣: ٩و١٠).

هنا عملية الخلع مستمرة وحتمية، خلع العتيق للبس الجديد! فكلمة المسيح: «ينبغي أن تولدوا من فوق» (يو٣: ٧)، يقابلها حتماً أنه ينبغي أن تقع حبة الحنطة في الأرض وتموت أولاً (يو١٢: ٢٤). فبقدر الموت يكون نمو الحياة الجديدة.

إذا لم تشق حبة الحنطة غلافها الخارجي شقاً وتطرحه في الأرض، فلن ينبثق نبات الحنطة الأخضر الذي سيحمل الحياة إلى آلاف الحبات الأخرى. ميلاد الإنسان الجديد رهن بهذا الخلع الذي تكلم عنه الإنجيل مراراً وتكراراً. لأن الذات القبيحة المتعاهدة مع الجسد وغرائزه تقف سداً منيعاً ضد الميلاد الجديد وضد الحياة.

(١٩٧٣)



ابن الإنسان وابن الله

الكنيسة ، بحسب التقليد المسلَّم لها ، كانت تعيِّد للميلاد والغطاس معاً ، وكان يسمى العيد في جملته بالإبيفانيا عيد الظهور الإلهي . نجد ذلك واضحاً في تسجيل القديس أثناسيوس الرسولي لأعياد الكنيسة ، إذ يذكر « الإبيفانيا » ولا يذكر الميلاد بالتخصيص .

على أنه لم ينفصل عيد الميلاد عن عيد الغطاس إلا بعد زمان القديس أثناسيوس ، مبتدأً من الغرب أولاً . وتأملنا الآن وفي هذا العيد ينحصر في سر التقليد القديم ومعناه ، كونه يربط بين الميلاد والغطاس معاً في عيد واحد على أساس من الفكر اللاهوتي مشيراً إلى ارتباط الميلادين :

الميلاد الأزلي للمسيح **« كإبن الله »** ،

والميلاد البشري الزمني بالتجسد **« كإبن الإنسان »** .

ونحن نرى أنه لم يكن عفواً ولا عبثاً أن يصمِّم التقليد القديم على اعتبار العيدين عيداً واحداً تقدم فيه الكنيسة المسيح للعالم بحسب مفهوم إيمانها المتكامل عنه كإبن الله المتجسد ، أي إبن الله وإبن الإنسان معاً ، و بلغة الكنيسة الأولى « الإبيفانيا » ، وتعني به الظهور الإلهي الكامل !!

ونحن لو رجعنا إلى الأناجيل الأربعة من حيث كيف يقدم لنا كل إنجيل بداية استعلان المسيح في لحظة ظهوره للعالم ، نجد أن الأناجيل الأربعة تنقسم في ذلك إلى قسمين :

القسم الأول ، وهما كل من إنجيل متى وإنجيل لوقا ، يقدمان لنا المسيح مولوداً في بيت لحم ، أي يقدمان المسيح أولاً على مستوى **« إبن الإنسان »** ، حيث يدعمان بالحدث الإلهي كل النبوات السابقة الخاصة بتجسده ، مثل : « **ها العذراء تحبل وتلد**

إبناً وتدعو إسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا » (إش ٧ : ١٤) ، كذلك : « لأنه يولد لنا ولد ، ونُعطى إبناً ، وتكون الرياسة على كتفه ، و يدعى إسمه عجيباً مشيراً ، إلهاً قديراً ، أباً أبدياً ، رئيس السلام » (إش ٩ : ٦) .

هكذا تماماً يحقق كلٌّ من إنجيل متى وإنجيل لوقا هذه النبوات حيث يعلن الملاك البشرى بميلاد المسيح بقوله : « **وُلد لكم اليوم مخلص** » (لوقا ٢ : ١١) . فهنا بدء استعلان يسوع المسيح ، إنما بحسب الجسد .

أما **القسم الثاني** من الأناجيل ، و يشمل كلاً من إنجيل مرقس وإنجيل يوحنا ، فيقدمان لنا المسيح أول ما يقدمانه ، معلَناً في بنوته الأزلية لله ، أي يتخطيان بالفعل قصة الميلاد نهائياً .

فالقديس مرقس يبدأ باستعلان المسيح بالغطاس مباشرة وليس بالميلاد ، و يستهل إعلان المسيح بشهادة الآب من السماء : « وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السموات قد انشقت والروح نازلاً مثل حمامة عليه . وكان صوتٌ من السموات **أنت إبني الحبيب** الذي به سررت » (مر ١ : ١٠ و ١١) . هنا يتجاوز الإنجيل مظهر المسيح الشكلي وصورته البشرية ليكشف حقيقة المسيح الإلهية المختفية وراء هذه الصورة .

أما القديس يوحنا فيقدم لنا المسيح في إنجيله مبتدئاً باستعلان **ما قبل التجسد** ، أي يعلن لنا المسيح في علاقته الذاتية الأزلية بالآب « في البدء ,, المطلق ,, » (يو ١ : ١) ، حيث يقدمه لنا ذاتاً إلهية في طبيعتها المعقولة « كلمة الله » ، اللوغس الذي « كان عند الله وكان هو الله » . ثم يقدمه لنا بعد ذلك في هذه العلاقة الذاتية الأزلية عينها ، إنما بعد التجسد ، باستعلان بنوته الوحيدة للآب « والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده **مثل مجد ابن وحيد** للآب مملوء نعمة وحقاً » (يو ١ : ١٤) ، محققاً أن بالتجسد انكشفت بنوته الأزلية للآب .

وهكذا نرى أنه بينما يشترك كل من القديس مرقس والقديس يوحنا في تقديم المسيح للعالم مستعلَناً في بنوته الأزلية لله ، يشترك كل من القديسين متى ولوقا في تقديم

المسيح للعالم مستعلناً في بنوته للإنسان ، مبتدئاً أولاً بميلاده في بيت لحم .

ثم يأتي التقليد الكنسي ويجمع بين هذين الإستعلانين معاً في عيد واحد : الميلاد والغطاس معاً ، معبّراً عن وحدة البنوتين في شخص المسيح ابن الله وابن الإنسان معاً ، الكلمة الأزلي مولوداً في بيت لحم !! أي ظهوراً بالجسد ثم استعلاناً بالروح ، إبيفانيا واحدة متحدة !! حيث في العماد (الغطاس) أُظهر المسيح أولاً ، حيث استعلن ليوحنا المعمدان ثم لإسرائيل ثم لكل العالم ، وهذا يشهد به يوحنا المعمدان :

« وأنا لم أكن أعرفه ، لكن لكي «**يُظهر**» = (**وهذه هي الإبيفانيا**) ، لإسرائيل ... الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس ، **وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله** » (يو١ : ٣١ــ٣٤) .

وهكذا نرى أنه من خلال العماد ونزول الروح القدس استعلنت بنوة المسيح الأزلية لله أولاً بشهادة فائقة ، ألقت أضواءها الباهرة على ميلاد بيت لحم لتعلن أن ميلاده البتولي على مستواه الإعجازي يخفي حقيقة المسيح الأزلية .

ولعل في بشارة الملاك جبرائيل للعذراء قبل أن يُحمل به في البطن توضيحاً لمفهوم الإستعلانين معاً : إبن الله ، وإبن الإنسان : « الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك ، فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يُدعى **إبن الله** » (لو١ : ٣٥) .

أما المسيح نفسه فقد استخدم هذين الإعلانين معاً ليعلن شخصيته للعالم ، فاستخدم اصطلاح « إبن الإنسان » ليظهر مدى علاقته بالناس وحقيقة تجسده ، ثم استخدم اصطلاح « إبن الله » ليظهر مدى علاقته بالله وحقيقة لاهوته ، وذلك على مدى الأناجيل الأربعة .

بنوة المسيح للإنسان : إبن الإنسان :

أما استعلان المسيح بقوله عن نفسه أنه هو « **إبن الإنسان** » ، فهذه كانت إشارة

منه واضحة إلى نبوة دانيال النبي ، وقد أراد بها المسيح أن ينبه ذهن العالم إلى بدء عهد ظهور ملكوت الله في شخصه ، لأن دانيال يقول :

« كنت أرى في رؤى الليل **وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان** أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه ، **فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب** والأمم والألسنة ، **سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض** » (دا٧ : ١٣) .

وجميل أن يربط المسيح بين اسمه الذي اختاره لنفسه من هذه النبوة « إبن الإنسان » ، وبين ندائه في أول عمل كرازي له بقوله : « من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه **قد اقترب ملكوت السموات** » (مت٤ : ١٧) . وكأنما بإشارة خفية يريد أن يقول إن نبوة دانيال تتم الآن أمام أعينكم !! هذا هو إبن الإنسان وهذا هو ملكوت الله !!

أما تأكيد دانيال النبي أن استعلان مجيء إبن الإنسان يرتبط بسحب السماء ، فهذا تحققه قصة الميلاد وقصة العماد معاً ، حيث كانت السماء في الميلاد مسرحاً لحركة صعود ونزول الملائكة عياناً بتهليل لا يوصف . أما في العماد ، فقد **انشقت السماء** عياناً ونزل الروح القدس ، وبعدها جلجل في السماء صوت الآب معلناً الإبن .

ولكن في ظهور الملائكة وهي تصعد وتنزل برؤيا العين أمام الرعاة لحظة ولادة المسيح إشارة أكثر عمقاً وأكثر بعداً من نبوة دانيال ، فهي تمتد حتى سفر التكوين لتتصل بحلم يعقوب اتصالاً نبوياً وثيقاً : « ورأى يعقوب حلماً ، وإذا سلم منصوب على الأرض رأسه يمس السماء ، وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليه (أي على يعقوب وليس على السلم بحسب النسخة العبرية) » (تك٢٨ : ١٢و١٣) . وفي هذا الحلم أخذ يعقوب إسرائيل الوعد بميلاد شعب إسرائيل من صلبه ...

هذه النبوة أكمل المسيح فك ختومها ورموزها في حديثه مع نثنائيل حينما قال له : « الحق الحق أقول لكم من الآن (هوذا الزمان الذي فيه) ترون **السماء مفتوحة** ،

وملائكة الله يصعدون و ينزلون على إبن الإنسان » (يو ١ : ٥١) .

وهنا يشير المسيح ، بانشقاق السماء والملائكة تصعد وتنزل ، إلى ما تم في ميلاده وعماده وتجلّيه وما سيكون في مجيئه .

كذلك هنا يكشف المسيح عن شخصه في حلم يعقوب أنه « **إسرائيل الجديد** » ، ولكن ليس بعد رأساً لشعب بل لكل بني الإنسان ، لأنه هنا يدعو نفسه « **إبن الإنسان** » .

كذلك فإن انفتاح السماء قد تم بالحرف الواحد في العماد « وإذا السموات قد انشقت » (راجع مرقس ١ : ١٠) ، وكان هذا تعبيراً عن عهد علاقة الله الجديدة المكشوفة مع الإنسان في شخص المسيح التي توسلها إشعياء يوماً ورآها بالنبوة : « ليتك تشق السموات وتنزل » (إش ٦٤ : ١) .

أما صعود الملائكة ونزولهم على المسيح ، فهذه إشارة واضحة إلى درجة المسيح كرب الملائكة وسيدها ، الأمر الذي أفصح عنه بولس الرسول في رسالته إلى العبرانيين ١ : ٦ بصورة جلية : « متى أُدخل البكر إلى العالم ، يقول ، ولتسجد له كل ملائكة الله » . ونقرأ في موضع آخر : « **وصارت** الملائكة تخدمه » (مر ١ : ١٣) .

أما من حيث ذكر **صعود الملائكة قبل نزولهم** ، فهذا يكشف عن علاقة جديدة بدأت بين الملائكة والإنسان ، يكون فيها الملائكة معنا دائماً ينظرون حاجتنا ، فيصعدون بسؤالاتنا وطلباتنا إلى الله أولاً ، ثم ينزلون بالإستجابة « وملائكة الله يصعدون و ينزلون » !

كما نلاحظ في حلم يعقوب أنه كما أعطى الله يعقوب الوعد بميلاد شعب إسرائيل كله من صلبه ، وكانت الملائكة في الحلم شهوداً لميلاد هذا الشعب **بالوعد** ، وكان السلم رمز التنازل الإلهي الذي وقف عليه الرب ليتكلم مع يعقوب ؛ هكذا نجد ذلك يتحقق تماماً في بيت لحم حيث تم الوعد بالإستعلان المنظور والمحسوس وليس بالحلم ،

فظهرت الملائكة منظورين ومسموعين ، وتم تنازل الله من السماء لا ليتحدث بكلمات قليلة ثم يصعد ، ولكن نزل نزولاً أبدياً ، بنفسه و بذاته ككلمة حية متجسدة ناطقة — كلمة الله من جوهره — تبقى معنا إلى الأبد ، هي المسيح « عهدنا الجديد مع الله » ، **ابن الإنسان** ، الذي تمت فيه ولادة البشرية ولادة جديدة من الله ليصير المسيح وإلى الأبد رأس الإنسانية الجديدة ، المدعوين قديسين للعلي من كل بني الإنسان !! ليصير المسيح « نوراً للأمم » (إش ٤٢ : ٦) و« نور العالم » (يو ٨ : ١٢ ، ٩ : ٥) .

ولكن لا يزال لقب « **إبن الإنسان** » الذي اختاره المسيح لنفسه يحمل لنا من وجهة نظر الله أعماقاً إنسانية ممتدة في الله ، لا يمكن أن تتوقف في امتدادها يوماً من الأيام ، متجاوزة حدود هذه الخليقة المنظورة ، بل ولا يمكن أن تنتهي عند حدود بشريتنا حتى وإلى منتهى الزمن . فإنسانيتنا لن ترتاح أو تستقر إلا في سر المسيح الأخير ، في الله نفسه ! لأن موطن « إبن الإنسان » الحقيقي والأصلي هو السماء « فماذا إذا رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً » (يو ٦ : ٦٢) ، « وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليَّ الجميع » (يو ١٢ : ٣٢) . هكذا ستمتد البشرية بالروح في أعماقها لتدرك وطنها الحقيقي ، السماء ، بالمسيح !

في المسيح « إبن الإنسان » استطاع الله أخيراً أن ينزل نزولاً مريحاً لا يعوقه عن الصعود ، بل عن الوجود الكلي في السماء ، وذلك ليعلن ذاته بسهولة أكثر ، كاشفاً عن أعماق مسرته لبني الإنسان التي كانت فيه مكتومة ومخفية أو محجوزة عن بصيرة الإنسان ، حتى وعن أقدس الأنبياء .

في تجسد المسيح سكب الله نفسه بلا أي مانع ، بكل سخاء نعمته وكل غناه في المجد ، كاشفاً عن كل لطفه وطول أناته وصفحه عن جهالات الإنسان وحبه الفادي لكل بني البشر ، معلناً عن حياة جديدة للإنسان كل الجدة بميلاد جديد فعلي « أما الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله ، أي المؤمنون باسمه ، الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله وُلدوا » (يو ١ : ١٣) .

في المسيح لم يعد الله يتعامل معنا من خلال حُجُب وظلام ورموز وأحلام أو هوة لا يمكن عبورها !!، ولا من خلال شعب غبي غليظ الرقبة (إسرائيل)، ولا بكلمة أو وصية منقولة عن آخر يصيغها نبي أو فم بشر هو بحد ذاته أعجز من أن يحققها، إنما في المسيح « إبن الإنسان » نسمع الله مباشرة سمعاً مُشَاعاً، ونقبل نعمته مجاناً بلا حدود، لا بسمع الأذن، ولا بفهم الكلمة حيث يحتاج الأمر إلى ذكاء وتعلم، ولكن بفعل الروح، بسر نزول الله الذاتى، بسر القوة الإلهية العاملة في الإنسان في الداخل باقناع يفوق العقل و يفتح البصيرة ذاتها لتجديد الخليقة !

وهكذا إذ يصمم المسيح على تسمية نفسه « **إبن الإنسان** » ينبه ذهننا أن الله قد اختار أن يُستعلن لنا بعيداً عن الإحتكارات الإنسانية أو الزمانية لجيل ما أو لأمة أو لشعب أو لسبط أو لأسرة، أو حتى لنبي، بل في « إبن الإنسان » بمعناه المشاع ليكون الله في المسيح لكل بشر، جامعاً في بشريته كل صفات الإنسان وكل مميزاته وضعفاته جميعاً، فمن وراء هذا اللقب **المتواضع** « إبن الإنسان » يرتفع المسيح فوق قمة البشرية، ليحتضنها كلها بين ذراعيه، جامعاً إياها في جسده بكل ما فيها وكل ما عليها على وجه الإطلاق !!

وبهذا المعنى تماماً لقبه بولس الرسول بـ« **(آدم) الإنسان الثاني الرب من السماء** » (١كو١٥: ٤٧) !!، فهو أبو الخليقة الجديدة الذي « يملأ الكل في الكل » (أفسس ١: ٢٣) !!

فلقب « **إبن الإنسان** » هو الحجاب أو الصورة الإنسانية التي اختار المسيح أن يولد وأن يعمل من خلفها، ليحقق في الإنسان و بالإنسان عامة « حضور الله » الكلي وعمله الإلهي بلا أي مانع، ليكون خلاصاً وفداءً منظوراً « **بالجسد** » لا يستعصي على أحد !

غير أن مواقف المسيح لم تخلُ أحياناً من كشف مفاجىء **لهذا الحجاب**، مواقف يعلن فيها هويته بلا حجاب !! « فسمع يسوع (بالأعمى) الذي أخرجوه خارجاً (بعد

أن شفاه المسيح)، فوجده وقال له **أتؤمن بابن الله** ؟ أجاب ذاك وقال من هو ياسيد لأؤمن به ؟ **فقال له يسوع قد رأيته والذي يتكلم معك هو هو !!**، فقال أؤمن ياسيد وسجد له » (يو٩: ٣٥–٣٨).

وهكذا فبشرية المسيح العامة « إبن الإنسان » لم تقف حائلاً، لا عند المسيح ولا عند الأعمى، من كشف حقيقة بنوته لله والتعرف عليه من وراء هذا الحجاب !!

ولكن لعل أروع مشاهد « إبن الإنسان » لا زالت تنتظرنا على مستوى انفتاح السماء والملائكة أيضاً، لأنه سوف يأتي كما انطلق، بحسب وعد ملائكة سفر الأعمال: « أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء، إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتى هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء » (أع١: ١١). وكما قال هو نفسه: « وأما في تلك الأيام بعد ذلك الضيق، فالشمس تظلم والقمر لا يعطي ضوءه، والنجوم تتساقط، والقوات التي في السموات تتزعزع، وحينئذ **يبصرون ابن الإنسان آتياً في سحاب بقوة كثيرة ومجد**، فيرسل حينئذ ملائكته ويجمع مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء الأرض إلى أقصاء السماء » !! (مر١٣: ٢٤–٢٧).

فإن كان المسيح قد جاء في صورة « إبن الإنسان » هكذا وديعاً متضعاً مولوداً في مذود بيت لحم، حاملاً آلام وخطية الإنسان ليهب جبلتنا ميلاداً سرياً من فوق، فهو سيأتي في النهاية بهذه الصورة عينها « إبن الإنسان » بدون آلام أو حمل خطايا بعد، بل في أوج مجده واستعلانه الإلهي « بقوة كثيرة ومجد » ليضم مختاريه إلى مجده، وحينئذ، وحينئذ فقط، يدرك كل إنسان لا بالنظرية ولا بالمحاجة والبرهان، إنما بالرؤية العلنية والقناعة الذاتية، « بالشركة »، مدى الكرامة والمجد والحرية والبقاء التي نالتها البشرية في شخص المسيح « إبن الإنسان ».

بنوة المسيح لله: إبن الله:

لم يكن ممكناً أن تعلَن أبوة الله إلا من خلال بنوة محققة على المستوى الفعلي، لهذا

تجسد المسيح . ومن خلال أعماله وصفاته الفائقة أدركنا فيه هذا السر العالي ، كما يقول القديس يوحنا الرسول : « ورأينا مجده كمجد إبن وحيد للآب » (يو١ : ١٤) .

ولقد شهدت السماء بذلك ، فاستُعلنت أبوة الله للمسيح وهو خارج من مياه الأردن يوم عماده « أنت هو إبني الحبيب الذي به سررت » (مر١ : ١١ ؛ يو١ : ٣٤) . فكانت هذه أول إشارة علنية مسموعة أتت من السماء لتكشف عن أبوة الله الذاتية للمسيح .

ومنذ ذلك الحين اندفقت مسرة الآب على البشرية كلها بسخاء شديد « الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت » (يو١٧ : ٢٧) .

ولكن فرق أن يدعو المسيح الله « ياأبي » التي تفيد علاقة جوهرية ذاتية ، وبين أن يدعو أي إنسان آخر الله بقوله : « **ياأبانا** » بصيغة الجمع التي تفيد التبني الجماعي في شخص يسوع المسيح الإبن الوحيد .

فالمسيح قال عن الله : « أبي وأبيكم » (يو٢٠ : ١٧) ولم يقل قط أنه أبونا جميعاً أنا وأنتم . فبنوته لم تكن قط على مستوى بنويتنا ، بل احتفظ المسيح دائماً بعلاقة مع الآب فريدة مميزة تفصح في دالتها عن العلاقة الجوهرية . اسمعه ينادي الآب في ساعته الأخيرة : « أيها **الآب** قد أتت الساعة . **مجّد إبنك** ليمجدك إبنُك أيضاً » !! (يو١٧ : ١) . وفي موضع آخر يناديه أيضاً : « الآن مجدني أنت أيها الآب **عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم** » (يو١٧ : ٥) .

كذلك في مواضع كثيرة يعلن المسيح نفسه بالنسبة لله أنه « **الإبن** » ، معرَّفاً بأداة التعريف الألف واللام ، أي بمفهوم الإبن الوحيد « المونوجينيس » :

« هكذا أحب الله العالم حتى بذل **إبنه الوحيد** لكي لا يهلك كل من يؤمن به » (يو٣ : ١٦) .

« الذي يؤمن به لا يُدان ، والذي لا يؤمن به قد دين ، لأنه لم يؤمن باسم **إبن الله الوحيد** » (يو٣ : ١٨) .

« **الآب** يحب ,, **الإبن** ،، وقد دفع كل شيء في يده » (يو٣ : ٣٥) .

« الذي يؤمن **بالإبن** له حياة أبدية والذي لا يؤمن **بالإبن** لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله » (يو٣ : ٣٦) .

والذي يسترعي انتباهنا جداً في كل أحاديث المسيح أنه لم يحاول قط أن يبرهن على بنوته لله !! بل كان يعلنها في رزانة وجلال إلهي « أنا أتيت من عند أبي » (يو٨ : ٤٢) ، « أنا والآب واحد » (يو١٠ : ٣٠) . فالمسيح كان يتكلم و يتصرف « كابن » ، بإحساس فريد بأبوة الله له ، و بسلطان من أُعطي السيادة على ملكوت الله في السماء وعلى الأرض ، وفي جميع الأمم « **دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس** » (مت٢٨ : ١٨) .

كذلك نلاحظ أنه بينما كان الأنبياء قديماً يضيفون دائماً ما يقولونه على عهدة الله بالآية المشهورة « هكذا يقول الرب » ، إذ بالمسيح يحقق ما يقوله على عهدة نفسه و ينطق بفم الله مباشرة : « الحق أقول لكم » ، بحزم و بسلطان مطلق !! وحتى فيما يتعلق بناموس الله القديم ، كان يعدله بسلطان نفسه « قيل لكم في القديم ... **أما أنا فأقول لكم** » (راجع إنجيل متى أصحاح ٥) . شيء لم يجرؤ ولا يجرؤ عليه إنسان قط !!

أما وحدانية الله فلم تتخلخل قط بتجسد الإبن وإرساله للعالم ممثلاً للآب وناطقاً باسمه ، هذه الحقيقة شدد عليها المسيح بكل قوة وكل وضوح : « وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك **أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته** » (يو١٧ : ٣) ، بمعنى أن الحياة الأبدية يستحيل أن تعطى إلا بالآب والإبن .

هنا التشديد على أن وحدانية الله قائمة على أساس عمل الآب والمسيح معاً ، لأن عمل المسيح غير منفصل قط عن عمل الآب « أنا في الآب ، والآب فيَّ » (يو١٤ : ١٠) ، « **أنا والآب واحد** » (يو١٠ : ٣٠) .

هنا الإشارة مركزة بشدة إلى وحدانية الذات و بالتالي وحدانية العمل « كل ما لي

فهو لك ، وما هو لك فهو لي » (يو١٧ : ١٠) .

ولكي تبقى وحدانية الله واضحة في مفهومنا وإدراكنا ، ينبهنا المسيح مراراً وتكراراً أنه ــ أي المسيح ــ لا يقول ولا يفعل ولا يشاء من ذاته إطلاقاً . ولكن كل ما يقول وما يعمل وكل ما يشاء إنما يقوله و يعمله بحسب مشيئة الآب « لا يقدر الإبن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل . لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الإبن كذلك » (يو٥ : ١٩) . فالإبن ليس له سلطان منفصل عن الآب ، بل هو بالآب وفي الآب « الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي ، لكن الآب الحالّ فيَّ هو يعمل الأعمال » (يو١٤ : ١٠) ، « صدقوني إني في الآب والآب فيَّ ، وإلا فصدقوني لسبب الأعمال نفسها » (يو١٤ : ١١) .

التركيز هنا واضح وقاطع بقصد إعلان وحدانية الله الكاملة المطلقة ، ولكنها وحدانية قائمة على مفهوم ديناميكي ، أي ليست وحدة نظرية جامدة بل وحدة كيان فعّال ، وحدة فعل وعمل ومشيئة « فالله **خالق** الجميع **بيسوع** المسيح » (أف٣ : ٩) ، « **فيه** خُلق الكل ما في السموات وما على الأرض ما يُرى وما لا يُرى » (كو١ : ١٦) . هنا **الخلق** فعل **واحد** ، **والخالق** الفعال أيضاً **واحد** « الله بيسوع » ، « (الله) يجمع كل شيء **في المسيح** ما في السموات وما على الأرض » (أف١ : ١٠) ، « **لأن فيه سُرّ أن يحل الملء** وأن يصالح به الكل لنفسه » (كو١ : ١٩و٢٠) .

المسيح هنا يحمل و ينفذ كل فعل الله وكل مشيئته الفعالة و يتممها . فالمسيح هو استعلان أي « كلمة » الله ، و« حكمته » و« قدرته » و« قداسته » ، و بالتالي استعلان « مجده » .

والمسيح بأقواله وأعماله وصفاته الفائقة أثبت بالفعل أنه « صورة الله » غير المنظور ، و« رسم جوهره » غير المدرَك ، و« حامل كل الأشياء بكلمة قدرته » (عب١ : ٣) . فالمسيح هو الشعاع المرئي لمجد الله !!

غير أنه من أعجب الأمور أنه لم يمجد نفسه قط ، في حين أنه لم يكف عن أن يمجد

الآب !! « من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم » (يو٧ : ١٨) . « أنا لست أطلب مجد نفسي » (يو٨ : ٥٠) .

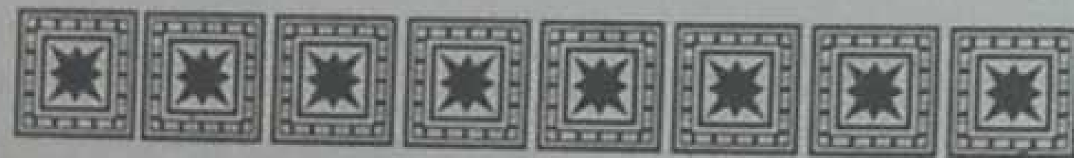
غير أنه لم يترك فرصة لأحد لكي يشك في مساواته للآب في المجد !! « لكي يكرم الجميع الإبن كما يكرمون الآب . ومن لا يكرم الإبن لا يكرم الآب الذي أرسله » (يو٥ : ٢٣) .

وبذلك يكون المسيح قد كشف عن أعمق معنى لوحدانية الله « في الآب والإبن » ، وعلى مستوى الذات والكيان وفي الفعل والمشيئة والمجد ، والصورة والجوهر !

من أجل هذا أرسل الله إبنه إلى العالم ، وُلد المسيح في بيت لحم ، كأعظم إرسالية حدثت من السماء نحو الأرض ، كامتداد مذهل لصفات الله الجوهرية في كيان البشرية ، لكي يُستعلن في المسيح أعظم أسرار ذات الله ، « سر الآب والإبن » ، الذي فيه أكمل سر الحب بالبذل والفداء على مستوى منظور ومحسوس في جسد إنسان !! « جسوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي » (لو٢٤ : ٣٩) .

فدخلت البشرية في سر بنوة الله ، سر الحب الفائق ، واستطالت خلقة الإنسان حتى بلغت عنان السماء « ينبغي أن تولدوا من فوق » (يو٣ : ٧) ، « أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله » (يو١ : ١٢) !!

(يناير ١٩٧٤)



« انشقت السموات »

+ + +

إنجيل متى : « فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء ، **وإذا السموات قد انفتحت له** ».

إنجيل مرقس : « وللوقت وهو صاعد من الماء **رأى السموات قد انشقت** ».

إنجيل لوقا : « اعتمد يسوع أيضاً وإذ كان **يصلي انفتحت السماء** ».

إنجيل يوحنا : في موضع آخر متقدم بعد العماد : « **من الآن ترون السماء مفتوحة** ... ».

انفتاح السموات :

نستطيع أن نسمي يوم عماد المسيح يوم انفتاح السماء ، بالنسبة للمسيح « قد انفتحت له » و بالتالي على البشرية كلها : « ترون السماء مفتوحة ». و يعطينا يوحنا الرسول تأكيداً من فم المسيح أنها ستظل هكذا مفتوحة لنا « من الآن ترون السماء مفتوحة ».

وقد تم هذا على صعيدين : الصعيد الأول شكلي ، إذ لم ينقطع قديس من كل عصر ، منذ يوم عماد المسيح وحتى اليوم أن يشهد أو بالحري أن يشاهد السماء مفتوحة إن في رؤيا أو منظر أو في حلم ... منذ اسطفانوس الشاهد الشهيد وعبوراً ببولس و بطرس الرسولين ، و يوحنا الرسول في سفر الرؤيا ، وهرماس الراعي ، وغيرهم وغيرهم .

أما على الصعيد الجوهري ، فهذا ما نمارسه يومياً بالصلاة والإفخارستيا وعبادة الحب الإلهي حيث يبلغ بنا الحب والتأمل إلى أعماق قلب الله .

أما التعبير الآخر الذي أورده مرقس الرسول المرادف لـ « **انفتاح السماء** » وهو

« انشقاق السماء » فيعود بنا إلى مفهوم آخر حيث الإنفتاح يشمل أيضاً معنى التمزيق الذي تكرر مرة أخرى في انشقاق حجاب الهيكل ، عندما أكمل المسيح على الصليب ذبيحة الفداء حتى آخرها « إذ سكب نفسه للموت » (إش٥٣ : ١٢) وأسلم الروح بيد الآب !

هنا المقابلة قوية وسرية وعميقة جداً ، فهيكل الله معروف أنه في السماء بلا نزاع ، أما السماء فهي الحجاب الذي يفصل الرؤيا والإتصال . هذا نقرأه بغاية الوضوح في سفر الرؤيا : « وانفتح هيكل الله في السماء وظهر تابوت عهده في هيكله » (رؤ١١ : ١٩).

إذن فانشقاق السماء وقت عماد المسيح ونزول الروح القدس هو صورة رؤيوية لما تم فعلاً على الصليب ، بصورة جوهرية وسرية ، عندما انشق حجاب الهيكل من أعلى إلى أسفل ، لحظة أن انشق الجسد المقدس وأسلم المسيح الروح على الصليب ، والجسد هو بعينه **الحجاب** الذي يخفي روح اللاهوت خلفه ومن داخله ، كما يقول بولس الرسول : « فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع طريقاً كرسه لنا حديثاً ، **حياً ، بالحجاب أي جسده ، وكاهن** أعظم على بيت الله » (عب١٠ : ١٩-٢١).

فالمطابقة هنا مبدعة ، فالله الذي يسكن السماء هو الذي كان يسكن هيكله على الأرض ، أما الهيكل الأرضي فقد صُنع أصلاً حسب المثال السمائي تماماً ، الذي رآه كل من موسى وداود وحزقيال من خلال رؤيا سماوية(*).

فانشقاق السماء وانشقاق حجاب الهيكل هما مطابقة أصيلة لتمزق الجسد على الصليب ، حيث هذا الإنشقاق يعني لاهوتياً فعلاً واحداً هو رفع الخطية الحاجبة الذي تم في ثلاث صور متطابقة تماماً ، ممثلة في **تمزيق السماء ، وحجاب الهيكل ، والجسد المقدس ،** بل وحتى تمزيق رئيس الكهنة ملابسه لحظة أن أعلن المسيح نفسه :

(*) خر٢٦و٢٧ ، ٢أي٣ ، حز٤٠ـ٤٤ .

« فسأله رئيس الكهنة أيضاً وقال له هل أنت المسيح ابن المبارك ؟ فقال يسوع **أنا هو** ἐγώ εἰμι وسوف تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً في سحاب السماء . فمزق رئيس الكهنة ثيابه . وقال ما حاجتنا بعد إلى شهود » (مر١٤ : ٦١ــ٦٣) . و يلاحظ هنا قول المسيح « أنا هو » ، وهو اصطلاح لم يرد قط في أسفار العهد القديم إلا على فم الله « أنا الكائن » .

كذلك يلاحظ أن تمزيق رئيس الكهنة ثيابه كان يعني زوال رئاسة الكهنوت عنه . فهذه كانت رمزاً نبوياً عن زوال الكهنوت القديم الذي كان بمثابة الحجاب الذي يحجب الله عن الإنسان ، لابتداء الكهنوت الجديد الذي هو أساساً لإستعلان الله وتمكين الإتحاد به !!

وبهذا التمزيق أو الإنشقاق المثلث أو المتعدد الصور، للحجاب الفاصل بين الإنسان والله ، تم استعلان الله وظهوره وتقاربه مع الإنسان بلا حاجز، بلا حجاب ، بلا برقع ، بسبب رفع الخطية التي هي الحاجز والعائق الأعظم الذي كان يفصل الإنسان عن الله !!

وهكذا بانفتاح السماء وقت عماد المسيح الذي هو صورة رؤيوية مسبقة لما سيتم على الصليب ، تكونت علاقة سرية غاية في العمق بين السماء والأرض بواسطة جسد المسيح ــ الذي هو نحن ــ الذي نزل عليه الروح القدس من السماء واستقر مستريحاً فيه !!

انفتاح السماء هنا ونزول الروح القدس واستقراره على جسد المسيح ، أول إشارة بليغة إلى أنه قد تم بالفعل ملء الأزمنة ليجمع الله كل شيء في المسيح ، ما في السموات وما على الأرض ، تحقيقاً للمصالحة العظمى : « إذ عرَّفنا بسر مشيئته حسب مسرته التي قصدها **في نفسه** لتدبير ملء الأزمنة **ليجمع كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض** في ذاك الذي فيه **أيضاً نلنا نصيباً** » (أف١ : ٩ــ١١) .

ولكن ليس معنى هذا أنه تم في العماد شيء جديد للمسيح في شخصه أو في جسده ، وإنما هو استعلان حقائق .

فقد استعلنت حقيقة هامة وهي بنوة الله الأزلية لحظة انشقاق السماء وقت نزول الروح القدس . ومن الأمور المدهشة حقاً ، تطابق هذا الإستعلان مع استعلان آخر مماثل له عن بنوة المسيح لله ، ردده انسان أممي روماني الجنس بإلهام فائق عند تمزيق الجسد على الصليب وتسليم الروح « فصرخ يسوع بصوت عظيم **وأسلم الروح ، وانشق حجاب الهيكل إلى اثنين من فوق إلى أسفل** ، ولما رأى قائد المئة الواقف مقابله أنه صرخ هكذا **وأسلم الروح** قال : **حقاً كان هذا الإنسان ابن الله !!** » (مر١٥ : ٣٩) .

وليلاحظ القارىء تلازم هذه المواقف الثلاثة « **انشقاق** » حجاب الهيكل ، « تسليم الروح » ، استعلان بنوة المسيح لله ؛ مع انشقاق السماء ، ونزول الروح ، واستعلان بنوة الله بواسطة الآب !

ولكن صوت الله المتكلم من السماء يشير أيضاً إشارة عميقة إلى أنه لم يعد سماع كلمة الله قاصراً على رئيس الكهنة ، أو قاصراً على موضع تابوت العهد في قدس أقداس الهيكل ، أو محصوراً فوق الغطاء المسمى بـ« **كرسي الرحمة** » أو « الشاكيناه » (السكن) حيث كان يسكن الله و يتكلم ، بل صار منذ لحظة انشقاق السماء في العماد يسمع منطلقاً من أعلى السموات « يارب كلمتك دائمة في السموات » (مز١١٩ : ٨٩) ، يُسمع مَشاعاً كما سمعه يوحنا علناً ، ثم سمعه بطرس سراً « أنت هو المسيح ابن الله الحي » (مت١٦ : ١٦) . وقد نبه المسيح بطرس عن مصدر هذا الصوت « إن لحماً ودماً لم يعلن لك بل أبي الذي في السموات » (مت١٦ : ١٧) . ثم تردد صداه على طول المدى في قلب الإنسان حتى سمعه ورردده قائد المئة الأممي الروماني عندما وقف **قبالة الصليب** ــ وكأنه قد وقف **أمام** « **كرسي الرحمة** » **أو غطاء تابوت عهد الله عينه** في قدس أقداس الهيكل ــ والمسيح **كلمة الله فوقه !!**

وهكذا كان تمزيق حجاب الهيكل من فوق (السماء) إلى أسفل (الإنسان) فعلاً إلهياً سرياً انكشف بمقتضاه التابوت ، وتعرى من سريته الطقسية ، مستعلَناً في صليب المسيح ــ (كرسي الرحمة الحقيقي) ــ المدقوق خارج أسوار أورشليم ، حيث

سُمع الله من عليه متكلماً سراً في قلب ذلك القائد الروماني ، مردداً نطق الله الآب حرفاً حرفاً « هذا ابن الله » .

هكذا كان عماد المسيح استعلاناً لا استكمالاً لكمالات المسيح ، حيث عبَّر صوت الله الآب عن منتهى كمال مسرته فيه « أنت ابني الحبيب بك سررت » ، فالسموات المفتوحة على المسيح وهو في مياه الأردن ، مكملاً كل بر مع صوت الآب ، معلناً بنوته الأزلية ومنتهى مسرته فيه ، مع الروح القدس نازلاً ومستقراً عليه ، كانت هذه كلها استعلاناً وتعبيراً مطلقاً عن امتداد طبيعة المسيح وسلطانه في السماء والأرض ! « فإنه **فيه خُلق** الكل ، ما في السموات وما على الأرض ، ما يُرى وما لا يُرى ، سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين ، الكل **به وله** قد خُلق ، الذي **هو قبل كل شيء ، وفيه يقوم الكل** ، وهو رأس **الجسد** الكنيسة » (كو١ : ١٦) .

و يلاحظ هنا أنه لم يقل رأس الكنيسة ، بل رأس **الجسد** الكنيسة ، حيث **الجسد** هنا يشمل كل ما في السموات وما على الأرض ، وهذا يفيد مقدار عظم المصالحة التي أكملها المسيح في نفسه بين السماء والأرض ، بين الخليقة المنظورة وغير المنظورة جميعاً . هنا تبلغ المصالحة التي استُعلنت في الأردن « **بك سررت** » وتمت على الصليب إلى حالة وحدة منسجمة ورائعة **في جسد واحد !!** ليس بين بني الإنسان من كل لسان وأمة وجنس فقط ، بل **ومع كل الخليقة غير المنظورة** « **لأن فيه سُر** أن يحل كل الملء ، وأن يصالح به الكل لنفسه عاملاً الصلح بدم صليبه ، بواسطته ، سواء كان ما على الأرض **أم ما في السموات** » (كو١ : ١٩) .

و يأتي سفر الرؤيا ليعطي شهادة واقعية منظورة عن هذا الشمول الهائل الذي احتواه المسيح في جسده بسيادته المطلقة على كل الخليقة ، فيصف سفر الرؤيا الخليقة بأكملها في السماء والأرض وما تحت الأرض والبحر وكل ما فيه وهي تخر وتسجد أمامه وتعطيه وحده استحقاق المجد والكرامة إلى أبد الآبدين لأنه هو وحده الذي فك ختوم السفر المغلق ، سفر الفداء الشامل لعهد المصالحة العظمى الذي أكمله بدمه على الصليب ، مصالحاً الكل لله ، السمائيين مع الأرضيين ، جامعاً الكل تحت قيادته

وسلطانه ، وهذا يكشف بدوره عن سر إعلان الله الآب وقت العماد عن **منتهى مسرته في المسيح !!** « بك سررت » .

فسرور الآب هو صدى المصالحة التي أجراها المسيح بين الخليقة كلها و بين الآب ، والتي بدأها بالعماد وأكملها بالصليب .

لذلك لا نجد خليقة ما في السماء أو في الأرض مستقلة لا تخضع لسلطان المسيح وملكوته « قد دُفع لي كل سلطان في السماء وعلى الأرض » (مت٢٨ : ١٨) . وهذا ما سبق وأنبأ به دانيال بمقتضى رؤياه « كنت أرى في رؤى الليل وإذا **مع سحب السماء** مثل ابن إنسان ، أتى وجاء إلى قديم الأيام فقربوه قدامه ، فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة ، **سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض** » (دا٧ : ١٤) .

معنى انفتاح السموات بالنسبة لحياتنا :

معلوم أن السموات انغلقت في وجه الإنسان منذ آدم بسبب الخطيئة ، حيث انغلاق السموات هنا ليس مجرد عقاب ، وإنما كان نتيجة مباشرة حتمتها الظلمة وانعدام الرؤيا التي أصابت الإنسان ، حيث كان يكتفي من الله بالصراخ في الظلام ، ظلام الرؤيا ، والتوسل إليه وهو رافع عينيه نحوما وراء السماء المغلقة ، يرسل دموعه وصلواته مع البخور الصاعد برجاء أن تصعد صلواته هكذا هناك إلى أعلى ، إلى ما وراء الحجاب ، إلى حيث لا يُرى !..

ولكن في يوم عماد المسيح انتهت دهور الظلمة والسموات المغلقة ، و بدأت دهور الرؤيا والسموات المفتوحة « منذ الآن ترون السموات مفتوحة » (يو١ : ٥١) .

يوحنا رأى هذا عياناً ، بل ورأى الروح القدس نازلاً على المسيح ، عربون انسكابه الأكيد والعتيد أن يأتي على كل بشر — والذي أتى يوم الخمسين بالنور والرؤيا وإعلان السموات المفتوحة .

انفتاح السماء ونزول الروح القدس بهيئة حمامة على جسد المسيح تعبير سري غاية في

الدقة والإحكام ، عن بداية خليقة جديدة من بعد **طوفان !!**

انشقاق السموات هنا قبل نزول الروح القدس يفيد معنى زوال العتيق وقيام الجديد ، إذن فنحن هنا في العماد بصدد **سماوات جديدة** ، أما من جهة الأرض فهوذا الإبن على الأرض العتيقة ، وقف في الأردن يغسل عارها و يرفع خطيئتها و يطهر ماءها . إذن ، فنحن **بصدد أرض جديدة !!**

انظر كيف وقف المسيح يلح على يوحنا المعمدان في إجراء العماد وأن **لا يصده عن « تكميل البر» ؟**

انظر كيف يشير المسيح هنا إلى بدء عصر البر الأبدي وتكميل آية المسيا « سموات جديدة وأرضاً جديدة يسكن فيها البر!! » (٢بط ٣ : ١٣) ، (رؤ٢١ : ١) . وآية المسيا هذه يكملها المسيح بنفسه في الأردن في صميم جسده السري بانتظار تكميل آية المسيا على مستوى الإنسان كله ، حيث كما لبسنا الترابي من آدم وعشنا بالخطيئة ، نلبس السمائي بالمسيح ونعيش بالبر أيضاً ... والمسيح يؤكد زوال العتيق و بقاء الجديد الذي صنعه في نفسه « السماء والأرض تزولان ولكن كلامي (الخليقة الجديدة وعهد البر الأبدي) لا يزول !! » (مت ٢٤ : ٣٥) .

المسيح وقف وسط مياه الأردن كفلك نوح وسط طوفان خطيئة الإنسان ، يصالح في جسده كل غرائز الإنسان المتعارضة وطباعه المستوحشة كما جمع نوح وحوش الأرض وكواسرها معاً ، ثم الروح القدس ينزل على المسيح بهيئة **حمامة** حتى يشد انتباه الإنسان إلى عظم معنى المعمودية التي جازها المسيح ــ (ونحن فيه) كحدث من أخطر وأجل الحوادث التي جازها المسيح من أجل حياتنا ولا يعادلها إلا الصليب ، حيث السماء المفتوحة والحمامة النازلة على المسيح وسط مياه الأردن .

الإشارة واضحة أشد الوضوح أننا بلغنا النجاة والخلاص حتماً في المسيح من داخل مياه الأردن ، حيث شاطىء الأمان ، والأرض الجديدة والسماء الجديدة ، وسلام الله الأبدي ، وخليقة جديدة تحيا وتنمو بالروح القدس متصالحة مع الله في جسم إبنه ، تحيا تحت سماء مفتوحة إلى الأبد ، وفي مسرة الله الآب دائماً « بك سررت » !!

معنى عماد المسيح في حياتنا :

إن آية هذا العيد التي تربطنا بعماد المسيح والتي نطلب من الله ونلح أن يدخلنا بقوتها في مجال سره الكبير هي قول بولس الرسول : « لأننا جميعنا **بروح واحد** أيضاً **اعتمدنا إلى جسد واحد** » (١ كو١٢ : ١٣) !

هذا يعني أننا اعتمدنا بعماد المسيح ، أو كل عماد نجوزه ، فنحن نجوز فيه عماد المسيح ونصير معه **جسداً واحداً** . الإنسان بسبب الخطيئة تفرّق إلى أجساد متعددة بل متفتتة بل منقسمة ، وانقسامها لا يقف عند حد ، فالبشرية تجوز انقساماً متواتراً في كل مجال وفي كل كيان ، أمة على أمة ، وكنيسة على كنيسة ، وأسرة على أسرة ، وأب على ابن ، وزوج على زوجة ، والنفس في عمق كيانها الواحد منقسمة على ذاتها !

هذا الانقسام الداخلي الذي يطفح على كل شكل وكل مظهر هو مرض البشرية العام يبدأ من النفس الواحدة و ينتهي بالبشرية كلها . والخطيئة هي هذا المرض عينه ، بل هي ملامح كل أعراضه وأسبابه ونتائجه !!

المسيح في الأردن غسل عن جسم البشرية هذا الداء العضال ــ الذي لم يتلوث هو به قط ــ رفع نواة هذا الانقسام ومحا كل آثاره وعوارضه ونتائجه ، فانفتحت له السماء وتقبل تهنئة الآب ومسرته ، وحل الروح القدس ليعتمد هذه المصالحة ويختمها .

البشرية دخلت بواسطة عماد المسيح إلى عهد تآلف ، كل من اعتمد لعماد المسيح يدخل في هذا « الجسد » الواحد بسر الروح القدس الواحد . وهكذا في سر المعمودية الفائق في فعله وفي أثره تلتئم البشرية وتلتحم مرة أخرى وتتوحد بسر الجسد الواحد المتصالح بالله « لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد » (١ كو١٢ : ١٣) .

وهكذا تجوز البشرية في عماد المسيح ــ الذي ندخل في صميم سره بواسطة المعمودية ــ عودة إلى وحدة سرية فائقة ، في جسد سري واحد ، متجاوزة مظهرها المؤلم الذي هو بحسب الواقع متفتت ومنقسم ، لأن سر الخطيئة لم يُرفع بعد عن المظهر اللحمي ، وذلك بانتظار فداء الأجساد المزمع أن يتم في مجيء المسيح .

ولن يغيب عن بالنا معنى توقف تيار الأردن وانحسار أمواجه العاتية المميتة عندما وطأته أقدام الكهنة قديماً حاملين تابوت عهد الله ، ليعبر الشعب من خلفهم ، لأن ما تم قديماً على مستوى القصة والرمز يتحقق اليوم في عماد المسيح على مستوى الواقع والحقيقة . فهذا تابوت عهد الله الجديد الحقيقي الذي يحوي ليس وصايا الله مكتوبة ، بل كلمة الله الذاتي حياً متجسداً ، وهو الكاهن الوحيد الذي له الوساطة الفريدة بمقتضى ذبيحة نفسه . هذا نزل إلى الأردن لا كمقدمة يعبر من خلفها شعب بل نزل حاملاً البشرية كلها في جسده يغسلها من نتن الخطيئة و يطهرها بروحه القدوس ، تمهيداً لتقدمتها على الصليب كذبيحة إثم ، ليقيمها حية لا يقوى عليها الموت إلى الأبد .

وهكذا بكل وضوح الرؤيا نرى كيف أكمل المسيح في جسده التوقف الحاسم في انقسام الطبيعة البشرية وتفتيتها الخطير، إذ انحسر عنها مدُّ الخطيئة الخطير . وعوض الخطيئة والموت والتفتت تم أساس تصالح كلي وشامل للبشرية :

(أ) **تصالح جوهري** أكمله المسيح في ذاته ، أكمله في الطبيعة البشرية ذاتها في عمق أعماقها ، لما وحَّدها بطبيعته الإلهية أولاً في تجسده سراً ، ثم استُعلنت في العماد باعتبارها المصالحة العظمى وأساس كل تصالح قائم وسيقوم !! : « أنت ابني الحبيب » .

(ب) **تصالح فردي** ، حيث يقبل المسيح كل إنسان يأتي إليه . وكل من اعتمد للمسيح يلبس المسيح ، فلا يبقى وحده أبداً بل يصير واحداً مع المسيح !! ، وعوض عري الخطيئة التي ورثها الإنسان من آدم فعاش مختبئاً من الله ، يلبس بر المسيح الذي يؤهله لكل اتحاد حتى الكمال وليتراءى أمام الآب بلا مانع ولا خزي ولا لوم ، لأنه يتراءى بصورة المسيح عوض صورته التي أفسدها ، « السر المكتوم منذ الدهور ومنذ الأجيال ، ولكنه الآن قد أُظهر لقديسيه ... الذي هو **المسيح فيكم** رجاء المجد ... لكي نُحضر كل إنسان **كاملاً في المسيح يسوع** » (كو١ : ٢٦و٢٨) .

(جـ) **تصالح جماعي للبشرية** ، لأن الروح الذي نعتمد ونولد به واحد ، والجسد الذي

نعتمد له جسد سري واحد . فالنتيجة الحتمية هي بشرية واحدة متصالحة يجمعها جسد واحد « إلى أن **ننتهي جميعنا** إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله إلى **إنسان كامل** إلى قياس قامة ملء المسيح ... لبنيان جسد المسيح ... الذي منه كل الجسد مركباً معاً ومقترناً بمؤازرة ... لبنيانه في المحبة » (أف ٤ : ١٣، ١٢، ١٦) .

وهكذا ومن وسط مياه الأردن بدأ هذا التصالح المثلث المتدرج الذي أجراه المسيح في الخليقة كلها ، والذي بدأه سراً في ذاته ، وأعلنه في معموديته ، ثم فتح مجاله المجاني بقوة الروح القدس مع كل فرد عندما يجوز المعمودية باسمه ، ثم وضع احتياطاته الضخمة ليشمل البشرية كلها جاعلاً من جسده مستودعاً لهذا الملء ومن قامته الإلهية التي بلا حدود ضميناً لإكتمال هذا الملء !!

نظرة إلى عماد المسيح من قرب :

يوم أن عيَّدنا للميلاد ، أدركنا بسر الروح أن لنا مع المولود في المذود صلة صميمية في هذا الميلاد عينه ، إذ حسبنا أنفسنا من لحمه وعظامه ، فكان الميلاد ميلادنا والمذود مهدنا وبيت لحم مسقط رأسنا ، واكتشفنا مع بدء حياة المسيح على الأرض بدء حياتنا . وهكذا أصبح واضحاً أن « المسيح حياتنا » ، وكان لنا في هذا الإدراك الروحي الرؤيوي فرحة ، إذ حسبنا أنفسنا خليقة جديدة تستمد حياتها ووجودها من حياة المسيح ووجوده يوماً بيوم ، وكان ميلادنا يتجدد كل صباح ، حتى صارت بيت لحم فردوسنا الجديد الذي نتنعم فيه كل يوم !

واليوم نعيِّد لعماد المسيح في الأردن الذي هو بالحقيقة عمادنا السري الذي أخذناه بكل مفاعيله في جرن معموديتنا الصغير، حيث يد يوحنا المعمدان التي وُضعت على رأس « رأس جنسنا » لا يمكن أن تفارق رأسنا حتى نهاية أيامنا ، للتوبة الدائمة ومغفرة الخطايا و بر أبدي مكمَّل كميراث !!

والمياه التي أحاطت بجسده فاكتسبت قوة مناعة ضد الموت ، تحيط بنا كحاجز يمنع موت الخطيئة من أن يتسرب إلى روحنا ، و يتجدد فعله يوماً بيوم ، وكأننا داخل صميم خلاص لا تنتهي ساعاته .

والروح القدس الذي نزل من السماء واستقر مستريحاً على جسده ، لم يفارق هيكلنا منذ ذاك اليوم ، يقدس أولاً بأول ما عسر تقديسه على ماء التطهير ، و يرفع ــ كما بنار ــ ما تبقى من نتانة الموت ، متجاوزاً أعضاء الجسد إلى مفارق النفس والروح ، يحيي و يصالح ما قد فسد .

أما منظر الحمامة الوديعة ، الروح الهادىء ، الذي رفرف على وجه المسيح لبشرى السلام ، فقد انطبع إلى الأبد على وجه جُبلتنا الجديدة ، يذكرنا كل لحظة من أي روح جُبلنا ، و بأي جنس تجنسنا ، وفي أي طبيعة اتحدنا ، حتى لا نرتد إلى قساوة طبيعتنا العتيقة ، أو نتمسك بحطام موار يثنا الأرضية ، أو نغتر بأمجاد دنيانا الزائلة ...

نعم اذكرى هذا يانفسي ، ولا تنسي أنك على أجنحة حمامة محمولة ومحفوظة بين منكبيها ، من جرن المعمودية طارت بك ، من على ضفاف الأردن في رحلتها السعيدة حتى دار السماء موطنها ... وموطنك .

(يناير ١٩٧٤)

الأردن وقانا
ونيقوديموس والميلاد الجديد

إنجيل يوحنا هو إنجيل الحياة الجديدة ، لذلك نجده يبدأ حياة المسيح بعماده في الأردن وظهور الروح القدس ، العنصر الأساسي في الميلاد الثاني ، ثم ينتقل الإنجيل مباشرة إلى معجزة تحويل الماء إلى خمر في حفلة عرس ، إشارة إلى التحوُّل الجوهري المزمع أن يتم في طبيعة الإنسان لتُزَف إلى عريسها السمائي مطهَّرة كعذراء عفيفة ، و بعدها مباشرة يبدأ المسيح يقدم لنيقوديموس تعليمه السرّي الفائق عن ميلاد الإنسان الجديد من الماء والروح .

وحتى التوبة في تعليمه كانت تنصبّ في قالب تجديد الخلقة وليس تهذيبها ، الأمر الذي عبَّر عنه المسيح بوضوح في موضع آخر قائلاً لتلاميذه : « أنتم الذين **تبعتموني في التجديد** » (مت١٩ : ٢٨) ، وكأنما كانت كل كرازة المسيح عملية تجديد خلقة متواصلة ... وفي موضع ثانٍ : « ليس أحد يجعل رقعة من قطعةٍ جديدة على ثوب عتيق ، لأن الملء يأخذ من الثوب فيصير الخرق أردأ ، ولا يجعلون خمراً جديدة في زقاق عتيقة ، لئلا تنشق الزقاق ، فالخمر تنصَبّ والزقاق تتلف ، بل يجعلون خمراً جديدة في زقاقٍ جديدة فتُحفظ جميعاً » (مت٩ : ١٦و١٧) .

فصل إنجيل قداس هذا اليوم[١] من أقوال وتعاليم المسيح النبوية التي يتكلم فيها عن فعل الروح القدس المزمع أن يسكبه على المؤمنين في المعمودية تماماً كما يتكلم عن

---

(١) يوم الجمعة السادسة من الصوم الكبير (السابقة لأحد المولود أعمى ــ أحد التناصير) ، والفصل هو (يو٣ : ١ ــ ١٣) الخاص بحديث المسيح مع نيقوديموس ، وهو اليوم الذي ألقيت فيه هذه العظة عام ١٩٧٤ .

الآلام المزمع أن يكملها ــ ليرتفع إلى فوق من حيث أتى ــ والذي يقابل في الأناجيل الأخرى ما بدأ المسيح يعلِّم به من جهة: «توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات» (مت٤ : ١٧) (من فوق إلى أسفل)، وهذا يعتبر استمراراً للتعليم الذي قدَّمه بقوله: «من الآن ترون **السماء مفتوحة** وملائكة الله **يصعدون و ينزلون** على ابن الإنسان» (يو١ : ٥١)، أي أن المسيح أصبح هو الطريق الملكي النازل والصاعد معاً، أولاً بالنسبة للملائكة لافتتاح الطريق، ثم بعد ذلك لكل بشر!! «أنتم من أسفل ἐκ τῶν κάτω (الهيولي: عالم الظلمة)، أمَّا أنا فمن فوق ἐκ τῶν ἄνω (عالم النور والمعرفة)» (يو٨ : ٢٣).

لذلك فالمعمودية كميلاد **من فوق** تسمى «سر النور أو الأنوار»، **ومعمودية المسيح في الغطاس** تسمى بسر الأنوار، **حيث انفتح العالم العلوي على العالم السفلي**، النور على الظلمة: «نور العالم» أي الآتي من فوق. المعمودية عبور من عالم الظلمة إلى عالم الروح والنور والحياة الأبدية.

المعجزة الأولى والآية الأولى معاً تشيران إلى مجمل عمل المسيح الكلي المزمع أن يعمله للإنسان من جهة تغيير الطبيعة البشرية. في معجزة تحويل الماء خمراً يُظهر المسيح قدرته الإلهية على التجديد بتحويل الطبيعة المخلوقة بسِرٍّ فائق على الطبيعة، وهذا هو «أصل الأسرار»، بصورة عامة وعلنية يدركها كل إنسان بدون أية إشارة أو تعليم. فالماء تحوَّل أمام عيونهم من لون إلى لون، من طعم إلى طعم، من فاعلية إلى فاعلية أخرى، وهو في الحقيقة يُعتبَر كتمهيد عام لمفهوم الكرازة بالملكوت والانتقال من حياة أرضية إلى حياة سماوية بواسطة عمل المسيح السري الفائق للعقل والمنطق، من خلال حياة الفرح والغبطة، ووسط الشعور بالتهليل الذي تمثله حفلة العرس التي وضعها الإنجيل كخلفية رائعة وراء عملية التجديد، حيث يلاحظ القارىء أن رئيس المتكأ يقرر أنها خمر **جيدة**، وهذا تعبير سري عن نوع الحياة الجديدة المزمع التحوُّل إليها.

ثم يعود يشرح تعليمه عن هذا التحول اللازم للإنسان بصورة خصوصية جداً لنيقوديموس: «الحق الحق أقول **لك**»، بصفته مندوباً عن أكبر هيئة تعليمية في

إسرائيل: «إنسانٌ من الفريسيين ... رئيس لليهود» (يو٣ : ١). ولكن لكي ينبهنا الإنجيل أن تعليم المسيح عن الحياة الجديدة الجيدة المتحولة هي ليست في متناول أية معرفة سابقة أو لاحقة للمسيح، يشير بصورة خفية إلى ذلك بقوله: «**أنت معلِّم إسرائيل، ولست تعلم هذا؟**» (يو٣ : ١٠).

«نيقوديموس الذي جاء إليه ليلاً (يو٣ : ٢) ــ حيث الليل يمثل ظلمة المعرفة المعتمة بحسب الناموس ــ وهو واحد منهم» (يو٧ : ٥٠)، جاء في ظلام الليل ليمثِّل إلحاح اليهود بصفة عامة («نحن نعلم» يو٣ : ٢)ــ و بخاصة الهيئة الحاكمة والمتعلمة ــ **على ضرورة مواصلة الناموس لعمله**، أي التبرير بأعمال الناموس كأساس لاسترضاء الله للخلاص واستعادة المُلك لإسرائيل.

هذا واضح من تحديد نيقوديموس لوضع وشخصية المسيح «**كمعلِّم**» (رُابِه **رابي** ــ رابان ــ ربوني) أي مجرد معلم للناموس وإنما بصورة **ممتازة** من الله وحسب، أي لم يستلم الناموس من رابي آخر، وهنا أساس الخطأ الذي وقع فيه نيقوديموس، ومن أجل هذا يقاطعه المسيح بسرعة و بتحديد واضح وقاطع ليرفع ذهن نيقوديموس، و بالتالي كل اليهود، من مستوى برّ الناموس الذي زعموا أنه كفيل أن يورِّثهم الملكوت، إلى الميلاد من الروح أي عملية التجديد الكلي بالروح: «**الحق الحق** أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح **لا يقدر أن يدخل ملكوت الله**» (يو٣ : ٥). (هنا المسيح يرد دائماً على الأفكار وليس على الكلمات ليقود السائل ــ إن كان صادقاً ــ إلى خلاصه)، أن الملكوت الذي جاء ليؤسسه ويعلِّم به ويدعو إليه ــ لا كمعلم بل كصاحب لهذا الملكوت عينه ــ لا يمكن لأحد **أن يراه أو يدخله** بواسطة الناموس أو برّ الناموس. هنا يشبِّه المسيح رؤية الملكوت من بعيد واستحالة الدخول بموسى ــ و بالتالي بالناموس الذي يمثله موسى ــ الذي رأى أرض الميعاد من بعيد ولكنه لم يدخلها، أي أنه لكي تكون لنا أولاً معرفة صحيحة عن الملكوت، ثم إمكانية الرؤيا عن قرب ثم حق الدخول، يلزم أن نولد ليس تحت الناموس بل نولد من فوق من السماء ومن الماء والروح، نولد ثانية ولادة غير ولادة الجسد تحت الناموس.

الميلاد من الماء والروح عبَّر عنه القديس يوحنا بأنه: «**من الله وُلدوا**»، وشرح كيفيته: «كل الذين قبلوه ــ أي قبلوا المسيح النازل من فوق!! ــ أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله» (يو١: ١٢)، حيث تصير للإنسان طبيعة جديدة متحولة، كالماء الذي تحول إلى خمر جديدة جيدة.

ولكي يوضِّح المسيح نوع ومستوى هذه الطبيعة الجديدة الممنوحة بالميلاد الثاني من الماء والروح عبَّر عنها في موضع آخر بقوله: «الحق أقول لكم إن لم **ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد** فلن تدخلوا ملكوت السموات» (رداً على سؤال التلاميذ: من هو أعظم في ملكوت السموات؟ مت١٨: ١ــ٣)، حيث تتناسب العظمة في ملكوت السموات مع درجة التحول والتجديد الذي نحوزه بالروح، حيث تكون الطبيعة في أوج وقمة مجدها كلما تقاربت من شفافية و بساطة وحب الطفولة.

نيقوديموس يعترض بأن مثل هذا التحول أو التغيير في الإنسان مستحيل حسب الظاهر وخصوصاً إذا كان شيخاً! يلاحَظ أن نيقوديموس نفسه كان شيخاً، وكيف يتخلص الإنسان من ماضيه وهو محصلة تاريخ وحوادث وخطايا اتحدت بجسم الإنسان وعقله وغرائزه وطباعه؟ وإذا كان من المستحيل أن يُعاد ميلاد الإنسان جسدياً فكيف يبدأ من جديد؟ كيف يتخلص من ماضيه؟

هنا يضع بولس الرسول المعيار الذي يمكن أن يحكم المنطق الروحي برمّته: «الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة ــ لا بأقوال تعلِّمها حكمة إنسانية بل بما يعلمه الروح القدس قارنين الروحيات بالروحيات» (١كو٢: ١٤و١٣).

والمسيح يرد على نيقوديموس بأن هذا التحول أو التغيير يتم لا في الظاهر ولا حسب الظاهر، ليس في الجسد أصلاً ولا امتداداً لأي صلاح سابق آخر ــ مشيراً بطريق خفي إلى إخفاق الناموس وتوقف امتداده نهائياً في الوضع الجديد ــ ولكنه ميلاد روحي آخر، غير الذي تمَّ تحت الناموس و بعهد الختان في الجسد.

هنا المسيح يشبِّه **الدخول للملكوت** بدخول شعب إسرائيل إلى أرض الموعد بعد أن أماته وأفناه في البرية وأدخل المولودين جدداً عبر طريق برية التيه، أي الذين لم يولدوا في مصر الخطية.

هذا الميلاد الثاني بالروح القدس الذي من فوق يتم للإنسان الآن وهو في صميم الحياة الجسدية، أي لا يحتاج أن يدخل إلى بطن أمه ثانية كما تصوَّر نيقوديموس.

ولأن هذا الميلاد الثاني من الروح هو من فوق من السماء، لذلك يتحتم أن تبدأ المبادرة من فوق، أي لابد من تدخُّل الله وليس عن طريق المعرفة السابقة أو التضلُّع في الناموس: «لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إن لم **يجتذبه الآب**» (يو٦: ٤٤)، أي أن الآب السمائي هو صاحب المبادرة الأولى لجذب مختاريه: «وأنا إن ارتفعتُ عن الأرض **أجذب إليَّ الجميع**» (يو١٢: ٣٢). أي أن المسيح لا يمكن أن يخذل إنساناً يأتي إليه، فهو بارتفاعه امتلك قوة جذب الآب عينها، وبموته عن كل العالم أصبح قادراً أن يجذب **الجميع!!** «دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض» (مت٢٨: ١٨).

والكتاب يعتبر صوت الأنبياء أنه نداء الآب وأنه كان بمثابة جذب من الآب: «الله بعد ما كلَّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة» (عب١: ١). أما جذب الابن، فإنه يكمِّل جذب الآب: «كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه» (عب١: ٢)، أي بواسطة مواهب الروح القدس المتعددة. لذلك أصبح الميلاد من الروح هو خضوع كامل وقبول ختم وصبغة الآب والابن والروح القدس: «عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» (مت٢٨: ١٩).

هذه الصبغة الروحانية التي هي خلق وتصوير وميلاد الإنسان الروحاني الداخلي على صورة خالقه في البر والقداسة والحق، تبدأ في إعطاء الإنسان الجديد حواساً روحانية جديدة يمارس بها الحياة الجديدة و بالتالي يرى الملكوت: «الحق أقول لكم إن من القيام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوة» (مر٩: ١)، والإشارة هنا إلى قوة يوم الخمسين و بدء عصر ملكوت الروح، والرؤيا هنا ليست عينية

مثل «يرى الموت»، «يرى فساداً»، «يرى أياماً صالحة»، ولا على مستوى رؤية موسى لأرض الميعاد من بعيد عند الأفق، أو دخول يشوع مثلاً أرض كنعان ورؤية لبنها وعسلها، ولكنها رؤية قلبية نحو الله بشهادة الروح القدس في الضمير واستعلان دائم لمشيئة الله لمسيرة محققة وواثقة نحو الوطن السمائي.

لذلك، فإنه بالرغم من أن هذا الميلاد يتم داخلياً وبقوة سرية غير منظورة، لا نعلم من أين أو كيف أتت ولا إلى أين تذهب وتنتهي، بحسب قياس منطق معرفتنا الأرضية، إلا أن نتائج هذا الميلاد الجديد الروحي **تصبح ظاهرة وواضحة لكل إنسان على مستوى الحياة الأرضية والسلوك البشري اليومي.**

غير أن هذه الظواهر التي تحدث في الميلاد الجديد ستظل وإلى الأبد تفتقر إلى تصديق الناس والإيمان بها والثقة بمصدرها الذي أتت وتأتى منه، أي السماء مباشرة: «الحق الحق أقول لك إننا إنما **نتكلم بما نعلم، ونشهد بما رأينا، ولستم تقبلون شهادتنا** (عدم إيمان)، إن كنتُ **قلتُ لكم** (بصيغة المفرد لأنها تخص المسيح وحده) الأرضيات (العمل الروحي والسلوك الروحي اليومي على مستوى الجسد مثل ظواهر الميلاد الجديد) ولستم تؤمنون، فكيف تؤمنون إن قلت لكم السماويات؟ (أي إذا بدأت أشرح لكم أسرار ملكوت السموات؟)» (يو٣: ١١و١٢).

ولكن لم تُعدم أسرار ملكوت الله ممن شهد لها فيما بعد بكل وضوح وقوة بعد أن تعرَّف على شرحها:

+ «الحياة الأبدية التي كانت عند الآب **وأُظهرت** لنا (في جسد المسيح)» (١يو١: ٢).

+ «وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح (بالروح القدس في المعمودية!!!)» (١يو١: ٣).

وهكذا يضع المسيح أمام نيقوديموس أساساً آخر تماماً للرؤيا وللدخول في الملكوت الجديد السمائي الذي تمثله الكنيسة، الذي أتى مختلفاً اختلافاً كلياً عن أساس

الدخول إلى مملكة اليهود الأرضية، التي لم تكن تزيد عن الختانة في الجسد وحفظ الناموس!! أما الدخول إلى ملكوت الله أو الكنيسة التي أصبحت تمثل ملكوت الله على الأرض فإنه يحتاج إلى تجديد خلقة وميلاد ثانٍ بإجراءٍ سري داخلي يتم بقوة روحية سمائية، له مظهر خارجي وهو الماء، ولكن يتم فيه عمل فائق عن المادة بالروح القدس، يتم فيه ميلاد جديد من الله للإنسان، به يصبح الإنسان مولوداً من الله، مواطناً سمائياً، إنساناً روحياً، خليقة جديدة!!

وفي هذا الميلاد الجديد من الله يحصل الإنسان على بر الله المجاني كهبة تفوق بلا قياس البر الذي من الناموس (الذي كان يؤهِّل اليهودي أن يكون ابناً لإبراهيم أي مواطناً إسرائيلياً وارثاً لبركة إبراهيم ولأرض تفيض لبناً وعسلاً). أما بر الله هذا فهو عربون المجد الذي بمقتضاه نرث مع المسيح في ملكوت الله.

هذا الفارق الشاسع بين بر الناموس وبر المسيح بالميلاد الجديد في المعمودية أعلنه المسيح بوضوح في عظة الجبل: «**إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين** (بصفتهم كاملين في بر الناموس وأعضاء رسميين ممتازين في مملكة إسرائيل) **فلن تدخلوا ملكوت السموات**» (مت٥: ٢٠). **وكيف يزداد هذا البر، علماً بأن الكتبة والفريسيين هم قمة مَنْ أكمل البر الذي في الناموس، إلا بإضافة برَّ الله؟**

هنا نلمح في عماد المسيح صورة لهذا البر المتكامل، بر الناموس وبر الله معاً في قول المسيح: «اسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمِّل ,, كل برٍّ،،» (مت٣: ١٥). لذلك، فالمسيح أعطى البشرية بمعموديته في الأردن من يد يوحنا آخر الأنبياء **براً متكاملاً كفيلاً أن يورِّثها برَّ الماضي** كله فنصير أبناءً لإبراهيم ولو لم يَرَنا إبراهيم، وورثة له في كل مواعيد الله **وفي برِّ الناموس**، ولو لم نعيِّد للهلال والسبت ورؤوس الشهور والأهلَّة ونغتسل ونرهق أجسادنا بنوافل العبادة، ومضافاً إليها جميعها **البر الذي من الروح القدس** الموهوب من المسيح بمحبة الآب، والذي استُعلن عياناً بانفتاح السماء ونزول الروح القدس بهيئة منظورة وصوت مسموع.

وينبغي أن ننتبه جداً إلى أن معمودية يوحنا لم تزد عن كونها للتوبة ومغفرة الخطايا فقط، أي للتبرير وإنما بمقتضى شرائع الناموس: «**أنا أعمدكم بماءٍ للتوبة**، ولكن الذي يأتي بعدي... **هو سيعمدكم بالروح القدس ونار**» (مت٣: ١١)، وهذا تعبير عن الانتقال من عهد التطهير بالماء للجسد إلى عهد التطهير بنار الروح القدس للروح، لذلك لما رفض الفريسيون والناموسيون معمودية يوحنا للتوبة؛ امتنعت عنهم معمودية الروح القدس والنار واعتُبروا بمثابة من رفض برَّ الله: «وأما الفريسيون والناموسيون **فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه**» (لو٧: ٣٠)، لذلك لم يستطيعوا أن يدخلوا ملكوت الله!! لأنهم رفضوا تطهير التوبة واحتقروا مغفرة الخطايا، وهي الأمور التي تليق بالأطفال! أما هم فعلماء وحكماء وأرباب اليهود!

ولكن الميلاد الجديد الذي من فوق الذي رسمه المسيح فهو معمودية مزدوجة **من الماء والروح معاً**، حيث الماء للتطهير بالتوبة ومغفرة الخطايا بالنسبة للحياة على الأرض، أي موت ودفن مع المسيح؛ والروح لميلاد الإنسان الجديد للتأهيل لحياة السماء، أي قيامة وحياة أبدية، بحيث أصبح من المستحيل في العهد الجديد فصل عمل الماء عن عمل الروح القدس في المعمودية **لتكميل الميلاد الجديد** لدخول ملكوت السموات وميراث الحياة الأبدية: «لا بأعمالٍ في برٍّ عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلَّصنا **بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس** الذي سكبه بغنى علينا بيسوع المسيح مخلصنا، **حتى إذا تبررنا بنعمته نصير ورثة** حسب رجاء الحياة الأبدية» (تي٣: ٥-٧). لاحظ هنا أن الغسل بالماء وصفه بأنه **غسل الميلاد الثاني**، هنا معمودية الماء للتوبة ومغفرة الخطايا أصبحت جزءاً أساسياً لا يتجزأ في عملية **الميلاد الثاني**.

وهكذا يصبح الميلاد الثاني حصيلة تشمل حتماً و بالضرورة:

أولاً: العمل الخارجي للإنسان جسدياً، أي غسل الماء بالكلمة، وهذا يهيىء الإنسان لسلوك جسدي على مستوى روحي، وهذا بحد ذاته عبارة عن عملية تقديس: «كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها لكي **يقدسها مطهّراً إياها**

بغسل الماء بالكلمة لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك، بل تكون مقدسة و بلا عيب» (أف٥: ٢٥-٢٧).

ثانياً: العمل الداخلي: وهو روحي صرف، وهو عبارة عن استلام حياة جديدة من الروح القدس بواسطة المسيح: «**الذي سكبه بغنى علينا بيسوع المسيح مخلصنا**» (تي٣: ٦).

والعملان معاً: الخارجي والداخلي، أصبحا هما المعمودية التي هي سر الكنيسة الأول «**سر الانضمام**» الذي يؤهِّل للاتحاد بجسد المسيح و بالتالي لميراث الحياة الأبدية.

لذلك، فإن ما قدمه المسيح لنيقوديموس من تعاليم عن الميلاد من فوق على مستوى نبوي وحسب، قد تمَّ تحقيقه في الكنيسة فعلاً ولكن بعد أن أكمل المسيح كل متطلباته: الموت والقيامة على مستوى الخليقة الجديدة أو الميلاد الحقيقي: «الذي حسب رحمته الكثيرة **ولدنا ثانية لرجاءٍ حي بقيامة يسوع المسيح من الأموات**» (١بط١: ٣).

لأنه بموت المسيح كفارةً عن خطايانا تم التطهير الكلي بالنعمة، و بقيامته انسكبت الحياة الأبدية ـــ التي فيه ـــ علينا بغنى بواسطة الروح القدس. وهكذا، فإنه بموته تمَّ تطهيرنا، و بقيامته انسكبت حياته ـــ التي فيه ـــ علينا، ولذلك صارت المعمودية بالماء التي نجوزها مع المسيح والتي تمثل موت المسيح ودفنه ثم قيامته بقوة الروح القدس تعتبر تطهيراً وتجديداً لحياة أبدية وشركة في جسد المسيح!!

وعندما ننادي أو يُنادَى علينا في المعمودية:

+ باسم الآب، ننال شركة في حياة الآب ويجتذبنا لابنه.

+ ثم باسم الابن، ننال شركة في موته وحياة ويجتذبنا لاتحادٍ وثبوتٍ فيه.

+ ثم باسم الروح القدس، ننال شركة في الروح لنمو دائم في الحياة الأبدية مع الله.

(١٩٧٤)

« برّ الإتضاع »

« اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر» (مت٣: ١٥)

اعتماداً على ما قلناه في عيد الميلاد من جهة احتياجنا الشديد أن ننتقل دائماً من الإيمان بالخبر إلى الإيمان بالخبرة(٥)، ثم كيف استطعنا في تلك الليلة أن نرى في « قامة طفولة المسيح » فرصة جديدة بل قوة جديدة نستلهم منها تجديداً بل شفاءً لكبرياء قامتنا الروحية التي شاخت وقاحت جراحاتها، وكيف انفتح أمامنا في عيد الميلاد بابٌ لحياة شركة جديدة مع المسيح في قامة طفولته تعدُّنا للدخول إلى الملكوت حسب شرط الرب: « إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات » (مت١٨: ٣).

أما اليوم يا أحبائي، ونحن نعيّد لعماد الرب في الأردن، نرى أمامنا تكميلاً لنفس الخبرة التي بدأناها في الميلاد. فالمسيح هنا، وهو رجل يافع ابن الثلاثين، يتقدم بروح طفولة مذهل للعقل، تحت يد يوحنا ليقبل العماد من إنسان!

فإن كان المسيح بعبوره على قامة الطفولة قد قدّم للبشرية منفذاً بل مصدراً فعّالاً يستمد منه الإنسان قوة وإلهاماً ليحل به مشكلته العظمى « أيهما أكبر»، التي لم ينجُ منها أحد، حتى التلاميذ أنفسهم، حينما سجل لنا القديس لوقا هذا المشهد الحزين « وكانت بينهم أيضاً مشاجرة، من منهم يظن أنه يكون أكبر»، فقال لهم: « بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر، والمتقدم كالخادم. لأن من هو الأكبر؟ الذي يتكىء أم الذي يخدم؟ أليس الذي يتكىء؟ ولكني أنا بينكم كالذي يخدم » (لو٢٢: ٢٤ــ٢٧).

---

(٥) انظر مقال: « الإيمان بالخبر والإيمان بالخبرة »، ص ١٩٣ من هذا الكتاب.

أما هنا في العماد فيقدم لنا المسيح في « إحناء رأسه تحت يد يوحنا » حلاً لمشكلة أعمق وأخطر، وهي « أيهما أبرُّ». نقول إن هذه مشكلة أعمق وأخطر من مشكلة « أيهما أكبر»، لأن « أيهما أكبر» مشكلة تتعلق بالظاهر، وقد يتنازل عنها الإنسان ويقدم أخاه على نفسه أمام الناس، ليُرى وكأنه هو أكثر اتضاعاً أو أكثر براً، ولكن المصيبة كل المصيبة، والخطر كل الخطر في مشكلة « أيهما أبرُّ». فالإنسان في قلبه يزكي نفسه دائماً، فهي مشكلة تتعلق بالداخل، وعسير على الإنسان أن يزكي برَّ غيره.

في عماد المسيح نرى القضية معكوسة بصورة صارخة، فالمسيح وهو الأبرُّ يتقدم إلى يوحنا وهو العادم من كل برٍّ (أي الألوهة)، و باتضاع وإحناء الرأس يُلحّ على يوحنا « أن يسمح » و يتم العماد.

انتبهوا هنا يا أحبائي، لأنه حينما يقول المسيح « اسمح الآن لنكمل كل برٍّ»، فالمسيح هنا لا « يقبل » البر من يوحنا بل « يكمّل » كل بر ليوحنا ولكل البشرية.

المسيح هنا ولو أنه يظهر وكأنه يتقبل لنفسه مسحة العماد كبرٍّ، إلا أنه في الحقيقة يصنع بعماده كل بر، لا لنفسه بل لكل إنسان آخر يقتدي به.

المسيح هنا من خلال عماده يضيف لرصيد البشرية براً، برَّ خضوع الأكبر للأصغر، المسيح هنا يُدخل على العنصر البشري إمكانية كانت مستحيلة سابقاً، وهي إمكانية خضوع البار لمن هو أقل براً، حيث من خلال هذا الخضوع نشأ برٌّ جديد أدخله المسيح إلى عالم كبرياء الإنسان، وقد اعتبره المسيح « كل برٍّ».

اليوم يقدم لنا المسيح أعظم دواء لأعظم داء، فبإحناء رأسه تحت يد يوحنا متقبلاً منه مسحة العماد، يسلمنا « روح الخضوع » أو بمعنى أكثر قوة وفاعلية، يقدم لنا « سر الخضوع » الذي يحوي « كمال كل برّ».

شعب إسرائيل كانت صفته الأساسية في عين الله أنه شعب « غليظ » الرقبة

« صلبُ » الرقبة ؛ تجاه مَنْ ؟ تجاه الله نفسه . شعب إسرائيل لم يُحنِ رأسه قط تحت يد الله ، ولم يكن شعب إسرائيل في ذلك أخير من بقية شعوب الأرض ، المسيح جاء ليشفي صلابة وغِلَظ رقبة شعب إسرائيل والإنسان كله .

وهنا وهو ينحني بسهولة وإذعان ورضى كثير تحت يد يوحنا يسلمنا دواءً إلهياً ، ندهن به رقابنا لتُشفى من وجع الإنتفاخ ونتقبل سرّ « كل البر » .

هذا هو الدهن الخفي ، دهن المسحة الإلهي السري الذي إذا استخدمناه يعيد إلى رقابنا ليونة الطفولة ، فننحني دائماً و بسهولة سعياً وراء كل بر !!

ونلاحظ ياأحبائي أن المسيح قدم نفسه ليوحنا كمن هو محتاج أن يعتمد . هذا نلمحه بوضوح من قول يوحنا له : « أنا محتاج أن اعتمد منك وأنت تأتى إليَّ ؟ » أي وأنت تأتى إليَّ كمن هو المحتاج !!

الحقيقة أن المسيح ليس في حاجة قط لا للعماد ولا لأي شيء ولا لأي بر ، ولكن المسيح حينما تقدم للعماد كمحتاج حانياً رأسه بخضوع وإذعان ، إنما يعلن لنا سراً من أسرار تكميل البر ؛ وهو أن الإنسان حينما يتقدم إلى فعل الإتضاع والخضوع ، عليه أن يتقدم كمحتاج فعلاً وليس كمتفضل !! المسيح يكشف و يعلن و يعمل ليس ما هو لائق له ، بل ما هو لائق بنا ، ما هو لائق لخلاصنا وتكميل البر في حياتنا .

ولكن لا أزال ياأحبائي أشعر بأني لم أُوفي معنى إحناء المسيح رأسه ليوحنا !!

فهذا العمل الذي عمله المسيح على نهر الأردن ، مبكت لضمائرنا جداً . وأكاد أقول إن المسيح بعمله هذا قد فضح كبرياءنا في هذا المساء ، وكشف مقدار بُعدنا عن « البِر الحقيقي » ومفهومه وعمله ، إنه بالكاد و بصعوبة بالغة يستطيع الخادم أو الكاهن أن يخضع برأسه و يتقبل البركة من يد مساوية لها في الكرامة . ولكن الذي عمله المسيح يفوق كل عقل ومنطق ، إذ لم يجد أية غضاضة أن يُحنى رأسه الإلهي تحت يد بشرية ليتقبل منها المسحة !

لقد أسس المسيح بهذا الخضوع الفائق على المنطق الكهنوتى براً يفوق في حجمه وفعله وحرارته كل بر آخر !! لقد ارتأى المسيح أن يسجل هنا على الأردن وفي بدء خدمته الجهارية الأساس المكين والإنطلاقة العظمى التي تقوم عليها الخدمة الناجحة « مسحة الرأس المنحنية » .

والذي يحقق صدق هذا الكلام و يؤكده ، ما صنعه المسيح بنفس القوة وعلى نفس المستوى ليلة تأسيس سر العشاء ، حينما انحنى بجملته وجلس على الأرض ليغسل أرجل تلاميذه... وكأنما إحناء الرأس والخضوع المنسحق هو المدخل الرسمي لكل سر إلهي سواء سر العماد أو سر الإفخارستيا !

والأمر يبدو خطيراً حقاً ، حينما نتذكر قول المسيح لبطرس لما أراد أن يستعفي من غسل رجليه مستكبراً على نفسه أن يقف هو كسيد والمسيح أمامه كعبد وخادم . فانتهره الرب : « إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب » (يو١٣ : ٨) ، ونفس الشيء يحدث في العماد حينما أراد يوحنا أن يستعفي من مهمة وضع يديه على رأس المسيح وتعميده بالماء فابتدره الرب : « إسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل برّ » (مت٣ : ١٥) . تصميم المسيح هنا بتأكيد وإلحاح على ضرورة وحتمية وقوفه موقف الأقل والأصغر سواء من يوحنا أو من بطرس والتلاميذ ، يكشف لنا عن مدى أهمية وخطورة ممارسة سر الإتضاع والخضوع في الخدمة والكهنوت والحياة المسيحية عامة كمدخل أساسي للبر! « لأني أعطيتكم مثالاً حتى كما صنعت أنا بكم ، تصنعون أنتم أيضاً ؛ إن علمتم هذا فطوباكم إن عملتموه » (يو١٣ : ١٥—١٧) .

والحقيقة التي لا ينبغي أن تغيب عن بالنا (نحن الرهبان) قط ، هي أن المسيح هنا يقلب الأوضاع قلباً عنيفاً لنستيقظ !

المسيح هنا يشجب مفهوم « القضاء » البشري و يقلبه من أساسه بل و يشجب كل منطق « الدفاع » و يسخر منه بشدة ، فلم يَعُد حقاً لنا أن نطالب « بكرامة » من هو الأعظم والأكبر بعدما انحنى المسيح تحت يد يوحنا . فكرامتنا هي في تنازلنا بتصميم وإلحاح عن كل كرامة لمن هو أحقر وأصغر . ولم يَعُد لنا أن ندافع عن رئاسة أو أقدمية

أو أولوية ، فمقدار تصاغرنا تحت أرجل الجماعة هو الذي يثبت برّنا ورئاستنا ، وعلى قدر تنازلنا عن كفاءتنا على قدر ما يتزكى عملنا .

إرتضاء يوحنا المعمدان أن يقوم بتعميد المسيح هو أيضاً عمل طاعة وخضوع بشبه مريم العذراء ، حينما اختارها الله لتحمل المسيح فارتضت بتواضع وخجل شديدين .

طاعة وخضوع يوحنا المعمدان لأمر الرب وقيامه بالتعميد ، سهّل على المسيح أن يمارس من داخل طقس سر العماد سر الإنحناء وسر الإتضاع المذهل الذي أسماه « سر تكميل البر» .

وهنا في الأردن ــ كما حدث عند غسل الأرجل ــ يمارس السيد خضوعه كعبد تحت يد يوحنا ، وذلك ليزيل العار عن الإنسان الذي رفض الخضوع تحت يد الله .

□

ومرة أخرى نقف على مدى تأثر السماء بأعمال الرب يسوع الإتضاعية ، فعند ميلاد المسيح في مذود المغارة ، انفتحت السماء وظهر الملاك وجمهور جند السماء يبشرون بالخلاص العظيم ويمجدون الله ، وهنا في الأردن يحدث نفس الشيء فالسماء تنفتح ، ويظهر الروح القدس علانية ، و يأتي صوت الآب نفسه معلناً عن هوية هذا المنحني تحت يد يوحنا : « هذا هو إبني الحبيب الذي به سررت » .

وهكذا بقدر ما يكون الإتضاع من جانب الإنسان على الأرض ؛ يكون الإستعلان والتمجيد من جانب الله والملائكة في السماء .

كذلك نلاحظ أن الروح القدس يحل على المسيح المنحني بهيئة حمامة ، هنا ظهور الروح القدس ليس كلسان نار مثل يوم الخمسين ، ولا كيدٍ ثقيلة على الرأس كما حدث لأنبياء العهد القديم ، لأن الروح القدس يختار الهيئة التي يظهر بها على قياس حالة من سيحل عليه ، لذلك اختار الروح أن يظهر بهيئة الحمامة الوديعة ، ليعلن عن حالة قلب يسوع ومدى وداعته وحبه واتضاعه .

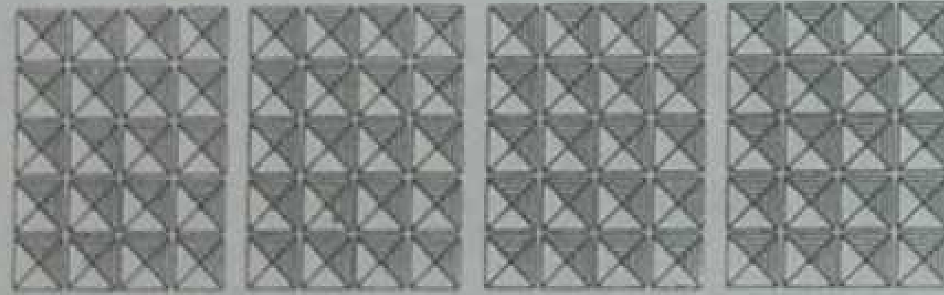
ما أحوجنا اليوم إلى وداعة قلب يسوع هذا وهو بحالة انحنائة تحت يد يوحنا ببساطة وخضوع وتسليم حتى يحل علينا الروح القدس بهيئة حمامة ليزيدنا قرباً من يسوع الأردن ، و يوحّد قلوبنا معاً بقلب هذا الوديع المتواضع !!

في الميلاد أخذنا وداعة الطفولة كقامة نحيا بها مدى الدهر لنؤهَّل بها للدخول إلى ملكوت السموات ؛ أما في الأردن فنأخذ من المسيح قامة إحناء الرأس لنؤهل لرفقة الروح القدس بوداعة كرسالة نحيا بها بين الناس .

فكما حثَّنا المسيح أن نعود لنكون أطفالاً دائماً لندخل ملكوت السموات ، عاد وحثَّنا أيضاً أن نكون ودعاء كالحمام كمسحة لازمة للخدمة والسلوك بين الناس .

والمسيح هو هو مستعد دائماً أن يعطينا من قامة بيت لحم روح وداعة الطفولة ومن قامة الأردن روح وداعة الحمام لنؤهَّل من الخارج والداخل لبلوغ ملء قامة المسيح !!

(يناير ١٩٧٦)



عيد الغطاس
رؤية وشهادة

يوحنا المعمدان لم يكن يعرف المسيح ، مع أنه سمع عنه كثيراً ، وقد راجع بتؤدة في عزلته الطويلة في البرية كل ما قاله الأنبياء عن المسيا ، ولكن لم تسعفه تقشفاته الشديدة أو المعرفة الشخصية والقراءة للتعرف على ابن الله من بين الناس ، ولكنها مهدت لذلك تمهيداً مكيناً !!

لقد حاول كثيراً و بطرق وجهود ذاتية عديدة أن يختزل الزمن ليتعرف على المسيا ، الذي من أجله وُلد وأخذ رسالة ليعلنه و يعد الطريق أمامه ، ولكن كان الصوت يدعوه للتريث حتى يبلغ الزمن ساعة الصفر ليبدأ ملكوت الله .

و بينا يوحنا يصلي وهوفي حيرته كيف يتعرف على المسيا الذي سيكرز به و يُظهره لإسرائيل ؟ سمع صوت الله يرن في أذنيه : اذهب إلى بيت عبرة عبر الأردن وهناك إكرز وعمد بالماء للتوبة ، لأنه من خلال المعمودية سيظهر المسيح لإسرائيل . فكل من يأتى إليك عمده ، ولكن الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه في وقت العماد ، فهذا هو الذي سيعمد بالروح القدس !!

« وأنا لم أكن أعرفه ولكن ليُظهر لإسرائيل ، لذلك جئت أعمد بالماء ... وأنا لم أكن أعرفه ، لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه ، فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس » (يو ١ : ٣١ـــ٣٣)

ترك يوحنا عزلته الطويلة في البراري وترك معها كل الوسائل الشخصية التي جاهد أن يكتشف بها المسيا ، وانطلق يكرز و يعمد ، بكل غيرة وحماس ، مئات وألوف ؛ وفي

قلبه لهفة أشد ما تكون اللهفة أن يرى العلامة ، فكان يترقب رؤية الروح القدس في كل لحظة ، وهو نازل من السماء ليعلن المسيا . وكان قلبه يخفق بشدة ، لعل يكون أيّ آتٍ إليه هو المسيا !!

هذه الصورة المبدعة التي يرسمها إنجيل يوحنا لبدء خدمة المعمدان وظهور المسيا تحمل في الواقع أسراراً عميقة ، فالإنجيل ينبه ذهننا بشدة :

أولاً : أن ظهور المسيح في ذاته واستعلانه عموماً يستحيل أن يتم بالإجتهاد أو الترقب ، إنما يتم فقط بتدبير الله من خلال معمودية الماء للتوبة « **ولكن ليُظهر لإسرائيل ، لذلك جئت أعمد بالماء** » ، حيث التركيز في معمودية الماء يقع على التوبة « واعتمدوا منه في الأردن معترفين بخطاياهم » (مت ٣ : ٦) .

ثانياً : أن معرفة المسيح شخصياً يستحيل أن تتم إلا بتوسط الروح القدس !! الروح لم يره أحد وهو نازل من السماء غير يوحنا المعمدان ، الرؤية هنا خاصة ، انفتاح ذهني لإدراك مالا يُدرَك واستعلان شخص المخلص والفادي « وأنا لم أكن أعرفه ... ولكن الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو... » .

لأنه إن كنا حقاً نعيش الغطاس ونعيِّد للغطاس ، أي نعيِّد للظهور الإلهي ، أي ظهور الإبن بالآب والروح القدس معاً ، ونعيِّد ليوحنا الرائي والشاهد والمعمِّد ، فيتحتم أن يكون عندنا يقين هذا الإستعلان ، أي المعرفة بابن الله ، المعرفة القائمة على يقين الرؤيا والشهادة ، أي بالروح القدس والآب ! أو كما يقول إشعياء النبي : « عيناً لعين » !! واصفاً ذلك اليوم يوم استعلان المسيح للإنسان إن على الأردن (الغطاس) أو في جرن المعمودية (الإيمان بالمسيح) ، هكذا : « صوت مراقبيك ، يرفعون صوتهم يترنمون معاً لأنهم يبصرون عيناً لعين عند رجوع الرب إلى صهيون » !! (إش ٥٢ : ٨) .

« أنا رأيت وشهدت أن هذا هو إبن الله » :

هذه أقوى شهادة سمعتها البشرية من نحو المسيح ، لاحظ أن المسيح لم يكن قد بدأ

بعد خدمته الجهارية وإجراء آياته ومعجزاته ، بل لم يبدأ بعد في الإعلان عن نفسه وعن علاقته بالآب ، بل لاحظ أن يوحنا لم يكن يعرف شيئاً عن الصليب والقيامة !!

فإن كانت شهادة يوحنا بلغت هذا اليقين ، وهو لم يتعرف بعد على سر الخلاص بذبيحة الصليب وسر التبرير بالقيامة ، فكم ينبغي أن يكون يقين شهادتنا نحن وقد أدركنا هذا كله ؟

ولكن ما هو إذن سر عجز شهادتنا وضمور معرفتنا للمسيح ؟
أليس واضحاً كل الوضوح من حوادث عيد الغطاس ، أن ذلك بسبب عدم انتباهنا لدور الروح القدس في فتح الذهن لكشف أسرار الله أمام المعرفة لإدراك حقيقة المسيح لبلوغ يقين الشهادة ؟؟

ولكن لا يزال إنجيل عيد الغطاس يحتجز سراً هاماً وخطيراً في هذا الأمر. فالله اشترط على يوحنا المعمدان أن المسيح سيظل مجهولاً عنده ، إلى أن يرى الروح نازلاً ومستقراً عليه !! هنا دور الروح القدس ليس مجرد علامة تشير إلى المسيح بل وسيط معرفة ، وسيط انفتاح ذهن ، الروح القدس أعطى ذهن يوحنا المعمدان قدرة رؤيوية عالية جداً ، أعلى من درجة النبوة التي عاش بها في البراري . لقد سمع المعمدان مراراً كثيرة صوت الله في قلبه من جهة حياته ورسالته التي جاء ليتممها أمام وجه الرب « الذي أرسلني لأعمد بالماء ، ذاك قال لي » . ولكن لم تنفتح عينا ذهنه لمعرفة من هو المسيح ــ مع أنه قريبه بالجسد ــ إلا بنزول الروح القدس !!

يقين الرؤيا :

إن رؤية الأشياء والأشخاص والتعرف عليهم عن قرب ، يؤدي إلى يقينية عقلية ، فالعين والأذن مع بقية الحواس توصلان إلى المخ صورة متكاملة عن الشيء أو عن الشخص يفهمها العقل ، ويختزنها ، ويحولها إلى معرفة وإدراك بيقين عقلي هو أشد ما يملكه الإنسان من مفهوم اليقينية !!

ولكن هناك يقينية أخرى موهوبة للإنسان أعمق جداً ، وهي أعظم تأثيراً وأكثر شمولاً لمواهب الإنسان وكيانه ، ينفتح عليها الإنسان كموهبة إلهامية باطنية في القلب ، يدرك بها كل شيء وكل الناس وكل الخليقة ، فوق إدراكات العقل والحواس وأعمق بما لا يُقاس ، يدرك ما فيها وما لها من حقيقة ومدى ارتباطها السري بالله وبنفسه وكل الكون المنظور وغير المنظور .

هذه الموهبة الفائقة على العقل والحواس هي عطية من الله مغروسة في صميم طبيعة الإنسان ، وقد يحوزها الحكماء والفلاسفة حتى غير المتدينين وغير المؤمنين بالمسيح .

هذه الموهبة أُعطي أن يوجهها الروح القدس ويستخدمها في كشف أسرار الله نفسه والتعرف عليه !! « الروح يفحص كل شيء (في قلب الإنسان ووعيه الروحي) حتى أعماق الله !! » (١ كو ٢ : ١٠) .

فإذا حل الروح القدس في إنسان أو انسكب في ذهنه وأناره ، كما استنير ذهن يوحنا المعمدان ، يعمل في الحال بهذه الموهبة الفائقة التي في طبيعة الإنسان ، فينفتح الذهن على أسرار الله ، وبالتالي على المسيح بصفته الوسيط الوحيد بين الله والناس ، والحامل همَّ البشرية والضامن لخلاصها وتجديدها ورفعها إلى حضن الآب .

وما قاله يوحنا المعمدان بعد هذه الرؤيا مباشرة على المسيح مشيراً إليه : « هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم » (يو ١ : ٢٩) ، وكأنه يرى مستقبل الخلاص كله والصليب والذبح والموت والقيامة في ومضة خاطفة ؛ هذا يوضح مدى انفتاح الذهن ساعة حلول الروح القدس ، ومدى قدرة الروح القدس في الإنطلاق ببصيرة الإنسان لرؤية فائقة شاملة لكل سر الله لمستقبل خلاصنا !! هذه هي يقينية الرؤيا في حضرة الروح القدس وبتوسطه ، التي لا يقف عند حد حتى أعماق الله ، لا يحجزها حاجز لا من الزمان ولا من عجز الإنسان !!

وبهذا تكون خبرة البشرية بيقينية الرؤيا الممتدة في الله ، وكل مستقبل الخلاص التي نالتها في يوم عماد المسيح حيث انفتحت البصيرة الإنسانية ــ ممثلة في يوحنا

المعمدان ــ ساعة حلول الروح القدس على المسيح وقت العماد لتكشف أعماق سر الخلاص المكتوم : « هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم » (يو١ : ٢٩) ، وتتقابل وجهاً لوجه ، بل « عيناً لعين » ــ كما يقول إشعياء ــ مع الله الآتي إلينا في المسيح وتشهد له في جرأة : « هذا هو إبن الله » ؛ هذه الخبرة التي نالتها البشرية وهي على عتبة العهد الجديد تُعتبر من أثمن ذخائر الكنيسة التي نالتها بحلول الروح القدس على المسيح ، فأعطت سر العماد أهميته الفائقة كباب حي فعال دخلت منه البشرية في سر الله ، حيث رأت خلاصها رؤيا اليقين والشهادة حتى وقبل أن يبدأ أو يتم !!

ومن هنا صار عيد الغطاس يحمل لنا أول حركة حية من الروح القدس في صميم جسم الكنيسة ، أول رعشة أصابت العظام الميتة أصابت يوحنا المعمدان ، فانتقلت كخبرة للكنيسة كلها ولا تزال ، حيث انتقلت في الحال من يقينية الرؤيا إلى يقينية الحركة ، لأن كل رؤية يقينية بالروح القدس هي معرفة للحق ، وأما كل شهادة يقينية فهي حركة بالحق !! والإثنان فعلان صميميان من أفعال الروح القدس !! « الروح القدس يرشدكم إلى جميع الحق » ، « الروح القدس يشهد لي » (يو١٥ : ٢٦) .

أي أن استعلان المسيح **العام** يتم بالمعمودية ، بالإعتراف بالخطايا والتوبة « ولكن **ليُظهر لإسرائيل** لذلك جئت **أعمد بالماء** » .

أما استعلان المسيح **الخاص** ، أي معرفته معرفة شخصية ، فهذا يتم بالروح القدس .

يوحنا لم يعتمد بالروح القدس ، ولكنه أخذ من رؤية الروح القدس وهو نازل ومستقر على المسيح تعميداً ذهنياً تعرَّف به في الحال على الرب ، ومع الرؤية الذهنية كانت الرؤية السمعية ، لقد انفتحت أذن يوحنا لسماع صوت الله نفسه . يشهد لإبنه معلناً ليوحنا أعظم سر أدركته البشرية ، سر علاقة الآب بالإبن وعلاقة الحب بينهما ، العلاقة التي كانت مخفية عن إدراك كل بني الإنسان واستعلنت أول ما استعلنت ليوحنا ، لبدء الكرازة .

« وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السموات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه ، وكان صوت من السموات **أنت إبني الحبيب الذي به سررت** » (مر١ : ١٠ ــ ١١) .

هنا يكشف الإنجيل عن كيف تعرف المعمدان ليس فقط على المسيا ، بل على من هو المسيا : **أنت إبني الحبيب !!** لذلك يعلن يوحنا المعمدان : « وأنا قد رأيت وشهدت أن **هذا هو ابن الله** » (يو١ : ٣٤) .

إعلان يوحنا هذا الذي سلمه للبشرية بالإنجيل نقله إلينا كشهادة عيان وسلمه لنا كمن رأى وسمع ، رأى الروح رؤيا العين ، وسمع صوت الله سماع الأذن ، بيقين روحي أعمق ألف مرة من اليقين الحسي لهذا **شهد** ، وشهد بيقين **الرؤيا** « وأنا رأيت وشهدت » .

هذا هو عيد أول رؤيا للروح القدس !

وهو عيد أول شهادة إنسان للمسيح تمت بالروح القدس ، أنه إبن الله .

والروح القدس بنزوله من السماء مهد في الحال في قلب يوحنا لسماع صوت الآب بوضوح .

شهادة المعمدان للمسيح تمت بالروح القدس والآب .

عيد الغطاس هو في حقيقته عيد الشهادة للمسيح ، بالنسبة للكنيسة و بالنسبة لكل نفس تسعى لإدراك المسيح « أنا لم أكن أعرفه » .

« أنا لم أكن أعرفه » :

هذه حال يوحنا المعمدان الذي دُعي نبياً للعلي من بطن أمه ، وتعين أن يتقدم أمام وجه الرب ليعد طرقه بل و يعطي شعبه معرفة الخلاص بمغفرة الخطايا . بينما ظل هو في أشد الشوق لمعرفته ، وهذه في الحقيقة حالنا ، دعينا للخلاص والكرازة بالخلاص بل والشهادة للمسيح ابن الله ، ولا نزال في أشد الحاجة إلى معرفته . وإن كنا نشهد

فشهادتنا بالكلمة ينقصها يقين المعرفة : « وأنا رأيت وشهدت » !! وكأنما نعيش قبل عيد الغطاس !

يقين الشهادة :

كانت شهوة المعمدان أن يتعرف على المسيح ، ولكن بمجرد حصوله على « معرفة المسيح » انطلق يشهد له في الحال أمام الكهنة واللاويين « وأنا **رأيت وشهدت** أن هذا هو ابن الله » ، « هذا هو الذي قلت عنه يأتي بعدي رجل صار قدامي ... الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه ... الذي يعمد بالروح القدس » (يو١ : ٣٠، ٢٧، ٣٣) .

هنا يوحنا يلغي نفسه تماماً ، فالذي يحل سيور الحذاء في البيت اليهودي هو العبد المشترى !! ثم إن كان المسيح الذي ينادى به هو الذي سيعمد بالروح القدس ، فيوحنا بهذه الشهادة يصفي عمله ورسالته ، بل و ينهي على كل خدمته ، وهو يؤكد ذلك بنفسه « ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص » (يو٣ : ٣٠) .

هذا إن كانت المعرفة من الروح القدس حقاً ، لأن عمل الروح الأساسي هو الشهادة للمسيح ... لذلك فإن معرفة المسيح إن كانت بالروح القدس فهي طاقة حركة لا يمكن أن تنحبس ، بل لابد أن تُستعلن كالنور وتنتقل من إنسان لإنسان : « اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها » (مر١٦ : ١٥) .

شخص المسيح ، عن قرب ، جذاب للغاية ، معرفته تأسر القلب ، وتسبي الروح ، وبحلول الروح القدس تصبح حضرة المسيح مالئة لكل كيان الإنسان ؛ لأن الروح يأخذ ما للمسيح و يعطينا ، فلا يعود الإنسان يشعر بحاجة إلى ذاته أو أن يكون له كيان منفصل أو عمل أو وجود أو أمل ذاتي « **ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص** » . هنا تفريغ وملء . معرفة المسيح تفرغنا من ذواتنا وتملأنا بالمسيح نفسه بالحق ، بالحياة ، بالقيامة ، بالسلام الفائق للعقل . هذا يضطلع به الروح القدس حتى يمتلىء الإنسان بكل ملء الله ، كما يقول الكتاب (أف٣ : ١٩) . وفي موضع آخر يقول : « ومن ملئه

نحن جميعاً أخذنا ، ونعمة فوق نعمة » (يو١ : ١٦) ، « وأنتم مملوؤون فيه » (كو٢ : ١٠) .

هذا التفريغ من الذات والملء بالمسيح هو الذي يخرج الإنسان عن كيانه وعن مكانه ، فيطلقه ليبشر بلا حدود و بلا قيود ، حتى إلى الموت ، يبشر ويشهد بما رأى « وأنا رأيت وشهدت » .

يستحيل على إنسان تعرَّف على المسيح حقاً وذاق ونظر طيب الرب ، أن يسكت أو أن يستطيع أحد أن يكتم صوته . المسيح عبَّر عنها أنها « مناداة من على السطوح » (مت١٠ : ٢٧) ، والمعمدان عرف ذلك وكان يمارسه « أنا صوتُ صارخ في البرية » (مر١ : ٣) !! لأن التعبير عن مقدار الأثر والتأثر الذي يتغلغل كيان الإنسان الذي انفتح ذهنه بالروح القدس على المسيح ، لا يمكن أن تشرحه كلمات بسهولة . الكلام مهما كان بليغاً ورصيناً يظل عاجزاً عن تصوير عذوبة ومحبة وعمق شخص ابن الله .

تأثير السيرة على الشهادة :

ولكن الشهادة للمسيح تبلغ حد يقينيتها الأعلى ، عندما تزكيها سيرة الإنسان نفسه . إن شهادة المسيح ليوحنا المعمدان توضح سر نجاح المعمدان الفائق الوصف في التعرف على المسيح والشهادة له وسط ظلام الأجيال وعمى الرؤساء والحكماء : « ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا ؟ أقصبة تحركها الريح (ثبات مبادىء يوحنا) ؟ لكن ماذا خرجتم لتنظروا ؟ إنساناً لابساً ثياباً ناعمة ؟ هوذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في قصور الملوك (خشونة حياة يوحنا وتقشفه ونسكه في البراري) . لكن ماذا خرجتم لتنظروا ؟ أنبياً ؟ نعم أقول لكم وأفضل من نبي ! (روح وسيرة يوحنا المعمدان فاقت مستوى جميع الآباء والأنبياء) الحق الحق أقول لكم أنه لم يقم من بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان (الوحيد الذي امتلأ بالروح القدس وهو في بطن أمه !) » (مت١١ : ٧-٩ و١١) ، وهذا رد ضمني على الذين يعترضون على قيمة المعمودية في الطفولية .

والسؤال هنا هو هل ألغى العهد الجديد عظمة يوحنا وتكريم المسيح له بهذه الشهادة المفرحة جداً لنفوسنا ؟؟

في الحقيقة ما كتبه الإنجيليون عن يوحنا يمكن تلخيصه في كلمتين : نصرة بالروح ، وقوة بالروح ، وطاعة بلا لوم ، وهذه هي العلامة السرية لكل ممتلىء بالروح القدس !!

إن حياة يوحنا الداخلية وسيرته طابقت متطلبات الشهادة للمسيح تطابقاً فائق الدقة والوصف ، لذلك جاءت شهادته بيقين فائق شهد لها الإنجيل !! « **يوحنا شهد له** » (**يو١ : ١٥**) .

إن الشهادة للمسيح ، لكي ترتفع إلى درجة اليقينية كيقينية شهادة المعمدان تحتاج إلى متطلبات عميقة داخلية مقدسة يستحيل استيفاؤها إلا بالملء من الروح القدس !!

هذا هو يوحنا المعمدان والمسيح المنحني تحت يده ، وهذا هو عيد الغطاس الأول بأعماقه وجذوره الضاربة في أساس الكنيسة وميراثها من جهة الشهادة للمسيح عن رؤيا واستعلان وامتلاء بالروح : « وأنا رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله » .

رؤيتنا وشهادتنا :

والآن نقلة ختامية من الأردن و يوحنا والمسيح المنحني تحت يد المعمدان إلى واقعنا الكنسي والفردي : أين عيد الغطاس منا ؟ ما هي رؤيتنا ؟ وما هي شهادتنا ؟

نحن لا نتكلم عن الرؤى والأحلام ، لأن الحكم فيها وعليها من أصعب الأمور بسبب عوامل التزييف الذي يقوم به اللاشعور في تصوير المناظر والأحلام حسب هوى الذات المريضة ، هذا بالإضافة إلى عدم نفعها لا بالكثير ولا بالقليل من حيث تغيير السلوك . ولكننا نتكلم من جهة رؤيا القلب في يقين الوعي والإرادة ، أي النظر الروحي الواعي والدائم للتعرف على شخص المسيح كمخلِّص وكفادي ، في تأمل ، في صلاة ، في مناجاة ، في حب لا تشوبه المنافع الشخصية ، أو التنافس ، أو الحسد والغرور ، أو طلب المجد والمديح والظهور .

ثم هل سماؤنا مفتوحة ؟ أو بمعنى آخر هل حصولنا على العون الإلهي من الأعالي هو طلبنا الأول والأخير وهو إلحاحنا الذي ننام فيه ونستيقظ به ؟؟ « رفعت عيني إلى الجبال من حيث يأتي عوني ، معونتي من عند الرب الذي صنع السماء والأرض » (مز١٢٠ : ١، ٢) .

إن كان هذا رجاؤنا وإلحاحنا وشوقنا وقلقنا ، فالروح القدس يسبق ويمهد و يعد القلوب والرؤوس ، لأنه لا ينسكب إلا على الرؤوس المنحنية والقلوب التي برَّح بها الحنين ، رؤساء ومرؤوسين ، فيفك العقول والقلوب من أسر الذات ، و يطلق الألسنة من سجن الخطيئة ، يطلقها بالتسبيح والتهليل والشهادة للمسيح بملء الفم والقلب وصحو العقل واليقين وقوة لا تعانَد ، والعلامة دائماً أبداً أن « المساكين يبشَّرون » (لو٧ : ٢٢) !!

وإن السماء التي انفتحت لعين المعمدان وقلبه ، وسماع صوت الآب ، ورؤية الروح القدس نازلاً ، بنوع من الإستثناء الذي تجاوز كل خبرات الماضي بكل أمجادها ، قد صار هذا لنا حقاً مشروعاً وميراثاً دائماً ، ضمنه المسيح بوعد ثابت لا يمكن الرجوع فيه : « **من الآن ترون السماء مفتوحة** » (يو١ : ٥١) وهذا هو تحقيقها : « ها أنا أنظر السموات مفتوحة وابن الإنسان قائماً عن يمين الله » (أع٧ : ٥٦) ولماذا كان لنا نحن أيضاً هذا الوعد الذي تحقق لاسطفانوس الشهيد بالعيان ، ولماذا هذا الإمتياز الفائق بهذه الرؤيا الدائمة : « **من الآن** » ، إلا لكي نرى ما رأى يوحنا فتدخل شهادتنا منطقة اليقين !

« وأنا رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله » !!

(فبراير ١٩٧٧)

الإبيفانيا

لنا في كل عيد غطاس تأمل وعظة وعبرة وحياة ، في عماد المسيح في الماء ونزول الروح عليه في هيئة مجسَّمة كحمامة .

تكلمنا وأفَضْنا جداً الكلام في دقائق الأمور الخاصة بالجوانب اللاهوتية والروحية ، ولكن في هذا المساء نحاول أن نغطي هذا الموضوع بفكرة كبيرة على مساحة إنسانية وإلهية عريضة تبدأ من سفر التكوين وتنتهي عند جرن المعمودية .

أبدأ كلامي من سفر التكوين (١ : ١ — ٣) :

« في البدء خلق الله السموات والأرض . وكانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر **ظلمة** (لاحظوا هنا كلمة « ظلمة » مرادفة لكلمة « خربة وخالية ») **وروح الله يرفُّ على وجه المياه** . وقال الله ليكن نور» .

هنا يبدأ تأملنا ، وندخل في الحال في عمق الموضوع : هنا أمامنا الآن عناصر الخليقة الروحانية « من الماء والروح » .

نرجع للقديس يوحنا الرسول : « إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله » (يو٣ : ٥) . إذن ، هنا وعلى الأرض بدأ باب مفتوح للدخول إلى ملكوت الله .

هذا كله قبل كل خليقة مادية ، وقبل خلقة الإنسان الترابي نفسه ، بل وقبل سقوطه وموته . هكذا وضع الله في المشورة العظمى الإلهية ، ليس عودة الإنسان وحسب ، بل وخلقته الأخرى التي ستؤهله للدخول في مُلك الله !

« **اختارنا في المسيح قبل تأسيس العالم** لنكون قديسين و بلا لوم قدامه في المحبة » (أف١ : ٤) .

هنا في الحقيقة شمول رؤ يا يلزم أن يعيش فيها الإنسان المسيحي . فالله لا يتدرج في فكره أو يساير الإنسان في مراحله و يعدّل و يبدّل في مشوراته على حسب واقع الإنسان ، كما قد يبدو أحياناً حسب قصر النظر الروحي ؛ ولكن الله هو هو أمس واليوم وإلى الأبد ، كامل ، وكماله ينسحب على فكره وعلى إرادته وعلى كل أعماله بالنسبة لكل إنسان منذ آدم حتى آخر إنسان يولد على الأرض . الإنسان يقوم و يسقط ، ولكن الله هو الله ، عالٍ وفوق كل عالٍ ، في قيام الإنسان وسقوطه .

والذي يسترعي إنتباهنا هنا جداً — أو كما يقولون — بالدرجة الأولى ، أن خلقة الإنسان الروحية كانت معدَّة للإنسان قبل خلقته الجسدية بل وقبل سقوطه ، أليس هذا عجباً حقاً ؟؟ « الذي خلَّصنا ودعانا دعوة مقدسة لا بمقتضى أعمالنا بل بمقتضى القصد والنعمة التي أُعطيت لنا في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية ، وإنما أُظهرت الآن بظهور مخلصنا يسوع المسيح الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل » (٢تى ١ : ٩و١٠) .

أقف هنا لحظة معكم ، فليس مثل هذا الكلام الروحي مقبولاً في هذا العالم بالدرجة التي نقبلها نحن الآن ، نحن الذين قبلنا وآمنّا ووُلدنا حقاً من الماء والروح أعود بكم إلى بعض أفكار غير المولودين من الماء والروح ، فلنسمع لقول بعض الفلاسفة العظام الذين أضجرهم موضوع الخلق ومصير الإنسان :

فمثلاً نسمع من إمام الوجودية المعارضة وهو « هيدجر » ، وطبعاً يتكلم في غيبة كاملة عن الإيمان بالله ، فيقول : **إن الوجود الإنساني هو استسلام الفكر بأن الإنسان كائن قُذف به في العالم** .

ثم يعود و يقول : **إن الإنسان موجود يموت . وهذا هو منتهى المأساة الفكرية** .

ثم إذ يسألونه : أليس هذا عجزاً واستسلاماً ؟ يقول : **لا ، بل يلزم أن نقبل الموت والنهاية بشجاعة** ... سراب وخراب !!

ثم لا أر يد أن أستفيض معكم بما يقوله الفلاسفة الآخرون المعاصرون مثل « چان

بول سارتر » ، الذي يجعل مضمون الإنسان أنه « **موجود ناقص يعطي لنفسه الكمال** » ، أو كما يقول أيضاً : « إن الإنسان يجهد ليمنح نفسه وجوداً مطلقاً يخلو من النقص » .

الحقيقة والتاريخ كله ينفي ذلك . وفي الحقيقة سارتر هنا يترجم ، دون أن يدري ، خطية آدم ، ويمتد بها ويصرُّ عليها حرفياً ، إن آدم يريد أن يصير كالله !!

ولكن نعود الآن نحن المولودين من الماء والروح ، الذين كنا ليس ناقصين فحسب ، بل وكنا عدماً بالخطية ، كنا أمواتاً بالذنوب والخطايا فأحيانا الله مع المسيح ، وصرنا حائزين على وجودنا الأبدي في الله !!

نعود إلى تأملنا في روح الله وهو يرف على وجه الماء والأرض خربة وخالية . عجيبة هنا عناصر الخليقة الروحانية ، ولكن بدون أي كائن حي !! لماذا ؟ لأن عناصر الخليقة الروحية هنا هي بدون (إخصاب) — لو صحَّ اللفظ — أي بدون كلمة الله .

فإذا نحن استطعنا أن نختزل الأزمنة من بداية سفر التكوين — أي خلقة الإنسان من التراب — ثم أزمنة العصيان ، ثم السقوط ، ثم الموت ، ثم الطرد ، ونأتي سريعاً بحسب مضمون موضوع عيدنا « الإبيفانيا » ، أي نزول المسيح إلى الأردن في مثل هذا اليوم ؛ **نرى أن عنصر الإخصاب بدأ يعمل عمله في الحال بين روح الله والماء .**

هنا دخلت « كلمة الله » الحية الفعالة — اللوغس — ابن الله ، الأقنوم الثاني ، بين الماء والروح ، ليبدأ الله للإنسان ، الخليقة الجديدة بواسطة المسيح ، لتكون على شبه المسيح ومثاله . وهنا المسيح خالقٌ ، وكرأس للبشرية الروحانية ، وأبٌ مُخصب ، « يأتي بأبناء كثيرين إلى المجد » (عب ٢ : ١٠) .

معمودية يوحنا :

كذلك وعبر اللمحة السريعة التي أريد أن أغطي بها هذا الموضوع المتسع ، لا أريد أن أعبر بسهولة على معمودية يوحنا ، التي قيل عنها أنها **بالماء** فقط للتوبة . هنا في

الحقيقة ، الروح القدس غائب ، ولا يوجد إلا عنصر التطهير القديم ، **الماء ، الذي يدخل كعنصر مناسب لتطهير الخليقة الترابية العتيقة لإعدادها ، مع الاعتراف بالخطايا والذنوب لقبول الخلقة الروحانية الجديدة بوسيط آخر — أي بعنصر تطهيري فائق آخر غير الماء . عنصر تطهير روحي فائق ، هو ناري في حقيقة طبعه ، وهو الروح القدس !!** حتى يبدد ما في الخليقة العتيقة من موت وفساد وخطية وهلاك ، ويجعلها في حالة من الطُهر الإلهي — إذا صح هذا التعبير — لتقبل الخليقةُ السرية بواسطة الماء والروح ، عنصرَ الإخصاب « **الكلمة** » اللوغس ، لتولد لله على شكل المسيح و بالمسيح من الماء والروح .

إذن ، ما هي المحصِّلة التي بلغناها الآن إزاء ، أو في موازاة محصِّلة مارتن هيدجر الفيلسوف الوجودي الرافض ؟

إنها محصلة عكسية ، فهيدجر يقول إن الإنسان كائن قُذف به في الوجود ليموت .

انتبهوا جداً هنا . بحسب سفر التكوين وبحسب الإبيفانيا والروح القدس والمسيح ، وجدنا أن **الإنسان كائن وُجد ليحيا** . وما الموت الذي لزم أن يجوزه إلا إعداداً لحياة بلا موت ، فالأمر الإلهي بالخلود سبق السقوط والعقاب !! وملكوت الله مُعدٌّ للإنسان قبل أن يُخلق الإنسان : « تعالوا يا مباركي أبي رثوا **الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم** » (مت ٢٥ : ٣٤) .

إن هذه المحصلة أو الحقيقة في مفهوم العماد هي — بحد ذاتها — ليست عنصراً مائياً منعشاً ومحيياً فقط ، بل عنصر رجاء ، لا يجب ولا يمكن هدمه بأية فلسفة كانت ، لأنها حقيقة نحياها وليس نتمناها ، فالحياة الأبدية تسري فينا منذ الآن ، والملكوت نعيشه بالروح .

السماء انشقت :

وإذا عدنا إلى موضوع عماد المسيح في الأردن الذي فيه اعتبرنا أن مجرد نزول المسيح في الماء وحلول الروح القدس يحوي تكامل العناصر الفعالة للخلقة الروحانية ،

الماء والروح والكلمة ، حيث هنا المسيح خالق ورأس الخليقة الجديدة ، أقول نلمح ظاهرة مؤكدة لهذه الحقيقة تصل إلى حد العجب ، إذ أنه بمجرد أن تم نزول المسيح في الأردن ، **انشقت السماء** . ما هذه الدلالة ؟

هذه ظاهرة عجيبة حقاً ، لأننا نسمع المقابل لها تماماً عند حادثة تكميل موت المسيح الكفاري على الصليب من أجل العالم ، إذ نستمع أيضاً أن **انشقّ حجاب الهيكل الذي كان يفصل حضرة الله عن وجود الناس ، حتى الأطهار منهم ــ أي الكهنة ــ أي قدس الأقداس ، يفصل الله عن القدس . وهذا يعني أن الله رفع بنفسه الحجاب المتوسط بينه وبين الإنسان بموت المسيح !! وصار العالم كله مصالَحاً مع الآب بموت إبنه عن خطية العالم كله !!**

هنا في الأردن ، بعماد المسيح نجد السماء نفسها تنشق ، وتتكشف الحضرة الدائمة لله تعبيراً عن التحام جديد وعجيب بين الله والإنسان ، وليس بين السمائيين والأرضيين فقط ، **وذلك في شخص المسيح !! « هذا هو إبني الحبيب** الذي به سررت » (مت ٣ : ١٧) .

إذن فهنا دلالة قاطعة على رفع الحجاب الأبدي والكوني الذي يحجز الآب في السماء عن الإنسان ، أي إنسان اعتمد في يسوع المسيح . وكأنما الطريق من الأرض إلى السماء قد انفتح بانشقاق السماء ، في وجه الأرض . وما نزول الروح القدس في الحقيقة إلا بمثابة الجناحين الجديدين الإلهيين ، جناحي الحب الإلهي ليسوع المسيح ، اللذين أُعطيا للإنسان الجديد المولود من الماء والروح ليطير ويحلّق بهما في سماء الله في حرية البنين .

كذلك فإنه بمجرد أن التحمت عناصر الخليقة الروحانية الفائقة ، الماء والروح والكلمة ، على أرض الشقاء ؛ انفتحت السماء ، إعلاناً أن الوطن السمائي الذي تأسس للإنسان قد صار حقيقة مُشاهَدة ننتظرها ونرجوها ؛ بل ونسمع صوتاً من السماء يعلن عن هذه المعاهدة الجديدة التي تمت في هذه اللحظات ، إذ سلّم الآب إبنه للعالم

ليصالح الجميع و يأتي بهم إليه !!

ظهور الروح القدس بهيئة منظورة مجسَّمة كحمامة :

كذلك تدخل هذه الدلالة دخولاً مباشراً وعميقاً في مفهوم الخليقة الروحانية الجديدة التي أكملها المسيح لنا في هذا السر المذهل الذي ظهر فيه كخالق للخليقة الروحانية الإنسانية ، وكرأس مخصب لأبناء جدد لله الآب ــ لأن ظهور الحمامة نرى المقابل له في أيام الطوفان ، عندما كان الماء هو عنصر الموت ، لأنه لم يكن يخلو من روح الله . فكانت النقمة تلازمه ، وغضب الله فيه ، فكان الماء للموت والهلاك ، وظهور الحمامة في آخر لحظات هذه الخبرة المؤلمة في تاريخ البشرية كانت بشارة برفع الغضب الإلهي وبدء رضى الله ، عندما عادت وفي فمها غصن زيتون أنبتته الأرض بعد انحسار لعنة الهلاك عنها .

هنا في المقابل نرى الروح ينزل من السماء على هيئة مجسمة كحمامة ، وذلك عن قصد . فهذه الهيئة لا تعبِّر إطلاقاً عن شكل الروح القدس أو صورته ، فنحن رأينا الروح القدس يوم الخمسين على هيئة نار أيضاً .

إذن ، فظهور الروح القدس بهذه الهيئة ــ أي كحمامة ــ كان تعبيراً إلهياً عن أن الماء هنا يحوي عنصر الحياة الإلهية ، وذلك يتناسب مع عملية الخلق الروحاني الجديد الذي انفتح مجاله للإنسان . وكأنما كان كل زمان البشرية السابق من آدم حتى المسيح هو طوفان مستمر ؛ ثم بقبول الكلمة المتجسد النزولَ إلى الماء و بتقبُّله الروح القدس ليكون رأس الخليقة الجديدة ، بدأت حياة الإنسان حقاً مع الله وإلى الأبد .

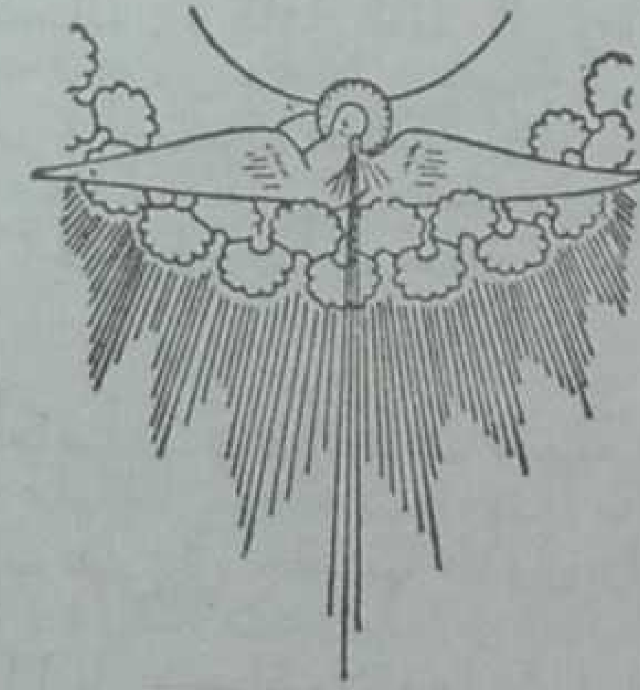
هنا يتضح مرة أخرى أمامنا ــ ونحن بصدد فلسفة الوجوديين الملحدين ــ أن الحياة التي أعطاها الله للإنسان هي في حقيقتها الأولى والأخيرة حياة لحياة . والمسيح لن يكون حياةً لموت فيما بعد !! بل وحياة يلازمها نشيد إلهي رائع ، في صمت يحكي عنه الروح القدس وهو نازل من السماء كحمامة ، وصوت الله بالسرور ؛ هذا النشيد الصامت تعرف القلوب المؤمنة وحدها أن تترجمه . فهو حياة جديدة مفعمة بالسلام !!

للقلوب الوديعة !! التي نالت وتنال كل يوم قوة هذا الميلاد عينه من فوق من الماء والروح ، مع نور الكلمة ، ورضى الآب في السماء !!

وهكذا بنزول **المسيح** في الأردن وحلول **الروح القدس** عليه وإعلان صوت **الآب** في السماء ، هذا المعبَّر عنه كنسياً بعيد الإبيفانيا ، أي ظهور الآب والإبن والروح القدس ؛ بكل هذا صار ، في الحقيقة ، تدشينُ أول معمودية على الأرض باسم الثالوث ، كبدءٍ فعال لا ينتهي ولن ينتهي إلا بانتهاء الزمان ، من جهة ميلاد الإنسان ميلاداً جديداً من الله ، روحياً من فوق ، من السماء لحياة أبدية .

وهكذا صارت أرض الشوك والشقاء واللعنة ، الأرض العاقر التي كانت تسق الإنسان الألم حتى الموت ، والتي كانت تلد الإنسان لتميته فعلاً ، وتتركه للأيام لتكفنه بخطاياه ، وتدفنه الأيدي الحزينة كل يوم في أعماق لعنتها ، صارت هذه الأرض عينها بميلاد المسيح الكلمة ابن الله متجسداً ثم نزوله في الأردن معتمداً والروح القدس حالاً عليه ، أقول صارت هذه الأرض من داخل الكنيسة ومن داخل جرن معموديتها ، بطناً جديدة سماوية تنسل أبناء لله جداً ، لسلام وحياةٍ لا تزول .

(يناير ١٩٧٨)



« في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه »

(يو ١ : ٢٦)

خيمة لا تُفك ولا تُطوى

لم يكن نطق يوحنا بهذه الكلمة « **أنا أعمدكم بماء ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه الذي لست بمستحق أن أحلّ سيور حذائه** » (يو ١ : ٢٦ ، ٢٧) ، **إلا إشارة بليغة أنه قد جاء ملء الزمان . وها هو الله قد حقق وعده الذي تكلم به على فم أنبيائه منذ القدم ، أنه يأتي ويحل « يخيّم » بنفسه وسط شعبه .**

لقد كان افتخار شعب إسرائيل على مدى تاريخ حياتهم أن الله حلّ مرة في خيمة الخروج في برية التيه : « وأسكن في وسط بني اسرائيل وأكون لهم إلهاً » (مز ٢٩ : ٤٥) ، بصوت ونور في ضباب ودخان ، ولكنه للأسف كان حلولاً عابراً . فلا الخيمة دامت ولا الإقامة استقامت . ولكن كان هذا التنازل مجرد مقدمة ورمز لإقامته وحلوله حلولاً شخصياً ودائماً ، في خيمة من جسدنا من لحمنا وعظامنا ، لا تُفك ، ولا تحلها يد إنسان أو يطوها زمان !!

لقد رأى يوحنا ونادى بتحقيق الوعد « في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه » !!

مسرة الله :

حقاً لقد كانت مسرة الله التي أخفاها في أعماق قلبه ، بل وكانت أمنيته العظمى من نحو البشرية أن يسكن في وسطها !! وقد تكلم عن ذلك بوضوح وتكرار أيام أن وضع الله مع موسى طقوس وشرائع الهيكل والكهنوت والخدمة والترائي أمام الله بالعبادة ، فرأى موسى شبه الآتي من السماء ، ونَطق بفم الله « وأجعل مسكني في وسطكم ، وأسير بينكم وأكون لكم إلهاً وتكونون لي شعباً » (لا ٢٦ : ١١ ، ١٢) .

تعطل مسرة الله :

ولكن تعطلت أمنية الله بسبب جهالة الشعب وعناد الرؤساء أزمنة طويلة مملة ، أنست الإنسان هذا الوعد بالحضور والسكنى ، وأوقفت مسرة الله عن تحقيق وعده ، فانغلقت أحشاؤه دهوراً طويلة .

ولكن هاهوذا يوحنا المعمدان يفاجىء الشعب بتحقيق الوعد بلا مقدمات ، وبعد أن أطبقت الظلمة على النبي والرائي والكاهن واللاوي ، فالعيون مبصرة ولا تبصر ، والآذان سامعة ولا تسمع ، والقلوب تحجرت ولا تريد أن تلين . في وسط هذا اليأس المطبق جاء يوحنا ينادي بالرؤيا : « في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه » .

لم يكن الله متباطئاً في تحقيق الوعد ، ولا كان أبداً غير عابىء بمرارة الأيام وهي تسير متباطئة كئيبة على بني الإنسان الذي كان يترجى خلاصه ، وخاصة الأتقياء الذين كانوا ينتظرون فداء إسرائيل ! فكم من مرة وعد الله أنه على أتم الإستعداد لهذا الظهور والسكنى ، لو حاد الإنسان عن شره وقبِلَ أحكام الله ووصاياه !! وهوذا سليمان إبن داود يسجل لنا وعد الله هذا « وكان كلام الرب إلى سليمان قائلاً : هذا البيت الذي أنت بانيه ، إن سلكت في فرائضي وعملت أحكامي وحفظت كل وصاياي للسلوك بها ، فإني ... أسكن في وسط بني اسرائيل » (١مل٦ : ١١، ١٢) .

ولكن ياحزني على سليمان الحكيم الذي أغوته قلوب النساء ، فضَلَّ وأضلَّ الشعب وأغضب العلي . وعوض الله العظيم عَبَدَ المال والجمال ، وبخَّر للحجر والشجر على الجبال وعلى كل مرتفع وعال لكي يغيظ الله . والسماء ترى وتسجِّل !

وهكذا تعطل مراراً الوعد بمجيء العلي وارتخت قلوب المترجين ظهوره في وسط الشعب ، وعمَّت الظلمة وكلَّت عيون الرائين واضمحلت البصيرة وانعدمت القدرة على المعرفة . لذلك لما نادى يوحنا المعمدان بمجيء رجاء إسرائيل ، بل رجاء الدهور والشعوب كلها ، نور الأمم ومجد إسرائيل ، وأسفاه ! لم يجد من يعرف ... « في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه » ...

ظلام المعرفة :

ياحسرة الإنسان بهذا الحرمان ، و ياحيرة الله من ذلك الإنسان ، لأنه لما كانت الرؤية مباشرة والآباء والأنبياء على وعي و بصيرة بالآتي في ملء الأيام ، تعطل الظهور بسبب ضلالة الشعب ، وهبوط مستوى التقديس . ولما تخطى الله حواجز العجز والضلال وأتى مغلوباً من حبه وحنانه وحلّ بيننا متجسداً ، لم يجد من يعرفه ... « في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه » !!

ياخيبة أنبياء إسرائيل في ذلك الزمان ، و ياعمى المُعتدِّين بالمعرفة من الحاخامات والمُدَّعين بالعلم والبصيرة من الربيين « في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه » ، « أأنت معلم اسرائيل ولا تعرف هذا ؟؟ » .

ولكني أجسِّم أمامكم ياأحبائي خطورة تبكيت يوحنا لهم بقوله « الذي لستم تعرفونه » ، أذكركم بأن ذلك الذي لم يعرفوه كان هو هو رجاء كل الآباء ، ورؤيا كل الأنبياء ، ومركز المعرفة والتعليم على مدى كل الأجيال ، ومصدر الإلهام في كل الأسفار ، أصل الحياة ومنبع النور والإدراك لكل عين وقلب ، سر الفهم ومحور العلم . الطريق والحق والنور والحياة !!

ياهذا المنظر المأسوي الحزين ، خالق العالم جاء إلى العالم والعالم لم يعرفه ، جامع الأخصاء من وسط كل شعوب الأرض جاء إلى خاصته وخاصته لم تقبله . النور الحقيقي أشرق في الظلمة والظلمة لم تعيه ولم تدركه !!

إصرار الله على المجيء :

ولكن والرب على علم بهذا الشرود والصدود سبق وأوحى و برَّ وأوفى ، إسمعه يتكلم على فم حزقيال النبي عن مجد البيت الأخير ـــ كنيسة العلي ـــ التي سبق فرآها موسى على بُعد السنين . فجاء حزقيال يصفها من وراء الستار : « هذا مكان كرسيَّ ومكان باطن قدميَّ (المذبح بحسب تفسير الآباء) حيث أسكن في وسط بني اسرائيل

(الجديد) إلى الأبد ... فأسكن في وسطهم إلى الأبد » (حز٤٣ : ٧، ٩) .

وكأن ضلال الرجال وعناد الأجيال لم يثنِ الله عن السعي ليوم مجيئه ، فيصف أمنية قلبه بتأكيد يبلغ حد القسم !!

حضور فعال :

وهو في وعده وفي تأكيده يتجاوز كل ضلال وكل تعدٍّ ، و يتغاضى عن نجاسة الرئيس والمرؤوس ، فيصف حضوره في وسط شعبه أنه سيكون حضوراً للتقديس قبل أن يكون حضوراً للبهجة والسرور. إسمعه على لسان حزقيال أيضاً يقول : « وأجعل مقدسي في وسطهم إلى الأبد » (حز٣٧ : ٢٦) .

غيرة الرب :

ولكن حينا نتمشى مع الله في مشاعره ـــ إن جاز هذا التعبير ـــ ومشاعر الله هي بعينها مصدر اللطف ومصدر الحنان وكل رقة مع غيرة وحب من نحو شعبه ، أشد من غيرة الرجل على عروسه ، نجد الله يصف لنا فرحه لرؤيا هذه السكنى وسط شعبه ، على لسان زكريا النبي ، ثم مدى غيرته والتهاب قلبه على بشرية أحبها كل الحب بالرغم مما هي فيه من الهجران والصدود لزيغانها وراء كل تصورات فجورها . إسمعه كيف يخاطبنا فيها : « هكذا قال رب الجنود : غِرتُ على صهيون غيرة عظيمة ، ... قد رجعت إلى صهيون ، وأسكن في وسط أورشليم » (زكريا ٨ : ١و٢) .

عيناً لعين :

ثم اسمع عن مشاعر الله الرقيقة مرة أخرى وهو ينطق بفم إشعياء ثم زكريا ثم صفنيا ، عن عناق حتماً سيتم حين رجوعه إلى شعبه ورجوع شعبه إليه ، وعن حب وعن وصال واتحاد وترنم ، في لقاء بنا (التجسد) ، يدوم إلى الأبد :

« صوت مراقبيكِ يرفعون صوتهم ، يترنمون معاً ، لأنهم يبصرون عيناً لعين عند رجوع الرب إلى صهيون » (أش ٥٢ : ٨) .

« رنموا للرب لأنه قد صنع مفتخراً ، صوّتي واهتفي ياساكنة صهيون ، لأن قدوس اسرائيل عظيم في وسطك » (أش١٢ : ٥، ٦) .

وما هذه الأنشودة الجميلة إلا أنشودة التجسد !! ثم ،

« ترنمي وافرحي يابنت صهيون (البشرية العاصية) لأني هأنذاآتى وأسكن في وسطك » (زك ٢ : ١٠)

« إبتهجي جداً ياإبنة صهيون (النفس البشرية الزائغة عن إلهها) . إهتفي يابنت أورشليم ، هوذاملكك يأتي إليك وديعاً ... » (زك ٩ : ٩) .

« ترنمي ياإبنة صهيون ، إهتف ياإسرائيل ، افرحي وابتهجي بكل قلبك ياأورشليم ملك إسرائيل الرب ، في وسطك ، لا تنظرين بعد شراً » (صفنيا٣ : ١٤، ١٥) .

شهوة الله :

وحينا نتكلم عن مشاعر الله الصادقة من نحو الإلتقاء بنا في هذا الحلول للسكنى في وسطنا ، نقول إنها مشاعر عجيبة حقاً بلغت بالله إلى حد الشهوة ، كما عبّر داود النبي وهو يتكلم بفم الله بالروح عن المسيح الآتى كما يراه الآن : « الرب اختار صهيون (النفس العروس التي لم تعرف عريسها بعد) اشتهاها مسكناً له . هذه هي راحتى إلى الأبد ههنا أسكن لأني اشتهيتها ! » (مز١٣٢ : ١٣، ١٤) .

شهادة السماء :

وبهذا القدر من العمق نجح جميع الأنبياء في التعبير عن مسرة الله العظمى واشتهائه الفائق ، في اتضاعه ، بظهوره واستعلان تجسده وحلوله في الإنسان كمسكن دائم له .

واليوم يوم الغطاس يوم عماد الرب في الأردن من يد يوحنا أعلنت السماء عن هذا الحلول وشهدت لهذا الظهور وأوضحت هذه السكنى ، لأنه عندما وقف يوحنا مذهولاً هو الآخر غير عارف بمن جاء لينادي به !!

« وأنا لم أكن أعرفه لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي الذي ترى

الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله » (يو١ : ٣٣و٣٤) .

ونطقت السماء وسُمع صوت الآب « هذا هو إبني الحبيب الذي به سررت » (متى ٣ : ١٧) .

قمة الشهادة وقمة الرؤيا :

بهذا القول وبهذه الشهادة يكون يوحنا المعمدان قد بلغ قمة الرؤيا التي تكلم عنها جميع الأنبياء ورأى الله قائماً بالفعل في وسطنا فبلغ يوحنا غاية العهد القديم كله ، بل غاية مشتهى الله : « السكنى وسط شعبه » .

هل نعرفه ؟

ولكن إن كان حلول الله في وسط شعبه في العهد القديم على مدى أسفاره كلها ظل أمنية لم تتحقق إلا بقدر الشبه والظل وفي الضباب !! ... ثم إذا كان ظهور المسيح في الأردن باعتباره الله ظهر في الجسد ، حالاً في خيمة البشرية إلى الأبد قد اكتمل بشهادة الروح القدس و يوحنا المعمدان ، فما هو موقفنا نحن من هذا الظهور الإلهي ؟ أو بمقياس مناداة يوحنا المعمدان « في وسطكم قائم ، الذي لستم تعرفونه » ، يكون السؤال هكذا : هل في وسطنا قائم ، الذي نعرفه ؟ وما هو قيمة عيد الغطاس عندنا ؟؟

التحول من عدم المعرفة إلى المعرفة :

إن التحول الهائل الذي تم في أعماق إيمان وكيان يوحنا المعمدان من عدم معرفة للمسيح إلى معرفة مؤكَّدة ، ثم الشهادة له بكل يقين ، الذي تمَّ في تعميد المسيح ، هذا التحول هو هدفنا المباشر من حديث هذا العيد : « وأنا لم أكن أعرفه ... وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو إبن الله » .

عيد الغطاس ، إذن ، هو مدخل لانفتاح الذهن والعين والقلب ، يوحنا لم يكن يعرفه إطلاقاً ، كان يسوع قريباً له بحسب الجسد و بالرغم من ذلك لم يكن يوحنا

يعرف أن يسوع هو المسيح الآتي !! الرؤيا كانت عند يوحنا منعدمة تماماً ، لأنه يستحيل معرفة المسيح بدون الروح القدس . ولكن عندما حلَّ الروح القدس على المسيح وقت العماد انفتحت عين يوحنا ، « فرأى » برؤيا الروح أن هذا هو المسيا الآتي ، وأدرك بالذهن المفتوح أنه إبن الله حالاً في وسط شعبه حسب كل النبوات بل حسب مشتهى قلب الله ، لذلك صرخ يوحنا من فرط تأثره : « وأنا رأيت وشهدت أن هذا هو إبن الله ! » .

قوة العماد :

لقد دخلت يوحنا قوة ، لحظة العماد ، قوة غير عادية ، جعلته ينتقل في الحال من غير عارف إلى شاهد بكل يقين أن هذا هو إبن الله !!

هذه هي القوة التي نشتهي نحن اليوم أن ندركها ، القوة التي تؤكد لنا أن الله في وسطنا الآن في شخص المسيح ، وأنَّ المسيح هو حقاً إبن الله الذي ظهر في الجسد .

قوة دخلت إلى العالم :

في عيد الغطاس دخلت العالم قوة جديدة ، قوة الإعلان عن المسيح بمجرد دخول المسيح مياه الأردن ، قوة استعلان ورؤيا وظهور ومعرفة وشهادة تلقاها يوحنا المعمدان كمندوب عن جميع الأنبياء وكل البشر ، قوة إعلان يقيني حلَّت في قلبه أن الله دخل وسط شعبه للإقامة إلى الأبد « في وسطكم قائم » . قوة معرفة بشخص يسوع أنه هو المسيح إبن الله ، قوة إدراك ورؤيا واستعلان ظهور الله جسدياً ، قوة شهادة منطلقة من أعماق يقين الرؤيا والسمع والإدراك ، « وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو إبن الله » .

هذه هي قوة هذا العيد التي دخلت إلى عالمنا ، بل إلى صميم طبيعتنا ، وأُعلنت إعلاناً لذهن يوحنا ومنه إلى البشرية كلها ، كفعل يسري في طبيعتنا فيغيِّرها و يبدلها ، قوة مواجهة في ملء المعرفة وجهاً لوجه ، كما رأى يوحنا المسيح وجهاً لوجه فصرخ

قائلاً : هذا هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم كله !!

لماذا لا نرى ولا نشهد :

ولكن نسأل غالباً لماذا تتعطل هذه الرؤيا عندنا ويتوقف هذا الإستعلان وهذه الشهادة في العالم الآن ، بعد أن دخلت هذه القوة كفعل شهادة دائم في صميم كياننا ؟

هنا بكل أسى وحزن ينبهنا أو بالحري يؤنبنا يوحنا مرة أخرى « في وسطكم قائم ، الذي لستم تعرفونه » !! فبدل أن نتأمل المسيح فنتغير ونصير مثله لنشهد له ونشهد لعمله ، كما يقول بولس الرسول : « ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح » (٢ كو ٣ : ١٨) ، بدلاً من ذلك ننصد عن المسيح ونعود فنتأمل أنفسنا لا المسيح ، نتأمل قوتنا وعظمتنا ورئاستنا أو نتأمل مجد التراب وجماله وشهوته ولذاته ، فنتغير إلى تلك الصورة عينها ، صورة الجسد الذي من تراب وإلى التراب يعود !! وإن غابت رؤية المسيح اليومية عن أذهاننا كيف نعرفه وكيف نشهد له ؟

يستحيل علينا اليوم أن نبلغ إلى رؤية المسيح ، المسيح كما هو ، كما رآه المعمدان على الأردن ، إلا إذا بلغنا إلى مستوى رسالة المعمدان وغيرته ، وصار لنا فكر المسيح وعمله ، لأن ما نتأمل فيه أكثر نتحول إليه أكثر . فإما نتحول إلى المسيح ، وإما نتحول إلى هذا العالم الذي يمثله الجسد والذات والملذات !

« أنا فيهم »

لا يمكن أن يُستعلن لنا المسيح اليوم فنقول مع يوحنا المعمدان « أنا رأيت وشهدت أن هذا هو إبن الله » ، إلا إذا أخذنا المسيح في أعماقنا وحلّ في وسطنا واستراح فينا وتعرّفنا عليه كما تعرّف هو علينا . صحيح أن المسيح شابهنا في كل شيء — ما خلا الخطية — وإذ تشارك الأولاد في اللحم والدم إشترك هو فيهما أيضاً ؛ ولكن بالرغم من ذلك سيظل مجهولاً لنا كما كان مجهولاً لدى يوحنا نفسه ، حتى يكشف الروح القدس

مدى العلاقة التي أصبحت تربطه بنا وتربطنا به « أنا فيهم » ، « أنا معكم » !!

بدء الشرارة :

الروح القدس الذي اضطلع بهذه المسئولية العظمى أن يكشف المسيح ليوحنا ثم للعالم كله ، وسيظل هذا قانون الإعتراف بالمسيح والشهادة له : « ليس أحد يقدر أن يقول أن يسوع ربٌ إلا بالروح القدس » (١ كو ١٢ : ٣) . إنها معمودية المسيح في الأردن بداية عمل الروح لاستعلان المسيح . لأنه بالمعمودية ، ومن خلال اتضاعه الموازي لتجسده ، انحدر الروح القدس من السماء ، فكان بدء الشرارة التي أنارت ذهن البشرية كلها بمعرفة رب البشرية الذي جاء ليقيم في وسطها .

لهذا صارت معموديتنا باسم الآب والإبن والروح القدس ، بنوع ما ، إتحاداً سرياً بالمسيح في الآب بالروح ، نقبل فيه نفس القوة التي عملت على استعلان المسيح في الأردن لمعرفته والشهادة له .

قوة المعمودية :

إذن ، ليس العماد في المفهوم الروحي العملي مجرد إجراء طقسي وحسب ، بل هو قوة ورؤيا وشهادة حتى آخر نسمة في الحياة ، إنها بداية كبداية الأردن ، لابد أن تُختم بالصليب والقيامة .

وإن كانت معمودية المسيح قوة لإستعلان المسيح وبدء الرسالة ، فمعموديتنا هي قوة قبول هذا الإستعلان كفعل للمعرفة وبدء الشهادة حتى الصليب « وأنا رأيت وشهدت » !!

المسيح في معموديتنا :

فإن كان المسيح قد استُعلن هذا اليوم للمعمدان كمخلِّص ونادى بصورة رؤيوية غاية في العمق ، كحمل الله الذي يرفع خطية العالم !! فالكنيسة ، وبالتالي كل نفس

أيضاً ، تعيِّد اليوم لخلاصها الذي بدأه المسيح في الأردن وأنهاه على الصليب ، كما رآه يوحنا ــ الحمل الإلهي الرافع خطية العالم ــ « بداية ونهاية معاً » . لأنه لما غسل يوحنا الحمل بيديه بالتعميد انفتحت عيناه فرآه مذبوحاً على الصليب رافعاً خطية العالم كله .

هكذا ترى العين المفتوحة اليوم المسيح نفسه قائماً في معموديتها مغتسلاً ومذبوحاً لها !! وتستمد منه قوة شهادة كشهادة يوحنا : بل وتستقبل فيه الروح القدس ومسرة الآب التي صارت للمسيح كصكٍّ ميراثٍ لنا ، أبديٍّ ، لأننا وارثون مع المسيح لله كل أنعام الله بالتبني !!

عيد المسحة :

لقد انحنى المسيح كطقس تجسده تحت يد يوحنا الكاهن إبن الكاهن ، فانحدر الروح القدس من السماء ليعمل المسحة و يكملها ، حتى تشترك مسحة الكهنوت الطقسي مع مسحة الكهنوت السمائي لمسح قدوس القديسين لإعلان أزمنة الخلاص وتكميل كل بر .

اليوم نستقبل في هذا العيد قوة هذه المسحة الفائقة التي صارت لنا بالميراث بشركة المسيح ، لمسح الرأس والأعضاء وكل الجسد لنصير ملوكاً وكهنة معه ، ولتلبس الخليقة الجديدة في يوم عيدها اكتمال بهائها وتهليلها باستعلان مخلصها فينا « عمانوئيل إلهنا في وسطنا الآن بمجده ومجد أبيه » !!

عيد الطهارة :

نحن نعيِّد في عيد الغطاس عيد طهارتنا ، فاليوم أخذت البشرية صك تطهيرها السري ، لما نزل الحمل مغتسلاً في الأردن استعداداً للصليب ، صائراً فصحاً للعالم كله .

نحن نعيِّد في الغطاس عيد اكتمال برنا ، فاليوم أخذنا ميراث اتضاعنا السمائي بإحناء رأس المسيح تحت يد المعمدان المتمنع إزاء إصرار المسيح : « اسمح الآن لأنه

هكذا يليق بنا أن نكمِّل كل بر » (مت٣ : ١٥) . هذا هو بر المسيح الفائق الذي أخفى سر لاهوت الإبن ، ولا يزال يخفيه ، عن كبرياء الإنسان وعجرفته العقلية « في وسطكم قائم ، الذي لستم تعرفونه » !!

البر الأصغر والبر الأكبر :

كان البر عند المسيح أن يحني رأسه ليقبل عماداً من إنسان ! وهكذا سلَّمنا مبتدأ الباب الضيق !! ... فالجسد المقدس الذي انحنى وارتضى بغسل الماء بيد بشر هو هو الذي ينال القوة والمسرة ليتخضب بالدماء فدية لكل ذي جسد . والذي قَبِل الإتضاع حتى الموت ، نال المجد بالقيامة وأعطى الحياة الأبدية للناس وجلس عن يمين العظمة في الأعالي !

ياللسمفونية العجيبة ، و ياللسر المذهل الذي يربط بين إحناء رأس المسيح تحت يد يوحنا وإحناء رأس المسيح تحت يد الله على الصليب !! فكأن المسيح يشير إلينا في يوم عماده : أن الذي يستطيع تكميل البر الأصغر تحت يد الأقل ولشركةٍ مع الأحقر ، هو وحده الذي يستطيع أن يكمِّل البر الأكبر في شركة المسيح تحت يد الله القدير لميراث الحياة الأبدية .

عيد ملء الروح ونسك الجسد :

يوم الغطاس يا أحبائي هو الأصل والمنبع لسر ميلاد البشرية الجديد . ثم هو سر السلوك والجهاد للحياة الأفضل ، لقد اقتيد المسيح بالروح بعد العماد مباشرة ، وهو ممتلىء من الروح القدس ليجرَّب . فصام وسهر وتنسك وجاهد بالجسد وهو ممتلىء بالروح القدس ، فوضع تدبير السلوك إزاء حروب الشيطان لبني النور : « هذا الجنس لا يخرج إلا بالصلاة والصوم » (مت١٧ : ٢١) .

فاليوم إن كان هو عيد مسحة الروح للملء والشهادة ، فهو عيد التدبير والجهاد بالجسد !!

وإن كان هو عيد قمة الرؤيا لعين الإنسان وأذنه: السماء المفتوحة والروح المنحدر وصوت الآب يعلن منتهى سروره بالإبن المتجسد!! فهو عيد إحناء الرأس، قمة الإتضاع، وكمال كل البر الذي صنعه لنا المسيح نفسه كنموذج يُحتذى!!

(يناير ١٩٧٩)



عماد المسيح في الأردن
واستعلان ملكوت الله

« مسح قدوس القديسين»

« ملكوته ملكوت أبدي ما لن يزول »

رأينا في ميلاد المسيح في مغارة بيت لحم وجهاً آخر للميلاد(٥)، وهو استعلان « **ملكوت الله** »، أي بدء حكم الله للناس على الأرض في بساطة شديدة **كبساطة هذا الطفل المضطجع** على تبن المذود، وفي عظمة خفية إعجازية كعظمة **العذراء التي ولدته**، معلنة بميلادها العذري هذا كيف ستُخصب البشرية بروح الله ليولد الإنسان من جديد من فوق لملكوت الله!! فكان ميلاد المسيح بكل ظروفه، كما رأينا، مدخلاً سهلاً جميلاً مبهجاً لملكوت الله، أحاطته الملائكة بأناشيدها، والمجوس بهداياهم الملوكية، والرعاة ببشارتهم المفرحة، والعذراء بسرِّها الفائق لكل ملكوت أرضي.

وهنا اليوم في الأردن يُستعلن مولود المغارة مسيحاً، إذ يتقبَّل من يد آخر أنبياء العهد القديم وأعظمهم قاطبة مسحة النبوة، ليزيد هو وتنقص من بعده كل نبوة. وبآن واحد يتقبَّل من السماء المفتوحة وحلول الروح القدس مسحة القوة، كملك من فوق، فتُستعلن في الحال لدى كل الدهور هوية هذا الإنسان المسيح الملك: « **هذا هو ابني الحبيب** الذي به سررتُ »(١).

وهكذا تتجمع ظروف عماد الرب في الأردن لتصنع حفلة تتويج على أعلى مستوى عرفته البشرية لمسح ملك الدهور بمسحة سماوية، ليحكم حكم الله بين الناس،

---

(٥) راجع مقال: « الميلاد في الوجه غير المنظور »، ص ٢٤١ من هذا الكتاب.

(١) مت ٣: ١٧.

وبإعلان الله نفسه بنطق تسمعه الخليقة كلها وتردد أصداءه السماءُ والأرضُ، كما بقسم، معلناً جهاراً صفته السرية « إبن العلي » (٢) الذي به تكمّلت مسرة الله من نحو الإنسان ــ كل الإنسان ــ المتبنّى فيه !!

والآن يلذ لنا، أيها الأحباء، أن نصاحب موكب المتكلمين عن هذا اليوم بكلام الله بطرق متنوعة، الناطقين بفم الله، هؤلاء الأنبياء المسوقين من الروح القدس وقوته لإعلان سرّ الله فيه؛ لكي ندرك ــ كما يقول القديس بولس الرسول ــ مقاييس ملكوت الله مع جميع القديسين : الطول والعرض والعمق والإرتفاع !!

فنسمع من داود النبي :

١ ــ مزامير تصف ما تم في الأردن ،

٢ ــ مزامير تصف ملكه الأبدي ومسحته الإلهية الفائقة .

١ ــ مزامير تصف ما تم في الأردن :

مزمور ٢ :

« أنا قد مسحتُ ملكي على صهيون جبل مقدسي !!
إني أخبر من جهة قضاء الرب (حكم الله = الملكوت الآتي)،
قال الرب لي أنت إبني (حالة دائمة)، وأنا اليوم ولدتك (التجسد في ملء الزمان)،
إسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك، وأقاصي الأرض مُلكاً لك (ملكوت الله في شخص المسيا على كل ممالك الأرض) ... » .

أليس هذا المزمور، أيها الأحباء، هو هو عين صوت الآب من السماء على نهر الأردن وقت عماد المسيح، معلناً هوية هذا الممسوح بالروح ؟

المزمور: (**أنت إبني !**) = الصوت من السماء وقت العماد : (**هذا هو ابني الحبيب**)

المزمور: (**أنا قد مسحت ملكي**) = الصوت من السماء وقت العماد : (**وحلّ عليه الروح القدس**).

(٢) لو ١ : ٣٢

مز ٢٠ :

الرب مخلّص مسيحه : (يستجيب له من سماء قدسه) بجبروت خلاص يمينه .

العماد : (**وإذا السموات قد انفتحت ... وصوت من السماء قائلاً ...**) .

مز ٢١ :

يارب، بقوتك يفرح الملك **وبخلاصك كيف لا يبتهج جداً، وضعتَ على رأسه تاجاً من إبريز !!**

العماد :

هذا هو إبني الحبيب **الذي به سررت .**

رأيت الروح نازلاً **من السماء فاستقر عليه !!**

مز ٤٥ :

« **مسحك الله** » إلهك « **بدهن الإبتهاج** » « **أكثر من رفقائك** »

العماد :

« **الروح القدس** » ... « **به سررت** » « **إبني الحبيب** » .

تسليم المسيح الملك سلطان الملكوت ،
للقضاء والدينونة والمُلك على كل ممالك الأرض للخلاص والمجد :

مز ٧٢ :

« **اللهم أعطِ أحكامك للملك** » = « **دُفع إليَّ كل سلطان مما في السماء وعلى الأرض** » (٣)

« **وبرّك لإبن الملك** » = « كل ما للآب فهو لي » (٤)

« **يدين** » الشعب ، « **يقضي** » للمسكين ، « **يخلّص** » البائس ، « **يسحق** »

(٣) مت ٢٨ : ١٨

(٤) يو ١٦ : ١٥

الظالم ، « يخشونك ما دامت الشمس ... وإلى أن يضمحل القمر » ، « يملك إلى أقاصي الأرض » ، « تجثو له أهل البرية » ، « ملوك يرسلون تقدمة ، ملوك يرسلون هدية » ، « يسجد له كل الملوك » ، « كل الأمم تتعبد له » ، « **ينجّي** الفقير المستغيث والمسكين الذي لا معين له » ، « **يخلّص** أنفس الفقراء ، **ويُكرَم دمهم** في عينيه » . « **يصلي لأجله دائماً** » ، « **اليوم كله يباركه** » ، « يكون **إسمه إلى الدهر** قدام الشمس ، **ويتباركون به** » ، « **كل الأمم يطوّبونه** » ، « **وتمتلىء الأرض كلها من مجده** » .

نلاحظ أن جميع الدارسين والشُرّاح للمزامير ينسبون هذا المزمور إلى حفلة تنصيب سليمان إبن داود . ولكن لا داود دام قدام الشمس ولا سليمان بقي حتى اضمحل القمر ، ولا هذا ولا ذاك حكم بالعدل أو البرّ أو خلّص أو نجّى الأنفس ، وكلاهما وُزنا بالموازين فوُجدا ناقصين ، وماتا ودُفنا ، وأكلهما الدود والتراب . كذلك لا يمكن أن نغفل أن المسيح جاء من نسل داود حسب الجسد ليملك على كرسي داود إلى الأبد ، ليكمّل كل ما عجز عنه داود وكل نسله لحساب الله وملكوته ، لذلك أصبح من الواضح والمحتّم أن يرتفع هذا المزمور إلى مستوى صاحبه الحقيقي ، وينحصر بالضرورة في مُلك المسيا ، الذي يستحيل — من واقع هذا المزمور — أن يُحسب على مستوى البشر : « وتمتلىء الأرض كلها من مجده » !!

أما حفلة التنصيب والمسحة وتسليم السلطان بالنطق الملكي الإلهي ، فكانت كلها واضحة بشهادة شهود : « وأنا قد رأيت وشهدت أن **هذا هو إبن الله** » (٥) !!

مسحة الملك بدهن الله المقدس ، أمانة ورحمة الله تعطى له كما هي ، إسم الله يحمله خاصة ، يدعو الله **أباه الخصوصي** (٦) ، يصير بكراً بين إخوة كثيرين (٧) ، السموات تشهد له (٨) .

(٥) يو ١ : ٣٤ — (٦) مز ٨٩ : ٢٦
(٧) رو ٨ : ٢٩ — (٨) يو ١ : ٣٤ ؛ يو ١٢ : ٢٨

مز ٨٩ :

— وجدت داود عبدي ، بدهن قدسي مسحته ،
— أمانتي ورحمتي معه ، وبإسمي ينتصب قرنه ،
— وهو يدعوني **أبي أنت** ،
— أنا أجعله بكراً أعلى من ملوك الأرض ،
— والشاهد في السموات . آمين .

ويلاحَظ أن هذه الشهادات كلها تمت بالفعل وأشار إليها المسيح . فهو إبن داود ، وقد مسحه الله في الأردن بالروح القدس ، وأنه عمل أعمال أبيه (٩) ، وأتى بإسم أبيه (١٠) ، وكان يدعو الله أباه بنوع خصوصي (١١) (جاعلاً نفسه إلهاً) (١٢) ، وأنه بالقيامة من الأموات صار بكراً للخليقة (١٣) الجديدة التي حملها في نفسه وصار ملك الملوك ورب الأرباب (١٤) ، وأن السماء شهدت له مراراً في ميلاده (١٥) وفي عماده (١٦) وفي صعوده (١٧) .

ملك مساوي في الرتبة لله ، كاهن فوق مستوى البشر :
مزمور ١١٠ :

— « قال الرب لربي إجلس عن يميني » = في الحكم مساوٍ لله (١٨) .
— « في يوم ميلادك وُهبتَ عطايا الرؤساء وتألقت في بهاء القداسة » = تعيَّن في قداسته ملكاً يوم ميلاده .
— « تجليتَ في نضرة الشباب منذ أن حملَت بك أمك » =مباركاً وهو في البطن (أليصابات) (١٩) .
— « أقسم الرب ولن يغيِّر رأيه أنت الكاهن إلى الأبد » = كاهن تعيَّن أن يحمل خطايا شعبه .

(٩) يو ١٠ : ٣٧ — (١٠) يو ١٠ : ٢٥ — (١١) يو ١٠ : ٢٩
(١٢) يو ١٠ : ٣٣ — (١٣) كولوسي ١ : ١٨ — (١٤) ١ تي ٦ : ١٥
(١٥) لو ٢ : ٨-٩ — (١٦) متى ٣ : ١٧ — (١٧) أع ١ : ١٠، ١١
(١٨) يو ٥ : ٢٢ — (١٩) لو ١ : ٤١

— « على رتبة ملكي صادق » = كهنوت بخبز وخمر بدون تسليم بشري .

— « الرب عن يمينك حطّم ملوكاً في يوم غضبه » = انتصاره على قوى الشر حتى في يوم صليبه .

ولكن ليس منذ زمن المزامير، في بدايتها أو نهايتها ، ابتدأت الإشارات النبوية التي تنطبق على مسيح الأردن « مسيح يهوه » بهذه الصفات الجامعة لمعنى الملوكية الأرضية والسلطان السمائي معاً بالمسحة السماوية . فنحن نقرأ في سفر التكوين « لا يزول قضيب (ملك — رئيس) من يهوذا ولا مشترع (قاضي — مدبر) من صُلبه (من بين فخذيه) حتى يأتي ,, **شيلون** ,, ، ويكون هو رجاء انتظار الشعوب » (تك ٤٩ : ١٠) . (معدلة على الترجمة السبعينية)

وكذلك نقرأ في سفر العدد عن الملك الآتي بقوة الله وجبروته :

— « أراه (δείξω = أشير إليه ، الزمن يبيِّن صفة الإستمرار) ولكن ليس الآن ، أباركه ولكن ليس قريباً . يبرز نجم (كوكب) من يعقوب ، رجل (قضيب — رئيس) يخرج من اسرائيل يسحق أمراء موآب ويحطم بني شيث » (عدد ٢٤ : ١٧ — حسب الترجمة السبعينية) .

فلو لاحظنا كلمة « نجم (كوكب) » من يعقوب ، وتذكرنا نجم المجوس ، كإشارة سماوية للآتي من فوق بقوة الله ، ثم لاحظنا « قضيب أو رئيس من إسرائيل » ، كمرادف لتوضيح أنه ملك أو رئيس على مستوى الشعب أيضاً ، لأدركنا إحكام النبوة .

وبعد ذلك تبتدىء النبوات فتقترب من تصوير ملك الرجاء بأكثر وضوح ، منذ زمن إشعياء — أي قبل السبي مباشرة (سنة ٧٤٠ ق م) .

إشعياء ٧ : ١٠-١٦ ، ٩ : ١-٧ ، ١١ : ١-٩ .

— « يعطيكم السيد نفسه آية : **ها العذراء تحبل وتلد ابناً ، وتدعو اسمه عمانوئيل** » .

— « لأنه يولد لنا ولد ، **ونُعطى إبناً وتكون الرياسة على كتفه ، ويُدعى إسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام ، لنموّ رياسته وللسلام لا نهاية ، على كرسي داود وعلى مملكته ليثبتها و يعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد** . غيرة رب الجنود تصنع هذا » .

— « ويخرج قضيب من جذع يسى و ينبت غصن من أصوله ، **ويحلّ عليه روح الرب** ، روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة ومخافة الرب ،
يقضي بالعدل للمساكين ، **ويحكم** بالإنصاف لبائسي الأرض ،
يضرب الأرض بقضيب فمه ، **ويميت** المنافق بنفخة شفتيه ،
و يكون **البر منطقة متنيه** ، والأمانة منطقة حقويه ،
فيسكن الذئب مع الخروف ......
لأن الأرض تمتلىء من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر ،
و يكون في ذلك اليوم أن أصل يسى **القائم راية للشعوب وإياه تطلب الأمم** » .

وهنا تتركز في هذه الآيات بالترتيب الإشارات على : آية العذراء ومعجزة الميلاد ، وإسم عمانوئيل (حضرة الرب مع شعبه) الذي يُفسَّر « **الله معنا** » دائماً ، ونسبة الميلاد لنا = (يولد لنا) ، وعطية المولود كإبن البشر (نعطى إبناً) ، ورئاسة المسيح نابعة منه ولا تعطى له من أحد (الرئاسة على كتفه) ، وأن إسمه سيظل عجيباً (أي الإسم الذي يأتي بالعجائب والمعجزات) ، مشيراً (متمم المشورة الأزلية) ، إلهاً قديراً (الوحيد المقتدر) ، أباً أبدياً (أبو الدهور الآتية) ، رئيس السلام (معطي السلام لكل الرئاسات) ، لنمو رئاسته (رئاسته تنمو بلا حدود) ، وللسلام لا نهاية ، ومملكته بالحق والبر الآن ولكل الدهور الآتية ، (كناية عن التحام دائم بين الله وشعبه) — مسحة الملك تتم حينما يحل عليه روح الرب للحكمة والقضاء والحكم والدينونة .

ميخا النبي : ٥ : ٢—٤ (تنبأ قبل سقوط السامرة سنة ٧٢١ ق م .) من نفس زمن إشعياء (٧٤٠ ق م .) .

— « وأما أنتِ يابيت لحم (بيت) أفراتة وأنتِ صغيرة (في العدد) أن تكوني (محسوبة) بين ألوف يهوذا ، (إلا أنه) **منكِ يخرج لي الذي يكون متسلطاً على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ الأزل** ، لذلك سوف يعيّن لهم الله أن ينتظروا حتى يتم زمان التي تتمخض حتى تلد ، وحينئذ يعود بقية إخوتهم إلى بني إسرائيل . والرب يقف و ينظر و يطعم قطيعه بقوة ، فيسكنون في مجد إسم الرب إلههم ، وحينئذ يعظمون حتى إلى أقاصي الأرض » .

(معدلة حسب الترجمة السبعينية)

وهنا أهم ما يسترعي انتباهنا ، أن هذا الملك الآتي يصوِّره ميخا النبي تصو يراً فائقاً للعقل **بتعبيرات لا تنطبق إلا على الله** يهوه ذاته : « **مخارجه منذ القديم منذ الأزل** » ، بالرغم من احتفاظ ميخا بصورة بشر ية له بالرغم من كل ذلك .

إرميا : ٢٣ : ٥ـ٨ (تنبأ في القرن السابع سنة ٦٢٦ ق م . بعد زمن إشعياء بقرن من الزمان) .

— « ها أيام تأتي ، يقول الرب ، **وأقيم لداود غصن برٍّ ، فيملك ملك** ، و ينجح ، **و يُجري** حقاً وعدلاً في الأرض ، في أيامه **يخلص يهوذا** ، و يسكن اسرائيل آمناً ، **وهذا إسمه الذي يدعونه به في الأنبياء الرب برُّنا** = κύριος Ιωσεδεκ = الرب يهوه صادق أو بار » .

(الترجمة معدّلة على السبعينية)

حزقيال : ٣٤ : ٢٣ (تنبأ بعد النبي إرميا مباشرة : ٦٠٠ـ٥٨٦ ق م)

— « وأقيم عليها **راعياً واحداً** ، فيرعاها عبدي داود ، هو يرعاها وهو يكون لها راعياً . وأنا الرب أكون لهم إلهاً ، وعبدي داود رئيساً في وسطهم . أنا الرب تكلمت ، **وأقطع معهم عهد سلام** » .

ثم ينشغل حزقيال النبي من إصحاح ٤٠ إلى ٤٨ في وصف الهيكل الجديد المزمع أن يقيمه الكاهن القادم .

هكذا يستمر خط النبوات ـ بلا انقطاع ـ عن الآتي بأوصاف عديدة ، من ملك إلى رئيس إلى كاهن إلى راعي . ولكن العجيب في هذه النبوات كلها أن المسيا يأتي دائماً كنهاية : نهاية الملوك ، ونهاية الرؤساء والمشترعين ، ونهاية الكهنة ، ونهاية الرعاة . فهو سيكون الملك الوحيد الذي سيحكم إلى الأبد ، ونهاية المشترعين الذي لا يشترع من بعده أحد ، فهو صاحب عهد السلام الأبدي الذي لا يُنقض ، وهو الراعي « **الواحد الوحيد** » الذي لا يكون بعده رعاة . كل هذا يشكل حدوداً واضحة جداً لنوعية الملكوت الآتي أنه نهاية الزمان ، أي ملكوت أبدي غير زمني ، وأن الإشتراع إلهي تام وكامل ، وليس إنسانياً يمكن تعديله أو تغييره ، وأن الرعاية روحية وليست دنيو ية .

زكر يا : ٢ : ١٠ ؛ ٣ : ٨-١٠ ؛ ٤ : ٦، ٧ ؛ ٦ : ١٣ (تنبأ سنة ٥١٨ ق م) .

وهنا تقترب الرؤ يا جداً لتحدد المعاني والمواقع والحوادث ، و يربط زكر يا بين المسيح كملك على كرسيه وككاهن أيضاً .

— « ترنمي وافرحي يابنت صهيون **لأني هأنذا آتى وأسكن في وسطك** ، يقول الرب » .

— « لأني **هأنذا آتى بعبدي الغصن** ، ... »

— « **وأز يل إثم تلك الأرض في يوم واحد** ، ... »

— « في ذلك اليوم ـ يقول رب الجنود ـ **ينادي كل إنسان قر يبه تحت الكرمة وتحت التينة !** » ؟

— « لا بالقدرة ولا بالقوة بل بروحي ـ قال رب الجنود ـ من أنت أيها الجبل العظيم أمام زربابل(٥) ، تصير سهلاً ، فيخرج حجر الزاو ية بين الهاتفين كرامة كرامة له » .

— « هوذا الرجل الغصن إسمه ومن مكانه ينبت و يبني هيكل الرب ، **فهو يبني** هيكل الرب ويحمل الجلال ويجلس و يتسلط على كرسيه ، و يكون **كاهناً على كرسيه** وتكون مشورة السلام بينهما كليهما » .

---

(٥) يلاحظ القارىء أن كلمة « زربابل » تحمل غير الإسم معنىً آخر وهو « زور-بابل » أي « فرخ أو نبت » . أي أن هناك تلاعباً بالألفاظ بديعاً . فزربابل يعني أيضاً « غصن السبي » .

والكنيسة إذ تعيش الآن في ملء تحقيق هذه الرؤيا والنبوة ، لا تكف عن الإنشاد يومياً بهتاف زكريا الذي يتحقق فينا كآية كل صباح وكل مساء : [عمانوئيل في وسطنا الآن بمجده ومجد أبيه والروح القدس] .

كما اتخذت الكنيسة أيضاً من أغصان الشجر ، سواء النخيل أو الزيتون ، إشارة سرية إلى إسم المسيح « عبدي الغصن » في كل مناسبة .

أما الكرمة والتينة ، فيأتي على ذكرها الإنجيل بحسب القديس يوحنا ، في حادثة نثنائيل وفيلبس ، كإشارة إلى مجيء يوم المسيا المعيَّن المذكور في الأنبياء !!

أما بناء الهيكل الذي يذكره زكريا النبي فقد كشف المسيح سرَّه ، إذ كان الوحي على فم زكريا يقصد هيكل جسده — أي الكنيسة — الذي بناه المسيح في ثلاثة أيام .

والذي يهمنا في نبوة كل من حزقيال وزكريا هو ابتداء ضمّ الوظيفة الكهنوتية مع الوظيفة الملكية للمسيا . فالتقليد النبوي لدى أنبياء ما قبل السبي كان التركيز منصباً فيه على الملوكية والرئاسة والقضاء من نحو الملك المخلِّص الآتي . ولكن أثناء السبي بدأ التنبؤ بوظيفة الكهنوت الفدائية التي للملك الآتي على فم زكريا النبي ، فبعدما استوفى صورة كهنوت المخلِّص الآتي بدأ يصفه كملك منتصر :

— « ابتهجي جداً ياإبنة صهيون ، اهتفي ياإبنة أورشليم . هوذا ملككِ يأتي إليك ، هو عادل ومنصور ، وديع وراكب على حمار وعلى جحش إبن أتان » (زكريا ٩ : ٩) .

ويلاحظ هنا أن الوحي يصف المسيا في عظمته كعادل ومنتصر ، وفي إتضاعه معاً كوديع يركب الدابة المتواضعة !!

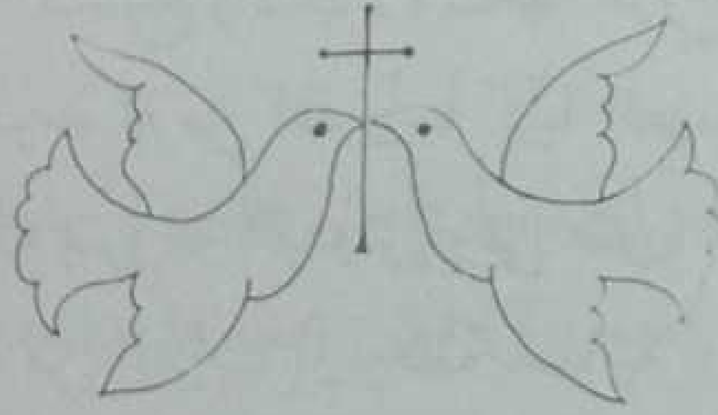
وهكذا تتقدم الرؤيا وتتقدم النبوة في الوضوح والكشف ، فبعد أن كان المسيا الآتي « الملك » في المزامير ، الذي يقضي للمساكين ويخلِّص بسلطان ، إذ به في زكريا يبدو هو نفسه مسكيناً وفي هيئة عبد كراعي يلبس لباس الرعية !! : « **تعلَّموا مني لأني وديع ومتواضع القلب** » .

دانيال : ٩ : ٢٠-٢٧ (القرن السادس قبل الميلاد — تقليدياً)

— « سبعون أسبوعاً قضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الإثم ، **وليؤتَى بالبر الأبدي ولختم الرؤيا والنبوة ، ولمسح قدوس القديسين** » .

وإلى هنا نحط الرحال في هذه الجولة بين فردوس الأنبياء ، كنا ننعم فيها برؤى لا حصر لها وأنوار مسلَّطة على هذا الذي تم في نهر الأردن ، والروح القدس حالّ ومستقر على مسيح الرب ، يوم أن تُوِّج على ملكوته الأبدي بصوت الآب من السماء معلناً أن « هذا هو إبني الحبيب الذي به سررتُ » !!

(يناير ١٩٨٠)



المعمودية عبور من الموت إلى الحياة

المعمودية بالتغطيس كاشتراك في موت المسيح ودفنه:

التغطيس الكامل حتى الرأس، أو انغمار الجسم كله تحت الماء، كتعبير عن الدفن في الماء، هو بمثابة وقوع الإنسان الإرادي بالموت تحت عقوبة الله برسم الطوفان (١بط٣: ٢٠ــ٢٢)، بسبب الخطايا التي صنعها الإنسان والتي ورث دوافعها وآثارها ونتائجها في طبيعته الترابية. ولكن لأن هذا الدفن هو في اسم المسيح وعلى أساس موته ودفنه وكاشتراك فيه، فالموت يصبح للتبرير عن الخطايا السالفة، و بالتالي ينشىء شركة في القيامة للحياة بلا خطيئة؛ أي ينشىء ميلاداً جديداً للإنسان لخليقة جديدة. ثم بإعطاء الروح القدس (بوضع اليد أو بالميرون) تصير الخليقة الجديدة روحانية ومتحدة بالمسيح.

فالمعمودية في اسم المسيح والآب، وبمنحها الروح القدس، تكون هي المعجزة العظمى للإنسان الممنوحة له من الله رأساً كآية العهد الجديد، التي فيها يرتبط الله بالإنسان لإعادة خلقته بروحه القدوس وعلى صورة مسيحه، ليرفعه من خلقة إلى خلقة، من خلقة أرضية من التراب إلى خلقة سمائية «من الروح»، «من فوق»، «من السماء»، ليتغير الإنسان من شكل آدم إلى شكل المسيح، وليقبل الإنسان عوض بنوتِه التي من آدم بالفساد والخاضعة للزمن والموت، إلى بنوية الله والحياة معه بالبر والقداسة والحق للحياة الأبدية.

مفاعيل المعمودية:

القديس بطرس الرسول يطالب كل مَنْ اعتمد بالهروب من الفساد الذي في العالم بالشهوة، وبممارسة الفضائل باجتهاد، وإلاَّ فإنه يُعتبر أنه «قد نسي تطهير خطاياه السالفة» (٢بط١: ٩). وهنا تتضح فعالية المعمودية بالتحديد: «**تطهير خطاياه**

السالفة»؛ فالمعمودية إما توضع نُصب أعيننا كمنبع طهارة ومصدر قوة للتطهير من جميع الخطايا (السالفة) ــ سواء التي ورثنا آثارها باللعنة الأولى أو التي عملناها بإرادتنا ــ وإما ننساها فنفقد المصدر الذي نستمد منه طهارتنا وقدرتنا على الجهاد لاستمرار التطهير.

كما يرى بطرس الرسول في المعمودية أنها «لا إزالة وسخ الجسد بل **سؤال ضمير صالح عن الله**» (١بط٣: ٢١). أي أن المعمودية تنشىء فينا إحساس الضمير المطهَّر الذي يجعلنا قادرين أو مستحقين للوقوف أمام الله لنصلي ونطلب من الله بلا لوم داخلي.

أما القديس بولس الرسول فيضع مفاعيل المعمودية واضحة في قوله:
«لكن **اغتسلتم** بل **تقدستم** بل **تبررتم** باسم الرب يسوع و بروح إلهنا» (١كو٦: ١١).

فالمعمودية هي اغتسال من الخطية = تقديس، والوقوف أمام الله بلا لوم = تبرير.
فهي تُعتبر **الغاية العظمى** للخلاص الذي جاء الرب يسوع ليكمله بالموت على الصليب:

«... **أحب** المسيح أيضاً الكنيسة **وأسلم نفسه لأجلها لكي يقدسها مطهراً إياها بغسل الماء بالكلمة** (المعمودية) لكي يحضرها لنفسه **كنيسة مجيدة** εὔδοξον **لا دنس فيها ولا غضن** أو شيء من مثل ذلك، بل تكون **مقدسة و بلا عيب**» (أف٥: ٢٥ــ٢٧). ثم يعود بولس الرسول في رسالته للعبرانيين ليؤكد ذلك قائلاً: «لنتقدم بقلب صادق في يقين الإيمان، إذ قد صارت **قلوبنا مرشوشة من ضمير شرير** (أثر المعمودية بالروح داخل الضمير) وأجسادنا مغتسلة بماء **طاهر**، متمسكين ,, باعتراف،، الرجاء بدون تردد لأن الذي وعد هو أمين» (عب١٠: ٢٢و٢٣ ترجمة أكثر وضوحاً).

هنا يتضح أثر المعمودية في الضمير، وفي أعضاء الجسد، مشيراً إلى قوة التطهير بالروح في الضمير و بالماء بالنسبة للجسد. وإن أثر المعمودية في النهاية يعطي تقدماً إلى

الأقداس العليا بقلب صادق ويقين الإيمان، على أن نظل متمسكين بالاعتراف الذي نتلوه في المعمودية برجاء لا يتزعزع و بلا تردد، اعتماداً على وعد الله وأمانته.

الروح القدس يدعو إلى المعمودية:

الدعوة إلى المعمودية كانت معروفة ومؤكدة منذ أول لحظة حلَّ فيها الروح القدس: «فلما سمعوا **نُخسوا في قلوبهم** (فعل الروح القدس المُسْبَق) وقالوا لبطرس ولسائر الرسل: **ماذا نصنع** أيها الرجال الإخوة، فقال لهم بطرس: **توبوا وليعتمد** كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا، **فتقبلوا عطية الروح القدس** (عمل الروح القدس اللاحق)» (أع٢: ٣٧و٣٨). واضح هنا أن الروح القدس هو الذي يُعد القلب بنخس خفي لقبول الإيمان والمعمودية.

واضح أيضاً أن الفعل الأول للروح القدس في المعمودية هو **لمغفرة الخطايا**، لذلك فإن قبول **«عطية»** الروح القدس **تأتي بعد المعمودية، أي بعد مغفرة الخطايا**، وهذا أمر في غاية الأهمية العملية. **فالخطيئة تمنع قبول عطية الروح القدس.**

ومن المهم أن نلاحظ أن المعمودية مرتبطة أساساً بالمسيح = **«على اسم يسوع المسيح»**، وذلك مبني على فعالية الخلاص والفداء الذي أكمله المسيح عن البشرية لسؤال مغفرة الخطايا، وعلى هذا الأساس يتم الميلاد الجديد بكل متطلباته كخليقة جديدة في المسيح. ولكن، لأن المسيح أكمل الفداء ليس من ذاته بل بمشورة الآب ومسرة الروح القدس، لذا أصبح يتحتم أن تكون المعمودية باسم الآب والابن والروح القدس، حيث ينال الإنسان بواسطة المسيح علاقته الجديدة بالآب والروح القدس؛ وهي حالة التبني بالروح للآب. وينال الإنسان تقديس الحياة الجديدة بواسطة الروح القدس ليليق بحالة التبني لله: **«أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله»** (يو١: ١٢)، باعتبار أن ميلادهم الجديد هو شركة موت وحياة في المسيح ابن الله.

وهذا التعليم الإلهي المنسجم لدى كل الرسل واضح جداً أنه مسلَّم من واحد هو المسيح: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» (مت٢٨: ١٩).

ونسمع أيضاً من حنانيا، أحد السبعين رسولاً، وهو يقول لشاول (بولس): «إله آبائنا انتخبك **لتعلم مشيئته، وتبصر البار، وتسمع صوتاً من فمه**، لأنك **ستكون له شاهداً** لجميع الناس بما رأيت وسمعت، والآن **لماذا تتوانى، قم واعتمد، واغسل خطاياك** داعياً باسم الرب» (أع٢٢: ١٤ـ١٦).

وهنا أيضاً مفاعيل العماد المسبقة والمرافقة والتابعة: انتخبك، لتبصر، لتسمع، لتشهد، ثم الأمر الإلهي **«قُمْ»**، **«اغسل خطاياك»**. هنا فعل الغسل بالماء يشمل بكل وضوح معنىً روحياً عميقاً موازياً لغسل الجسد، ولكن أشد فعلاً وأبقى أثراً، إذ يتغلغل ليشمل كل أعمال الخطية في الماضي **بكل آثارها على الروح والنفس والجسد والضمير!!** «اغسل خطاياك»، ما أروع وما أسهل وما أعمق هذا التعبير!! وهذا ظل يعلِّم به بولس الرسول نفسه كل أيام حياته، بعد أن ذاقه وعاشه فعلاً. اسمعه يقول: «قد اغتسلتم بل **تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا**» (١كو٦: ١١).

تعاليم الآباء الرسوليين عن المعمودية

وقد سلَّم الرسل هذا الإيمان نفسه بتحديده الواضح إلى الآباء الرسوليين، فنسمع الأسقف هرماس (١٤٢ـ١٧٤م.) يقول:

[عندما نزلنا إلى الماء تقبَّلنا **غفران خطايانا السالفة**] (١).

وفي رسالة برنابا (٨٠ـ١٣٠م.)، يرى أن المعمودية تعطي نفس طفل:

[لقد **تجددنا بغفران خطايانا** وصُنعنا **شكلاً آخر حتى يكون لنا نفس طفل**، كأنما قد خُلقنا **من جديد**، كما يقول الكتاب بخصوصنا حيث الآب يخاطب الابن: **لنصنع الإنسان على صورتنا كشبهنا**] (٢).

(1) Mand. iv.3,1. (2) Quasten, Patrology, vol. I,87.

أي أن الآية: «إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات» (مت١٨: ٣) إنما تشير إلى المعمودية.

أما يوستين الشهيد (١١٠–١٦٥م.) فيعتبر أن المعمودية هي تكريس النفس لله، وغفران الخطايا، وميلاد جديد بالاختيار والمعرفة، واستنارة:

[وسأقص عليك كيف نكرس أنفسنا لله ... ونحضرهم إلى مكان الماء ونعيد ميلادهم بنفس الطريقة التي وُلدنا نحن بها ثانية، لأنه باسم الله الآب سيد الخليقة ومخلصنا يسوع المسيح والروح القدس يقبلون اغتسال الماء. **وقد تعلمنا من الرسل معنى هذا**، لأنه بميلادنا الأول وُلدنا بدون **اختيارنا** و بدون **معرفتنا** بواسطة والدينا عندما اجتمعا معاً، ونشأنا بعادات رديئة وخبرات شريرة. فلكي لا نبقى أبناء الضرورة والجهل بل **أبناءً بالاختيار والمعرفة**، ولكي **نحصل في الماء على مغفرة خطايانا** التي اقترفناها سابقاً، **يُنادى** فوق من اختار أن يولد ثانية، الذي يكون قد تاب عن خطاياه، **باسم الله الآب وباسم المسيح يسوع** الذي صُلب على عهد بيلاطس البنطي **وباسم الروح القدس الذي ينير المغتسِل**، وهذا الاغتسال يُدعى **«استنارة»** لأن **الذين يعرفون هذه الأمور يستنيرون روحياً**](٣).

الدعاء باسم الرب هو ختم المعمودية:

والدعاء باسم الرب على المعمَّد أو بفمه هو أثناء النزول في الماء: «قُمْ واعتمد واغسل خطاياك داعياً باسم الرب» (أع٢٢: ١٦). هنا قوة عمل الدعاء باسم الرب هو مكافىء لعمل حميم المياه، وهذا يعطي المعمَّد «قوة الاسم»، أي قوة المسيح التي ظهرت في الموت الكفاري والقيامة للحياة: «لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع و بروح إلهنا» (١كو٦: ١١).

(3) Apol. 1-61:10.

واضح هنا أن **عمل قوة اسم المسيح** عنصر هام قائم بذاته لقوة عمل الروح القدس في إتمام سر العماد.

هذا الدعاء باسم المسيح أثناء العماد هو الختم σφράγις الإلهي الذي يناله المعمَّد لينطبع على كل كيانه الروحي باعتباره قد صار تابعاً للمسيح ومن خاصته. هذا الختم هو بمثابة شهادة وسلطان من الله أن المعمَّد صار ابناً لله: «كل الذين قبلوه أعطاهم **سلطاناً** أن يصيروا أولاد الله» (يو١: ١٢)، وقد عبَّر بولس الرسول عن فاعلية المعمودية بتعابير غاية في العمق: «ولكن الذي يثبتنا معكم في المسيح **وقد مسحنا هو** الله، الذي **ختمنا أيضاً** وأعطى **عربون الروح في قلوبنا**» (٢كو١: ٢١و٢٢)، «الذي فيه أيضاً إذ آمنتم **خُتمتم** بروح الموعد القدوس» (أف١: ١٣).

والمعمودية كختم، حيث يتركز الختم في إجراء الدعاء باسم المسيح، هي تقليد انتقل أيضاً إلى الآباء الرسوليين، فيقول هرماس عن المعمودية إنها ختم الموت والحياة:

[قبل أن يحمل الإنسان اسم ابن الله يكون ميتاً، ولكن حينما يقبل الختم فإنه يخلع الموت ويلبس الحياة، والختم هو الماء، فهم ينزلون إلى الماء أمواتاً ويخرجون أحياءً](٤).

وجاء أيضاً في الرسالة الثانية المنسوبة لكليمندس الروماني (٩٢–١٠١م.):

[احفظوا الجسد طاهراً واحفظوا الختم (المعمودية) بلا عيب حتى تنالوا الحياة الأبدية](٥).

مسئولية الإنسان المعتمد:

نوال هبة المعمودية كميلاد جديد من الله ينشىء في الحال مسئولية عظمى على الإنسان المعتمد. فالمعمودية وزنة وهبة عظمى تحمل صورة الله واسمه وختمه، لذلك سيعطي الإنسان جواباً عن مدى احترامه وحفظه واستخدامه لها.

(4) Quasten, Patrology, vol. I, 101.

(5) Ibid., 56.

ولكي نتحقق من خطورة التحذير الوارد في رسالة العبرانيين عن الذين سقطوا بعيداً عن المستوى اللائق بالمعمدين: «لا يمكن تجديدهم أيضاً للتوبة (أي لا يمكن تعميدهم مرة أخرى) إذ هم يصلبون لأنفسهم ابن الله ثانية ويشهرونه» (عب٦:٦)، «فإنه إن أخطأنا باختيارنا بعد ما أخذنا معرفة الحق لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا بل قبول دينونة مخيف وغيرة نار عتيدة أن تأكل المضادين» (عب١٠: ٢٦و٢٧)، نقول إنه إذا أردنا أن ندرك خطورة ذلك علينا أن نعود إلى وضع بني إسرائيل الذين اعتمدوا في البحر الأحمر ـــ بالإيمان بالله ـــ الذي هو مثال المعمودية الحاضرة ـــ كمعجزة عظمى للخروج من عبودية مصر، إذ عبر بهم الله على يد موسى من الموت المحقق إلى الحياة عبر البحر. ولكن، وبالرغم من هذا، تمرد الشعب على الله فاعتبر الله تمرده أنه إهانة واحتقار لمعجزة إخراجه من مصر وعبوره البحر الأحمر الذي هو مثال المعمودية، فدفع الشعب ثمن هذا العصيان و«عدم الإيمان» وحل عليه غضب الله، فطُرحت جثثهم في القفر وهلك الجيل بأكمله، غير أن الرب أبقى لنفسه شاهدين!

كذلك نلاحظ هنا أن معمودية البحر الأحمر لم تسعف فرعون وجنوده بل كانت لهم موتاً وهلاكاً، في الوقت الذي أعطت النجاة والحياة لشعب الله. كذلك فإنها لم تنفع شعب الله الذي لم يقدم أثماراً تليق بالتوبة. ويوحنا المعمدان يؤكد أن **المعمودية** بدون **أعمال** تليق بالتوبة هي معمودية للموت: «والآن قد وُضعت الفأس على أصل الشجر، فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تُقطع وتُلقى في النار» (لو٣:٩)، «يا أولاد الأفاعي (الذين يأتون إلى المعمودية هرو باً من غضب الله ولكن لا يعملون أعمال التوبة) من أراكم أن **تهربوا من الغضب** الآتي، فاصنعوا **أثماراً تليق بالتوبة**» (لو٣: ٧و٨). فالمعمودية فعل حياة أبدية مربوط بالإيمان، إذا استهان به الإنسان وسقط عنه ـــ بالارتداد أو جحد الإيمان بالمسيح ـــ لا يعود الروح القدس يعمل فيه كفعل حياة وتجديد بل يدخل تحت الدينونة. فبعد أن يكون الإنسان شريكاً في موت المسيح على الصليب للقيامة والحياة يصير بجحوده للمعمودية والإيمان صالباً للمسيح!!

والقديس بولس الرسول، في رسالته إلى أهل رومية الأصحاح السادس، يعالج

الحياة بعد المعمودية ليس على مستوى الارتداد الكامل أو جحد الإيمان، ولكن على أساس مجرد الرجوع لحياة الخطية وتمكين الخطية في الأعضاء وفقدان الرجاء بضعف الإيمان، فإن فعل الحياة الذي كان يسري فينا بقوة الإيمان بمقتضى سر المعمودية يتوقف وتبدأ الخطية تفعل فعل الموت مرة أخرى!! «لا تملكن الخطية في جسدكم المائت (بالمعمودية)» (رو٦: ١٢).

وعلى هذا الأساس تتضح لنا الأمور الآتية:

١ ـــ إن فعل الله في العماد يعتمد على إيماننا بقداسة الله وندائنا باسم يسوع المسيح ليعبر بنا من الموت إلى الحياة، وهذا يوضحه دخول شعب إسرائيل في البحر وراء موسى بدون خوف. أما حالة الأطفال الذين عبروا مع آبائهم وأمهاتهم، فعبورهم لم يعتمد على إيمانهم بالله وبالعبور، بل على وجودهم وسط شعب الله. فهنا تبعية الطفل للكنيسة العابرة وسط البحر هي التي أعطته فعل العبور والحياة ليستخدمه في كل حياته المستقبلة؛ أي أن إيماني بالمسيح الآن أو عدم إيماني لا يغيِّر من الحقيقة أنني اعتمدت للمسيح ونلت كل حقوق الإنسان الجديد والشركة في ملكوت الله وفي جسد المسيح، أي العضوية في جسده عندما كنت طفلاً، وهذا من واقع الامتياز أنني وُلدت من أسرة مسيحية أي داخل الكنيسة.

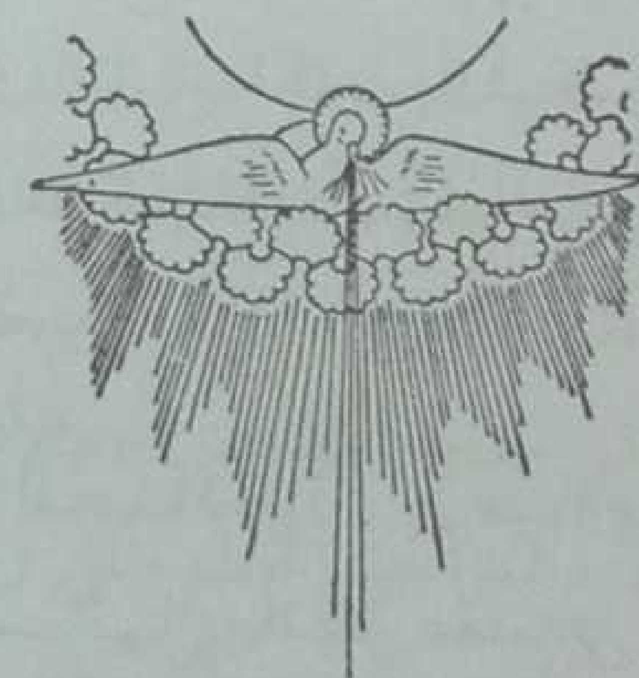
٢ ـــ **الفعل الأول للعماد**، إذاً، يتم فينا بمجرد أن نكون قد اعتمدنا، وهذا يوضحه عبور شعب إسرائيل بالفعل معتمدين على قوة الله وإيمانهم باسم الله في عبورهم. هنا مجرد عبور الطفل أعطاه كل حقوق الخلاص من عبودية فرعون، وكل قوة وبركة ومعونة الله للسير في البرية أربعين سنة. فهو بعد العبور لا يُطالَب بإيمان ما قبل العبور ولكن يُطالَب بإيمان ما بعد العبور.

٣ ـــ **الفعل الثاني للعماد** له قوة وقدرة مستقبلية لحياتنا، يعمل فينا بقدر حفظنا واعتمادنا على الفعل الأول. وهو الذي أخفق فيه شعب إسرائيل فأنكروا قوة الله التي عبرت بهم وجحدوا اسم الله الذي عبروا وراءه وقالوا للعجل: «هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر» (خر٣٢: ٤).

هنا الأطفال الذين عبروا قد نالوا قوة الفعل الأول — العبور — ولا يُطالَبون بعد بمستلزماته ولكن يُطالَبون بوصايا المسير، وهذا هو الفعل الثاني للعبور. أو بمعنىً آخر، إن عظمة وقوة الفعل الحادث في هذا السر تُظهرها استجابة الإنسان على مدى الأيام بطول حياة الإنسان كلها، في سلوك وأعمال لها قوة الاسم الذي اعتمدنا له، و بإيمان يساوي نفس الإيمان الذي اعترفنا به.

فالمعمودية فعل حياة جديدة مربوط بالإيمان بقوة اسم المسيح يتجدد كل صباح، بأعمال وأفعال تزكيها النعمة على نفس مستوى الإيمان بقوة اسم المسيح على مدى العمر كله.

(١٩٨٣)



معمودية المسيح ومعموديتنا

إن العلاقة بين معمودية المسيح في نهر الأردن و بين صبغته الخلاصية على الصليب عندما تخضب جسده بالدم، هي علاقة عميقة وسرية للغاية، فقد اعتمد المسيح في الأردن ليفتتح درب الصليب طريق الخلاص، وأكمل من أجلنا كل بر الناموس، كقوله ليوحنا قبل أن ينزل إلى الماء، وعِوَضَ كل خاطىء بل عوض البشرية كلها قَبِلَ المعمودية وكأنه يعترف بخطايا جميع الناس. أما معمودية الصليب التي عبَّر عنها بالصبغة المزمع أن يكمِّلها، فقد دان بها الخطية ذاتها بالجسد ومات لأجل الجميع ليحيا الجميع للذي مات لأجلهم وقام (راجع ٢ كو٥: ١٥).

«المسيح لم يكن يعمِّد» — هكذا يسجل لنا إنجيل القديس يوحنا — «بل تلاميذه» (يو٤: ٢)، أما المسيح فقد عمَّد البشرية كلها بصبغة الصليب بالدم مرة واحدة لمغفرة الخطايا. وهكذا افتتح لنا سراً من أخطر أسرار الحياة، وهو القيمة المذخرة في معمودية الدم (أي الاستشهاد): «بالصبغة التي أصطبغ بها أنا تصطبغان» (مر١٠: ٣٩)، فهي ليست بديلاً لمعمودية الماء فحسب، بل هي الأصل الذي تصدر عنه كل مفاعيل معمودية الماء التي نعتمد بها. فنحن في الماء نموت لا بشبه معمودية المسيح بل بشبه موته على الصليب، ونُدفن لا بشبه تغطيسه في ماء الأردن، بل بشبه دفنه في القبر ثلاثة أيام، ونقوم لا بشبه خروجه من الماء بل بشبه قيامته الحقيقية من القبر على يد شهود.

لقد أمات الله البشرية كلها مرة بالطوفان أيام نوح، ولكن كعقاب للخطاة وكغضب مُعلَن من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم. ولكن هذه المرة أمات الله على الصليب ليس البشرية الخاطئة بنوع الغضب — كمثل الطوفان: «نهاية كل بشر

قد أتت أمامي» (تك٦: ١٣)، حين لم يبقَ سوى ثمانية أبرار أبقاهم لنفسه من كل البشرية، حيث كانت هذه النسبة تمثل فداحة الخطية التي اجتاحت العالم آنئذ — بل هذه المرة لم يبقَ أمام الله ولا حتى ثمانية أنفس ليُبقيهم، بل أمات الله الطبيعة البشرية بحد ذاتها ككل — تلك التي أخذها لذاته في شخص يسوع المسيح. لقد اعتمد بها في الأردن وأعدّها للموت والقيامة، لقبول حياة أبدية لا تزول بلا خطيئة بعد. فالله أمات البشرية في ابنه، وأحياها مرة أخرى لنفسه، ليعيش الإنسان لا لنفسه فيما بعد بل لله في المسيح.

فالمسيح على الصليب اعتمد، أي انصبغ جسده أي طبيعتنا البشرية، للموت. انصبغ بالدم عن «**كل بشر**»، وهذا ما سبق وأعطى مدلوله ومفهومه التطهيري الطقسي عندما اعتمد في الأردن: «ولما اعتمد جميع الشعب (للتوبة) اعتمد يسوع أيضاً» (لو٣: ٢١). ولكن إن كان الجميع اعتمدوا من يد يوحنا كعبيد وخطاة أمام الله مقرِّين بخطاياهم، هاربين من غضب الله، فالمسيح اعتمد كابن محبوب لله: «وكان صوت من السماء قائلاً: أنت ابني الحبيب بك سررت» (لو٣: ٢٢). وهكذا بدأ مفهوم تبني الله للبشرية في شخص المسيح مبكراً جداً في هذا الإعلان العجيب، الأمر الذي أعلنه إنجيل القديس يوحنا بوضوح عند قوله بفم الله الآب: «أما كل الذين قبلوه (اعتمدوا له) فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله... الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله!!» (يو١: ١٢و١٣).

وعلينا أن نلاحظ أن معمودية يوحنا للشعب وللمسيح في الأردن لم تأتِ من فراغ. فالدخول في الماء بشبه مخاطرة الموت والخروج بشبه نصرة الحياة كإعجاز فائق أو كسرٍ عميق، نجده واضحاً في عبور شعب إسرائيل البحر على يد موسى، وعين الله في السماء ترعى العابرين بطاعة الكلمة، فلم تبتل حتى ثيابهم، أي لم يدركهم الموت قط. أما هذه العين ذاتها، أي عين الله، فكانت تُرعب المعاندين لصوت الله، فكان غرقهم بالجملة.

إنهم «جميعهم (أي شعب إسرائيل) اعتمدوا لموسى في السحابة وفي البحر»

(١ كو١٠: ٢). هنا السحابة تعبِّر عن حضور الله والخضوع لكلمته في الصبغة التي أخذها الشعب تحت عمود السحاب وعمود النور. ونلاحظ أن المسيح أيضاً اعتمد في البحر وفي السحابة: في البحر على يد يوحنا المعمدان، وفي السحابة في التجلي على يد موسى وإيليا، لأن في الأردن انصبغ المسيح عن كل الشعب، وفي السحابة المنيرة بشهادة الناموس والأنبياء.

وهكذا تنكشف لنا أعماق أسرار معموديتنا الآن، التي أخفق شعب إسرائيل أن يحتفظ بقوتها، فأعادها لنا المسيح بقوة لا تزول، بقوة روح الله القادر حقاً أن يميت ويحيي، يميت كل ما هو باطل فينا ويحيي كل ما هو حق. لذلك نسمع مبكراً جداً عن الروح القدس كقوة مؤثرة وفعالة وأساسية في العماد من قول يوحنا المعمدان:

+ «الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي: الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه **فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس**» (يو١: ٣٣).

ولأن المسيح هو الذي سيعمد بالروح القدس، فواضح غاية الوضوح أنه سيمنحنا كل نتائج موته عن الخطايا وكل مستحقات أمجاد قيامته سرًّا بالروح القدس، الروح الذي يعمل في الطبيعة البشرية ليخلقها من جديد، بقوة تفوق الناموس والوصايا وكل وسائط العهد القديم، الأمر الذي يفوق «كل بر» بالمفهوم القديم. فمعموديتنا الآن للمسيح إنما تتم بالمسيح «هو الذي يعمد»، ليعطينا كل ما له بالروح القدس بعد أن يرفع عنا خطايانا.

+ «نحن الذين اعتمدنا للمسيح قد لبسنا المسيح» (راجع غل٣: ٢٧) ليصير المسيح فينا حياتنا.

+ «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» (غل٢: ٢٠). هذا هو قمة عطايا الله للإنسان، وإن كانت حياتنا الآن مستترة في المسيح لا يحسها إلا روح الإنسان الذي فيه.

وهكذا فإن عماد المسيح بالماء وحلول الروح القدس عليه بعد خروجه من الماء

وامتلاء منه وشهادة الله له بالبنوة، هذا يعطي الأساس اللاهوتي لمعنى ومضمون عمادنا للمسيح من الماء والروح على خلفية الصليب المحيي، ويعود بنا إلى العهد القديم محققاً قول إشعياء النبي القائل: «هوذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي **سُرَّت به نفسي. وضعت روحي عليه** فيُخرج الحق للأمم...» (إش٤٢: ١).

ولهذا نسمع المسيح ينبه ذهن تلاميذه إلى الأهمية العظمى لانطلاقه إلى الآب: «خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي» (يو١٦: ٧)، لأن المسيح يدرك أن إرساله الروح القدس من عند الآب كفيل أن يكمل مسيرة المسيح الخلاصية، ليس للتلاميذ فحسب بل للعالم كله، على أساس استعلان قيمة موت المسيح وقيمة قيامته، ثم مَنْحِها معاً كفعل واحد في المعمودية، وهذا كفيل أن يخلق الطبيعة البشرية بالروح من جديد. فموت المسيح وقيامته، وإن كانا يعطيان الأساس للمعمودية بحد ذاتها، إلا أنه لا يمكن أن تُستعلن قوتها أو أن ينال أحد مفعولها وأثرهما أو يشترك فيها إلا بواسطة الروح القدس.

لذلك، فالعماد لموت المسيح وقيامته واشتراك الإنسان فيهما لمغفرة الخطايا وقبول حياة جديدة، ما كان يمكن أن يبدأ، حتى و بعد أن أكمل المسيح موته وقيامته، إلا بمجيء المعزي الروح القدس.

ومن هذا الاتجاه نفهم لماذا شدد الرب على التلاميذ أن لا يبرحوا أورشليم حتى يحل الروح القدس عليهم وينالوا مِلأه، لأنه بدون الروح القدس لا يمكن إدراك مفعول العماد أو مباشرة عمله من جهة مغفرة الخطايا وإعطاء حياة أبدية. كذلك عندما نفخ الرب في وجه تلاميذه بعد القيامة وقال: «من غفرتم خطاياه تُغفر له» (يو٢٠: ٢٣)، فإن المسيح هنا في الحقيقة يعطي بداية قوة وأساس الكرازة والتبشير والتلمذة للمسيح بالعماد. **هنا إشارة ضمنية إلى المعمودية**، لأن قيام التلاميذ بإعطاء الروح القدس الذي قبلوه هم كفيل بأن يهب الآخرين الشركة في موت الرب وقيامته، التي هي أساس مغفرة الخطايا وذلك بالمعمودية. واستطراد المسيح بقوله: «من أمسكتم خطاياه أُمسكت» (يو٢٠: ٢٣)، يعطي إشارة ضمنية إلى «منع المعمودية» الذي يعني بالتالي

منع إعطاء مغفرة الخطايا.

والمنع هنا قاصر على تمادي الإنسان في الارتباط بأركان العالم المظلمة، أي انعدام نية التوبة والموت عن أباطيل العالم؛ لهذا نجد في ترتيب الخلاص أن موت المسيح عن العالم يسبق حتماً إعطاء الروح القدس.

«من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي. قال هذا عن الروح القدس الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه. لأن الروح القدس **لم يكن قد أُعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد**» (يو٧: ٣٨و٣٩). هنا الروح القدس المكني عنه بـ«**أنهار الماء الحي**» مرتبط **بموت المسيح**. هنا أيضاً إشارة إلى ترتيب عناصر المعمودية: الموت أولاً ثم إعطاء الروح القدس. لهذا لم تبدأ المعمودية لموت المسيح وقيامته إلا بعد دخول الروح القدس إلى العالم يوم الخمسين بتعيين مُسْبَق.

لذلك حينما قال الرب على الصليب: «**قد أُكمل**» ونكّس الرأس (يو١٩: ٣٠)، كان هذا إيذاناً ببدء تاريخ حركة المعمودية لخلاص الإنسان. فقد أكمل المسيح الصبغة ـــ أي أنه رفع الخطية عن العالم بموته على الصليب ـــ محققاً أساس المعمودية التي اعتمد بها من يد يوحنا، وقَبِلَ الصبغة التي طالما تكلم عنها، أي معمودية الموت التي سيعتمد بها ولها كل بشر لنوال مغفرة الخطايا والحياة الأبدية.

وعندما حل الروح القدس يوم الخمسين اكتمل الفعل والفاعل، فانطلقت الكنيسة في الحال تبشر وتعمد لموت المسيح وقيامته، و بدأ تاريخ الخلاص الفعلي، وانفتح ملكوت الله لكل الذين قبلوه مصطبغين باسمه مدعوين أبناء الله.

□□□

إن المعمودية بهذا الوصف الدقيق هي مركز الخلاص وقوته وأساسه وفعله، وهذه هي الحقيقة الأولى في المسيحية، على أساس استيعاب دور الروح القدس فيها، الذي ليس فقط يعطي بالفعل السري ما أكمله المسيح لنا بموته وقيامته من غفران خطايا

وحياة أبدية، بل ويكشف لنا عن شخص المسيح نفسه ويستعلن علاقته مع الآب، تماماً كما حدث ليوحنا بالروح القدس بعد أن اعتمد المسيح، إذ يقول: «**وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله**» (يو١: ٣٤)، لأن حلول الروح القدس على المسيح فتح عيني يوحنا وفتح أذنيه، فرأى الروح نفسه وسمع صوت الآب معلناً أن المسيح هو ابن الله.

إذاً، فقوة المعمودية تتعدى فعل الخلاص كشركة في موت المسيح وقيامته، وتتجاوز عطية الروح القدس المختصة بإعطاء حياة جديدة لسلوك جديد، **إذ فوق هذا وذاك تفتح البصيرة** لكي يدرك الإنسان ما وراء فعل الخلاص وعطية الحياة بالروح، أي حقيقة المسيح نفسه ولاهوته في سر الثالوث المذهل: «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله»...!

لذلك فبعد ما نالت الكنيسة الروح القدس يوم الخمسين، انطلقت تشهد وتعمد بالروح القدس. فالتلاميذ يشهدون للمسيح، والروح القدس يشهد في المعمَّدين بألسنة جديدة: «الروح ... يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً» (يو١٥: ٢٦و٢٧). فالروح القدس كان ينطق في المعمَّدين لحظة وضع الأيادي، شاهداً للمسيح بلسان جديد و بقوة وبآيات وعجائب كآية تعلن قيمة المعمودية وفعلها، وكعطية خلاصية لحصول مغفرة الخطايا وقبول حياة جديدة فائقة، فيها ينطلق اللسان شاهداً للمسيح بفرح لا ينطق به ومجيد، ولنوال الاستنارة الذهنية التي بها يدرك الإنسان سر المسيح فينطلق يبشر ويشهد بما يرى وبما يسمع كل يوم: «لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا» (أع٤: ٢٠).

وقول حنانيا بالروح لشاول الطرسوسي يجمع بين **المعمودية والشهادة** بصورة واضحة وحاسمة: «لأنك ستكون له **شاهداً لجميع الناس** بما رأيت وسمعت. والآن لماذا تتوانى **قم واعتمد واغسل خطاياك** داعياً باسم الرب» (أع٢٢: ١٥و١٦).

هكذا استودع المسيح سر موته وقيامته للكنيسة بواسطة سكب الروح القدس في

العماد باسم الرب كفعل سري خلاصي وكقوة شهادة لا تعاند. وهكذا صارت الكنيسة مؤتمنة على فعلي الموت والقيامة تمنحها أو تمنعها؛ تمنحها فينال الإنسان الحِلّ والمغفرة من جميع خطاياه للحياة الأبدية أو تمنعها عن الذي تراه غير مؤتمن على هذا السر فيبقى في خطاياه وتمتنع عليه الحياة الأبدية.

والمعمودية سر لا يتكرر، لأن المسيح مات مرة واحدة ولا يسود الموت عليه بعد. هكذا كل من اعتمد للمسيح لا تتكرر معموديته قط، لأنها ليست تكراراً لمعمودية المسيح على الصليب بل هي في الحقيقة اصطباغ حقيقي في ذات صبغة المعمودية الواحدة التي أجراها المسيح مرة واحدة بالموت الذي ماته على الصليب كذبيحة فريدة في نوعها عن كل إنسان.

لذلك، فكل إنسان يعتمد للمسيح في الكنيسة يعلن اشتراكه في موت المسيح مرة واحدة كفعل إلهي ينتهي بالقيامة، و بتعبير بولس الرسول يلبس المسيح ميتاً ومُقاماً: «نحن الذين اعتمدنا للمسيح قد لبسنا المسيح» (راجع غل٣: ٢٧)، فكيف نخلعه؟ أو هل يستطيع الذي قام مع المسيح أن يموت؟ فكما أن الموت لا يسود على المسيح كذلك أعضاؤه، إن كانوا حقاً فيه. فالمسيح أعطى موته وقيامته للكنيسة ليخلق لنفسه بواسطتها أعضاءً جديدة لجسده، ويبقى هو دائماً رأس الكنيسة، والمعمَّدون جسده، أخصَّاءه: «من لحمه ومن عظامه» (أف٥: ٣٠)، «وأما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً» (١ كو١٢: ٢٧).

وعلينا أن ننتبه دائماً أن المسيح مات على الصليب وقَبِل الصبغة ــ أي المعمودية بالدم ــ في جسده الذي هو نحن، ليخلق في نفسه الإنسان الجديد الذي كانت تتمناه البشرية ولكن لا تعرف كيف يكون. فالمسيح مات وأكمل الخلاص والفداء دون وعي من جهة الإنسان، كما يقول القداس الغريغوري: «من أجل الضالين وغير العارفين»، أو كما يقول بولس الرسول: «لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو٥: ٨)، أي ونحن مرفوضون تماماً ورافضون تماماً لنعمة الخلاص ــ لا ندريها ولا نريدها ودون شعور منا بها ــ وهبها لنا المسيح مجاناً؛ حتى إذا أدركناها فيما بعد وأردناها

بحرية إرادتنا، نمتلىء فرحاً ونعيماً وسروراً ونشعر حينئذ بعظم الاحتياج بل و باستحالة الحياة بدونها، وذلك كله حينما نقبله رباً ومسيحاً بإرشاد الروح وجَذْب الآب: «لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو١٦: ١٢و١٣). كما يقول الكتاب: «ليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس» (١كو١٢: ٣). وكذلك أيضاً يقول: «لا يقدر أحد أن يُقبِل إليَّ إن لم يجتذبه الآب» (يو٦: ٤٤)، أي لا يستطيع أحد أن يُقبِل إلى المعمودية من ذاته أو بمشيئته، أو يأتي إلى عضوية جسد المسيح بقناعة منطقية أو بذكاء أو فهم بشري أو بإحساس الحاجة الطبيعية إليها، بل هي مشيئة الآب التي تجذب بالروح المختارين إلى المسيح لنوال التبني!! فالله هو الذي يدعونا بروحه بنخس الضمير ليتبنانا لنفسه في شخص ابنه يسوع حسب مسرة مشيئته: «لأنه هو أحبنا أولاً» (١يو٤: ١٩)!!

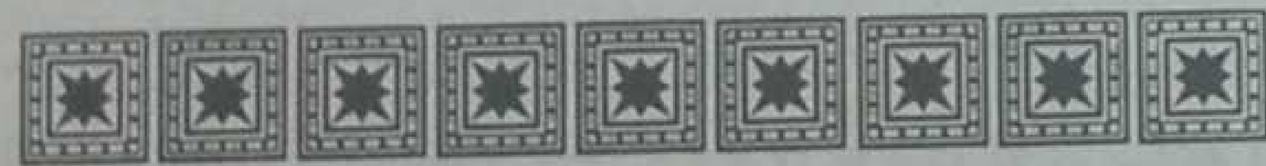
ولا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن الميلاد الجديد بالمعمودية، هو علاقة شخصية بالله تبدأ من الله وتنتهي به، **فهي علاقة مسرة ذاتية**، علاقة حب وتبني: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (مت٣: ١٧)، هذا هو صوت الآب لكل من أقبل إلى الله بالمسيح ليعتمد لموته!! كما سبق المسيح وأعلن عن **عمله السري في هذه العلاقة التي أنشأها لنا مع الآب**، فهو المسافة الروحية التي تصلنا أو تفصلنا عن الله، التي أوضحها عندما قال بإيجاز شديد: «**أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية**» (رؤ١: ٨)، وأيضاً: «أنا هو الباب» (يو١٠: ٩)، وأيضاً: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو١٤: ٦)، «ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو١٤: ٦). لذلك يكمل لنا المسيح في المعمودية ما أكمله من أجلنا على الصليب. فكما بدأ المسيح الخلاص بالموت وأكمله بالدفن ثم القيامة، في نفسه، هكذا في المعمودية يعطينا المسيح ذاته، يعطينا موته وقيامته، البداية والنهاية! وفي الإفخارستيا يصير جسده ودمه هو الطريق الحي الجديد الذي ندخل به إلى الأقداس العليا.

ولكن تظل البداية والنهاية لنا تحتاج كل يوم إلى تكميل، فالموت بالنسبة لنا عمل دائم: «من أجلك نمات كل النهار» (رو٨: ٣٦)، والقيامة تحتاج إلى النظر دائماً إلى

فوق، لأن العضو لا يدخل في جسد المسيح أي الكنيسة كاملاً في شيء، بل والكنيسة كلها معاً لا تزال تنمو في الإيمان وتكمل في قامة المسيح؛ على أنها لا تبلغ حد الكمال طالما هي على الأرض بل تنمو كل يوم وينمو أعضاؤها، في كل مواهب الخلاص واستحقاقاته وإدراك أسراره: «صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس: المسيح» (أف٤: ١٥). وكما يقول ويكرر بولس الرسول أن الأعضاء ليست متساوية في الدعوة أو في الوظيفة أو في المواهب أو في الجمال أو في الكمال، ولكن الكامل عليه دائماً أن يُكمِّل الناقص والناقص عليه دائماً أن يأخذ من الكامل ما هو أفضل، حتى نمتلىء جميعنا إلى كل ملء الله!! ومن خصائص جسد المسيح أن ليس فيه افتخار لعضو على عضو حتى لا يكون انشقاق بين الأعضاء إن كانوا حقاً في المسيح، وإن كانوا اعتمدوا لموته فعلاً واستقوا من روحه القدوس.

أما عمل الكنيسة الآن فهو تكميل عمل المعمودية الأولى: «لبنيان جسد المسيح إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله إلى إنسان كامل إلى قياس قامة ملء المسيح» (أف٤: ١٢و١٣). والكنيسة عملها الوحيد أن تعرِّف كل إنسان بغِنَى ميراثه الذي ناله بالتبني، بقبوله المعمودية باسم يسوع المسيح: «مستنيرة عيون أذهانكم (فعل المعمودية الأول) لتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين» (أف٢: ١٨).

(١٩٨٢)



عيد الغطاس

عيد معمودية التوبة(*)

اليوم تعيِّد الكنيسة لعيد الغطاس. وعيد الغطاس هو عيد معمودية التوبة. والتوبة حاضرة وقائمة في الكنيسة دائماً.

التوبة ذات علاقة كبيرة بملكوت السموات، وهذا نفهمه من الإنجيل (لو٣: ٢١): «ولما اعتمد جميع الشعب، اعتمد يسوع أيضاً»، ليبدأ المناداة بالملكوت (ولاحظ أنه في هذه الآية لا يقصد بـ«جميع الشعب» كل شعب إسرائيل، ولكن الشعب الذي اختاره الله ليغتسل ويستعد لقبول بشارة ملكوت السموات). وفي إنجيل القديس متى (٤: ١٧) يقول: «من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات». فالتوبة وملكوت السموات هما عملان في عمل واحد. **التوبة في الكنيسة عمل أساسي.** وهذا هو محور حديثنا اليوم.

والسنة التي ابتدأ فيها المسيح الكرازة والتي بدأت بالتوبة سمَّاها إشعياء النبي «سنة مقبولة للرب» (إش ٦١: ٢).
فلماذا لا تكون هذه السنة لنا أيضاً سنة مقبولة لدى الرب؟

والقديس بولس الرسول أيضاً اعتبر الزمن الحاضر أنه زمن خلاص، باليوم والساعة: «الآن يوم خلاص...» (٢كو٦: ٢)، «إنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم،

(*) عظة أُلقيت على الرهبان بدير القديس أنبا مقار يوم عيد الغطاس المجيد ــ الجمعة ١٩ يناير ١٩٩٠.

فإن خلاصنا الآن أقرب مما كان حين آمنَّا» (رو١٣: ١١و١٢).
فلماذا لا يكون اليوم هو يوم خلاص لنا، وهذه الساعة هي ساعة خلاص؟ أم هل الوقت يتقادم أو أن المسيح يتغير؟

أتمنى أن يكون كلام اليوم حدًّا فاصلاً بين ما قد فات وبين ما هو آتٍ. إن ما فات كل واحد يعرفه، ليس فقط في مضمونه وشكله الظاهري أنه رديء، بل ولابد أيضاً أن يعرف ويحس أكثر فأكثر بمقدار الرداءة التي كانت عليها حياته فيما مضى. فهل يمكن أن نبدأ لنغيِّر ما فات ونحن اليوم نعيِّد للتوبة؟! هل هذا العيد هو مجرد سهر للصباح أم أنه «**تجديد عهد**»؟ أتمنى أن لا يكون هذا العام مثل باقي الأعوام المنصرمة بالنسبة لعيد التوبة، لأن ما فات اتضح أن ثمره كان رديئاً جداً سواء على المستوى الفردي أو الجماعي. فهل يمكن أن نبدأ منذ اليوم ونكرز لأنفسنا بملكوت الله، باعتبار أن التوبة قائمة ولم ينغلق بابها أبداً، وباعتبار أنها هي الباب المفتوح لملكوت السموات؟

أظن أنه لو دخل كل واحد إلى نفسه الآن، لوجد أن كل ما فات يحتاج إلى تغيير وإلى غسل؛ فالمضمون الروحي للمعمودية هو أنها غَسْل، كما قال حنانيا لشاول (بولس): «قُمْ واعتمد واغسلْ خطاياك...» (أع ٢٢: ١٦)؛ والمعمودية قائمة كسرٍّ لا يبطل ولا يفتر، وهي كفعل روحي لا سلطان للزمن عليها، الخطية فقط لها سلطان على هذا الفعل فينا، أما الزمن فلا سلطان له عليه. فهل يمكن أن نستوحي من روح هذا العيد، عيد التوبة، قوة جديدة ومفهومات جديدة نعيش بها من جديد؟ ألا تكفي السنين التي مضت بما فيها من تيه وضلال وغواية، وحصيلتها لا تساوي في نظر الله ملكوت السموات؟ ألا يكفي ما أضَعْته من فرص حياة أتتك في أجمل وأقوى سني عمرك؟ أما يكفي السنين التي أكلها الجراد (كما يخيم الجراد على حقل أخضر فلا يُبقي فيه على أي أخضر بعد)، أي النفوس التي لم يعد لها في سني حياتها من ثمر، إلا الثمر الذي كلما نذكره نتنهد ونحزن ونتوجع في قلبنا؟ ولكن إلى متى الحزن؟ الذي وإن كان حزناً من الله للتوبة؛ لكن إن تصلَّبت ولم تمسك بالفرصة الحاضرة

لكي تغيِّر، فإنك تذخر لنفسك غضباً في يوم الغضب. فلماذا تسوِّف العمر باطلاً، وكأننا نكتب على جباهنا أننا ننتظر يوم الغضب، مع أن إمكانية التوبة والتغيير حاضرة الآن وسهلة المنال؟

أريد أن أضع أمامكم اليوم أسس الحياة الجديدة حتى نعيش «كما يليق بالدعوة التي دعينا إليها» (راجع أف ٤: ١). كل دعوة لها أصول ـــ سواء الدعوة المسيحية العامة أو الدعوة الرهبانية الخاصة ـــ و ينبغي أن تكون هذه الأصول واضحة أمامنا حتى نسلك كما يليق بهذه الدعوة.

* * *

أسس الحياة الجديدة

تبدأ الحياة الجديدة ـــ كما أرانا المسيح ـــ من فوق، من السماء، فإن أول حجر في بناء الخلاص وُضع فوق في السماء، وهو **الإخلاء** أو التواضع. فإنه قبل أن ينزل المسيح على الأرض ليتمم الخلاص، **أخلى ذاته**. ولهذا فحينما نزل المسيح على الأرض قال: «تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب» (مت ١١: ٢٩). أما القديس بولس فقد قال: «... الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد... وإذ وُجد في الهيئة كإنسان **وضع نفسه وأطاع** حتى الموت» (في ٢: ٦ـــ٨).

هذان الاثنان: التواضع والطاعة هما أساس المسيحية: «وضع نفسه» و«أطاع حتى الموت»، فإن لم يكن قد وضع نفسه فمستحيل كان يقدر أن يطيع. مَنْ هو الذي يطيع؟ المتواضع! هذا هو أساس المسيحية، ثم صار هو أساس الرهبنة، لأن الرهبنة ليست شيئاً مستحدثاً في المسيحية أو أعظم منها ولكنها هي المسيحية في صورتها المخصَّصة الواضحة.

فأساس الطريق المسيحي كله: اتضاع حقيقي، وطاعة.

ما معنى التواضع؟

هذا هو نموذج التواضع: المسيح، الإله الممجَّد في السماء، أخلى ذاته وأخذ شكل العبد، لم يأخذ فقط شكل إنسان؛ بل وأخذ أيضاً شكل العبد المشترَى الذي ينحني ويغسل أرجل أسياده. لأنه مَنْ الذي يشدّ وسطه ويغسل الأرجل إلا العبد (لو ٢٢: ٢٧). فالمسيح تواضع وأخذ شكل العبد وغَسَل الأرجل. لذلك استطاع أن يخضع حتى إلى موت الصليب.

فالصليب هو ثمرة **التواضع والخضوع** معاً.
ومَنْ ليس له صليب، ليس له تواضع ولا خضوع.
فالاتضاع يؤدي إلى الطاعة، والطاعة تؤدي إلى الصليب.

وما هي الرهبنة:

الرهبنة ذبيحة.

الرهبنة هي صَلْب الجسد وتقديم ذبيحة حياة، هي صليب وذبيحة. ولابد أن يسبق الصليب طاعة. والطاعة ليست سهلة، الطاعة مُرّة كالكأس التي شربها المسيح، لكنها شرط حتمي لبلوغ الصليب. والذي يطيع ويتألم، يصير في الحال شريك المسيح ويحل عليه روح المجد والله: «إن كنتم تتألمون عاملين الخير (وهذه هي الطاعة)... فطوبى لكم لأن روح المجد والله يحل عليكم» (١بط ٢: ٢٠؛ ٤: ١٤).

أما الذبيحة فلابد أن تكون **مقدَّسة** حتى تُقبل كذبيحة أمام الله: «الذي قدَّسه الآب وأرسله...» (يو ١٠: ٣٦). وكلمة «مقدَّس» في اللغة العبرية تعني «مُفْرَز» و«مخصَّص». فالقداسة هي التخصُّص لله، وذلك يكون بالفرز من العالم. التقديس في الرهبنة يبدأ بفصل الإنسان نفسه عن العالم بكل ما في العالم من معنى، و بعزل العالم من واقع الحياة فكرياً وعملياً من أجل الحياة مع الله.

وفعل التقديس يبدأ من جانب الإنسان، بتخصيص الحياة برُمَّتها لله. فإذا نجح الإنسان في عزل وفصل نفسه عن العالم في فكره وقلبه وشعوره وآماله، يبدأ الله يعمل

فيه. لأن مَنْ خصَّص نفسه لله، جعله الله أيضاً من خاصته، فيصير الله مسئولاً عن حياته، كما قال الله في القديم: «اخرجوا من وسطهم واعتزلوا، يقول الرب، ولا تمسوا نجساً فأقبلكم» (٢كو٦: ١٧)؛ «مَنْ لي في السماء، ومعك لا أريد شيئاً في الأرض» (مز٧٣: ٢٥).

وكيف انفصل عن العالم؟

إن الجزء الذي فينا من العالم هو الجسد. فلكي تنفصل عن العالم لابد أن تكون منتبهاً لحركات الجسد فيك إن كنت تريد أن يكون لك ذبيحة أمام الله. لذلك ففصل النفس عن العالم يتم داخلياً بقمع الجسد وضبطه واستعباده، أي السيادة على كل شهواته، وذلك بصفة مستمرة ودائمة مهما بلغ الإنسان في درجات الروح والقداسة. كما قال القديس بولس: «أقمع جسدي وأستعبده حتى بعدما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضاً» (١كو٩: ٢٧).

ولابد أن نختار إما العالم أو المسيح. إذ يستحيل الجمع بين الاثنين معاً، ولا يمكن أن نشرب من كأس الرب وكأس الشيطان (١كو١٠: ٢١). لأن ما نطيعه فله نصير عبيداً «أنتم عبيد للذي تطيعونه إما للخطية للموت أو للطاعة للبر (والمسيح هو البر)» (رو٦: ١٦). فإما تطيع الخطية فتستعبدك، وإما تطيع المسيح من كل القلب فتصير عبداً ليسوع المسيح، وهكذا كان بولس الرسول وكان يفتخر بهذا أنه عبد ليسوع المسيح.

فإذا استطعت أن تستعبد الجسد وتسود عليه بأن لا تطيع شهواته ولا ميوله من جهة العالم، فحينئذ تكون قد أصبحت سيداً على الجسد؛ وبهذا تغلب العالم.

إننا ندخل الآن إلى مفتاح الحياة الأبدية، ولكن عن طريق الجسد، أي من خلال الحياة اليومية، أعني من خلال الخضوع والطاعة والتواضع. وهذه كلها أعمال في أيدينا أن نعملها كل يوم ونتقنها بالإرادة والعزم والصبر. حقاً إن الطاعة ليست أمراً سهلاً، لأنك فيها تقف ضد ذاتك الكبيرة. الطاعة **مجازفة**، لأنك تطيع وتقف ضد ذاتك وليس أمامك العِوَض. الطاعة **مجازفة**، لأنك تطيع وأنت ترى أن الألم أمامك

ينتظرك نتيجة طاعتك، ولا جزاءً مباشراً ستناله مقابل طاعتك هذه وخضوعك، لأن الجزاء تناله بعد حين. لأنه لابد أن يُختبر الاتضاع وتُمتحن الطاعة.

هذا هو دورنا، الطاعة والخضوع، فإذا تم هذا الدور يأتي الروح القدس ويدخل ليملأ ويقدِّس. ولكن إن كان في الجسد تراخ وتهاون واستمتاع بالعالم، فلن يتسنَّى للروح القدس أن يدخل، إلى أن نتطهَّر: «اخرجوا من وسطهم واعتزلوا، يقول الرب، ولا تمسوا نجساً فأقبلكم» (٢كو٦: ١٧، قارن إش٥٢: ١١).

كيف يقبلنا؟ بإعطائنا الروح القدس.

هذا هو السبب الذي من أجله لابد أن نقمع الجسد ونستعبده ونسود عليه ونحرمه من الاتصال بشهوات العالم، وهكذا ننفصل عن العالم ونُفرز منه. لماذا الروح القدس لا يعمل فيك؟ السبب واضح: لأنك استهنت بالمنهج ولم تسلك «كما يحق بالدعوة التي دُعيت إليها» (انظر أف٤: ١)، استهنت بالمبادىء المسيحية الأساسية. «تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب» (مت١١: ٢٩). فهل تعلمت؟ فإن لم تتعلم من المسيح **التواضع والطاعة** فهل تنتظر أن يعمل فيك الروح القدس. لا يمكن أن يقترب إليك الروح القدس وفيك شيء من العالم. ولكن إذا حُفظ الجسد بعيداً عن العالم دخل الروح القدس. فإذا دخل الروح القدس، فإنه يدخل لا كضيف بل كمالك، فهو صانع هيكله فيك «أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم» (١كو٣: ١٦). والروح القدس حينما يحل، يكون موجوداً كعامل اتصال. فهو يوصلنا للمسيح والمسيح يوصلنا للآب.

بدون الروح القدس يستحيل عمل أي شيء يرضي الله؛ بل ويصير كل إيمان بالمسيح إيماناً كاذباً، لأن الروح القدس هو الذي يفتح بصيرة النفس والذهن من الداخل لترى المسيح باتصال على حقيقته؛ حينئذ يمكن أن يبدأ الإيمان. الروح القدس هو وُصْلة سرية، يعرِّفك كل ما عند المسيح، والمسيح يعرِّفك كل ما عند الآب.

بدون المسيح لا نستطيع أن نعمل شيئاً.

ولكن بدون الروح القدس لا نستطيع أن نقبل المسيح، ولا يحل المسيح في القلب.

ومن هنا ندخل إلى الإيمان، وحين يبدأ الإيمان، يكون ذلك ليس بالفكر بل بالاتصال الروحي الداخلي، أي بالروح القدس «ليس أحد يقدر أن يقول يسوع ربٌّ إلا بالروح القدس» (١ كو١٢: ٣)

* * *

الإيمان بالله والمسيح

«فآمن إبراهيم بالله فحُسب له براً»
(تك ١٥: ٦، غل ٣: ٦)

مصدر الإيمان في العهدين القديم والجديد واحد. فالإيمان بمعناه الكامل وفعله العملي هو إبراهيم، لذلك دُعي إبراهيم «أبو الإيمان».

إبراهيم كان بحسب الظاهر إنساناً عادياً جداً، وساكناً في أور الكلدانيين وسط أناس وثنيين لا يعرفون الله، وهناك أتاه صوت الله، كما أتاك أنت. «قال الرب لأبرآم: اذهب من أرضك ومن عشيرتك (الأسرة الكبيرة) ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك... فذهب أبرآم كما قال له الرب» (تك ١٢: ١و٤). وتغرَّب إبراهيم في أرض كنعان، وكان عمره آنذاك ٧٥ سنة.

وصعد إبراهيم أولاً إلى أرض حاران، ثم نزل إلى كنعان، وبنى مذبحاً للرب بجوار بيت إيل ودعا باسم الرب. ثم حدث جوع في الأرض فتغرَّب في أرض مصر التي خرج منها بمعجزة، وتغرَّب مرة أخرى في جرار وخرج منها بمعجزة أيضاً. ثم تخاصم معه ابن أخيه لوط لأنه كان منغمساً في شهوات الدنيا، فجاءه صوت من الله بالاعتزال عن لوط. وهذا هو الاعتزال الرابع (بعد الأرض والعشيرة و بيت أبيه)، وهو يشبه إلى حد ما اعتزالنا نحن عن العالم وشهوات الدنيا، لأن لوطاً طلب لنفسه

النصيب الأصلح من الأرض، فتركه إبراهيم يأخذ من خيرات الأرض ما يشاء، واعتزل هو عنه.

لاحِظ أن في هذا الاعتزال، يداوم إبراهيم في التخصص لله الذي تكلمنا عنه «اخرجوا من وسطهم **واعتزلوا** يقول الرب... فأقبلكم» (٢ كو٦: ١٧).

ثم سمع إبراهيم بأسْر لوط وهو في سدوم بواسطة الملوك الخمسة، وأسر ملك سدوم مع الأسرى، فأخذ إبراهيم غلمانه وأنقذه، ورجع من الحرب مع ملك سدوم بأسلاب وغنائم كثيرة، رفض أن يأخذ منها لنفسه شيئاً، وقال لملك سدوم: «لا آخذنَّ لا خيطاً ولا شراك نعل...» (تك ١٤: ٢٣). وهذا اعتزال عن شهوات الدنيا. ترك الكل لملك سدوم (وسدوم هي المدينة التي أكلتها نار الله فيما بعد).

والآن صار لإبراهيم ٢٥ سنة وهو سائر مع الله في منتهى التواضع والتقديس، وصوت الله يسمعه جيداً. وإذ أحب الله أبرآم، ظهر له في الرؤيا قائلاً: «لا تَخَفْ يا أبرآم. أنا ترس لك. أجرك كثير جداً». فقال أبرآم للرب: «أيها السيد الرب ماذا تعطيني وأنا ماضٍ عقيماً، ومالِكُ بيتي هو أليعازر الدمشقي... إنك لم تُعْطِني نسلاً» (أي إني محتاج إلى حياة). فإذا كلام الرب إليه قائلاً: «لا يرثُك هذا؛ بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثُك. ثم أخرجه إلى خارج وقال له: انظر إلى السماء، وعُدَّ النجوم إن استطعتَ أن تعدَّها. وقال له: هكذا يكون نسلك».
اسمع الآن ما يقول الكتاب: «فآمن (إبراهيم) بالرب فحسبه له برًّا» (تك١٥: ٦).

هذا كان بعد ٢٥ سنة من طاعته الأُولى لله وخروجه الأول. وقد نتساءل: هل الآن فقط بلغ إبراهيم الإيمان بالله؟؟ فأين الطاعة والمسير وراء الله وخروجه وهو لا يعلم إلى أين يذهب؟ وأين الخروج من الأرض والعشيرة و بيت أبيه والتغرُّب في كنعان ومصر والحرب مع كَدَرْلَعَوْمَر؟ وأين بركة ملكي صادق، **هل كل هذا ولم يكن إبراهيم قد بلغ الإيمان بالله بعد؟**

إذاً، فالإيمان شيء يختلف عن كل هذا! يختلف عن سماع الصوت والطاعة والخضوع والمسير بشجاعة وقوة وإصرار وراء صوت الله! نعم، الإيمان غير كل هذا. «فآمن إبراهيم بالله فحُسب له براً». كيف كان هذا الإيمان؟ المعنى واضح لمَنْ عنده بصيرة: لقد قال الله له: «لا يرثك هذا؛ بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك». **فأحس إبراهيم بكلمة الله تدخل كيانه، أحس بكلمة الله تمس مواته الذي يئن بسببه فآمن بالله!** لقد ظهر الإيمان حين مسَّ الله إبراهيم في داخل كيانه، مسَّه في الموات الذي كان فيه، والذي كان بسببه يعيش بدون رجاء!! الإيمان انبثق من عمق أعماق نفس إبراهيم، لما مسَّ الله موت إبراهيم وكسر قيوده، وهو في المائة من عمره، لتخرج منه حياة!! الإيمان ظهر كقوة مقابل المستحيل، حياة من الموت!

كيف ومتى آمن إبراهيم بالله؟

إيمان إبراهيم بدأ مع الإحساس والتصديق بأن الله أعطى حياة من موت!!

إيمان إبراهيم بالله لا يختص فقط بمَنْ هو الله. إيمان إبراهيم يحوي علاقة نشأت بين نفسه والله على أساس اتصال موت بحياة. إبراهيم، بالإيمان، لم يَعُدْ مُماتاً في الجسد، وكذلك سارَّة، بل أخذ بذرة حياة من الله، وذلك لما مسَّ الله موته (أي موت إبراهيم) بحياته (أي بحياة الله أو بقدرة الله على الإحياء). فنشأت في كيان إبراهيم حركة حياة من عمق الموت، ألغت الموت، بدَّدت سطوته، كسرت قيوده.

هذه الحركة الأُولى، حركة الحياة من عمق الموت، هي نفسها صارت حركة الإيمان بالله القادر على الإحياء من الموت.

تزكية إيمان إبراهيم كقادر أن يقيم حياة من الموت:

هذا هو الإيمان الذي ورثته البشرية كلها من إبراهيم. وهذا الإيمان عينه لكي يزكِّيه الله، أدخلَه في أقسى اختبار يمكن أن يجوزه إنسان في العالم؛ وذلك عندما قال الله لإبراهيم: «خُذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق (الذي هو موضوع إيمانه)... وأَصْعِدْه هناك محرقة» (تك ٢٢: ٢)؛ فقدَّمه إبراهيم على أساس إيمانه الأول، لأنه كان إيماناً ثابتاً ثبوت الله الذي أحسَّه في عمق أعماقه.

لقد صار إيمان إبراهيم جزءاً لا يتجزأ من حياته، لأن الله ألقى بذرة الحياة في عمق موت إبراهيم، لتبقى في كيان إبراهيم إلى الأبد، يرثها العالم كله من إبراهيم.

وهكذا قدَّم إبراهيم ابنه وحيده وحبيبه بالإيمان، وهو واثق في الذي سيقدِّم إليه ابنه، الذي هو قادر أن يُقيم من الأموات! انظروا كيف أن الإيمان مجازفة! ألم أقل لكم إن الطاعة مجازفة؟ والتواضع مجازفة؟ فماذا أنتجت هذه المجازفة؟ الطاعة عند إبراهيم والخضوع لله تبرهن بالمجازفة أنه إيمان مزكًّى!

وهنا تزكَّى إيمان إبراهيم عن تجربة، وثبت ثبوتاً أبدياً لدى إبراهيم، وكل إنسان من بعده، أن الله قادر أن يقيم من الأموات. وأن كل مَنْ له هذا الإيمان الحي كبذرة حياة في عمق الموت، فإن الله حتماً حتماً يقيمه من الموت.

لاحِظ أن هذا الإيمان هو في صورته الخارجية إيمان بالمستحيل، إيمان بغير المعقول، وهذا ما دفع سارَّة أن تضحك حينما سمعت البشارة بميلاد إسحق.

هذا هو ما أخذه بولس الرسول وطبَّقه على **الإيمان المسيحي**، أن الإيمان المسيحي يقوم على أساس إيمان إبراهيم.

منطوق الإيمان المسيحي:

نحن نؤمن بقيامة المسيح من الأموات، وهذا ما يراه بولس الرسول أنه هو عينه الإيمان بالله الذي يُحسب براً لمَنْ يؤمن بذلك.

ولكن على أي أساس؟

إبراهيم لما آمن بالله لم يكن موضوع إيمانه مُنصباً على الله وحده، كأن يعرف أن الله قادر أن يقيم من الأموات فحسب، بل كان يختص بنفسه هو الميتة، أو مواته إذ هو ابن ٩٩ سنة وسارة عمرها ٨٩ سنة. إذ أنه بسماعه وعد الله أحس بحركة حياة جديدة دبَّت داخل نفسه؛ فإيمان إبراهيم كان يعبِّر عن صلة واتصال حقيقيين واقعيين حسِّيَيْن بالشعور وبالروح وبيقين الفكر، بين إحساسه بالموت (الذي تحوَّل فيه إلى

إحساس بالحياة كطرف مفعول به)، وبين الله كفاعل بقوة حياته وقدرته على الإحياء.

واقع الإيمان المسيحي:

هذا هو واقع الإيمان المسيحي.

فإيماننا بقيامة المسيح من الأموات **كقادر** على القيامة من الموت لا يكفي ليكون عنصر إيمان كإيمان إبراهيم. إذ لابد أن نحس ونشعر ونثق ونتيقَّن في داخلنا أن قيامة المسيح من الموت تخصُّنا نحن أولاً، تخصُّ موتنا الذي نعيشه، أي أن المسيح الذي قام من الموت هو نفسه **قادر أيضاً على الإقامة من الموت** بآن واحد!!

فقيامة المسيح من الموت تعني، من جهة الإيمان المسيحي الصحيح، أنه أقامنا معه، وإلاَّ فلا قيمة لقيامته من الموت!! وكأنه مات لنفسه وقام لنفسه. إن آمنت فقط أن المسيح مات وقام من الموت فأنت لم تؤمن بعد بالمسيح. أمور التاريخ يعرفها الجميع وتؤمن بها الشياطين وتقشعر. أما إذا آمنت أن المسيح قادر أن **يقيمك** أنت من الموت، موت الخطية، فهذا هو الإيمان بالله.

إيمانك بأن المسيح مات وقام فقط، ليس هو الإيمان بالمسيح؛ بل هو فقط أساس **الإيمان**، وأما البناء فهو أنه قادر أن يقيمك من الموت. ولا قيمة للأساس بدون البناء، وأما البناء فمستحيل أن يقوم بدون الأساس. ولكي يبيِّن لك قدرته على الإقامة من الموت أقام لعازر لكي يفهمك أنك أنت لعازر ومن الممكن أن تقام، كما قال أيضاً في إنجيل يوحنا: «تأتي ساعة **وهي الآن** حين يسمع الأموات (بالخطية) صوت ابن الله والسامعون يحيون» (يو ٥: ٢٥).

نحن الآن، بالنسبة للحياة الأبدية، أموات في الذنوب والخطايا تماماً كما كان إبراهيم بالنسبة للحياة الأرضية الجسدية، فقد كان إبراهيم ميتاً من جهة الجسد لا يُنجب حياة، أو بتعبير الكتاب: «مُماتاً في الجسد لأنه ابن ٩٩ سنة وسارة عمرها ٨٩ سنة».

ولكن حينما مات المسيح بالجسد بسبب الخطية، نزل إلى مستوانا الواقعي الذي نعيشه الآن. ولما قام من الموت بقوة الحياة الأبدية التي فيه، أنهى على سلطان الخطية إلى الأبد. ولكنه لم يمت من أجل نفسه ولا قام من أجل نفسه. ولكنه مات من أجلنا؛ بل إنه في الحقيقة مات ببشريتنا نفسها تماماً أي أنه مات «بنا». ولما قام، قام حياً ببشرية جديدة خالية من الخطية والموت كعقوبة، وهي بشريتنا نفسها تماماً أي أنه قام أيضاً «بنا» ومن أجلنا.

موته موتنا،
وقيامته قيامتنا:

فالآن إيماننا بموت المسيح وقيامته يتحتم أن يحتوي موتنا وقيامتنا معه على مستوى إيمان إبراهيم، وذلك ليكون الإيمان صحيحاً، أي يحتوي الفاعل (وهو المسيح) والمفعول به (وهو نحن). بمعنى أنه يستحيل أن يكون إيماننا المسيحي صحيحاً كقوة وحركة داخلية تصلنا بالله إذا لم نحس أن المسيح مسَّ موتنا، وأننا نحس بالحياة تسري في موتنا: الحياة الجديدة، حياة المسيح القائم من الموت لنا ومن أجلنا وفينا!!

وإلاَّ فيكون موت المسيح قد كان بلا فائدة، وقيامته كانت بلا فائدة، و يكون الإيمان حينئذ ليس إيماناً صحيحاً لأن الإيمان يُحتِّم أن يكون له فعل داخلي. فموت المسيح يصير حقيقة حية فعَّالة، إذا مسَّ موتنا (موت الخطية، موت الجسد بخطاياه)؛ وقيامة المسيح تصير حقيقة حية فعَّالة، إذا كسرت طوق الخطية فينا وأخرجتنا إلى الحياة من دائرة الموت. بدون هذا فإننا لا نؤمن إيماناً صحيحاً بموت المسيح وقيامته.

قرع باب الإيمان:

والآن هل تؤمن بالمسيح الذي مات؟

أُدخلْ إلى أعماق حالك، وانظر ماذا صنعت الخطية فيك: هل أنت ميت بالخطية؟

هذا هو الذي لأجله قد دخل المسيح فيك بموته. فالآن، هذه المواجهة مع الخطية

يواجهها المسيح بموته فيك. موت المسيح كسر أطواق الخطية وحطَّم سلاسل سلطانها ككلٍّ وإلى الأبد! المسيح الإله لما مات لم يكن موته كموت إنسان! إنه موت زلزل به الهاوية، زلزل به السلاطين. موت أنهى به على الموت!! خطيتك الآن هي في مواجهة موت المسيح، وهي لا يمكن أن توجد أو تعيش بعد أمام موت المسيح. دم ذبيحة المسيح فكَّ سطوتها وألغى سيادتها.

وهل تؤمن بقيامة المسيح من الموت؟

انظر داخلك، فالموت الذي فيك الآن يهرب أمام الحياة. والظلمة الأبدية حتماً ستهرب أمام النور.

الحياة التي في المسيح هي فيك الآن، والحياة أقوى من الموت. أنت حيٌّ بحياة المسيح الآن، أما الجسد بخطيته فيك فميت بحكم موت المسيح. الجسد فيك قد وقع عليه حكم الموت الذي ماته المسيح لأجلك و بك، فلا سلطان للخطية عليه.

وروح الحياة في المسيح يحرس موت الجسد لكي لا تعود الخطية تملك عليه غشاً. والمسيح أعطاك قيامته، أي روحه القدوس، لتوقف بها كل حركة تجذب الجسد نحو الخطية والموت.

***

هذا هو أساس جهادنا اليوم، إيمان عملي يعطينا قوة روحية فعَّالة لتقديس الحياة. فنحن لا يمكن أن نجاهد بدون قوة داخلية تنتقل بنا من واقع موت الخطية إلى حياة القداسة.

(يناير ١٩٩٠)

عيد عرس قانا الجليل

عرس قانا الجليل

هذا العيد محسوب من أعياد الإبيفانيا التي كانت تعيِّد لها الكنيسة معاً : الميلاد ، وزيارة المجوس ، والختان ، والعماد ، وعرس قانا الجليل .

كذلك بخصوص هذا العيد السيدي يسجل لنا القديس إبيفانيوس أسقف قبرص (٣١٥ـ٤٠٣م) لمحة عن اهتمام الكنيسة القبطية بالتعييد له مع عيد الغطاس منذ القديم في قوله :

[وتقيم الكنيسة القبطية عيد عرس قانا الجليل في ١١ طوبة (مع عيد الغطاس) حيث يعتقد الشعب بإمكانية تحول مياه الينابيع ومياه النيل بحسب الإيمان الطيب الصادق إلى خمر ، كذكرى سنوية لمعجزة المسيح](١) .

° ° °

قانا الجليل تبعد ستة أميال شمال شرق الناصرة ، أي على بعد ساعتين مشياً على الأقدام . العذراء مريم سبقت المسيح وتلاميذه كعادة تواجد النساء معاً منذ بداية العرس (مدته ٧ أيام) ، والمسيح يحضر في الوقت المناسب دائماً (بعد فراغ الخمر) ، مع تلاميذه الذين لم يكتمل عددهم إذ لم يكن قد مضى سوى ثلاثة أيام على دعوة نثنائيل ، وفيلبس قبله بقليل ، وأربعة أيام على دعوة اندراوس وبطرس ، أما يوحنا فلم يتجاوز الأسبوع منذ أن انتقل من مرافقة يوحنا المعمدان إلى مرافقة يسوع . إذن ، فلم يتجاوز عدد التلاميذ يوم عرس قانا الجليل عدد أصابع اليد الواحدة .

تأتي هذه المعجزة كبداية آيات وبداية خدمة المسيح ، بعد معموديته ، كما تأتي كأول مقابل لخدمة يوحنا المعمدان ، لأنها تعطي أوضح صورة للمسيح « ابن الإنسان » : هذا بالماء والنسك والإمتناع الكلي عن الخمر وحياة البراري ، وهذا بعرس

(1) Epiph., C. Hearesis I, i, c. 30; i, 451, ed. Petavius.

قانا الجليل و بتحويل الماء إلى خمر، حيث التنبيه الذي تستحدثه المعجزة هنا يتركز في الدعوة إلى الإنتقال **من الماء** — رأسمال يوحنا المعمدان — كقوة للتطهير وللتغيير بالتوبة والسلوك، **إلى المسيح نفسه** كقوة فائقة عظمى للتغيير في صميم الطبيعة و بالتالي في سلوكها!!

فالمسيح هنا إذ يُخضع الماء ويحوله إلى ما ليس ماءً بسلطان كلمته، ينبه بشدة إلى أن القوة التي يتوق إليها الإنسان للتغيير والتوبة والفرح والعزاء كائنة أصلاً في المسيح وفي كلمته!

كما أن المعجزة تشير كذلك إشارة خفية مبدعة إلى أن الخمر، بحضرة المسيح، لم يعد هو مصدر الإنتعاش والإنتقال من الكآبة والهم إلى الفرح والتهليل، إذ يوجد الآن من هو أقوى فعلاً وأثراً من الخمر، المسيح الذي يخلق طبيعة الخمر ذاتها خلقاً!! وبالتالي كل ما في الخمر من قوة، وأكثر!! «حبيبي (حبك) أطيب من الخمر»!! (نش ١ : ٢).

التركيز إذن في هذه المعجزة ينصبُّ في كلمة واحدة: المسيح كمصدر «**التحول**». المسيح ينبهنا في بداية آياته و بداية خدمته أنه جاء ليكون هو وحده «مصدر التحول» في حياة الإنسان: إذن لا بالنسك ولا بالبراري يكمن سر التغيير، ولا بالتطهيرات بالماء أو بالدعاء، ولا في إيليا ولا يوحنا ولا بالأنبياء، ولكن في المسيح يتم تحول الإنسان، كما تحول الماء سراً و بدون أي صلاة أو دعاء أو أي حركة ما، إلى ما ليس ماءً، إلى خمر جديد جيد، هذا الذي كان يتوهم الإنسان أن فيه راحته.

معنى العرس في التقليد العبري:

مراسيم العرس في التقليد العبري الأصيل وما يلازمه من احتفالات، تحمل معاني أعمق بكثير من كونه «فرحاً» أو حفلة أو مناسبة اجتماعية للسرور والمجاملات. والذي ننقله إلى القارىء من تقليد العرس العبري في أيام المسيح هو من التلمود وكتب

اليهود الطقسية القديمة كما يقدمها لنا أحد الحاخامات المتنصرين(٢). وخلاصة القول أن العرس كان يعتبر نقطة حاسمة في حياة الشاب والشابة، يصوم كلاهما قبل التقدم إليه و يعترف كل منهما بخطاياه. فالزواج كان يُقدَّر في التقليد العبري على كونه بمثابة «سر»، حتى أنه بمجرد تتميم عقد الزواج يحدث غفران تلقائي لكل خطايا الإنسان السالفة.

ويعطينا سفر التكوين صورة واقعية بهذا المعنى، فامرأة عيسو التي كان اسمها قبل الزواج «بسمة» ونطقها العبري الصحيح «باسيمات» (تك ٣٦ : ٣) صار اسمها بعد الزواج «محلة» ونطقها العبري الصحيح «ماحلات» (تك ٢٨ : ٩) ومعناها «محالة الخطايا» أو «مغفورة الخطايا».

وكان المعروف أن العلاقة التي تربط العريس بالعروس هي على نمط ما هو قائم بين يهوه وشعبه ككل!! وهذا يردده الكتاب المقدس مراراً وتكراراً حتى صار من صميم تعاليم الربِّيين. وهكذا كان ارتباط العريس بالعروس يوم القران — في مفهوم الشعب — يقوم على أساس ارتباط الله بإسرائيل.

وقد وُصف الله في الأسفار أنه هو العريس بالنسبة للشعب، عشر مرات، ست مرات في سفر نشيد الأنشاد، وثلاث مرات في سفر إشعياء، ومرة واحدة في سفر إرميا.

لذلك كان الاهتمام الشديد لحضور أي حفلة عرس بالنسبة للشعب وقادته ينبع من مفهوم الشركة في تعميق سر ارتباط الله مع شعبه، وتكريم قيام وثبوت وعود الله الخاصة بازدهار الأمة!

بهذا المعنى كانت حفلة العرس يُعتنى بتنسيقها جداً، و بتوفير مصادر الفرح لها من قِبل الأغنياء ورجال المجمع، إذا كان الزوجان فقيرين، لأن ذلك يُحسب تكريماً

(2) Edersh., *Life of Jes.*, I, p. 352.

للعلاقة التي تربط الله بالجمع وبالشعب !!، وبالتالي كانت مراسيم الزواج المفعمة بالخشوع والتقوى والإحساس الديني تتخلل حفلة العرس ذاتها من أول لحظة إلى آخرها كحفلة مقدسة، حيث يكون السرور والفرح والرقص والتصفيق باليدين وشرب الخمر، بعد الصلاة بالبركة عليه[3].

كل هذا، على المستوى الديني، لا تشوبه أي شائبة انحلالية، بل كأعمال مقدسة تكرماً للرب «يهوه».

بل إن مجرد الخطوبة التي تسبق الزواج والتي نسميها الآن؛ «چي بنيوت»، أي قراءة «أبانا الذي»، كانت تسمى بالعبرية «عروسين قدوشين»، أي دخول العروسين في القداسة!! وحين كان يقف أحد المسئولين أو الكهنة ليعدد أوصاف وفضائل وجمال العروس كان هذا يُحسب ضمن الطقوس المقدسة!!

كل هذا يجعل حضور المسيح حفلة عرس لعريسين فقيرين «ليس لهم خمر»، أمراً طبيعياً يدخل في صميم رسالته كعريس حقيقي لكل نفس، خاصة وأنه أول عمل يأتيه مدعماً بآية. فإن كان حضور العرس محسوباً أنه خدمة دينية وواجب لكل إسرائيلي ولكل ذي غيرة، فإنه بالنسبة للمسيح هو بمثابة تقييم جديد لمعنى العرس في العهد الجديد. إذ بحضوره تم حضور الله. وهكذا أصبح الزواج المسيحي مدموغاً منذ عرس قانا حتى اليوم بطابع «السر الإلهي»، حيث مفهوم سر الزيجة ينحصر في معنى «حضور المسيح»، لجعل رباط الزيجة قائماً ودائماً بين ثلاثة وليس بين إثنين «**ما جمعه الله لا يفرقه إنسان**» (مت ١٩: ٦)!! حيث المسيح في كل زيجة هو مقيم الوعد وضمين العهد بين الزوجين، لتحويل الحياة من مستواها الزمني العادي إلى مستواها الخالد والأبدي، بسر حضور الله (على مستوى تحويل الماء إلى خمر)!.

---

(٣) يلاحظ أن الشعب اليهودي ليس محباً للسكر بطبيعته، والخمر التي كانت تستعمل في فلسطين ليست مقطرة، فهي نبيذ عادي وليست مشروبات كحولية مركزة.

وعندما قصد المسيح أن تكون بداية خدمته واستعلان مجده من داخل عرس، لم يكن إلا مشيراً بأصبع المناسبة والآية إلى نهاية خدمته، حينما يستدعينا جميعاً إلى عرسه الخصوصي لحضور «عشاء عرس الخروف» (رؤ ١٩: ٩)، حيث نكون نحن موضوع هذا العرس، وموضعنا موضع العروس!! «لأني خطبتكم لرجل واحد لأقدم عذراء عفيفة للمسيح» (٢كو ١١: ٢).

إذن فآية عرس قانا الجليل تعود أيضاً ومن طرف خفي لتنبهنا إلى مكانة المسيح الحقيقية سواء في «قانا» أو في حياتنا، فهو العريس الحقيقي أينما حضر، ونحن معه دوماً أينما كان وأينما كنا، كعروس تتبع دائماً عريسها، إذن فعُرس قانا هو عُرسنا، والعريس فيه هو عريسنا، والعروس فيه هي نفسنا...

آه يا نفسي متى تدركين موقعك من المذود والأردن، ومن قانا والصليب، والقبر والسماء؟

المعجزة:

لقد قصدت العذراء أن تعلن ابنها للعالم بصفته المسيا، وكانت تستعجل مجده لأنها كانت تعلم ذلك بيقين، وتتحين الفرص باشتياق بالغ الشدة لكي تشرك كل إسرائيل فيما أدركته وتحققته من سر مجد المسيح رجاء الدهور كلها...

ولكن لم تكن العذراء الطيبة تدرك أن بدء استعلان المسيح هو هو بدء ظهور شبح الصليب، ويوم الإعلان عن حقيقته ومجده هو هو بدء العد التنازلي لأسبوع الآلام!!

«مالي ولك يا امرأة **لم تأتِ ساعتي بعد!!**» (يو ٢: ٥). وما كان ألزم للعذراء جداً في نظر المسيح أن تبتعد عن سكة الصليب! وما كان أحوجها جداً في نظره أن لا تكون هي نفسها سبباً معجلاً للسيف الذي سيجوز في نفسها عندما تراه معلقاً على الصليب!!...

ولكن من أجل إيمانها وثقتها المطلقة فيه ومن أجل تقديره الخاص لها، لم يردها عن

سؤالها . و بعد عتاب قصير ومختصر استجاب لها ، فكان بداية مجده و بداية آلامه معاً وعلى حد سواء !!

ولكي نرفع الغموض الذي يحيط بمخاطبة الرب للعذراء قائلاً لها : « ياآمرأة » ، ينبغي أن ندرك أن المسيح يتكلم هنا من موقع الألوهة فهوعلى وشك إتيان معجزة خلق فائق للطبيعة ، فهنا ابن الله يخاطب أماً بشرية !! وفي هذا الأسلوب يشير المسيح إشارة بليغة للعذراء أنه قد دخل في مجاله الإلهي لبدء خدمته العليا التي لا تحتمل بأي حال من الأحوال مشورة آمرأة أو أي بشر، لقد قال لها مرة وهو ابن اثنتي عشرة سنة « ينبغي أن أكون فيما لأبي » (لو٢ : ٤٩) ، أما هنا فقد دخل ، وإلى الأبد ، في علاقته السرية مع الآب ، حيث ليست مشورة إلا من الآب فقط !!

كذلك لا نستطيع أن نعبر بسهولة على طريقة العذراء القديسة في عرضها لسؤالها « ليس لهم خمر» (يو٢ : ٣) . فهنا سؤال هو هو الصلاة بعينها ، ولعلها أقصر صلاة وردت في الكتاب المقدس كله وأكثرها وثوقاً وتأكيداً وأمانة .

ليت صلاتنا تكون هكذا مختصرة أشد الإختصار، واثقة أشد الوثوق ، لا تزيد عن عرض واقعي لما هو حادث « ليس لهم خمر» ! .

و بالرغم من رد المسيح الذي يكاد أن يحمل عدم الإستجابة أو على الأقل استنكاراً لسؤالها ، إلا أن العذراء القديسة كانت تدرك أعماق المسيح الوديع ، فلم يهتز يقينها من جهة استجابته لأعواز الناس ، هذا ما تحققت منه العذراء تماماً مدة ثلاثين سنة معه « مهما قال لكم فافعلوه » (يو٢ : ٦) . وهنا ينكشف مدى قناعة العذراء في استطاعة المسيح اللانهائية ، و يكشف مدى إدراكها لسر المسيح في استعداده المطلق للإستجابة !!

ماء التطهير:

الماء هنا للتطهير بغسل الأيدي والكؤوس والأباريق والصحائف النحاسية ، ستة

أجران ، وليس سبعة ، إشارة إلى أن استهلاكها يمتد على مدى ستة أيام الأسبوع فقط ، أما السابع ـــ السبت ـــ فهو راحة ، ولا يحتمل اجراءات التطهير، والجرن الواحد الحجري يسع من صفيحتين إلى ثلاثة ، إذن فهي مساوية حجماً للأزيار الصغيرة المستخدمة الآن .

المسيح يجد في ماء التطهير مصدراً حسناً لإجراء المعجزة ، لكي يوقف معنى التطهير الشكلي ، فالماء تحول كله إلى خمر. لقد انتهى الماء من الأجران ، و بالتالي انتهى عصر التطهير بالماء في حياة الإنسان . الخمر في أجران وليمة العرس هنا إشارة سرية تمتُّ بصلة وثيقة إلى خمر ليلة العشاء الأخير المقدم بوصفه الدم المزمع أن يسفكه على الصليب للتطهير الحقيقي بمغفرة الخطايا .

تحول ماء التطهير إلى خمر هنا هوعملية تمهيدية ، أكملها المسيح ليلة العشاء بتحويل الخمر إلى دم حقيقي لمغفرة الخطايا .

إذن فالمسيح بتحويله ماء التطهير كله إلى خمر، كان يشير في الحقيقة **إلى نفسه كمصدر حقيقي للتطهير** « بعد ما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي » (عب١ : ٣) .

كذلك فإن عملية تحويل الماء إلى خمر كأول عمل يأتيه المسيح بمعجزة في بداية خدمته الخلاصية ، كانت عملية تنبيه عميقة لأذهان المترجّين لخلاص إسرائيل ، فهنا عصر موسى من جديد ، عصر الخلاص ، موسى الذي حوّل الماء في أنهار مصر إلى دم ، وفي بداية خدمته أيضاً ، لإظهار قوة الله ومجده على يديه ، لعل شعبه يؤمن به و يستجيب لعمل الخلاص المزمع أن يقودهم فيه ، لذلك يشير إنجيل يوحنا إلى ذلك خفياً عند قوله : « وأظهر مجده فآمن به تلاميذه » (يو٢ : ١١) .

و ينبغي هنا أن نلفت نظر الباحث إلى أن يوحنا الحبيب وحده هو الذي سجل لنا هذه الحادثة في إنجيله ، والعلة في ذلك ظاهرة لأن التلاميذ لم يكن عددهم قد تكامل بعد عند إجراء هذه المعجزة ، فالذي حضرها على وجه التحقيق خمسة تلاميذ كان أولهم

يوحنا . ومعلوم أن يوحنا الرسول فوق أنه كان شاهد عيان لهذه المعجزة ، فهو الوحيد أيضاً الذي اطّلع على دقائق الحوار الذي حدث بين المسيح والعذراء سرًّا ، وذلك بسبب تواجد العذراء معه وفي بيته مدة طويلة بعد الصليب ، وهي التي أخبرته بكل الأمور .

كذلك ينبغي للقارىء أن يكون على بينة من الأسلوب السري العجيب الذي يكتب به يوحنا الرسول انجيله ، فهو يطرح الحديث والقصة والمعجزة ببساطة متناهية ، ولكن مقاصده عميقة وأهدافه جليلة للغاية . وهنا في قصة عرس قانا الجليل إشارتان خطيرتان تهدف إليهما القصة من أولها لآخرها :

الإشارة الأولى تختص بالمسيح العريس أو « الختن » الحقيقي معلناً من خلال « وليمة المسيا » .

والإشارة الثانية « الخمر الجيد » الإفخارستيا ، وسر الكنيسة ، ومحور الخلاص ، والفداء .

الكنيسة انتبهت منذ البدء للخلفية السرية التي تتحرك في إطارها قصة عرس قانا ، فربطت الكنيسة في تعاليمها وفي أيقوناتها بين معجزة عرس قانا الجليل (الخمر فرغ) وبين معجزة الخمس خبزات والسمكتين (الجموع الجائعة) ، باعتبارهما التفسير الحي الواقعي الذي قدمه الإنجيل لمفهوم الإفخارستيا الروحي والإيماني ، حيث يتركز في عرس قانا مفهوم « **التحول** » على أعلى وأوضح مستوى من التفسير . أما في معجزة الخمس خبزات فيتركز مفهوم اللامحدودية واللانهائية في سر الخبز (الجسد) ، حيث الشبع المتولد منه والفائض يفوقان الأصل المنظور والمحسوس بدون قياس .

ويلاحظ في المعجزتين أن الحاجة والجوع كانا الدافع لإجراء المعجزة ، والإشارة هنا إلى الحالة الداخلية . فالحاجة إلى الخمر إشارة إلى الحاجة إلى الروح القدس للعزاء والسرور ورفع الهموم والغموم ، والجوع الشديد إشارة إلى العوز إلى « الجسد » أي الكلمة طعام الحق للحياة الأبدية . المسيح في كلتا الحالتين وقف يسد أعوازنا كمصدر حقيقي للملء والسرور حتى الشبع ، وهو لا يرضى أبداً أن يكون فرحنا وملؤنا من السوق ، سوق العالم ، مهما كان معنا من ألوف الدينارات !! « لا يكفيهم خبز بمئتي

دينار » (يو٦ : ٧) .

كذلك فإن التركيز على تحويل ماء التطهير إلى خمر « **جديدة** » في عرس قانا لا يجعل العقل يفلت من إدراك قصد المسيح في اختيار عرس قانا لبدء الإشارة إلى العهد الجديد « لأن الناموس بموسى أُعطي . أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا » (يو١ : ١٧) .

وإنجيل يوحنا لا يطرح القصة بدون تمهيد إلهامي مثير للدهشة ، إذ يبدأها بقوله « **وفي اليوم الثالث** كان عرس في قانا » (يو٢ : ١) . أما الذهن الروحي النشيط فلا يمكن أن يعبر على هذه اللفتة دون أن يدرك قصد الإنجيل . فاليوم الثالث في بداية هذا الأصحاح لا يعني شيئاً بحسب الحرف ، أما عند المسيح والكنيسة كلها بل وبمقتضى نبوات العهد القديم فهو يشير إلى القيامة .

إذن فقصة عرس قانا بجملتها يضعها الروح بمحاذاة « مجد » القيامة ، المسيح في إنجيل يوحنا يحقق قيامته منذ أول خدمته !! والمسيحي كذلك يدخل إلى مجد القيامة مع « بني العرس » بعد سر المعمودية مباشرة . والكنيسة ، بمقتضى الطقس ، تحسب المسيح أنه عريسها لا منذ بدء معموديته ، بل منذ أخذ اسمه « يسوع » المخلِّص شعبه ، وذلك في يوم ختانته حيث الختانة هي التأهيل الطقسي لصلاحية العريس . لذلك فالكنيسة تسمي المسيح « الختن » الحقيقي ، أي العريس الطقسي بالنسبة لها ، فالكنيسة هي « امرأة الخروف » الذي ذُبح المسيح نفسه من أجل فدائها وتقديسها وهي الآن تتزين له (رؤ٢١ : ٢و٩) .

« فالختن » و« العريس » كلمتان مترادفتان في اللغة الآرامية التي كان يتكلم بها المسيح ! « **حينئذ قالت عريس دم ، من أجل الختان** » (تك٤ : ٢٦) .

والتشديد في قصة « قانا الجليل » يتركز على « العرس » للإشارة إلى من أي مكان يبدأ المسيح خدمته : من حفلة عرس ليعلن نفسه كمصدر فرح للبشرية ، وكإشارة إلى مركزه « كعريس » للبشرية المفدية .

يوحنا المعمدان أيضاً يبدأ خدمته بالنسبة للمسيح ، بالإشارة إلى المسيح كعريس ، وإلى نفسه كصديق للعريس : « كشارب خمر (بالروح) » مع بني العرس ، أي كشريك فرح (سمائي) ولكن ليس « كصاحب أو كمصدر الفرح » . تحويل الماء إلى خمر جيد يشير إلى تحويل أحزان البشرية وعرق تعبها وكدها إلى فرح حقيقي : « من له العروس فهو العريس . وأما **صديق العريس** الذي يقف و يسمعه **فيفرح فرحاً** من أجل صوت العريس . إذاً فرحي هذا قد كمل » (يو٣ : ٢٩) .

إذن فعرس قانا الجليل بالنسبة لنا هو حياتنا الجديدة ، هو مصدر الفرح الحقيقي والدائم ، حيث ينبع فرحنا باستمرار من « صوت العريس » ، عندما يأمر كل يوم أن يتحول ماؤنا ودموعنا إلى خمر جيد ، ليس في أجران متسعة ، ولكن في « **كأس** » ، لأن الشبع والملء هما الآن على مستوى السر والروح .

الكنيسة في كل يوم أحد هي في حفلة عرس ، وكأنها تقيم في قانا الجليل !

إنجيل يوحنا يركز أيضاً على أن المسيح لا يبدأ المعجزة من فراغ أو من دائرة أبعد أو أرفع أو أقل من عالمنا ، فهو لم يخلق الخمر من لا شيء ، كما سبق ورفض أن يحول الحجارة إلى خبز . ولكن من صميم مائنا يجري « **التحول** » ، ومن صميم خبزنا يدخل « **البركة** » . القصد هنا ينصبُّ على تقييم معنى وأسلوب حياتنا مع الله في العهد الجديد ، على أساس عدم نقض أو إلغاء الواقع المادي أو الترفع عنه ، ولكن تغييره إلى ما هو جديد وحق ؛ وعلى عدم احتقار الموجود والمحدود ، بل تكثيره بسر الشكر والبركة إلى ما يفوق العقل والحدود . والمسيح هو في سر التحول حتى الملء وفي سر البركة والنعمة حتى الكمال « ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة » (يو١ : ١٦) ، « فجمعوا وملأوا اثنتي عشرة قفة من الكسر من خمسة أرغفة الشعير التي فضلت عن الآكلين » (يو٦ : ١٣) .

فماء اليهود الذي للتطهير المحلي والجزئي على مستوى اليد والكأس ، حوله المسيح لنا إلى خمر الإنجيل ، أساس سر الدم والفداء الذي يطهر ضمير العالم كله .

وخبز العرق والدموع الذي حمله الصبيان معهم لحاجة رحلتهم القصيرة عبر بحيرة طبرية أخذه المسيح في يديه وغرس فيه البركة ، وجعله مصدر شبع وفيض للعالم كله ، منذ ذلك اليوم إلى منتهى أجيال الدهور !! « الطعام الباقي للحياة الأبدية » (يو٦ : ٢٧) .

وعطية المسيح دائماً يبدو جمالها وتبدو جودتها في النهاية بعكس عطية العالم : « كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً ... وأما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن » (يو٢ : ١٠) .

وليس عبثاً أن يذكر إنجيل يوحنا كيف يبدأ المسيح خدمته في عرس قانا بحضور أمه العذراء وينهي خدمته بحضورها أيضاً على الصليب ، لأنه كان هو بنفسه شريكاً معها في هذا وفي ذاك ، فهو تلميذ حضن يسوع أما هي فأم العريس بالدرجة الأولى وشريكة في فرحه وآلامه بالضرورة ، حيث لا يمكن فصل مجده في فرحه عن مجده في آلامه لأن في هذا يتمجد و بذلك يتمجد .

لأنه في عرس قانا أظهر مجده ، وعلى الصليب أكمل مجده !!

في عرس قانا تمجد ، وفي أحزان بيت عنيا تمجد !! المسيح إذن هو مجدنا في الفرح والحزن سواءً بسواء ! فالمجد يتبع المسيح أينما سار .

وأظهر مجده فآمن به تلاميذه :

لقد تحير المفسرون ، وما هو مجده في آية تحويل الماء إلى خمر؟ أهو في المعجزة ذاتها أم في الظروف التي أحاطت بها ؟ ، فإن كانت في المعجزة ذاتها فالذي آمن به هم تلاميذه فقط ، إذن فالمعجزة لم تكن بالدرجة الكافية لتبهر غير الأخصّاء . أما الظروف المحيطة بالمعجزة فهي لا تزيد عن كونها مشاركة اجتماعية مفروضة على ذوي الولاية من القربى أو من رجال الدين . إذن فأين يكمن مظهر المجد الذي استُعلن لتلاميذه من هذه الآية حتى آمنوا به ؟

هنا يلزمنا أن ندرك أن أعمال الله تحتاج إلى أذن مفتوحة مهيَّأة للسمع وعين

مبصرة مستعدة للرؤيا ... أُذن التلاميذ كانت مفتوحة وعيونهم كانت على أعلى درجة من الترقب للرؤيا ، لأن علاقتهم بالمسيح لم تكن قد تجاوزت في جملتها أكثر من أسبوع واحد . إذن فالمعلم كان تحت الفحص الدقيق والملاحظة الشديدة والترقب المستبشر جداً والمستعد لإدراك أقل حركة فائقة وترجمة أي عمل خارق ، وذلك بحساسية مرهفة غاية الإرهاف .

لهذا عندما رأوا بعيونهم الماء وهو يُصبُّ في الأجران أمامهم ، ثم رأوه يُرفع هو نفسه خمراً ، وذاقوه وتحققوه ، حدثت في الحال المعجزة ، لا معجزة تحويل الماء إلى خمر بل معجزة إيمانهم !! لقد آمنوا بالمسيح كلية !! إذ رأوا في هذا العمل أقصى ما يمكن أن يتمنوه أو يتصوروه وهو اختراق معلمهم لحاجز المادة . إذن ، فهذا هو المسيا بكل ثقة وتأكيد . لقد انطبقت في أذهانهم كل كلماته العذبة وتعاليمه السابقة المنيرة على هذه القدرة الخارقة !!

لذلك كانت آية عرس قانا الجليل آية المجد الأولى لمعلمهم وأعظم الآيات طرا في حياة التلاميذ الخمسة الأوائل ، و يوحنا بالدرجة الأولى !!

ولكن ما كان أحوج التلاميذ ، وما أحوجنا معهم أن نكون دائماً على هذا المستوى من الحساسية والإرهاف الشديد في تتبع أعمال المسيح في حياتنا ودنيانا . إنه كل يوم يحوِّل كل شيء أمامنا وفي حياتنا ، ولكن الحاجة أشد الحاجة إلى الأذن التي تسمع والعين التي تبصر !

إن كل شجرة — وليست العليقة وحدها — مشتعلة بالنار الإلهية ولا تحترق ، ولكن ذا العين المفتوحة هو وحده الذي يرى وهو وحده الذي يخلع نعليه !

وماؤنا يتحول كل يوم إلى خمر ، وخمرنا إلى قداسة وإلى حياة أبدية ، والقريبون المترقبون هم وحدهم الذين ينظرون و يذوقون الرب و يتهللون !...

(يناير ١٩٧٤)

سلسلة كتب:

الرؤية الإلهية للأعياد الكنسية

الجزء الأول : أعياد الظهور الإلهي

الجزء الثاني : الصوم الأربعيني المقدس
(الصوم المقدس)

الجزء الثالث : مع المسيح في آلامه حتى الصليب
(أسبوع الآلام)

الجزء الرابع : القيامة والصعود
(عيد القيامة)

الجزء الخامس : الروح القدس الرب المحيي
(عيد العنصرة)

يُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٥٠ «أ» شارع شبرا ـ ت ٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ١٣ شارع الشهداء ـ المنشية ـ ت ٤٨٤٠١١٠

وجميع المكتبات المسيحية